ستالين

الواقع والأسطورة

الجزء الأول

روسيا : ١٩١٥ - ١٩٢٥



تأليف الكاتب الروسي

ديمتري فولكوغونوف





الجزء الأول

روسيا:
١٩١٥ ـ ١٩٢٥

تأليف الكاتب الروسي

ديمتري فولكوغونوف

ترجمه عن الروسية

حازم حجازي

ســـــتالين
الواقع والأسطورة
الجزء الأول
روسيا: ١٩١٥ ـ ١٩٢٥

الطبعة الأولى
١٩٩٥

منشورات:
دار المشرق للطباعة والنشر والتوزيع
قبرص ـ نيقوسيا ـ جادة مكاريوس ـ ٩٢
هاتف: ٣٥٣٤٣٤ فاكس: ٣٥٤٣٤٣

ظاهرة ستالين

كان ستالين ينازع مستلقياً على الأرض في غرفة الطعام في مصيفه في كونتسوفو. لم يعد يحاول النهوض وإنما كان يرفع يده اليسرى بين الحين والآخر كمن يطلب النجدة. حتى جفنا القائد المسدلان لا يقويان على إخفاء اليأس في نظراته المتجهة نحو الباب. شفتاه الصامتتان تتحركان ببطء. مضت عدة ساعات على النوبة القلبية التي أصابته، ومع ذلك، كان وحيداً، لم يأت لنجدته أحد. انعدمت علامات الحياة في المنزل مدةً طويلةً، ولم يتجرّأ أحد من حرسه الشخصي على الدخول إلى غرفة الطعام. فهم لا يملكون «صلاحية» الاتصال فوراً بالطبيب بدون أمر بذلك من بيريا. ستالين، واحدٌ من أقوى الشخصيات في تاريخ البشرية، ولم يكن له أن يأمل بحضور الطبيب فوراً. (كان عليه ان ينتظر أمراً بذلك من بيريا). حاولوا البحث عن بيريا طويلاً. لكنّ بيريا اعتقد أن ستالين نائم أو مستلقٍ بعد عشاء دسم. ولم يهرع الأطباء إلى جوار «المُنازِع» إلاّ بعد مرور عشر او اثنتي عشرة ساعة.

ميتة ستالين بهذه الطريقة ترمز إلى الكثير. لقد شاءت سخرية القدر أن تكون قاسية عليه. لقد نازع القائد ـ إله الناس على الأرض ـ عشرات الساعات ولم يحاول إنقاذه أحد. النظام البيروقراطي الذي بناه أخذ بانيه أسيراً. بالرغم من فقدانه للوعي تدريجاً، استطاع ستالين، في آخر لحظات حياته، تقويم درجة جمود النظام الذي أمضى سنين في بنائه.

تلك الشعرة الخفية التي تفصل بين الوجود والعدم يمكن اجتيازها باتجاه

واحد. حتى القادة ليس بقدرتهم ان «يعكسوا الآية». أما ستالين، فعلى الأغلب، لم يكن يتوقع أنه يموت سياسياً وليس فقط جسدياً. كان مصرع ملايين البشر مجرد أرقام على ورق. لقد ورّث ستالين الأجيالَ مهمةً صعبةً؛ فَهْمَ وتصنيف ما بناه وحلَّ «لغز» مصيره بعد نقاش حادّ له. وذلك اللغز هو لغز الفشل التاريخي للاشتراكية التي انحرفت نحو التوتاليتارية فوراً بعد الثورة. حتى الموت لم يستطع ان يبرّر أعمال ستالين. سيصدر الحكم على جميع مآثره وجرائمه من محكمة التاريخ. فالأساطير تتهدم ولا شيء غير الحقيقة يستطيع القضاء عليها كلياً.

لا أحد يفهم ستالين إلاّ ستالين نفسه. وهو لم يكن يحب الألوان المختلطة: فإمّا الأبيض وإمّا الأسود. لكنه، بكل تأكيد، حاول أن تتذكره الأجيال بالألوان الفاتحة. لست أدري إن كان ستالين على علم بقانون إدانة الذاكرة في روما القديمة الذي يحكم بالنسيان على كل ما لا يُرضي القيصر. لكن ذلك القانون، كما تعلمون، كان مجرد محاولة فاشلة للتحكّم في ذاكرة الإنسان. فالذاكرة تعيش ـ أو تموت ـ طبقاً لقوانينها الخاصة. والتاريخ يُصنع على «المبيضّة» مباشرة. ولا يمكن إعادة الماضي كشريط الفيديو إلا في الخيال. هذا ما كان يدركه ستالين، ولذلك بذل جهداً جهيداً كي لا توجد في «الشريط» صور غير لائقة. وكان الشعب يعرف عنه فقط ما يريده هو أن يعرف.

للأسف الشديد، إن تفاصيل وقائع وظواهر كثيرة تَبْهُت مع مرور الوقت. والنسيان هاوية التاريخ. فلنفكّر معاً: عاش من قبلنا على الأرض سبعون أو ثمانون مليار شخص. ومهما حاولنا فذاكرة التاريخ البشري لا تستطيع حتى تسمية الجزء الأكبر من تلك المليارات. هاوية التاريخ بلا قعر. لكن الذاكرة، تلك الشبكة الضخمة المشدودة على هاوية النسيان، تلتقط البعض. ستالين أحد هؤلاء. وذلك لا يعتمد على رأي المعاصرين فيه. فالمختارون لهم الحظ ان يدوّنوا على صفحات تاريخ الحضارة ما دامت الحضارة. وفي هذا المجال، الزمن هو أفضل مؤرخ، وتقويمه هو الأدق.

في السنوات الأخيرة، وقد ازداد اهتمام المجتمع لمعرفة صفحات تاريخ روسيا الحقيقية، انقسم المجتمع في تقويم دور ستالين في التاريخ. لكن، في الواقع، الاهتمام ليس بستالين كشخص، إنما ستالين يرمز لكل ما ينتقده المؤرخون. ما يهمنا هو مصير الشعب الروسي، آلامه، ذهوله: كيف استطاعت أن تظهر وتعيش ما نسميها اليوم بالستالينية؟ ولو أردنا لاستطعنا فهم رأي الناس في شخصية

ستالين بقراءة لوحات متعددة لقبره. من جهة لأمكننا قراءة الشعار التالي: «اخطاؤك معروفة! مآثرك غير قابلة للنقاش!»، على الجهة المعاكسة: «لا غفران لجرائمك! ورّثتنا حملاً ثقيلاً!». هذا «الإنقسام» في وجهات النظر سوف يخف تدريجاً مع ظهور حقيقة تلك السنين التي عاشها الشعب الروسي. عندما تصبح الحقيقة جزءاً جوهرياً من ثقافتنا وليس كماليّةً، لن يبقى مكان لازدواجية الآراء فيما يخص ظاهرة ستالين.

لقد أثبت التاريخ مراراً أن جميع محاولات الإنسان في بناء التماثيل وتخليد النفس ليست سوى وهم عقيم سريع الزوال. فالتاريخ له الحق الكامل في اختيار لون ذكرى الشخصيات. أثبت بليخانوف بصورة مقنعة، في عمله العظيم «عن دور الشخصية في التاريخ»، الإرتباط المتبادل بين تقويم التاريخ للإنسان ودوره الواقعي في تطور المجتمع. غير أن ذلك لا يعني أن الشخصيات التاريخية وحدها تترك آثاراً على درجات م التطور المغطّاة بالغبار. فالتاريخ ليس فقط تناول الحقبات والأزمان. بل هو معرض دائم للشخصيات التاريخية التي عاشت على الأرض. وتلك الشخصيات تتفاوت في الأهمية ولا تقاس بنفس المقاييس. فكلٌ على حدة تحتل مكانتها في التاريخ. والحقيقة تقال أن بعضها أحياناً تكون غير مرئية لبعض النقاد. وهذا ما يجب التأمل فيه، لأن تاريخ روسيا خلال عشرات السنين كان كالطريق المهجور بعد منتصف الليل. الكثير من الشخصيات والأحداث والوقائع التاريخية كأنما وقعت تحت تأثير «قانون إدانة الذاكرة» القديم. غير أن تكتماً كهذا، عاجلاً أم آجلاً، يلفت إلى نفسه الانتباه بصرخة عالية أو حتى غاضبة.

تعيش روسيا في الآونة الأخيرة عملية صعبة تهدف، ليس إلى تهديم النظام التوتاليتاري وبناء مجتمع ديمقراطي فقط، بل وإلى إعادة بناء (ترميم) الماضي. ولعل شخصية ستالين أصبحت تجسّد تلك الفترة التاريخية التي ازداد اهتمام المجتمع فيها. اما المديح والهجاء الذي كان من نصيب ستالين فهو يكفي لفيلق كامل من الشخصيات التاريخية. كما أن عدد المدافعين عن ستالين يقل تدريجاً. الرحلة إلى المستقبل مسألة صعبة. الرحلة إلى الماضي ليست بأسهل؛ فهي كما يلاحظ بدقة فويرباخ* كـ «الطعنة في القلب»، مثيرة، باعثة للقلق. إذا أنعمنا النظر في وجوه الماضي المبهمة لوجدنا أن ستالين واحد من أكثر الشخصيات دموية في

(*) فويرباخ، لودفيغ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢): فيلسوف ألماني تتلمذ على هيغل ثم انتقد فلسفته بقسوة. (المترجم).

التاريخ. وشخصيات كهذه، رغماً عن إرادتنا، تنتمي ليس فقط للماضي، بل للحاضر والمستقبل كذلك. فمصيرها طعام دائم للآراء والتفكير حول الكون والزمن والضمير. ومن دراسة أولية لستالين يمكن الاستنتاج ان حياة ذلك الرجل تسلط الأضواء على جوهر تلك الفترة، الديالكتيكي المعقد. فالتاريخ لا بدّ وأن يمرّ بطريق متعرج. وبوصول شخص كستالين لقيادة الحزب، وبالتالي الشعب، تمت عملية السير في خط التوتاليتارية البيروقراطية الذي اختطّه الحزب بعد انتصار الثورة.

جاء موت لينين، في فترة عصيبة، ليجعل الحزب ينقسم في اختياره لطرق بناء الاشتراكية. وقع اختيار «جنود لينين» على ستالين، وبالتالي أثبتوا عدم جدارتهم، ذلك لأنهم لم يروا في ستالين شخصاً خطراً بالنسبة للديمقراطية النضرة. وهذا مما أدى إلى تحول ديكتاتورية البروليتاريا إلى نظام عقابي. نحن نعلم اليوم أن ستالين ما كان ليكون ذلك الشخص الذي سيحاول كاتب هذا الكتاب رسم شخصيته لو لم يلجأ إلى العنف كأهمّ وسيلة لتحقيق الأهداف السياسية. لقد أصبح العنف ـ عملياً ـ إحدى الوسائل الحاسمة لتحقيق الخطط والبرامج الاجتماعية والاقتصادية. وهذا المنحنى في الخط السياسي الذي اتخذه الحزب في العشرينات من هذا القرن، وبعد المؤتمر السابع عشر للحزب بشكل خاص، أدى إلى الموت النهائي والتراجيدي لفكرة بناء مجتمع اشتراكي تسود فيه العدالة. ومن هنا، فلا عجب أن تقويم شخصية ستالين تغير تغيراً جذرياً مع ظهور حقيقة تلك السنين المريرة التي عاشتها البلاد. سأذكر ـ على سبيل المثال ـ مقتطفين، أولهما من تحية اللجنة المركزية للحزب والبرلمان السوفييتي بمناسبة عيد ميلاد ستالين السبعين (عام ١٩٤٩): «لقد كنتما يا رفيق ستالين ولينين، مُلهمَيْ وقائدَيْ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وأنتما مؤسّسا أول دولة سوفييتية اشتراكية للعمال والفلاحين في العالم. خلال سنوات الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي أدت عبقريتك الحربية والتنظيمية الى انتصار الشعب السوفييتي وجيشه الأحمر البطل على أعداء الوطن. تحت قيادتك المباشرة، يا رفيق ستالين، تم تأسيس الجمهوريات السوفييتية وتوحيدها في إطار الإتحاد السوفييتي. لقد وضعتَ حكمتكَ وطاقتك التي لا نهاية لها وإرادتك الحديدة في كل صغيرة وكبيرة من التغييرات التي أدت إلى صعود وطننا أعلى فأعلى. لِحظّنا وحظّ شعبنا الكبير أن ستالين العظيم هو قائد الحزب والدولة، موجِّه ومُلهِم العمل الإبداعي والبنّاء للشعب السوفيتي لازدهار وطننا الجميل. تحت قيادتك، يا رفيق ستالين، أصبح الاتحاد السوفييتي قوة عظيمة لا يستطيع قهرها أحد. والناس الشرفاء جميعاً، وكذلك الأجيال الصاعدة، سوف تحيي الاتحاد السوفييتي وتحييك يا رفيق ستالين كمخلِّص الحضارة العالمية من المحتلين

الفاشيين. اسم ستالين أغلى الأسماء بالنسبة لشعبنا ولعموم الناس في العالم».

والآن، وجهة نظر أخرى عبّر عنها خروتشوف في خطابه الدرامي الشهير الذي ألقاه ليلة الخامس والعشرين من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٥٦ «عن سياسة تأليه الفرد وعواقبها»: «لقد اخترع ستالين مصطلح عدو الشعب»، وهذا المصطلح يلغي تلقائياً ضرورة إثبات الأخطاء الأيديولوجية التي ارتكبها شخص معين أو مجموعة من الأشخاص. لقد فتح هذا المفهوم المجال لاستخدام القمع القاسي، المتناقض مع جميع معطيات القانونية الثورية، ضد كل من لا يتفق مع ستالين في أي موضوع كان، ضد كل من وقع عليه الشك في التآمر، وضد كل من كان له مجرد سمعة سيئة. مفهوم «عدو الشعب» بحد ذاته، كان ينفي فعلياً إمكانية أي نوع من النقاش الأيديولوجي، أو حتى إمكانية التعبير عن الرأي في أي موضوع كان، حتى وإن كان ذا طابع عملي وليس نظري - كان الإثبات الرئيسي - والوحيد عملياً - لإدانة شخص ما، وهذا ما يتعارض مع جميع مفاهيم الحقوق. كان «اعتراف» المتهم بارتكاب جميع الجرائم التي توجَّه له. غير أن التحقيق أثبت أن تلك «الاعترافات» كانت تصدر بعد التعذيب.

أدى ذلك إلى تحطيم قوانين الثورة، وترتب عليه عذاب أناس أبرياء كانوا في الماضي يدافعون عن خط الحزب».

عدة سنوات فقط تفصل بين هاتين الكلمتين الصادرتين عن نفس الأشخاص عملياً. الأولى هي تملق جامح لدرجة توحي بأن كاتب تحية التهنئة استخدم كل ما يعرفه من كلمات مديح وثناء لوصف إله الأرض. بينما المقتطف الثاني يركز على الخسائر التي ألحقتها بالشعب الروسي والحزب والمثل الإنسانية سُلطةُ الفرد المتجسدة في ستالين. توصف أعماله بالجرائم، وبهذا يوصف إنسان كان قائد الحزب والبلاد والشعب خلال ثلاثين عاماً! ومما لا ريب فيه أن تحديد على من تقع مسؤولية تلك الأعمال مسألة معقدة جداً. فهل كان المحيطون بستالين أبرياء؟ وهل كانت الدوائر الحكومية والاجتماعية على مستوى الدفاع عن مواطنيها ضد انعدام القانون؟ وهل المذنبون هم فقط أولئك الذين كانت لهم الصلاحية للتدخل في مصير الناس بشكل أو بآخر؟ حكمة التاريخ تذكّرنا بأن الضمير الحقيقي دائماً لديه فرصة. ولكن المسؤولية التاريخية يجب ان تقع على النظام التوتاليتاري بشكل أساسي.

بعد المؤتمرَيْن العشرين والواحد والعشرين للحزب، أميط الحجاب عن عيني المجتمع فيما يخص تقويم أعمال ستالين والشخصيات التاريخية الأخرى. ولكن هذه

العملية، للأسف الشديد، أخذت بالتباطؤ، والأكثر من ذلك، اتخذت الحكومة خطوات معينة لإنعاش ستالين كشخصية سياسية. فبدون إدراك الحقيقة الكاملة ودراسة كل ما رافق فلسفة تأليه الفرد، لا يمكننا اليوم تحليل الفترات الأخرى ـ أي السابقة واللاحقة ـ من تاريخ روسيا بشكل دقيق. والتاريخ لا يداوي فحسب، بل ويؤلم في عمليات الاكتشاف المريرة. ومحكمة الضمير دائماً تنظف. في أكثر الأوقات مأساوية أثبت الشعب السوفييتي بطولته ونكرانه للذات. لقد شارك كل جيل في بناء القيم الروحية والمادية، والحفاظ على الأمل في حتمية التطهير والتجديد التاريخي.

اليوم، يتذكر الكثيرون عند ذكر اسم ستالين، أحداث عام ١٩٣٧ المأساوية: القمع، انتهاك حقوق الإنسان. ولكن، ومن أجل الدقة، يجدر الذكر بأن عام ١٩٣٧ بدأ في الأول من كانون الثاني عام ١٩٣٤، يوم اغتيال كيروف، وقد تكون خطوط تلك اللوحة قد وُضعت في أواخر العشرينات. كان ستالين على علم بالانتشار المريع للاقانونية. أجل، حدث كل ذلك. ولا يمكن الغفران للمسؤولين عن تلك الجرائم. ولكننا نذكر أن تلك الفترة كانت أيضاً فترة بناء محطة توليد الكهرباء بالطاقة المائية على نهر دنيبر والخ... وفي تلك الفترة عاش وعمل بابانين، انجيلينا، ستاخانوف، بوصيغين، أي أن تلك السنين كانت فترة تصاعد الوطنية في قلوب الشعب السوفييتي والتي وصلت ذروتها خلال الحرب العالمية الثانية. وحين ندين ستالين على جرائمه لا يجب، من الناحية السياسية والأخلاقية، أن ننفي امكانات الاشتراكية والمنجزات التي حققتها. لقد استطاع الشعب الروسي تحقيق كل ذلك ليس بفضل ستالين، بل بالرغم عنه وعن طريقة تفكيره وأعماله. ولو كانت هناك ظروف ديمقراطية لاستطاعت البلاد تحقيق الأكثر. كما لا يجب، عند تقويم ستالين وزمرته، تعميم هذا التقويم على ملايين الناس العاديين المؤمنين بحقيقة مُثُل الثورة بالرغم من التجارب المأساوية التي عاشوها.

التاريخ لا يُقاس من وجهة نظر حسابية: هل كانت مآثره أكثر من جرائمه أم على العكس؟ فهذا السؤال بحد ذاته غير أخلاقي، لأن انعدام الإنسانية لا يمكن أن تبرره أية مآثر، وكيف يمكن الكلام عن المآثر في حين أنه كان السبب في موت الملايين؟ اليوم أصبح واضحاً أن ستالين كان طاغية، يحاول ـ بالبطش ـ إبعاد الشعب عن الحكم، وكان السبب في خلق وحدة ثابتة من البيروقراطية والدوغمائية. المسألة أصعب من ذلك بكثير: يجب فهم أسباب نشوء التوتاليتارية. كيف استطاعت العظمة أن تتعايش مع الدناءة؟ كيف تموّه الشر بالخير؟ لماذا حدثت إعادة تكوين اجتماعية للكثيرين؟ هل كانت المأساة حتمية؟ تلك هي إحدى المسائل التي تعالجها

الصحافة الروسية اليوم معبّرة بذلك عن عملية سموّ الثقافة السياسية والتاريخية لدى الشعب. في بعض الأحيان، وخاصة لدى الشباب الذين درسوا التاريخ تبعاً لقوانين معينة، تدفع الآراء المتناقضة جذرياً إلى خلق قلق داخلي قد يؤدي إلى خلق عدمية اجتماعية وانعدام الإحترام للقيم الإنسانية. الحقيقة مهما كانت مرّةً أحسن وسيلة لسدّ العطش إلى المعرفة. فكما كتب لينين، «الأوهام»، و«خداع النفس» مراراً. من أجل فهم شخصية ستالين السياسية من وجهة نظر فلسفية، يجب الاعتماد على الطرق العلمية في تحليل دور الشعب والأشخاص في التاريخ. سنحاول في هذا الكتاب تحليل أعمال لينين المعروفة بـ «الوصية». فستالين طوال حياته كان يذكر، ليس ملاحظات لينين لمؤتمر الحزب في كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٢٢ التي سماه وتروتسكي فيها «قائدين بارعين» فحسب، بل والتقويم المؤلم والعميق لشخصيته المعقدة. لم يستطع ستالين نسيان أن لينين سمّى بوخارين «ابن الحزب المفضل». وإذا درسنا خطابات ستالين بشكل دقيق نرى أن أمين عام الحزب الشيوعي كرّر كلمات لينين في خطاباته، ولكنه كان يلويها ويطويها فيغير معناها. فعلى سبيل المثال ذكر ستالين «إننا نحب بوخارين كثيراً ولكننا نحب الحقيقة والحزب والكومنتيرن أكثر». يظهر ستالين في تلك الجملة على حقيقته: مخلص للقضية (بمفهومه لها)، ولكنه خبيث وحاذق. استنتاج لينين بأن «ستالين فظّ جداً» تحوّلت في كلمات الأمين العام إلى أنه «فظّ مع الأعداء فقط».

في السنين الأخيرة كُتبت ونُشرت في روسيا أعمال عن سِيَر شخصيات تاريخية وسياسية كـ يوليوس قيصر، نابوليون، تشرشل، دي غول، ماو تسي تونغ، وغيرهم ممن دخل التاريخ، كما صدر كتاب عن هيتلر، بينما لا توجد سيرة حياة ستالين السياسية، مع العلم أن عشرات الكتب صدرت عنه في الخارج. والحقيقة تقال أن أغلب تلك الكتب لا تعتمد على الوثائق. ما يملأ الفراغ هنا هي المنشورات الأدبية والتاريخية التي تلقي الضوء على أوجه معينة من نشاط تلك الشخصية. تلقّى الناس تلك المنشورات كالمطر الدافىء بعد جفاف طويل. مما لا شك فيه أن أعمال مؤرخين جدية سوف تظهر عن ستالين وكذلك عن خروتشوف، بريجينيف، غورباتشوف وآخرين من رجال الدولة والحزب. أما أنا، فقد تجرأت على رسم مخطط فلسفي للناحية السياسية لتلك الشخصية التاريخية. أكّرر: ليست سيرة حياة، بل صورة لشخصيته. الاعتماد على الوثائق وأقوال الشهود يعطيني الإمكانية والحق لبسط آرائي واستنتاجاتي عن «مخابىء» عالم ستالين الروحي، وعن تلك الظروف التي كانت تحدد أعمال «القائد». فأنا متأكد أن ظاهرة ستالين لم تكن مجرد صدفة. «ولادته» كانت لها أسباب اجتماعية، سياسية، اقتصادية، وروحية.

النقاشات الحادة ما زالت تدور حول شخصية ستالين. أحد أسباب اهتمام كهذا يكمن في أنّ ستالين عاش قبل أربعين عاماً، أي أن مصيره مرتبط ارتباطاً متيناً بمصير جيل ما زال على قيد الحياة أو بمصير آباء هذا الجيل. كثيرون منا ينتمون إلى فترة «الستالينية»، لأن الإنسان دائماً سجين فترته. تاريخنا، بجرحه الذي لم يلتئم بعد، سوف يذكرنا خلال سنين طويلة بقباحته وغموضه.

وسبب آخر للاهتمام الزائد والمستمر بصفحات حياة ستالين يكمن في تغيّر مفاهيم اجتماعية وإنسانية عامة كالاشتراكية، الإنسانية، العدالة، الحقيقة التاريخية، القيم الأخلاقية. لقد أثبتت السنوات الستالينية مرة أخرى أن التعصب الفكري يؤدي إلى بناء هيكل فلسفي وهمي، كل شيء فيه يجب أن يكون خالداً. غير أن الشيء الخالد الوحيد، على الأغلب، هو التغير. التعصب الأعمى خطير، فهو قادر على تحويل الأيديولوجية إلى دين. التعصب يؤجل جميع أفراح اليوم إلى الغد وأفراح الغد إلى بعده. بما أن التجديد المنتظر للمجتمع الروسي لمس الوعي الاجتماعي بشكل أساسي، فمن الطبيعي أن يكون التعصب والبيروقراطية المرتبطين في أذهاننا بأعوام سلطة ستالين الأوتوقراطية هما في موقع النقد.

وأخيراً يوجد هناك سبب ثالث (الأسباب أكثر بكثير بالطبع) للاهتمام المتواصل بحياة ذلك الرجل الجالس على قمة هرم السلطة لأكثر من ثلاثين عاماً. فهو لا يكون قرب الناس أو وسطهم، بل واقفاً فوقهم في «العلالي».

وبالرغم من الكميات التي لا تحصى من المقالات عنه، وصوره، وتماثيله، وأعماله، فالشعب السوفييتي لم يكن يعرف شيئاً عن ستالين. «السيرة القصيرة» التي صدرت بعد الحرب لم يكن لها كُتّاب كما ذُكِر فيها، بل واضعون ومصنِّفون، وهم: غ.ف. اليكساندروف، م.ب. ميتسين، ب.ن. باسبيلوف وآخرون. وتلك السيرة المنقحة من قبل ستالين نفسه تضم صورة أعمال ذلك الإنسان البطولية، أما الإنسان فهو غير موجود فيها.

والحق يقال، لقد حاول عدة معاصرين رسم صورة ستالين السياسية. في عام ١٩٣٦ صدر كتاب هنري باربيوس تحت عنوان «ستالين». يمكن فهم جوهر ذلك الكتاب من خلال مقطع صغير كهذا: «تاريخ حياته عبارة عن انتصارات مستمرة على صعوبات هائلة ومستمرة. ولم يمر عام منذ ١٩١٧ دون أن يفعل ما بإمكانه تخليد اسمه للأبد. فهذا رجل حديدي، لقبه يعبر عن جوهره: ستالين ـ أي «فولاذي»». كما أصدر العالم ي.م. ياروسلافسكي عام ١٩٣٩ كتاباً تحت عنوان «عن الرفيق ستالين»، كتب فيه أن الكلام عن ستالين يعني الكلام عن جميع تطورات نضال الحزب خلال عملية بناء الاشتراكية في وطننا. كما أن الكتاب لا يتميز بتضخيم الأمور فحسب، بل «بتجديف» فظيع على حد سواء. هذا ما يثبته الاقتباس التالي: «يشبّه الشعراء ـ في شعرهم الشعبي ـ الرفيق ستالين بـ «الجنيناتي» الذي يحب حديقته ويهتم بها، وتلك الحديقة هي البشرية. الإنسان والكادر هما أغلى ما نملكه. رعاية الإنسان، رعاية الكادر، رعاية الحياة. هذا ما يقدرة الشعب في ستالين،

هذا ما يجب أن نتعلمه من الرفيق ستالين». أما كارل رادك في كتابه «صور ومناشير» (عام ١٩٣٤)، فقد كرّس لستالين مقالة كبيرة تمجّده كأنه المهدي المنتظر. وذلك التمجيد بـ «القائد»، المهين بالنسبة لكاتبها، لم ينجِّه من مصيره المرّ. أما القيمة العلمية لتلك المذكرات فتعكس في أغلبها الصورة المشوهة لعلاقات الإخلاص والتملق التي زرعها ستالين وبطانته وخاصة بعد المؤتمر السابع عشر للحزب.

حياة الإنسان تنطفىء بسرعة كالصيف في المناطق الشمالية، وهي كالنار: شرارة، ثم ألسنة نار خفيفة ومرحة، ثم شعلة قوية، ثم حرارة هادئة، ثم بصيص ضئيل، ثم جمرات، ثم رماد بارد. الموت ليل دائم فجرُهُ لن يأتي ابداً. وهذه الحقيقة المرة تشمل الجميع. وستالين يعلم ذلك. لذلك فعل الكثير لكي يتذكره أحفاده كما يريدهم أن يتذكروه. إن ستالين وأتباعه هم السبب في اختفاء اسطر كثيرة من تاريخ روسيا ووجود صفحات ملفّقة وأخرى مقتطعة. هذه صعوبة يدركها ويحاول التغلب عليها الكاتب في دراسته هذه. وهنالك صعوبة أخرى ذات طابع إنساني عام. فوعي كل إنسان هو بحد ذاته عالم مستقل، عالم كبير وغامض يموت بموته. ونحن لن نستطيع ابداً فهم جميع التفاصيل بعد موت ذلك الشخص، ولكننا نستطيع فهمها بطرق أخرى. فمثلاً، نحن نستطيع فهم أفكار ستالين ليس من خلال مقالاته، رسائله، مذكراته، قراراته فقط، بل ومن خلال أعماله و ـ لأسفنا الشديد ـ جرائمه. وأسرار عقله تفقد «سريّتها» عندما ندقق بأسبابها ومصدر إلهامها وطرق التعبير عنها. العالم الذي يحيط بنا متعدد الألوان وهو المفتاح لعقل الإنسان، حتى ستالين، بالرغم من أن التحليل العلمي المنطقي لا يستطيع دائماً تفسير بعض أعماله. ستالين، على سبيل المثال، كان على علم بالعلاقة الحميمة التي تربط لينين وبوخارين. ستالين نفسه خلال سنوات طويلة كان صديقاً له ولعائلته. لعب بوخارين دوراً كبيراً في صراع ستالين مع تروتسكي والتروتسكية. لذلك فإن ستالين كان يعرف أن اتهامه بالتجسس والتآمر وإلخ.. كان أمراً مضحكاً. بوخارين، بمستواه الثقافي العالي، كان يحترم آراء الآخرين مع أنه كان يتّسم بسمات البلاشفة السيئة. وعندما تأكد أن برنامجه النافي لتطور الاشتراكية بالقوة لا يتفق مع مفاهيم ستالين لحل المشاكل بالقوة، استسلم بوخارين واعترف ـ عملياً ـ بضرورة التسريع العقلاني. فهو لم يعترف بذلك فحسب، بل اشترك في تحقيق برامج الحزب. إلا أن هذا لم يمنع ستالين من التخلص من أكثر رجال الحزب شعبيةً، من صديقه ورفيقه الحزبي المقرب. فكيف يمكن تفسير وفهم ذلك؟ أو بالأصح تفسيره ممكن لكن فهمه صعب. هكذا كان ستالين.

خلال تحضيري لدراسة فلسفية عن سيرة ستالين وجدت نفسي، لا شعورياً، أقرأ ما كُتب عن الاسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وأوليفر كرومويل*،

(*) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨): زعيم سياسي وعسكري انجليزي. هزم الملكيين وأعلن الجمهورية عام ١٦٥٣. (المترجم).

وإيفان الرهيب* وبطرس الأول** أثار اهتمامي سيكولوجياً القادة والديكتاتوريون والطغاة وحكّام آخرون من ذوي السلطة المطلقة. ومع علمي بأن أية مقارنة تاريخية في هذا المجال ستكون خطرة ـ وحتى غير علمية ـ سأجازف وأعبّر عن فكرة أولية: كل من يملك سلطة بلا حدود غير خاضعة للمراقبة الديمقراطية سيشعر بالعصمة من الخطأ، والتفوق على الآخرين، وسيبالغ في تقويم قدراته وإمكاناته، وسيتصرف مطلق اليد دون حساب.

كقاعدة عامة، هؤلاء الأشخاص يقضون حياتهم بين الناس لكنهم وحيدون إلى ما لا نهاية. بالرغم من أن ستالين، كما ثبت، لم يكن يقابل احداً دون مرافقةٍ إلاّ ما ندر (كان دائماً إلى جواره إمّا مولوتوف أو كاغانوفيتش أو مارايِنكوف أو بيريا). ولكنه في الداخل كان وحيداً دائماً. لم يكن لديه من يقارن نفسه به أو يخوض نقاشاً حقيقياً، فهو ليس بحاجة لبرهنة وجهة نظره أو لتبرير موقفه. الوحدة على القمة والسلطة بلا حدود ذات واقع ثلجي يقتل الأحاسيس ويحوّل العقل الى آلة حاسبة. كل خطوة تصبح «تاريخية»، «مصيرية»، «حاسمة» تقتل بذلك الإنسانية في الإنسان.

حاول ستالين ـ وبنجاح ـ أن يحول إحدى نقاط ضعفه إلى مؤشر قوة. حتى في فترة الثورة، عندما كان يجب أن يخطب أمام عمال أحد المصانع، أو أمام جنود أو متظاهرين ـ أي عندما كان عليه أن يواجه جمهوراً ما ـ كان يساور ستالين شعور بعدم الثقة بالذات وبقلق تعلّم أن يخفيه مع الوقت. لم يكن ستالين يحب، ولا حتى يجيد، إلقاء الخطب. فخطاباته كانت واضحة لدرجة البدائية بدون تحليق فكري أو حِكَم أو حماس. لكنته الجورجية الواضحة ورتابة إلقائه كانا السبب في عدم تأثير خطاباته. وليست صدفة أن ستالين كان يخطب أقل من غيره من محيط لينين. كان يفضل توجيه الأوامر والإرشادات، كتابة المقالات والتعليقات الصحفية على الأحداث السياسية.

كأيّ كاتب اجتماعي، هو منطقي، ولكنه قطعي وحازم في استنتاجاته. في كتاباته في الصحف، نجد إما الضوء وإما الظلام. فهو لم يكن يعترف بإمكانية وجود شيء ثالث. كانت مقالاته بسيطة وواضحة.

فيما بعد تعوّد ستالين على منصّات المؤتمرات. ولكن وضعه سوف يختلف: سيستمع الناس إلى صوته الخافت بشغف وصمت، ثم يبدأ التصفيق ويتحول إلى عاصفة من التصفيق والهتاف. ولكن تلك الخطابات ستكون أشبه بطقوس كاهن قدير. أصبح تحفظ ستالين نحو الاتصال المباشر مع الشعب قاعدة: فهو لم يكن يظهر إلا في الحالات الاستثنائية، لا في المصانع ولا في المزارع ولا في

(*) إيفان الرابع، أو الرهيب (١٥٣٠ ـ ١٥٨٤): أعلن نفسه قيصر روسيا الأول عام ١٥٤٧. وحّد الإمارات الروسية المختلفة في إمبراطورية لُقِّب بالرهيب لبطشه. (المترجم).

(**) بطرس الأول، أو الأكبر (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥): قيصر روسيا من ١٦٨٢ ـ ١٧٢٥. جعل من روسيا دولة أوروبية ذات شأن. (المترجم).

الجمهوريات الأخرى ولا على الجبهة. ما كان يرنّ صوت «القائد» من أعلى الهرم إلا نادراً.

وعلى سفح الهرم كانت الملايين ترهف السمع بهلع قدسي. حوّل «القائد» انغلاقه وانزلاقه إلى صفة من صفات تفوقه على الآخرين. من أجل فهم ستالين يجب الأخذ بعين الاعتبار المسألة التالية: كان ستالين ماهراً في الإيحاء بأن أغلاطه وأخطاءه في التقدير وجرائمه ـ أي أسوأ مزاياه ـ ليست إلا منجزات ونجاحات وبعد نظر وحكمة ورعاية للناس.

لقد اعتمدت في تحليلي واستنتاجاتي على أعمال لينين والوثائق الحزبية و«أرشيفات» مختلفة كـ «الأرشيف» المركزي للحزب و«أرشيف» محكمة الاتحاد السوڤييتي العليا و«الأرشيف» المركزي للجيش السوڤييتي و«الأرشيف» المركزي لوزارة الدفاع و«الأرشيف» الوطني المركزي لثورة أكتوبر و«أرشيفات» عدة متاحف. على سبيل المثال، عند دراسة أعمال ستالين حول الحرب اطلعت في «أرشيف» وزارة الدفاع السوڤييتية على العديد من الوثائق الأصلية الشيقة التي لم تنشر حتى الآن. النظرة الأولى على قرارات ستالين وعلى مذكرات معاصريه توحي بأن ستالين لم يكن دائماً مقتنعاً بالقرارات التي يصدرها. ومثال على ذلك: قرأ ستالين مشروع حكم المحكمة العسكرية التابعة لمحكمة الاتحاد السوڤييتي العليا على د.غ. بافلوف، ف.ي. كليموفسكي، أ.ت. غريغورييف، أ.أ. كوروبكوف، المتهمين بالتآمر على السلطة السوڤييتية، وخصارة الجبهة الغربية عن قصد... لم يتابع «القائد» القراءة وقال: «ما هذا الهراء؟».

حُذفت فوراً الكلمات: «تآمر على السلطة السوڤييتية»، «أهداف مؤامراتية»، «أعمال عدوانية» واستُبدلت بـ «أثبتوا جبنهم، عدم تعاون مع السلطة، سوء الإدارة، سمحوا بتدهور قيادة الجيش...». إلا أن الاتهام بقي ظالماً، وكان الحكم الذي نُفّذ في الثاني والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٩٤١ قاسياً إلى أبعد الحدود. حين كان مصير الدولة بين الحياة والموت، لم يعد «القائد» يستطيع مواصلة اللعبة القديمة «بوليس ومتآمرون».

عند قراءة قرارات ستالين التي حُفظت بشكل جيد، وأُبرزت بالأحمر والأزرق، يخطر على البال ما يلي: أين تلك الأسباب العميقة اللاعقلانية وقساوة ومكر ذلك الرجل؟ هل هي في إحساسه بالنقص الثقافي عند سماع خطابات رفاقه اللامعة (بوتيريوف، بليخانوف، أكسيلرود، دان، مارتوف) في مؤتمرات الحزب في لندن وستوكهولم؟ أم أن مصدر لاعقلانيته هذه يكمن في عنف سنين ما قبل الثورة؟ فحياة ستالين قبل الثورة يمكن تلخيصها بالقبض عليه سبع مرات والفرار من السجن خمس مرات. منذ الثانية عشرة من العمر وهو يختبىء، ينفذ قرارات مجالس الحزب، يدخل السجن، يغير لقبه، يدبّر جوازات سفر مزورة، ينتقل من مكان إلى مكان. لم يكن يطيل الزيارة في السجن، كان يهرب ويختبىء مرة اخرى. إلا أنه لم يفكر ولو للحظة بالسفر إلى الخارج. فستالين، كأغلبية «قادة» الحزب، لم تكن له

مهنة قبل الثورة. كما ساعدتني في الكتابة أعداد صحيفة الـ «برافدا» الصادرة خلال أكثر من ثلاثين عاماً، ومجلات «بلشفيك» و«بوليترابوتنيك» ونشرات اخرى الكثير منها صدر في العشرينات فقط. من المعروف أنه في الخارج كُتب الكثير عن ستالين، ومنها كتابات جوزيبيه بوف، لوي أراغون، آنا لويزا سيترونغ، وهي قريبة للموضوعية. كما صدرت، ويُعاد إصدار، عشرات الكتب الهادفة، «بفضل ستالين»، لقتل فكرة الإشتراكية. لا أعتقد أن ستالين كان يدرك أن أعماله تحط من الإشتراكية وأنها أخطر عليها من انتقادات دويتشر وروبرت تاكر وليونارد شابيرو وروبرت كونكويست وخبراء آخرين بالإتحاد السوفييتي. ومما يثير الإهتمام آراء رجال الدول الأجانب الذين التقوا بستالين كـ : فرانكلين روزفلت، وينستون تشرتشل، شارل ديغول، ماو تسي تونغ، أنور خوجا، وكذلك بعض كتابات سفيتلانا أليلوييفا* الصادرة في المهجر.

كما اطلعت على كتابات منازعي ستالين السياسيين والفكريين داخل روسيا ـ كـ تروتسكي، زينوفييف، كامينيف، بوخارين، ريكوف، تومسكي، إلخ.. وجميعهم من مؤيدي لينين وتلاميذه. ولم يعتبر أحد منهم نفسه أجيراً لدى ستالين، كما لم يفعل ذلك من بعدهم: كاغانوفيتش أو مولوتوف أو خوروشيلوف أو مالينكوف أو جدانوف، أو غيرهم من الذين حلوا مكانهم. في هذه المسألة عمل ستالين بقانون الطغاة القديم: الرجال المرشحون من قِبله يجب أن يتميزوا بإخلاص أكبر وألاّ يهدفوا للأدوار السياسية.

أما تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وبوخارين وغيرهم، فكانوا معروفين أكثر من ستالين بالنسبة للحزب خلال الثورة وفي سنوات الحرب الأهلية. لم تكن المقارنة بين شخصية تروتسكي وستالين ممكنة بالنسبة لشعبيتهم في الحزب وأمام الشعب. وتروتسكي نفسه دخل التاريخ كأحد قادة الثورة المعترف لهم وأحد مؤسسي الجيش الأحمر وكمنظر حيوي (في عام ١٩٢٧ كان قد أصدر ٢١ مجلداً). ذلك السياسي الحيوي لم يكن أديباً ولكنه خلال عمله كان معجباً بنفسه، يقف أمام قراءة التاريخ محاولاً تبرير طموحه للوصول إلى قيادة الحزب. لعل تروتسكي كان «الزمبرك» الثوري بين القادة.

عندما اطلعت على مجلداته أذهلتني عنايته الفائقة ـ حتى في سنوات الحرب الأهلية ـ بما سيبقى عنه من بعده للتاريخ. لقد اعتنى تروتسكي بالإحتفاظ بجميع رسائل المديح وبالملاحظات التي كانت تُرسل إليه خلال خطاباته العديدة، وبرسائل الدبلوماسيين الطالبين مقابلته، وبالمقابلات التي نشرت في الصحافة عن خطواته وأعماله.

كان تروتسكي واثقاً ـ وليس بلا سبب ـ بأنه سيتولى قيادة الحزب بعد لينين. وكان ستالين هدفه المباشر وغير المباشر في انتقاداته أكثر من غيره. بالطبع، كتاباته الرئيسية ضد ستالين صدرت بعد إبعاده عن الاتحاد السوفييتي. ونشير هنا

(*) سفيتلانا اليلوييفا: بنت ستالين من زوجته ناديجدا هاجرت من الاتحاد السوفييتي. (المترجم).

إلى تقويم تروتسكي الشهير لستالين بأنه «أبرع رجل عادي في حزبنا». على أية حال، فإن تروتسكي الذي لم يكن يخفي رأيه بأنه مفكر عبقري (تخطر على البال هنا جملة موسوليني التي دخلت التاريخ: «انه لأمر عجيب، ولكنني حتى الآن لم ألتق بشخص أذكى مني!»). كان تروتسكي يستخدم عبارات كهذه في الكثير من الأحيان هادفاً بذلك إهانة منازعيه. لقد قال عن زينوفييف عام ١٩٢٤، على سبيل المثال، انه «رجل وسط لجوج»، كما سمى فاندرفلد «رجلاً وسطاً لامعاً» وتسيريتيلي «رجلاً وسطاً صادقاً وموهوباً»، وهكذا دواليك. اما بعد ابعاده، فقد ساور تروتسكي احساس أبدي وجنوني بالكراهية نحو ستالين ظهر بشكل واضح في كتابه «ستالين» الذي لم ينهه. لقد نفى تروتسكي أن أهدافه ذات طابع شخصي: «لقد افترقت طريقنا منذ زمن، وستالين في رأيي أداة قوى تاريخية معادية وغريبة بالنسبة لي، ولذلك شعوري نحوه لا يختلف كثيراً عن شعوري نحو هتلر أو الميكادو الياباني. أما الأمر الشخصي الذي كان بيننا فقد احترق منذ زمن طويل». على كل الأحوال، لم يكتب احد عن ستالين هذا القدر الكبير من السموم القاسية والكاريكاتورية والعادلة في الآن ذاته كتروتسكي. ولم يفعل احد ذلك القدر الكبير من أجل فضح ستالين من جميع النواحي كتروتسكي.

بالطبع، كان ستالين يبادل تروتسكي تلك الكراهية التي طفت على السطح ولأول مرة خلال مشاحنتهما في فترة المعارك من أجل تساريتسين في سنوات الحرب الأهلية. وعندما جاء ذلك اليوم المأساوي في ٢١ كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٢٤ أرسل ستالين برقية إلى جنوب البلاد تفيد بما يلي: «يرجى اخبار الرفيق تروتسكي ٢١ كانون الثاني الساعة ٦ و٥٠ دقيقة توفي فجأة الرفيق لينين بسبب شلل الجهاز التنفسي. الدفن السبت ٢٦ كانون الثاني. ستالين». وهو يوقع البرقية كان ستالين، على الأغلب، يفكر بأن صراعاً قاسياً وبلا رحمة ينتظره وتروتسكي من أجل السلطة. ولكن هل كان ستالين يعلم أنه حتى بعد الانتصار عليه أن المعركة بينهما لن تنتهي؟ هل كان ستالين يدرك أن سياسة النظام البيروقراطي ـ التعليماتي والعنف و«شد الحزام» الذي كان يؤيدها تروتسكي ستصبح سلاحه الرئيسي؟ فالأمين العام للحزب سيطورها ويستخدمها بكثرة. وإلى أن اغتيل تروتسكي في آب (أغسطس) ١٩٤٠، وضع صراعه السياسي مع ستالين خاتمه على شخصية الأمين العام. من أجل فهم عالم ستالين الداخلي درست اصطدامات وصراع هذين القائدين اللامعين السابقين، ذلك لأن ستالين كان يعتبر تروتسكي عدوه الشخصي الأساسي. كما استطعت أخذ أقوال شهود عيان التقوا مع ستالين ووقعوا في ناعورة قرارات ستالين وزمرته. لقد استفدت كثيراً من نقاشي مع بعض الأشخاص من محيط ستالين: مع عاملين سابقين في اللجنة المركزية للحزب ووزارة الداخلية، ومسؤولين كباراً في الجيش السوفييتي، ورجال سياسة ومجتمع، ومع من اصطدم مصيره في ظروف مختلفة مع ستالين، وبذلك كانت حياتهم تتغير بشكل مأساوي بسبب قرارات «القائد» أو أعماله. بعد صدور مقالاتي عن ستالين في صحيفتي «ليتر اتورنايا غازيتا» و«برافدا» استلمت حوالى ثلاثة آلاف رسالة، الكثير منها من أشخاص عاشوا حياة شديدة الصعوبة. خلال السنين التي عملت فيها في

«الأرشيف» جمعت الوثائق عن حياة ستالين، كما التقيت مع العديد من الناس، مع أولئك الذين يستطيعون بطريقة أو بأخرى إلقاء الضوء على وقائع جديدة عن حياة ستالين ـ فصوت واحد من كورس التاريخ العام له أهمية. بفضلهم يمكن التعمق في التاريخ وسماع أصوات من توفوا منذ أمد طويل وفهم دوافع غليان الأحاسيس. أصداء التاريخ تعيش فينا، في مصيرنا، في ذاكرتنا وأحياناً تعيش في معلومات جديدة ضحلة من عالم سري آخر محترق. وكذلك أخبار الماضي الذي لا يريد الدخول إلى عالم النسيان أو الضياع في عالم اللانهاية. لعله يمكننا الكلام عن الماضي غير المنتهي، أي عن تلك الظاهرة التاريخية التي لم نجد لها تفسيراً كاملاً وثابتاً وموثوقاً به. والتاريخ غير المنتهي يمكن أن يكون لشخص واحد أو لشعب لا يعرف تاريخه الحقيقي بانتصاراته ومآسيه. ولذلك، في كتابي هذا، سأحاول إثبات كيف حول التاريخ انتصار رجل واحد إلى مأساة شعب بأكمله. أما خروتشوف، في خطابه أمام المؤتمر العشرين للحزب، فقد فسر الأمور بشكل غريب بعض الشيء ـ لقد قال: «نحن لا نستطيع القول أن أعماله كانت أعمال طاغية مجنون. كان ستالين يعتقد أن أعماله في مصلحة الحزب والشعب العامل، ومن أجل حماية الانجازات الثورية. وهذه كانت المأساة». أعتقد أن ذلك التفسير غير دقيق. تقويم خروتشوف ذلك يبرر أعمال ستالين. فنحن نعرف أن «القائد» كان يحب سلطته الشخصية أكثر من أي شيء آخر. ومن أجل الوصول إلى سلطة بدون حدود أخذ ستالين يقمع الشعب ولم يكن يرى في ذلك أي ظلم. تعود ستالين بسرعة على العنف كوسيلة ضرورية للسلطة غير المحدودة. بالافتراض المنطقي نقول: على الأغلب، ان آلة التعذيب، التي شغلها لأقصى طاقتها، سيطرت ليس على خيال المنفذين الصغار فحسب، بل وعلى ستالين نفسه.

قد يكون التدهور نحو العنف كوسيلة شاملة قد مر بمراحل مختلفة. في البداية... صراع ضد أعداء حقيقيين ـ لأنهم كانوا موجودين، على الأغلب ـ، ثم... القضاء على الخصوم الشخصيين، وبعد ذلك بدأ قانون قوة الاستمرار المخيف بالعمل، وأخيراً أصبح العنف مؤشر الإخلاص لـ «القائد». أما ظل الخطر الخارجي فقد خلق جو «حصار روحاني»، ذلك الجو في الوعي الاجتماعي الذي وصل ذروته عام ١٩٣٧، كان نتيجة مباشرة لأولوية القوة على القانون وتبديل سلطة الشعب الحقيقية بـ «تقديس الفرد».

كان ستالين ينظر إلى الشعب كما ينظر إلى «أكواريوم» بشري. وكل شيء تحت سيطرته. الخوف الجنوني من التخريب والتجسس والصراع مع طواحين هواء «الرياء»، أصبحت صفات الأورثوذكسية المخجلة وملامح الإيمان الأعمى والإخلاص لـ «القائد». هل من المعقول، مثلاً، أن يتضح أن أعضاء المكتب السياسي السبعة المنتخبين في أيار (مايو) ١٩٢٤ في المؤتمر الثالث عشر للحزب، أي الأول بعد وفاة لينين، أن يتضح أن ستة منهم (أي الجميع ما عدا ستالين نفسه!). «أعداء»؟! لا أعتقد أنه حتى في العصور الوسطى، فترة محاكم التفتيش، أن أحداً كان يدعي انه على هذه الدرجة من «النظافة»، التي تطلب هذا القدر الكبير من التضحيات الجنونية من أجل إثبات نفسها. ستالين يقضي على «الأعداء» وموجات العنف تكبر وتكبر...

كان ذلك انتصاراً مأساوياً لقوة شريرة. يصعب علينا تفسير، في بعض الأحيان، لماذا احتاج ستالين ـ الذي أزال جميع منازعيه ـ الاستمرار في «قطع» أفضل رجال الحزب والدولة عشية وقوع المحنة القاسية؟ جدير بالذكر أن البلاشفة من عاملي جهاز وزارة الداخلية نفسها فهموا قبل غيرهم خطورة لغز الشك والقمع الشاملين. إلا أن ذلك لم يمنع أن يصبح ما يزيد عن ثلاثة وعشرين ألف شخص صادق ضحايا «عيد باخوس» وانعدام القانون.

لكن، حتى تلك التشوهات التاريخية الرهيبة لم تستطع، في نهاية المطاف، منع الشعب من خلق ما قد يقربه من تحقيق مثله العليا بالرغم من مأساة وطنه. وحتى أكثر السنين مأساوية لم تستطع إطفاء إيمان الملايين من الشعب السوفييتي في القيم الإنسانية. وجوهر الكون الأبدي المعقد يكمن في جدلية الانتصار والمأساة؛ فمع ان للشعب الدور الحاسم في نهاية المطاف، إلا أن الكثير يعتمد على الشخصيات التاريخية. كما قال هيغل، مصير الإنسان ليس مصيره وحده، فهو جزء من المصير الأخلاقي المأساوي العالمي. ومأساوية هذا المصير تكمن في أن ستالين، في فترة معينة، كانت ملايين الناس تنظر إليه ليس كأنه بشر من لحم ودم، بل كرمز للإشتراكية، ومثالها الحي. فعندما يكرر الإنسان كذبة مرات عدة يهيأ له أنها حقيقة. أصبح القانون يبرر أمام الناس جميع الظواهر السيئة ويعلقها على «الأعداء» وينسب جميع الإنجازات لذكاء وإرادة رجل واحد، لا سيما أن ستالين كان يجيد الدعاية لأفكاره «العظيمة». عندما كان يأخذ القرارات الهامة ويعلن عنها في المؤتمرات الكبيرة خاصة، كان ستالين يحب الاستشهاد بالكتّاب الكلاسيكيين. وفي هذا ضعف إنساني عام. فالإنسان يحب الرعاية ـ وحتى رجل كستالين يحب الاختباء: في ظل الأفكار المختومة، وراء هيبة النظرية، خلف آراء سلفه الراديكالية. ولكن في كثير من الأحيان لم يكن ذلك إلا تمويهاً فكرياً. فانتصار «القائد» ومأساة الشعب كانا يعبران عن نفسهما في دوغمائية وبيروقراطية النظام، وفي الوقت ذاته في وطنية وأممية الشعب السوفييتي العالية، كما في سلطة الجهاز الكاملة والتحكم في وعي الملايين، وفي بطولة وتضحيات الشعب.

استفدت كثيراً من مذكرات قادة عسكريين سوفييت كـ : ي.هـ. بغرميان، أ.م. فاسيليفسكي، أ.غ. غولوفكو، أ.ي. يريمينكو، غ.ك. جوكوف، ي.س. كونييف، ن.غ. كوزنيتسوف، ك.أ. ميريتسكوف. ك.س. موسكالينكو، ك.ك. روكوسوفسكي، س.م. شتيمينكو وغيرهم. ولقد أخذت بعين الاعتبار، بالطبع أن هؤلاء الرجال القديرين كتبوا عن ستالين، إمّا في فترة كان الكثير ما يزال غير معروف لهم، أو في فترة ما بعد المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب، أي عندما أُغلق موضوع تأليه الفرد، ليتسنى البحث العميق والتحليل الكامل. فالقادة من رجال الجيش جربوا قبضة ستالين الحديدية الظالمة وبلا رحمة. فبعكس أ.ف. غورباتوف وبعض الآخرين الذين استطاعوا التعبير في كتاباتهم عن معاناتهم، لم يتمكن غيرهم المجاهرة بما يعرفون. اصبح الخوض في موضوع أخطاء وقمع ستالين ممنوعاً عملياً. وهناك وجه آخر لهذه المشكلة. مع بداية الحرب اضطر ستالين للحد من العنف داخل

البلاد. ولذلك أخذ قادة الجيش يتطرقون في مذكراتهم بشكل خاص للناحية العسكرية من نشاط ستالين الذي أبدى إرادة سياسية خلال النضال ضد الفاشية. ويبدو أن هذا ما يفسر ظهور الوجه الحسن فقط لستالين في كثير من كتابات رجال الجيش. جزء كبير من مآسي الناس الشخصية المتعلقة بانعدام القانون ظلت وراء الكواليس. فالجزء الأكبر من عشرات آلاف رجال الجيش الذين وقعوا في «مكنة التنظيف» لقوا حتفهم ولم يستطيعوا قول أي شيء لأحفادهم. أما اليوم فنحن نعرف أن ستالين لجأ، وأكثر من مرة، للتنكيل القاسي بكثير من رجال الجيش حتى في بداية الحرب محاولاً بذلك إلقاء المسؤولية عليهم فيما يخص الخسارات الفادحة التي ألحقت بالاتحاد السوڤييتي.

عندما ننظر إلى الماضي من أعالي الحاضر يدهشنا صبر الشعب السوڤييتي بشكل عام والروسي بشكل خاص. أين جذور هذا الصبر؟ أهي في تلك الـ ٢٥٠ سنة التي عاشتها البلاد تحت الاحتلال المغولي؟ أم في التناوب المستمر للحروب من أجل الاستقلال والحرية؟ أم في ضرورة النضال ضد البرد والمساحات الشاسعة؟ كل ذلك ممكن. أعتقد أن في الصبر حكمة التجربة التاريخية، إيمان بأننا على حق، التزام بالتقاليد التاريخية. وبشكل أساسي... الأمل الدائم في الحياة الأفضل. إلا أن الطقوس شبه الدينية المفروضة لتأليه الرجل الذي يحكم البلاد لم تستطع إلا أن تهين الشعب. ويمكننا اعتبار إحدى تلك الإهانات العجيبة للإنسان «مختارات» قصائد المديح الجماعية الموجهة لستالين الحاوية على كلمات سخيفة كـ: «الأب»، «الشمس»، «القائد الحكيم»، «العبقري الخالد»، «الربان العظيم»، «قائد الجيش الذي لا يلين»... كانت البيروقراطية تتفنن في اختراع الصفات له دون أن تفكر بأن ذلك يهين كرامة الشعب إهانة مباشرة.

من السهل القول إن كل قرن له «عصوره الوسطى». من المحتمل جداً لولا انعدام الديمقراطية بعد وفاة لينين لكان المجتمع الاشتراكي قد تطور بشكل مختلف بدون تلك التشوهات العميقة التي ظهرت بسبب ستالين وبطانته في الثلاثينات والأربعينات وبداية الخمسينات من هذا القرن. يبدو أن الاشتراكية كانت لديها فرصة في حال تعدد الأحزاب. بالطبع الآن يسهل علينا الكلام عن البديل الممكن، تحليل الظروف أسهل اليوم. أما التعامل معها في وقتها فصعب. كما كتب جان جوريس: «المؤرخ دائماً له الحق في مقارنة الفرضيات مع الواقع الماضي. كما له الحق أن يقول: هذه هي أخطاء الناس، هذه هي أخطاء الحزب. له الحق أن يقول: لولا تلك الأخطاء لكان الواقع مختلفاً». أجل، البدائل التاريخية كانت موجودة.

من منظور الحاضر نرى أنه بعد وفاة لينين الذي كان يحترمه حتى المعارضون، كانت لدى تروتسكي وبوخارين القدرة الحقيقية لقيادة الحزب. أما زينوفييف وكامينيف، فإمكانياتهما كانت أقل بكثير. من الممكن انه لو تسلّم تروتسكي القيادة لكان الحزب عاش تجارب عصيبة كذلك... فهو من مؤيدي العنف الاجتماعي. خاصة وانه كان يفتقد لبرنامج علمي واضح لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. أما بوخارين فكان لديه برنامج كهذا، ورؤية خاصة به لأهداف الحزب

العامة. غير أن جاذبية بوخارين كشخص، وثقافته العالية، ودماثته، وإنسانيته لم تمنعه من عبادة ذلك الوحش المتمثل في ديكتاتورية البروليتاريا. كما أنه هناك رودزوتاك، فرونزيه، ريكوف...

بعد وفاة لينين وحتى الثلاثينات كانت سمعة ستالين بين غيره من قادة الثورة سمعة أحد أقسى وأحر المدافعين عن أول دولة اشتراكية في العالم. أما مفهوم ستالين لهذه الدولة، فمسألة مختلفة تماماً. صحيح أن ستالين لم تكن لديه المؤهلات ليصبح بديلاً للينين. ولكن تلك المؤهلات لم تكن عند أحد غيره. ستالين لم يكن يملك قوة لينين الروحية، ولا عمق بليخانوف النظري، ولا ثقافة لوناتشارسكي. أي أن ستالين كان أقل ثقافة وروحانية من الكثير أو حتى من أغلب قادة الثورة. ولكن الدور الحاسم في الصراع من أجل القيادة كان لوصولية ستالين وإرادته السياسية، وخبثه، ومكره. كما قال شكسبير من خلال شخصية هامليت الشهيرة فهو «بالرغم من جِمْل نواقصه الثقيل يملك شيئاً يفتقره الآخرون». كما لعبت دوراً هاماً في هذا المجال قدرة ستالين على استخدام الجهاز الحزبي في صالح أهدافه الخاصة إلى أقصى الحدود. لقد كان لستالين في ذلك الجهاز أداة مثالية للسلطة. أما عن تحذير لينين فيما يخص ستالين فالقلائل من البلاشفة كانوا يعرفون به. لقد أخفى ستالين صفاته الشخصية السلبية مؤقتاً بعد اطلاع الموفدين إلى المؤتمر الثامن للحزب على رأي لينين فيه، مما ضمن له تأييد الأغلبية في الحزب. وهذا ما جعل فرص غيره من القادة ضئيلة. الكثيرون من قادة الحزب استخفوا بإمكانيات ستالين... بخبثه ووصوليته ومكره. استوعبوا ذلك الموضوع بعد فوات الأوان.

كما كان ستالين يجيد التمثيل، كان يلعب، وبمهارة، ادواراً كثيرة: تارة يكون القائد المتواضع، وتارة المناضل في سبيل الحفاظ على المثل الحزبية، وأخرى «القائد»، «الأب الروحي للشعب»، وقائد الجيش، والمنظر العظيم، والخبير في الفنون والمتنبيء. إلا أن ستالين كان يجتهد في أداء دور التلميذ المخلص والخدين لـ «لينين العظيم». وهذا كله خلق شعبية لستالين في الحزب وعند الشعب.

إلا أن سبب انعدام الديمقراطية، في نهاية النهايات، لا يكمن في الشخصيات التاريخية بل في احتكار السلطة في يد حزب واحد. ها نحن الآن وبعد عشرات السنين نحاول من خلال منظار التاريخ أن نجد من كان يمكن أن يكون البديل التاريخي لستالين. وفي ظل نظام توتاليتاري كهذا، فقط ديكتاتور يمكن أن يكون هو البديل، ولكن ليس بالضروري أن يكون دموياً مثله. إلا أن الفكر الجماعي والإرادة الجماعية التي يتميز بها «الحرس اللينيني» أظهر حيرة وقصر نظر يصعب تفسيرهما. لو أنهم صنعوا واقياً ديمقراطياً من أجل حماية الجتمع، يتمثل بتعددية الأحزاب السياسية بشكل خاص، ما كان ليهم إن كان القائد قوي الشخصية أم لا. لو أن النظام الداخلي للحزب، على سبيل المثال، حدد فترة احتلال منصب الأمين العام وغيره من المناصب المنتخبة، وتمسك الحزب بها، لاستطاع الحزب تجنب تلك

التشوهات العبودية. والعكس صحيح... عندما يكون مصير البلاد متعلقاً بخيار تاريخي واحد، بالرجل الذي يدير دفة القيادة.

وستالين الذي عمل الكثير من أجل تعزيز الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ـ بمفهومه الخاص لها الذي لا يتفق مع مفهومنا الحالي ـ مارس عملياً ما يمارسه القادة عادة في حال وجود احتكار سياسي. من الملائم هنا أن نذكر فكرة بلوتارك (٤٦ ـ ١٢٠م: كاتب سِيَر يوناني. أشهر آثاره كتاب «حيوات متوازية». ـ المترجم) التي تفيد بأن «الحياة بتمجيدها لأعمال كبيرة الأهمية لشخصيات دنيئة تفضح إفلاسهم...» الروحي. لقد عبرت عن هذه الفكرة تلك الظاهرة الاجتماعية التي نطلق عليها في كثير من الأحيان اسم «الستالينية». يمكن أن نختلف بخصوص مضمون هذا المفهوم ولكن كون الستالينية ظاهرة اجتماعية أمر مفروغ منه. ظهرت الستالينية نتيجة لتحريف الأسس الديمقراطية لسلطة الشعب، وبدونها لا تفقد الاشتراكية جاذبيتها فحسب بل وجوهرها أيضاً.

والستالينية برأيي الشخصي مرادف لتغريب الشعب عن السلطة والحرية. وذلك التغريب يظهر بشكل أساسي من خلال انتهاك حرية الإنسان، تعميم البيروقراطية متعددة الأوجه، زرع الأفكار الدوغمائية في الوعي الاجتماعي. أما تبديل سلطة الشعب بسلطة الفرد فقد أدى إلى ظهور نوع معين من الردة التي أدت بدورها، وفي نهاية المطاف، إلى اللامبالاة (خمول الناس)، إلى ضعف أهمية القيم الإنسانية العملية، انعدام ديناميكية الحركة. لقد ألقى ستالين ظله الضخم والمريض على كل مجالات الحياة السوڤييتية. كما اتضح أن التخلص الكامل من الظلام البيروقراطي والدوغمائي ليس بالأمر السهل أبداً.

على ضوء العذاب الذي عاشه الشعب السوڤييتي، ومن وجهة نظر علاقة ستالين بالقيم الإنسانية الأخلاقية، تظهر شخصيته بإفلاسها الروحي. لم يكن ستالين عديم الرحمة فيما يخص خصومه السياسيين فحسب، فأي وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظره كانت برأيه انتهازية. كان ينظر إلى الذين ليسوا معه على انهم اعداء. كان ستالين يعتبر الواجب المتمثل في الطاعة الكاملة أهم من حقوق الإنسان. كان عديم الجدوى انتظار «زامور الخطر» من التاريخ أو القدر لكي يحذر الحزب من الخطر الداهم. كان من المفروض أن يتم التحذير عن طريق المؤسسات المناسبة وبشكل رئيسي عن طريق المحيطين بستالين.

ولكن للأسف... لم يفعل ذلك أحد. والسبب الرئيسي لذلك يكمن في أن البيروقراطية التي زرعها ستالين أخذت تنمو بسرعة جنونية. لقد أصبحت الفئة البيروقراطية الضخمة أهم إبداع لستالين، الركيزة الأساسية لطرقه وخطواته ونواياه. ما دامت البيروقراطية وطريقتها في التفكير على قيد الحياة سيوجد عابدون (مؤلهون) لستالين و«قبضته الحديدية». ستالين ليس مجرد جزء من التاريخ، فهو، كما نعلم، طريقة في التفكير وفهم العالم، هو طريقة في تحديد المثل والأولويات طرق تحقيقها. بالطبع، من السهل جداً اليوم إلقاء المسؤولية على ستالين وإرثه في

كل ما يخص أخطاء، وآثام، وعيوب الماضي. ذلك سهل جدا. ولكننا إذا أمعنا التفكير في أمراض المجتمع الرئيسية ـ البيروقراطية، والدوغمائية، والتسلط ـ يتضح أن العدوى بها أصابت المجتمع في سنين سلطة ستالين الانفرادية.

القلائل فقط يدخلون التاريخ. وستالين أحدهم. ستستمر ولفترة طويلة النقاشات الحامية حوى دوره في التاريخ. سيستمر التراشق بالصفات المعبرة عن الكراهية والاحترام، المرارة والذهول. على كل حال فمن خلال حياة ستالين نتأكد مرة أخرى أن سلطة الأفكار العظيمة أقوى من سلطة البشر، في نهاية المطاف، مهما بدا هؤلاء الناس جبابرة؛ حتى الفراعنة لم يستطيعوا التغلب على التاريخ، والمومياء التي اخترعوها تثبت خسارة «الخالدين» الفادحة. وسلطة الزمن سلطة مطلقة. يجري الوقت بهدوء بعض الأحيان، وبصخب الحروب والثورات أحياناً أخرى، أو بتسلسل الخطابات والتشنجات الاجتماعية. مجرى الزمن يمر بأنصاب المشاهير وأبطال الحضارة ويفتتها فتنهار. أما آثار الفكر والثقافة فأمتن. «الالياذا»، سونيتات بيترارك، قوانين «كانط»، «حملة الأمير يغور»، واقفة حتى الآن بشموخ. وأفكار العدالة الاجتماعية والإنسانية التي تعبر عنها الأخلاق تمثل قيماً إنسانية لا تزول ـ أعمال ستالن التعسفية لم تستطع تشويه الأفكار الاشتراكية كلياً.

أجل، الشعب ما زال يؤمن بالمثل الاشتراكية حتى الآن. إلا أنه من الواضح اليوم أن الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي خسرت خسارة تاريخية فادحة. إذا فهمنا الاشتراكية ميلاً دائماً للعدالة الاجتماعية، فقد يكون لديها فرصة أخرى. المهم تحويل المجتمع البيروقراطي التوتاليتاري إلى مجتمع حضاري ديمقراطي. لم تمت أبداً «الفكرة الروسية»، ولكن المحاولات الكثيرة ما قبل الثورة للاصلاح باءت جميعها بالفشل، وكانت تخلق عادة موجات من الرجعية. جميع الحركات الإصلاحية، من الديسمبريين وانتهاءاً ببوخارين وخروتشوف باءت جميعها بالفشل. يجب ألا ننسى ذلك. سقوط حكم ستالين لا يعني القضاء على الستالينية. عودة الستالينية للحياة تحت شكل جديد ولكن مخيف واردة. ليس هذا بتنبؤ، بل تحذير من قبل التاريخ.

أريد أن أخبر القارىء أن الكتب الثلاث سلسلة «القادة» عن شخصية لينين، تروتسكي وستالين تبدأ جميعها بكلمات مقتبسة من المفكر الروسي الشهير نيكولاي بيردياييف. لقد أردت بهذه الطريقة أن أقول إن وجهة نظر غير طبقية، بل إنسانية عامة كانت موجودة فيما يخص الثورة في روسيا والنظام الستاليني. أما حق القرار من منها كانت أصح فأتركه للقارىء.

ومسألة أخرى، لقد صدر كتابي هذا في بداية تلك المرحلة المليئة بالأمل والتي أطلقنا عليها اسم الـ «بيروسترويكا». الكثير لم يكن واضحاً بعد. لو كتبت الآن لغيرت الكثير على ما أعتقد. ولكن عندما صدرت الطبعة الثانية قررت ألا أغير عملي هذا تغييراً جذرياً، صححت فقط بعض المعلومات والتقويمات.

محاولة رسم شخصية ستالين ليس مجرد رحلة إلى الماضي القريب، يجب ألا ننسى أن تلك المرحلة التاريخية التي يبعدنا عنها الوقت أكثر فأكثر ستستمر في التأثير على الحاضر والمستقبل. والمستقبل أقرب مما يتصور الكثيرون. أردت من خلال كتابي هذا أن أقول الحق عن ستالين، ذلك الإنسان والمجتمع التوتاليتاري الذي كان على رأسه.

محكمة الناس يمكن أن تزول كالشبح. محكمة التاريخ خالدة.

اختلاجات أكتوبر ١٩١٧

الثورة الروسية كارثة
الثورات جميعها كوارث
(لم تقم ثورات غير فاجعة حتى الآن)
ن. بيردياف

في بداية عام ١٩١٧ كان عُمْر يوسف فيساريونوفيتش دجوغاشفيلي (ستالين) ثلاثة وثلاثين عاماً. عاش ستالين السنوات الأخيرة في مدينة كوريكا الواقعة على حدود الدائرة القطبية الشمالية، كان لديه خلالها الوقت الكافي للتفكير. كان صوت العواصف الثلجية يساعدة على استعادة الأحداث السابقة. كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٥: أول لقاء مع ف.إ. لينين في مؤتمر الحزب في تامرفورس. النقاشات الحادة خلال الجلسات، ثم محادثات ودودة في فترات الاستراحة... مما كان يثير عجب ستالين باستمرار. مؤتمرات الحزب في ستوكهولم ولندن، حيث تعرف لأول مرة على فن النضال السياسي الحقيقي، فن البحث عن الحلول الوسط، وإظهار صلابة الرأي المبدئية...

تركت رحلاته القليلة للخارج اثراً مقلقاً في قلبه يصعب تفسيره. كان ستالين يشعر نفسه غريباً، زائداً بين محدثيه الظرفاء. لم يكن ستالين يجيد اللعب في الكلام بتلك السرعة والسهولة (الليونة) كما يفعل ذلك بليخانوف، أكسيلرود، مارتوف. كان الشعور بالتوتر الداخلي والنقص الثقافي يساور القوقازي طيلما يكون بجوار أولئك المتنورين. تولدت لديه منذئذ كراهية شديدة تجاه الهجرة والخارج والمثقفين اينما كانوا، تولدت في المقاهي الرخيصة وغرف الفنادق المليئة بدخان السجائر، وأثناء النقاشات حول المدارس الفلسفية والتعاليم الاقتصادية.

يمكن تلخيص حياة ستالين ما قبل الثورة في سبعة اعتقالات وخمس محاولات هرب من السجون والمنافي القيصرية. الا ان «قائد» المستقبل لم يكن يحب الكلام علناً عن تلك الفترة. وفيما بعد لن يحدث ابداً عن اشتراكه في عمليات نزع الملكية لصالح الحزب، ولا عن موقفه المؤيد «للوحدة مع المناشفة مهما كان الثمن»، ولا عن أول خطواته المتزعزعة في مجال الكتابة الأدبية. وذات يوم، بينما

كانت عاصفة ثلجية تكاد تهدم سقف الكوخ الذي يسكنه ستالين، استذكر الأخير احزّ قصائده الأولى ـ البدائية ـ المفضلة التي كان لها الشرف ان تُنشر في صحيفة «ايفيريا» حينما كان ستالين ـ الطالب في السابعة عشرة من العمر. كان يتمتع بذاكرة ممتازة زادت من حنينه لجبال القوقاز وأمله الثوري المشوش.. وبصوت خافت هامس اخذ ستالين يسترجع من ذاكرته ببطء:

لاح القمر بهالته
منيراً عالمنا الأرضي،
وضوؤه فوق الأفق البعيد
يلعب بزرقة باهتة.
عندما فوق الاحراج في الزرقة اللازوردية،
تهدر ترانيم البلابل
وصوت الناي الوديع
يرن بحرية، دون ان يتضاءل يتلاشى
عندما يخفت للحظة،
ترن مرة اخرى المفاتيح في الجبال،
والريح تهب برقة،
فتستيقظ ليلاً الغابة العَتِمة.

* * *

عندما الهارب الذي يلحقه العدو،
يعود إلى منطقته الكئيبة واجماً،
عندما المتعب من الظلام الحالك،
سوف يرى الشمس صدفة،
عند ذاك الغيوم...
عند ذاك ينقشع الغمام العابس،
الذي يضغط على الروح.
الأمل بصوت قوي
يوقظ قلبي من جديد.
روح الشاعر تهدف إلى الأعالي،
والقلب يخفق ليس بلا سبب.
اعلم ان هذا الأمل
مبارك ونظيف

بينما كان ستالين يدمدم لا شعورياً أبياته الشعرية كمن يقيم الصلاة، كانت صاحبة البيت الكسحاء (الفقيرة المسكينة) تنظر باندهاش إلى المستأجر العابس وهو جالس بكتابه المفتوح أمام الشمعة الغامزة ينظر إلى النافذة المتجمدة (المثلجة) العمياء. لقد ترك ستالين للأبد في شبابه الماضي ليس شعره الساذج فحسب، بل ما

يسميه المثقفون بالعاطفية كذلك. الطفولة القاسية وحياة الهارب السرية جعلا منه إنساناً بارداً، جافاً، شكوكاً. ولم يعد يبعث الرسائل، حتى لوالدته، إلا نادراً.

كان ستالين يجيد طرد الأفكار والذكريات المزعجة. لكنه بعد وفاة زوجته «كاتو» ظلت صورة تلك المرأة المشوهة من التيفوئيد تساور ذهنه... يسترجع كيف كللهما سراً في كنيسة القديس داوود زميله في الكلية الروحية كريستوفر تيخنفوليلي في حزيران (يونيو) عام ١٩٠٦. كاتو (كاترينا سفانيدزيه) كانت فتاة جميلة جداً، تنظر بعيونها الكبيرة بحب وإخلاص إلى زوجها الذي يأتي تارة ويغيب تارات أخرى. انتهت حياتهما الزوجية بسرعة. خطف منه التيفوئيد الإنسان الوحيد الذي يحبه حقاً. في الصورة الفوتوغرافية عند الدفن كان ستالين بشعره الأشعث قصيراً وهزيلاً واقفاً عند رأس التابوت باكتئاب شديد.

بدأت بذور القساوة والبطش التي زُرعت في الماضي تكبر وتنمو. جعلت منه الحياة السرية رجلاً قاسياً: منذ التاسعة عشرة لم يعرف غير الهرب، وتنفيذ قرارات اللجان الحزبية، والاعتقالات، وانتحال الأسماء والشخصيات المختلفة، وتغيير مكان إقامته، وتدبير جوازات السفر المزورة. لم يكن يطيل الجلوس في السجن، يهرب ويختبيء مرة اخرى.

تعلم ستالين الكثير من حياته تلك، تعلم: الخبث والحذر، القدرة على انتظار الفريسة. الطابع الكتوم والبرود الداخلي اللذان كانا واضحين في شبابه تحولا مع الوقت لانعدام الشعور والبطش. لكنه سيتعلم فيما بعد كيف يلبس قناع الهدوء المصطنع، وكيف يبدو امام الناس مرحباً ذا عيون ثاقبة.

لماذا أصبح يوسف دجوغاشفيلي ثائراً؟ أيكمن السبب في أنه تلقى فتات الغذاء الفكري في المدرسة الدينية في غوريسكي، ومن ثم في معهد تيفليس الديني؟ من يعلم؟ أتكون أعمال جان جاك روسو، أو نيتشه، أو لوك قد وقعت بين يديه ليستغرق في التفكير: لماذا يرقع والده الاسكافي أحذية الفقراء فقط؟ أم ان عدم قناعته بالإنعزالية الدينية ادى به للالتحاق بالجماعات الانتفاضية؟ أم أن عينيه تفتحتا للعالم بعد تعلم «ألف باء الماركسية؟» من يعلم؟! لو لم يحدث فيه ذلك التغيير الجذري ـ على حافة القرن ـ من التدين إلى العلمانية والإلحاد، لحظيت قريته الجورجية بخوري أورثوذوكسي قصير القامة، براعٍ روحي للناس، ولكانت حياته معزولة عن العالم ليس فقط بسلسلة من الجبال الشامخة، بل وبهموم أبرشيته الصغيرة، وبكومة من الأطفال، وبأحلام عن حياة تيفليس الصاخبة. هل كان لابن فلاح فقير أن يحلم أن مشيئة القدر والظروف سوف تتيح له أن يكون ـ في فترة من تاريخ شعب عظيم ـ أكثر من مجرد راعي كنيسة؟

صورة أمامية وصورة جانبية

بعد ثورة أكتوبر بقليل أصبح ظل ستالين قصير القامة كبيراً، وفي الثلاثينات أخذ يكبر ويكبر حتى أصبح ضخماً، وفي آخر سنوات حياته... عملاقاً شريراً

(رهيباً). من كان ليتوقع قبل عام ١٩١٧ أن عضو الحزب السري الباهت سيبدأ صعود سلم السلطة بعد عام ١٩٢٢؟! أخذ ستالين يزيح صفوف جماعة لينين المتراصة وصعد هرم القيادة بسرعة مدهشة إلى أن وصل إلى القمة. من كان ليتوقع أن قادة البلاشفة سيتلاشون بتلك السرعة إثر وفاة لينين؟! وأنهم بصعود ستالين سيتلاشون أكثر فأكثر؟! قبل الثورة كان ستالين معروفاً في مراكز الشرطة بشكل أساسي. عند كل لقاء جديد كانوا يلتقطون له صوراً أمامية وجانبية لا تزال موجودة في أرشيف مدينة باكو.

لم يكن رجال الشرطة يجيدون حراسة «مجرمي الدولة»، لكن يبدو أنهم كانوا يجيدون وصفهم بدقة. يفيد ملف دجوغاشفيلي انه «ضعيف البنية»، «أسود وكَثّ الشعر»، «غير ملتحٍ وبشارب رفيع»، وجهه «ارقط عليه علامات الجدري»، شكل الرأس «بيضاوي»، الجبين «مستقيم، غير عريض»، الحاجبان «مقوسان»، العينان «غائرتان، ما بين البني والعسلي»، الأنف «مستقيم» الطول «أرشينان و٤,٥ فيرشوك» (أي ١٦٢سم)، القوام «وسط»، الذقن «حادة»، الصوت «خافت»، علامات فارقة: «شامة على الأذن اليسرى»، «يده اليسرى فيها جفاف»، «الأصبعان الثاني والثالث من القدم اليسرى ملتحمان»، وعشرون من فوارق خاصة اخرى. فيما بعد، تحت سلطة دجوغاشفيلي ـ ستالين الجبار، لن يعود حراس أمن الدولة يهتمون بتفاهات كهذه. فلن يتمكن أحد من المعتقلين السياسيين الفرار من السجن في عهده، كما فر هو خمس مرات في عهد غيره. لن يهتم ستالين، عند تقرير مصير الآلاف من «خصومه»، على أية أذن «توجد شامة»، أو كم «شبر» طول «عدو الشعب». المقاييس سوف تتغير.

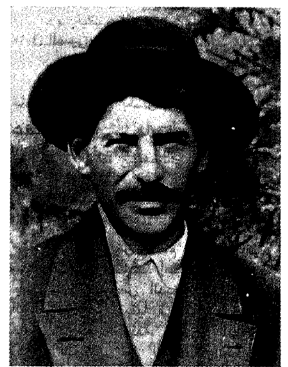
أعتقد أن القارىء لا تهمه صفات قائد المستقبل الجسدية، بقدر ما تهمه أفكاره السياسية والأخلاقية قبيل الثورة عام ١٩١٧. سأقول فوراً إن ستالين لم يكن «شريراً» منذ الطفولة كما يعتقد البعض اليوم. ولكن يجب ألا ننسى شخصية ستالين ـ الطفل، إذا أردنا أن نفهم ستالين الرجل.

نحن لا نعلم الكثير عن طفولة دجوغاشفيلي. ستالين نفسه لم يكن يحب الكلام عن تلك الفترة. كانت طفولته كئيبة وبلا حيوية. والداه، كاترينا وفيساريون دجوغاشفيلي، الفلاحان الفقيران، عاشا في فقر سحيق. من أبنائهما الثلاثة توفي ميخائيل وغيورغي، ولم يبق لديهما سوى يوسف. ولكن هو أيضاً أصيب بالجدري السوداء، وكاد يموت كأخويه، مما أعطى الشرطة، فيما بعد، للإشارة إلى ذلك تحت خانة «علامات فارقة» في ملفه. كما كتب احد كتّاب المناشفة، ي. يرماششفيلي، الذي كان على علاقة بعائلة دجوغاشفيلي، كان والد ستالين، ذلك الاسكافي ـ الحرفي، يكثر من شرب الكحول. كثيراً ما كان ينهال على زوجته وابنه بالضرب. كان الأب الثمل، يضرب الفتى متقلب المزاج قبل النوم وذلك لأن الابن لم يكن يخفي كراهيته تجاه الأب. عندها تعلم يوسف الخبث، محاولاً تجنب الاصطدام بأبيه. لكن الأم كرست حياتها لابنها. بإصرار منها وبجهودها الضخمة، التحق سوسو



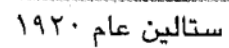


ستالين، يوم كان مطلوباً للعدالة أثناء الحكم القيصري، لقد اعتقل مراراً، وفرّ من السجن مراراً.



ستالين، حين كان يلقب بـ «كوبا».




ستالين عام ١٩٢٠

بالمدرسة الدينية، ومن ثم بالمعهد الديني. الخلاف العائلي استمر، وبعد فترة حصل الانفصال الحاسم بين الأم والأب، الذي غادر بدوره إلى تيفليس حيث لقي حتفه في نزل للمبيت ودُفن على حساب الدولة.

عندما قرر ي. دجوغاشفيلي التفرغ للثورة غادر منزل أهله للأبد. كما استطعنا المعرفة ان ستالين لم ير والدته عام ١٩٠٣ سوى أربع ـ خمس مرات. لقد جاءت كاترينا غيورغ بين الأم والأب، الذي غادر بدوره إلى تيفليس حيث لقي حتفه في نزل للمبيت ودُفن على حساب الدولة.

عندما قرر ي. دجوغاشفيلي التفرغ للثورة غادر منزل أهله للأبد. كما استطعنا المعرفة ان ستالين لم ير والدته عام ١٩٠٣ سوى أربع ـ خمس مرات. لقد جاءت كاترينا غيورغيفنا لزيارة ابنها لأول مرة في موسكو عندما أصبح أميناً عاماً للحزب. رأى ستالين والدته لآخر مرة عام ١٩٣٥. هل كان الابن يفكر بأن رغبة امرأة شديدة لدفعه من الفقر إلى الأعلى هي التي أعطته الفرصة التي استغل؟ بعد عامين من ذلك اللقاء الأخير، وبعد أن عاشت لتشهد أحداث عام ١٩٣٧ المأساوية، توفيت والدته في حزيران (يونيو) عجوزاً.

في لقاء له مع ستالين في كانون الأول (ديسمبر) سأل الكاتب الألماني، إيفيل لودفيك، محدثه:

ـ ما الذي دفعك للمعارضة؟ هل هو التعامل السيىء من جهة الأهل؟

أجاب ستالين:

ـ كلا. لقد كان والداي غير متعلمين، لكنهما كانا يعاملاني بشكل لا بأس فيه أبداً.

جميع المعلومات عن طفولة ي. دجوغاشفيلي تدل أن كل ما قاله «القائد» لذلك الكاتب الألماني يعبر عن علاقته مع والدته فقط. لودفيك، الذي كتب سيرة موسوليني، وكايزر فيلهيلم، وماساريك، حاول من خلال ساعة حديث مع ستالين أن يتخلل إلى عالم «الديكتاتور السوفييتي الغامض» الداخلي. لا أعتقده نجح في ذلك. فستالين لم يكن يريد نشر المعلومات عن تلك الفترة المبكرة من حياته.

إذا أردنا النظر إلى ستالين من خلال منظار الأخلاق من الأمام ومن الجانب، لوجدنا أنه من خلال دراسته في المؤسسات الدينية اكتشف إمكانياته الكبيرة وذاكرته الفريدة من نوعها. كان سوسو يستوعب النصوص الدينية أسرع من زملائه. حرك العهد القديم والجديد داخل الطالب شوقاً حقيقياً في بادىء الأمر. حاول الوصول إلى فكرة الإله الواحد، حامل البركة المطلقة، القدرة المطلقة، والمعرفة المطلقة. إلا أن دراسة علم اللاهوت كتركيب من العقائد والمبادىء الأخلاقية أسأمت دجوغاشفيلي. دون أن يشعر بذلك بدأت تحدث في عقل الطالب الذكي ـ يجب ألا ننسى ان سوسو درس في مؤسسات دينية لأكثر من عشر سنوات ـ تغيرات في طريقته في التفكير وفي أعماله، مما سيؤثر على حياته المستقبلية تأثيراً هاماً. كما يجب ألا ننسى السنوات العشر التي قضاها ستالين في

السجون والمنفى. زاد وضع الثائر الفتي المنبوذ من قساوته وكرهه للقدر. التركيبة الغريبة للقوانين الدينية التي رفضها عقله ـ ولم ترفضها نفسيته نفسه ـ الانعزال الاجتماعي، ونتيجة لذلك... الميل للأعمال الانتفاضية، تركت جميعها، بلا شك، أثراً في شخصية ستالين الفتية. كان لا بدّ للسنوات الخمس عشرة الأولى من نموه، التي مضت على كراسي المدارس الدينية وفي الزنازين، أن تترك أثراً عميقاً على فكر، وشعور وإرادة الثائر المتفرغ. ظهر ذلك بشكل حاد في عدد من صفاته الخاصة.

إحدى تلك الصفات... السعي لتصنيف وترتيب ما يعرفه من معلومات في «خطوط فكرية»، أي، إذا جاز التعبير، أن تفكيره «كاتيخيزيسي» (تعليم أصول الدين بالسؤال والجواب). يخلق هذا النوع من الناس تصوراً لدى الآخرين أنهم ذوو فكر منطقي «منظم». ومن سمات ستالين الشخصية الأخرى ـ انعدام النقد الذاتي الجاد لأفكاره وأعماله الشخصية. لم يتوقف دجوغاشفيلي طوال حياته عن الإيمان بالقوانين المسلم بها: المسيحية منها ـ في بادىء الأمر، والماركسية ـ فيما بعد. وأي شيء لا يقع في إطار تلك القوانين والمفاهيم، كان سوسو يعتبره: كفراً ـ عندما كان متديناً، أو انتهازياً ـ عندما أصبح ماركسياً. وبما أن ستالين لم يشكك يوماً بالأسس الفلسفية النظرية التي يؤمن بها إيماناً أعمى، فهو ما كان ليرى أهمية التعامل النقدي مع أفكاره وأعماله الشخصية. كان يعتبر أنه لم ينحرف أبداً عن المبادىء الماركسية الكلاسيكية. وهو، بالرغم من أنه لم يعترف لنفسه بذلك، يفضل الإيمان بالحقيقة على الحقيقة نفسها. قد يتساءل البعض، أليس جيداً أن يؤمن الإنسان بمبادىء وقيم ومثل؟ بلى، لكن، هل من الجيد أن يطرح الإيمان الحقيقة والواقع بعيداً؟ فهذا ما حصل لستالين. ساعدت التربية الدينية والمكانة الاجتماعية على زرع أنانية عميقة الجذور في نفس ستالين، حيث أصبح دور الـ «أنا» الذاتية الذي يلعبه هو أضخم وأهم ما في الكون.

كان دجوغاشفيلي يتمتع بإرادة صلبة، ويروق له أن يذكره رفاقه بذلك. لذلك قرر تثبيت تلك السمة في الاسم المستعار الذي انتحله، فاختار لنفسه كنية «حديدية» (تعني كلمة «ستال» في اللغة الروسية: فولاذ، و«ستالين» تعني: فولاذي). ولم يكن دجوغاشفيلي وحيداً في رغبته تلك. فقد انتحل ل.ب. روزنفيلد، على سبيل المثال، اسم «كامينيف» (أي الحجري). لكن «الحجر»، كما سيثبت التاريخ، لن يستطيع الصمود أمام «الفولاذ».

أراد ستالين أن يغرس في نفسه الإيمان، الإيمان في صلابة إرادته، في حصانة مكانته كزعيم للمنطقة. والإيمان هو إسمنت الدوغمائية، وستالين لم يفقد إيمانه أبداً. بالرغم من أن ستالين انتقد الدوغمائية مراراً ـ بمفهومه المبسط والمشوه لذلك المصطلح ـ الا انه كان يميل دائماً إلى التعامل الجاف مع قوانين النظرية الماركسية، مستنتجاً منها استنتاجات خاطئة جداً. هكذا، أدى فهم ستالين المطلق لجوهر ومعنى الصراع الطبقي إلى تكوين المعادلة التالية في الثلاثينات: «كلما تتم نجاحات جديدة في بناء الاشتراكية، كلما يتفاقم الصراع الطبقي». والانتهازية والانشقاقية والاختلاف في وجهات النظر ليست سوى مرادفات لخصوم

طبقية. كان طالب المدرسة الدينية السابق ينظر إلى ديكتاتورية البروليتاريا من منظور العنف الاجتماعي دون الاهتمام بأساسها الابداعي. قبيل الثورة كان ستالين قد استوعب أسس الماركسية، لكنه كان يفتقد إمكانية تطبيقها بشكل ابداعي. اثر التعليم الديني ـ والوحيد الذي تلقاه دجوغاشفيلي ـ ليس على مضمون أفكاره، إنما على طريقة تفكيره بشكل أساسي. ولم يستطع ستالين التخلص من شباك الدوغمائية ـ غير المرئية في بعض الأحيان ـ حتى النهاية.

لم يكن لستالين أي أصدقاء مقربين، وبالأخص أصدقاء استمرت علاقته الوطيدة بهم طوال حياته. لم تسمح له حساباته السياسية، وبرودته العاطفية، وعماه الأخلاقي بتكوين ـ والحفاظ على ـ الأصدقاء. والأعجب من ذلك أنه في نهاية حياته تذكر زملاءه في المدرسة الدينية. تثبت الواقعة التالية صحة ذلك.

خلال الحرب اكتشف ستالين صدفة مبلغاً كبيراً من المال في خزنة مساعده أ.ن. بوسكريبيشيف، فسأستفسر منه بتعجب وشك، ناظراً إليه وإلى كومة الفلوس:

ـ ما هذا المال كله؟

ـ هذا مالك كنائب في البرلمان. لقد تجمع على مدى السنين. أنا آخذ منه فقط لدفع رسوم الاشتراك الحزبي بدلاً عنك.

لم يعلق ستالين على ذلك. لكنه بعد عدة أيام أمر بتحويل مبالغ كبيرة لِـ بيوتر كوبنادزيه، غيورغي غلوردجيدزيه، ميخائيل دزيرادزيه. كتب ستالين بخط يده على ورقة:

«١ ـ لصديقي بيتيا [اسم التحبب لِـ بيوتر ـ المترجم] ـ ٤٠٠٠٠ روبل.
٢ ـ ٣٠٠٠٠ روبل لِغريشا [اسم التحبب لغيورغي ـ المترجم].
٣ ـ ٣٠٠٠٠ روبل لِدزيرادزيه.
١٩٤٤/٥/٩. سوسو»[1].

كما كتب في اليوم نفسه رسالة قصيرة باللغة الجورجية:
«غريشا:
تقبل مني هدية صغيرة.
١٩٤٤/٥/٩. صديقك سوسو»[2]

بقي في «أرشيف» ستالين الشخصي عدة رسائل مماثلة. في العقد السابع من حياته، في ذروة الحرب، أظهر ستالين فجأة ميولاً خيرية. وتذكر بشكل خاص أصدقاء شبابه البعيد: زملاء المدرسة والمعهد. وما يزيد من غرابة ذلك الموضوع هو أن ستالين لم يكن عاطفياً، أو روحانياً، أو طيب الأخلاق في يوم من الأيام. والحقيقة تقال، أنني على علم بعمل خيري آخر قام به ستالين بعد الحرب. بعث القائد رسالة إلى بلدة بتشيلكا في قطاع تومسك بالمضمون التالي:

«الرفيق ف.غ. سولومين:

استلمت رسالتك المؤرخة ١٩٤٧/١/١٦، المبعوثة مع العالِم تسيتسين. لم أنسك وأصدقائي من توروخانسك، وأعتقد أنني لن أنساكم أبداً. أبعث لكم من مخصصي كنائب ستة آلاف روبل. هذا مبلغ غير كبير ولكنكم قد تحتاجون له.

أتمنى لكم الصحة.

ي. ستالين»[٣].

أخبرني أحد البلاشفة القدامى، كان قد نُفي تحت السلطة السوفييتية إلى نفس المنطقة التي نُفي إليها ستالين في المرة الأخيرة، بأن ستالين كانت لديه علاقة مع امرأة من سكان تلك المنطقة، وأنها أنجبت منه طفلاً. بالطبع، لم يذكر «القائد» هذا الموضوع أبداً ولا في أي مكان. لم أستطع التأكد ان كان ستالين قد اهتم لرعاية تلك المرأة التي التقى مصيرها مع حياة الثائر المنفي، أم أنه اكتفى بأن «يعتقد أنه لن ينسى» أصدقاءه من توروخانسك.

من الممكن أن أعباء حياة الثائر المتفرغ ـ الذي اضطر للهرب من القانون، والدخول إلى السجن، والسفر إلى المنفى ـ هي التي رسخت فيه الجفاف، والبرودة، والفطنة، والحذر. لاحظ جميع من عرف ستالين في تلك الفترة قدرته النادرة على تمالك النفس والحفاظ على رصانته والتحلي بالصبر. كان قادراً على النوم بالرغم من الضجيج، على تقبل الحكم ببرودة أعصاب، على تحمل قوانين الشرطة بصلابة. وعلى الأغلب، أن المرة الوحيدة التي رآه فيها الناس مهزوزاً، كانت عند وفاة زوجته الشابة من التيفوئيد الباطني، تاركة لزوجها الجوّال طفلاً ذا شهرين اسمه ياكوف. أرضعت الطفل امرأة حنون تدعى مونا سيليدزيه. أما ستالين فازداد جفافاً.

ظهر ستالين خلال آخر منفى له، قبيل الثورة، في بلدة توروخانسك، لرفاقه انساناً كئيباً لا يحب العشرة. وصف سفيردلوف ستالين في عدة رسائل من المنفى بأنه «انسان انفرادي في الحياة اليومية»[٤]. كان ستالين عضواً في اللجنة المركزية للحزب منذ وصوله إلى المنفى ـ كما كان هناك ثلاثة أعضاء آخرين في اللجنة، وهم سفيردلوف، سبانداريان، غولوشيكين ـ لكنه كان يتعامل معهم بتحفظ وانطوى على نفسه. والشيء الوحيد الذي يهمه هو الصيد وصيد السمك الذي تولع به. كي لا نظلم، علينا الإشارة أن ستالين تشجع في إحدى المرات إلى تعلم الايسبيرانتو ـ كان أحد المنفيين قد أحضر كتاباً لتعليم تلك اللغة ـ، لكن حماسته سرعان ما انطفأت. وما كان يخترق نسكه سوى زيارات عرضية لِسورين سباندريان الذي يعيش في قرية موناستيرسكي. كان ستالين يلتزم الصمت في معظم الاجتماعات التي ينظمها المنفيون، مكتفياً بالتعليقات القصيرة فقط. تصور الآخرون أن ستالين إنما ينتظر شيئاً باستمرار، أو أنه متعب من الهروب الدائم. على كل الأحوال، سلبيته الاجتماعية خلال السنتين أو الثلاث سنوات قبيل الحرب لمدهشة.

بدا انه بعد نجاح عمله «الماركسية والمسألة القومية»، الذي انتهى من كتابته

في كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ في ڤيينا، انه سيستغل الوقت في المنفى لمتابعة ذلك العمل، خصوصاً وأنه كان على علم بتقويم لينين العالي لمقاله ذلك[٥]. لكن ذلك التقويم لم يكن كافياً لتشجيع ستالين على التعمق في دراسة ذلك الموضوع. يشهد خمول المنفي الاجتماعي والإبداعي، الذي استمر فترة لا بأس بها، أن ستالين كان يعاني من اكتئاب نفسي عميق. بالرغم من وجود مكتبة والكثير من وقت الفراغ، لم يحاول ستالين، مجرد محاولة، أن يكتب موضوعاً جاداً خلال أربع سنوات.

وبالمناسبة، لقد تصرف ستالين بهذه الطريقة السلبية مرتين من قبل: عند ابعاده إلى سولفيتشيغوتسك، في ١٩٠٨ و١٩١٠. يبدو أن العزلة، أكاملة كانت أم جزئية، عن المراكز الثورية كانت تؤدي بستالين إلى حالة من الانتظار السلبي.

يقرأ المنفيون والمعتقلون الثوار بكثرة عادة، كما تؤكد مذكراتهم. كان السجن بالنسبة لهم مدرسة فريدة من نوعها. يذكر أوردجونيكيدزيه، على سبيل المثال، أنه قرأ، خلال فترة اعتقاله في قلعة شليسيربورغ، أعمال آدم سميث، ريكاردو، بليخانوف، بوغدانوف، دجيمز، تايلر، بيكر، كلوتشيفسكي، كوستوماروف، دوستويفسكي، ايبسين، بونين...[٦] كان ستالين يقرأ كثيراً ويتعجب دائماً لتسامح النظام القيصري الذي يتصارع مع «دافنيه»، ثم يسمح لهم ألا يعملوا، وأن يقرأوا بالقدر الذي يريدون، حتى وأن يهربوا. كي يهرب الإنسان من المنفى، يجب أن يكون لديه، بشكل أساسي، إرادة فقط لا غير. من الممكن أن يكون ستالين قد توصل آنذاك إلى استنتاج القانون الذي سيلجأ إليه أكثر من مرة في المستقبل، ألا وهو: السلطة القوية يجب أن تملك أجهزة تأديب قوية. عندما أصبح ستالين قائداً، وبعد أن بدأ حملة التطهير الدموية في البلاد، أعطى موافقته على اقتراح ييجوف حول تغيير نظام وحقوق المعتقلين السياسيين. وفقاً لرغبته الخاصة، وباصرار منه، تمت إضافة النقطة التالية على قرار اجتماع اللجنة المركزية الذي عقد في شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) بعد قراءة تقرير ييجوف: «نظام السجون بالنسبة لأعداء السلطة السوفييتية ـ التروتسكيين والزينوفييفيين اليساريين وغيرهم ـ لا يطاق. فهو أشبه بنظام بيوت الراحة الإجبارية منه إلى نظام السجون.. الاختلاط مسموح، وكذلك استلام الرسائل والطرود من خارج السجن وإلخ...»[٧] بالطبع، اتخذت الإجراءات اللازمة. انتهى عهد المدارس بالنسبة للمعتقلين المساكين.

أصبحت الحياة في المنافي الستالينية صراعاً يائساً من أجل الحياة. هلك معظم المعتقلين. وكانت أية محاولة هرب تعتبر حادثة تتطلب تقديم التقرير بها إلى ستالين نفسه. هكذا، قدم وزير الداخلية عام ١٩٤٨ تقريراً إلى ستالين وبيريا:

«تعلمكم وزارة الداخلية أن مجموعة من المعتقلين عددهم ثلاثة وثلاثون شخصاً تمكنوا من الهرب في ١٩٤٨/٦/٢٣ من معسكر الأشغال ـ التصحيحي التابع لسكك الحديد الشمالية بعد أن استولوا على سلاح اثنين من الحراس، بندقيتين وأربعين طلقة، وفروا شمالاً على ضفة نهر أوبي اليسرى...

تمكنت قواتنا حتى ٦/٢٩ من القضاء على أربعة من الفارين والقبض على اثني عشر والآخرون ملاحقون...

س. كروغلوف»[٨].

أمر ستالين بإرسال أحد المسؤولين إلى المنطقة لإلقاء القبض على الآخرين، على أن يُقدم له تقريراً مفصلاً عند الانتهاء من «العملية». أجل، لم تكن أجهزة ستالين التأديبية لتقارن بأجهزة القيصر الغابرة.

لنعد إلى توروخانسك حيث كانت الصحف تصل بعد تأخير كبير. لكنها كانت كافية ليدرك «قائد» المستقبل أن البلاد تقف على حافة أحداث هامة. ووقعت الحرب العالمية الأولى. وغرق ستالين في سبات عميق. بدا وكأنه لم يعد يريد الهرب من المنفى، لسببين: أولاً ـ الصعوبات التي قد تواجهه كفار من القانون في ظروف الحرب، وثانياً ـ عدم رغبته أن يخدم في الجيش في حال حصلت تعبئة عامة. وعندما نظرت لجنة التعبئة في شباط (فبراير) ١٩١٧ في موضوعه، أعفي ستالين من الخدمة بسبب عاهاته الجسدية (الجفاف في اليد والتحام أصابع القدم).

بينما كان المجتمع الروسي يعيش حالة توتر عالية، وبينما بدأت الجماهير تعبر عن استيائها من الحكومة، أمضى ستالين سنوات المنفى الأربع تلك في حالة انتظار وترقب. ألا يكون قد شعر بخيبة أمل بعد عقدين من النشاط الثوري بدون جدوى؟ أم أنه تنبأ بالمرحلة الجديدة من حياته العملية (بالدور الجديد الذي سيلعبه قريباً؟) أم اختلت ثقته في إمكانية القضاء على الحكم الاستبدادي القيصري؟ من يعلم؟ ستالين نفسه لم يكتب شيئاً، ولم يحدِّث سوى القليل، عن تلك الفترة من حياته.

لم يكتب ستالين شيئاً في تلك السنوات الأربع، ولم يتصرف كعضو في اللجنة المركزية للحزب [مع انه دخل اللجنة المركزية عام ١٩١٢ ـ المترجم]. كان سباندريان وسفيردلوف هما القائدان الفعليان في المنفى، واللذان يلتف حولهما المنفيون. أما ستالين، فكان منعزلاً ولا يشارك بقية المنفيين تحلقهم حول هاتين الشخصيتين، رغم انه كان لا يخفي تعاطفه المتحفظ مع سباندريان، ذلك الثائر المثابر الذي شاء قدره ألا يرى بزوغ شمس الثورة، حيث توفي عام ١٩١٦ إثر مرض عضال.

يُعتقد أن مرحلة الاكتئاب النفسي الطويلة التي مر بها ستالين في المنفى كانت فترة استخارة (استقراء الماضي وتحديد المستقبل). في مكان ما كان ينمو

ابنه. لم يعطِ ستالين ابنه شيئاً، بل لم يكن بإمكانه أن يعطيه شيئاً. ما كان يعرفه ستالين عن امه لم يكن شيئاً يذكر. كان ستالين قد قارب الأربعين من العمر، ولا تزال آفاق مستقبله أمامه ضبابية.

لم يكن ستالين متخصصاً في أي مجال، فلا يتقن أي عمل، ولم يكن له مهنة، وما كان يمارس عملاً مطلقاً. ومن المفارقات ان الذي قاد حزبنا ودولتنا خلال ثلاثة عقود كان رجلاً لم تكن له مهنة من قبل، اللهم اذا اعتبرنا ان الفشل في طلب العلوم الدينية مهنة. وهنا نشير إلى أن سكاريابين (المعروف بـ مولوتوف) خريج معهد متوسط، ومالينكوف كان طالباً فاشلاً، ولكنه أثبت جدارته في شبابه كسكرتير دولة للتقنية، وكاغانوفيتش كان إسكافياً لا بأس به، أما ستالين فلم يكن حتى إسكافياً، رغم ان والده كان كذلك.

كان رجال الشرطة ـ أثناء تحرير استماراته ـ يحتارون في تحديد مهنته، فتحت بند «المهنة» كانوا يكتبون أحياناً «موظف»، وأحياناً أخرى يتركونها فارغة. وحتى ستالين نفسه كان يجد صعوبة في تحديد مهنته وفئته الاجتماعية، عندما يحرر استماراته الخاصة بالحزب ونشاطاته التنظيمية. وعلى سبيل المثال، في استمارته للمؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك) [٣/٢٧ ـ ١٩٢٢/٤/٢ ـ موسكو. ـ المترجم.]، لم يستطع ستالين أن يجيب على سؤال «إلى أي فئة اجتماعية تعتبر نفسك منتمياً؟ ـ فلاح، عامل، موظف.»، ولذلك ترك الفراغ أمام هذا السؤال نظيفاً(٩).

ولكون أمين عام المستقبل كان ثائراً محترفاً ومتفرغاً، فقد كانت معرفته أقل من معرفة المعتقلين والمنفيين الآخرين بحياة العامل والفلاح والموظف. قد لا يكون بالامكان تجنب هذا العيب في ظروفه تلك، ولكنه أصبح من مكونات شخصيته الأساسية. كان يخيل إليه أنه على دراية تامة بحياة الشغالين... ولكن كانت تلك الدراية سطحية وغير مباشرة. «والحق يقال!» انه في المستقبل سيكون، ستالين، «يعرف كل شيء!» و«يتقن كل شيء!». الصمت الطويل في توروخانسك، ربما كان نوعاً من المراجعة لحياة ليست قصيرة. كل شيء كان يدل على أنه فات الأوان لإمكانية انسحاب ستالين من مسرح الثورة. استعاد ستالين لياقته «الحربية» وثقته بنفسه تدريجياً من جراء تتالي الأخبار عن تنامي المزاج الجماهيري المعادي للحرب والتعاظم الجديد للحركة الثورية في بتروغراد (لينينغراد ـ بطرسبورغ).

صحيح أن هنالك بعض الشهادات المخالفة لما ذكرنا عن تلك الفترة من حياة

ستالين. فهنالك كتيّب صدر عام ١٩٣٩ تحت عنوان «ستالين في منفى توروخانسك ـ ذكريات مناضل تحت الأرض» لإحدى البلشفيات القديمات وتدعى فيرا شفيستر. تؤكد الكاتبة في كتيّبها ذاك أن ستالين كان نشيطاً مع بداية الحرب العالمية الأولى، وأنه قدم للحزب بحثاً يفند «السياسة الدفاعية». وتدعي الكاتبة أن ستالين قد انتهج السياسة الأممية مبكراً. لم يُعثر على بحث ستالين المشار إليه، كما أنه لم يسمع به أحد ولم يذكره أحد من المنفيين مع ستالين غير الكاتبة. ونشير إلى أن فيرا شفيتسر التي وصفت حياة المنفيين بدقة ما كان بإمكانها ـ في فترة التطهير الدموي ـ أن تكتب بحرية عن حياة ستالين، ولذلك فهي تقول ان «موضوعات لينين جاءت لتؤكد صحة رأي ستالين في الحرب»، وأن ستالين استشف في تلك الفترة أن كامينيف مؤهل لخيانة الثورة فحذر رفاقه المنفيين من الوثوق به. وتقول الكاتبة أن «ستالين ترجم في المنفى كتاب روزا لوكسمبورغ للغة الروسية»، وأن «الرفيق ستالين كان يعمل بفاعلية»، وكان يعيش «فقط بالأفكار والأهداف التي يتفق بها مع فلاديمير لينين»[١٠]... ونرى أن الدافع وراء مثل هذه الشهادات والتبريرات واضح، ومما لا شك فيه أنه ما كان ممكناً أن تصدر أعمال موضوعية حول ستالين في تلك السنوات.

وبالغوص والتنقيب في مراكز الملفات المتعددة وتحليل ما فيها من ذكريات وشهادات «نخبة» المنفين في توروخانسك (غولوشكين، كامينيف، سفيردلوف، سباندريان، ستالين، بيتروفسكي)، نستخلص أن السنوات الأربع قبيل ثورة أكتوبر كانت أكثر السنوات خمولاً في حياة ستالين. لعل الرياح القطبية والبرد السيبيري في الصحراء الثلجية قد جمدت نشاطه الفكري والاجتماعي! كان من الجنون أن يتخيل شخص ما ان ذا الشعر الأشعث المستكين على أريكة سارحاً وسط زمجرة العواصف لسنوات عديدة، سيأتي يوم غير بعيد ليكون «قائداً» لدولة كبرى وحزبها. كان ستالين ينتظر، ويسجل الأحداث ويرسم مساة حياته المستقبلية. من يعلم ما هو شريط الذكريات الذي كان يمر أمام عينيه في تلك الفترة: هل هو منفى تامرفورس، أم السجن في باتومي، أم منطقة فولوغدا، أم شقة أليلوييف (حماه المستقبلي)، أو ربما ابنه الصغير، الذي لم يره لسنوات؟ الأفكار التي لا تتجسد بتصرفات أو أعمال ما هي إلا تشكيلات سحب متحركة لا يمكن الإمساك بها أو تكرارها. بماذا كان يفكر «قائد» المستقبل وهو يستعد للنوم مدنياً من ذقنه معطفه من فرو الكلاب؟

إذا أخذنا «صورة أمامية وجانبية» لأمين عام المستقبل من خلال التحليل

الطيفي (بواسطة المنشور الزجاجي) باستخدام معارفنا الحالية لا مندوحة عن ذكر سمعة ستالين الثابتة كـ «نازع للملكية»، وقد رافقته هذه السمعة لسنوات طويلة.

في بداية القرن انتشر بين بعض الراديكاليين في الحركة العمالية الرأي القائل بجواز نزع الملكية اذا كان ذلك «لصالح الحركة الثورية». أشارت كتابات معاصري ستالين (دان، مارتوف، سوفارين...) إلى أن «المناضل القوقازي دجوغاشفيلي» كان له دور مباشر أو شارك في تنظيم بعض عمليات النهب. ونخص مارتوف الذي أكد أن عملية السطو الشهيرة بوقاحتها، التي وقعت في تيفليس عام ١٩٠٧، على موكب القوزاق ما كانت لتتم بعيداً عن ستالين. في هذه العملية تم «نزع ملكية» ثلاث مائة ألف روبل. وكتب مارتوف بهذا الخصوص: «مارس البلاشفة القوقازيون أعمال نزع ملكيات مختلفة، وكان الرفيق ستالين على علم بذلك، هذا وقد فصل من المنظمة الحزبية نظراً لعلاقته بمثل هذه الأحداث»[١١].

من المعروف ان ستالين حاول بإصرار إدانة مارتوف بأنه واش، وفي معرض ردوده على تصريحات مارتوف كان يركز على نفي فصله من المنظمة الحزبية، ولكنه يتجنب الحديث عن موضوع مشاركته في عمليات «نزع الملكية». وفي حواره مع. أ. لودفيك اعترف ستالين بشكل غير مباشر بمشاركته في عمليات النهب. سأل لودفيك ستالين:

ـ في مسيرتك توجد لحظات يمكن أن تسمى «قطع طريق». ما مدى اهتمامك بشخصية ستيبان رازين؟ ما رأيك به كـ «قاطع طريق ايديولوجي؟».

ـ نحن، البلاشفة، كنا دائماً نهتم بالشخصيات التاريخية أمثال بولوتنيكوف، رازين، بوغاتشوف(*) وغيرهم[١٢].

وتابع ستالين حديثه عن قادة الفلاحين، لكنه لم يتطرق ولو بكلمة إلى نشاطاته «بقطع الطريق»، وكان يتعمد التهرب من الإجابة على أي سؤال في هذا

(*) إيفان بولوتنيكوف (؟ ـ ١٦٠٨): منظم وقائد انتفاضة فلاحية في جنوب روسيا (١٦٠٦ ـ ١٦٠٧). نفي عام ١٦٠٧ إلى كارغوبول، ثم فقئت عيناه وأغرق.
ستيبان رازين (١٦٣٠؟ ـ ٧١): منظم وقائد عدة حروب فلاحية اجتاحت روسيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر. سلمه القوزاق إلى حكومة القيصر. حكم عليه بالإعدام في موسكو.
يفيم بوغاتشوف (١٧٤٠ ـ أو ١٧٤٢ ـ ٧٥): منظم وقائد حروب فلاحية ١٧٧٣ ـ ٧٥. أعدم في ساحة موسكو الرئيسية.

المجال. أثناء نشاط ستالين الثوري ومروره بمراحل مختلفة من السجن والنفي عدة مرات في سيبيريا، تكونت ـ وان ليس على مستوى المنطقة ككل ـ هالة رومانسية «لنازع الملكية» أعطته سمعة «مكافح»، مناضل تنفيذي ورجل عمل. ونستطيع القول إن هذه الصفات قريبة من الواقع مع الإشارة إلى خموله في آخر منفى له.

وبالطبع، كان للينين دور أساسي في تكوين ستالين الماركسي. وكانت أول رسالة من لينين لستالين تلك التي أرسلها له في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٠٣ في منفاه في قرية نوفايا أودا من محافظة ايركوتسك. في إطار اهتمام لينين الخاص بالثوار من القوميات الأخرى، استرعى دجوغاشفيلي اهتمامه من خلال منشوراته في صحافة الحزب وأحاديث رفاقه عنه. في الرسالة الآنفة الذكر نبه لينين دجوغاشفيلي إلى بعض القضايا الحزبية الهامة. ذكر ستالين هذه الرسالة بشكل علني لأول مرة في خطابه أمام حفل طلبة الكرملين العسكريين بمناسبة ذكرى لينين في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٤. وبصوت جامد ودون أي تعبير، تحدث ستالين عن لقاءاته بلينين: «كان لقائي الأول مع لينين عام ١٩٠٣. والحقيقة إن هذا اللقاء ما كان مواجهة بل كان «انتسابياً»، عن طريق المراسلة. لقد كانت رسالته تلك قصيرة نسبياً، ولكنها كانت نقداً جريئاً وشجاعاً لنشاط حزبنا وعرضاً واضحاً ومكثفاً لخطة عمل الحزب في الفترة التالية... هذه الرسالة البسيطة والشجاعة زادت في التأكيد لي منذ ذلك الحين على نصر حزبنا. ولن أسامح نفسي على احراق تلك الرسالة مع الرسائل الأخرى تمشياً مع عادة المناضلين السريين»(١٣).

ما كان لستالين أن يحتج على عدم اهتمام لينين به، فأثناء وجود ستالين في المنفى، قبيل الثورة، عقد اجتماع للجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (بلشفيك)، برئاسة لينين، نوقشت فيه بشكل خاص خطة تهريب ي.م. سفيردلوف وي.ف. ستالين من المنفى(١٤). كما أرسل فلاديمير إليتش إلى ستالين في المنفى في توروخانسك مائة وعشرين فرنكاً(١٥). هذا وقد اهتم لينين برسالة ستالين من المنفى التي تساءل بها عن إمكانية نشر مقال حول «الاستقلال الذاتي القومي ـ الثقافي» ومختارات حول «الماركسية والمسألة القومية»(١٦).

قبل عام ١٩١٧ تمت عدة لقاءات بين ستالين ولينين: وكان لقاؤهما في كراكوف أطولها. كما كانت هناك اتصالات بينهما قبل ذلك ـ أثناء المؤتمر الرابع للحزب في ستوكهولم، والمؤتمر الخامس في لندن. وحاول ستالين فيما بعد أن يعطي هذه اللقاءات تفسيرات مختلفة... ففي عام ١٩٣١ صرح ستالين: «عندما كنت

أسافر إليه في الخارج ـ في أعوام ١٩٠٦، ١٩٠٧، ١٩١٢، ١٩١٣...»[١٧]. وكان ستالين يريدنا أن نستنتج أن سفره للخارج ما كان للمشاركة في اجتماعات ومؤتمرات الحزب، بل «لزيارة لينين». وهذا التمويه في السيرة الذاتية قاد إلى خلق مفهوم «القائدين» وإبداع أسطورة العلاقة المميزة بين ستالين ولينين قبل الثورة. وللحقيقة فإن ستالين، وفي إشاراته لعلاقته الحميمة بفلاديمير إليتش، أظهر حذره المعهود. ومثال على ذلك:

قبل نشوب الحرب بقليل استلم بوسكريبيشيف الرسالة التالية:

«الرفيق بوسكريبيشيف:

يرجى الموافقة على نشر خبر «متحف بمناسبة أيام لينين».

المدير المسؤول عن وكالة أنباء تاس

ي. خافينسون.

١٩٤٠/١/٥»

وكان ملحقاً بهذه الرسالة نص الخبر الذي طُلبت الموافقة عليه.

«إلى ف.إ. لينين. بواسطة كروبسكايا، كراكوف.

١٩١٢/٣/٧

وصلتنا مطبوعات تزن حوالى ٢ بود [اي ٣٣ كغم. ـ المترجم.]. ليس لدينا أي «كوبيك». يرجى توجيهاتكم، أين نرسلها؟ دعوهم يرسلوا لنا بدائل أو نقود...

مع التحية الرفاقية،

تشيجيكوف».

وشرح ستالين على الرسالة نفسها، قائلاً: «رسالة تشيجيكوف ليست رسالتي، مع انني انتحلت لقب «تشيجيكوف» لفترة معينة.

ي. ستالين»[١٨].

كان بمقدور ستالين ان يضيف سلسلة من الألقاب الأخرى التي انتحلها (إيفانوفيتش، تشوبور، غيلاشفيلي). ألقى ستالين لقب تشيجيوف على شخص آخر باعتبار أن هذه الرسالة لا ترفع من شأنه حتى ولو أشارت لعلاقته بلينين. فـ «القائد» لا يريد أن يتقيد بالماضي لا واقعياً ولا ذهنياً ولو لفترة بسيطة.

في أجواء التآمر ما قبل الثورة تعلم ستالين فن التقمص. كان له وجه في المكتب السياسي، ووجه ثانٍ في خطاباته الحزبية، ووجه آخر أثناء النقاش مع

رفاقه. لم يكن بإمكان الجميع ملاحظة تعدد وجوهه، ولكنها كانت موجودة. كانت قسوة ستالين في الحلقات الضيقة أظهر منها أمام الجماهير. وقد شهد بذلك الذين عملوا مع الأمين العام لسنوات طويلة.

جميعنا نلعب ادواراً على مسرح الحياة... بشكل جيد أو رديء سواء أدركنا ذلك أم لا. كثير من الأدوار تُلعب بشكل طبيعي: الشّغيل، الأم، الأب، المدرس، الإبن، البنت... وأكثر «الممثلين» أمانة هم الأطفال. وحتى الذين يحتلون قمة الهرم الاجتماعي يقومون بهذه الأدوار، تارة بشكل طبيعي وتارة بشكل مزيف، ولكنهم يمثلون. ربما لأنه عندما يصل الإنسان إلى قمة الهرم يقع تحت الأضواء فتبرز بذلك تفاصيل وجهه. وهيمنة الإنسان على غيره من الناس ليس بالضرورة أن تعتمد على قوته فقط، بل أيضاً على مدى تركيز الإضاءة عليه، وانطباع الآخرين عنه، وقوة وضع جاذبيته. ما كان ستالين ليهتم بهذا الأمر وهو في الظل. ولكنه أدرك هذا الامر فيما بعد، خاصة وأن قلة كانت تعيره اهتماماً قبل الثورة. فما كان لأحد أن يستشف من شكله الجسدي غير المثير، وصوته الخافت، وتصرفاته الملساء، أن يستشف فيه ديكتاتور المستقبل.

عمل ستالين في باكو وكوتاييس وتيفليس، كشف عن كفاءات تنظيمية. أدرك منذئذ رفاق ستالين، المناضلون السريون، ذوو النظرة الثاقبة، انه يتعامل مع المنظمات الحزبية كأجهزة سلطة، كآلات لتنفيذ قرارات معينة، كان البلاشفة أ.س. ينوكيدزيه، ب.أ. دجاباراادزيه، س.غ. شاوميان يتمتعون بشهرة أكبر من دجوغاشفيلي بين العمال. رغم أن ستالين لم يكن أقل من هؤلاء القادة القوقازيين المعترف لهم فيما يخص التربية الماركسية والحنكة في العمل السري، إلا انه كان بعدهم بمراحل من حيث شعبيته الخاصة. ففي تلك الفترة لم يكن قد ظهر بعد ذلك الجهاز الذي سيبني له بعناد تلك الشعبية.

بدأت النهايات، ليست نهاية نفي ستالين فقط، بل بدأ آل رومانوف ينحدرون نحو نهايتهم. من كان يتوقع أن صرح الملكية المستبدة الذي شُيد عبر عدة قرون سينهار فجأة خلال عام ويصبح حلبة صراع ضار بين الجديد الثوري والقديم التقليدي... بل لعله لم يتوقع احد انه سيلعب دوراً هاماً على هذه الحلبة رجل لا تعرفه روسيا لا بصورته الأمامية ولا بصورته الجانبية.

شباط التمهيدي

هل يمكن استقبال اشارات من المستقبل؟ من يستطيع الإجابة على ذلك؟... الأساطير والخرافات، وقراءة المستقبل والتنبؤات قد تسمح بمثل تلك الإجابات. الأخبار النادرة التي كانت تصل إلى كوريكا كانت تثير الخيال وتؤجج النقاش الحاد، وتفطر القلوب وتفجّر الصدغين. التقط ستالين، مباشرة، لحظة المستقبل البادية من الأفق يلفها الضباب والأمل. فالثورة وحدها قادرة على تغيير وضع المنفي. فالتطور العادي للحياة يقوده الخمول، فهو لا بيت له، ولا مهنة لديه. ما أقسى ألا يكون للإنسان شخص ما ينتظره في مكان ما... القفزات الثورية هزت ستالين، وبدأ الأمل عنده ينمو دافعاً اليأس والشك والتردد إلى قفار السهوب الثلجية. يبدو أن الأمل من ضروريات الحياة. فإذا مات هذا الأمل يفقد الإنسان مبرر وجوده على الأرض.

عشية التجديد عام ١٩١٧ احس ستالين بأنه سيعود قريباً إلى ضفاف النيفا، إلى بتروغراد، حيث كان قد قُبض عليه قبل أربع سنوات بشكل مثير للسخرية أثناء حفلة أقامتها لجنة البلاشفة للمدينة في قاعة «بورصة كلاشكوف». كان المنفيون يتحرقون شوقاً للحرية حيث كانت تعصف رياح الثورة.

مع أن الجورجي المكتئب كان عضواً في اللجنة المركزية التي شكلت في مؤتمر براغ عام ١٩١٢، إلا أنه لم يصبح شخصية شعبية بين المنفيين. والحقيقة أنه تآلف بشكل لا بأس به مع كامينيف. ففي إحدى الصور الملتقطة في موناستيرسكي كان ستالين في الصورة يحاذي كامينيف الذي سيكوف حليفه، ومن ثم خصمه.

كان ستالين منطوياً ويصعب سبر غوره، وما كان ليفتح صدره لأحد أو يحظى بصداقته. فما كانت حياة المنفيين المتداخلة لتجذبه على ما فيها من انتظار وهموم أسرية، وانتظار الرسائل وأخبار الحرية، وتشعب الحوار حول خطط المجتمع المستقبلي الذي تظلله العدالة والمساواة المقدسة... كان غريباً عما كان يسمى في حينه «أرستقراطية الروح». ولم يكن بالصدفة انه سمى نفسه أكثر من مرة «العامل الأتعس للثورة». كان ستالين، من وجهة نظر من لا يعرفه عن كثب في تلك الفترة، مجرد مكافح تنفيذي ليس على مستوى التحليق بالفكر والخيال.

كان من أحب المطبوعات عند البلاشفة، إبّان ذلك، ما كُتب عن الثورة الفرنسية

البرجوازية العظيمة في القرن الثامن عشر: كومونة باريس، يوم الرابع عشر من تموز، الباستيل، فيرساي، «إعلان حقوق الإنسان والمواطن»، اليعقوبيون، نادي رهبان الفرنسيسكان، العهد، ارسال لويس السادس عشر وماري انطوانيت للمقصلة، الديكتاتورية، روبيسبيير، دانتون... كان ستالين في ليالي الشتاء الطويلة، وعلى ضوء الشموع الرخيصة، يلتهم الصفحة تلو الصفحة من «التاريخ السياسي للثورة الفرنسية» للكاتب. أ. أولار الذي أعطاه إياه سفيردلوف. لقد أعاد ستالين قراءته أكثر مما يعقل. كان يتفاعل مع هذا الكتاب، يعيش أجواءه، يندمج في صوره، يتحسس تفاقم مشاعر ذلك الزمن الغابر. من خلال ذلك استطاع ستالين أن يتوصل إلى جوهر تلك الثورة. كان ذلك الكتاب أول ما قرأ ستالين عن الثورة الفرنسية، التي تمثلت أمامه تارة كعاصفة هوجاء وتارة اخرى كرياح اجتماعية جارفة. لقد احتد ستالين جسدياً للنتائج المأساوية الناجمة عن تردد روبيسبيير عندما كُشفت المؤامرة. اجل، لو كان ستالين لما تباطأ أو تردد للحظة واحدة...

بينما كان المنفيون يقبعون بكوريكا وكأنها جمدتهم، كانت أحداث أخرى في روسيا تنضج. منذ ثلاثين شهراً ومنجل الحرب العالمية الأولى يحصد محصوله الدموي. كان ستالين بعيداً عن الخنادق المليئة بالدم والوحل، ولم يتعرض لهجوم الغازات السامة، ولم تأكل لحمه الأسلاك الشائكة في الميدان. أوصلت الحرب أزمة الامبراطورية الروسية للذروة، وكان إعصار الثورة يقترب.

كانت البرجوازية الروسية تأمل أن تجد مخرجاً ـ كما يُبيِّت لاعبُ الشطرنج الملك ـ لانجاز ديمقراطية تشبه الديمقراطيات الغربية. وكانت التغيرات في الوزارات سريعة وملتوية كحركات «الحصان» في الشطرنج، مما فاقم أزمة النظام. خلال سنوات الحرب الثلاث، تمت تنحية أربعة رؤساء وزارات وعشرات من رؤساء المؤسسات. أما الوضع على الجبهة فكان يسير من سيء إلى أسوأ. والمثال التالي يمكننا من الحكم بشكل خاص على مستوى قيادة الجيوش: أرسل وزير الدفاع، الجنرال أ.أ. بوليفانوف، برقية من الجبهة إلى القصر القيصري: «أعتمد على المساحات التي لا يمكن للعدو تجاوزها، وعلى الوحل الذي لا يمكن التخلص منه، وعلى رحمة القديس نيكولاي، حامي روسيا المقدسة».

وبالرغم من سذاجة نيكولاي الثاني، فقد ناور بشكل لبق ولفترة طويلة باحثاً عن حلول وسط. فقد كان مستعداً لتنازلات جزئية للبرجوازية حفاظاً على تاجه. ولكن ساعة نهايته كانت قد دقت. وقبل ثلاثة أسابيع من انهيار الملكية المستبدة كان م.ف. رودزيانكو، رئيس آخر «دوما» قد قال للقيصر: «مولاي... لم يبق حولك

أي إنسان أمين، يمكن الاعتماد عليه. فالنخبة يا مولاي، إما انهم ازيحوا أو تركوا، ولم يبق إلا سيئو السمعة». حاول رئيس «الدوما» أن يقنع القيصر وألحّ برجائه أن «يهدي الشعب دستوراً»، وذلك انقاذاً للعرش. ولكن كان قد سبق السيف العذل.

«نحن نتجه للثورة من جديد» ـ هذا ما كتبه لينين في سويسرا محللاً الوضع السياسي في روسيا، وهو يصيخ السمع لتصاعد زمجرة زلزال الثورة. كان انهيار الملكية المستبدة هو أول ثمار «شباط التمهيدي». كان انهيار العرش متوقعاً، ولكن المنفيّين، ومن ضمنهم ستالين، لم يتوقعوا انهياره في هذه السرعة. استرجع ستالين دروس ثورة روسيا ١٩٠٥، وتفاصيل ما قرأه قبل حين عن الثورة الفرنسية الكبرى فاستشف أن المستقبل القريب حامل بما يبرر وجودهم كثوار محترفين.

ف.ف. شولغين، أحد النُشطاء الشعبيين في تلك الفترة، والذي عاش حوالى القرن، استرجع في مذكراته المشهورة «الأيام» تفاصيل ذلك الانهيار. وصل شولغين وأ.أ. غوتشكوف إلى بسكوف في الثاني من آذار (مارس) ١٩١٧ لتقبل تنحي القيصر عن العرش، إلا أنهما كانا لم يفقدا الأمل بإنقاذ العرش بعد. كتب شولغين: «كان القيصر هادئاً كالعادة. وبعد كلمة غوتشكوف المتقطعة قال القيصر، كابتاً مشاعره، وبصوت خافت ورتيب: لقد اتخذت قراراً بالتنحي عن العرش. وحتى الساعة السادسة من نهار اليوم كنت أود التنحي لصالح ابني الكسي... ولكنني الآن غيرت قراري ليكون التنحي لصالح أخي ميخائيل...».

دعونا ننتقل لموضوع آخر.

في ذلك الوقت كانت مجموعة المنفيين في موناستيرسكي وكوريكا قد انتقلت إلى كراسنويارسك وكانسك وآتشينسك. ستالين وكامينيف كانا في آتشينسك وتلقيا خبر تنحي نيكولاي عن العرش لصالح أخيه ميخائيل، ورفض الأخير لهذا العرش، تلقياه بسعادة وحبور.

أُرسلت برقية لتهنئة ميخائيل على رفضه للعرش الذي ينم عن «سعة صدر ومواطنية عالية». استهجن ستالين توقيع كامينيف على تلك البرقية. بعد تسع سنوات طفت جثة هذه البرقية على سطح اجتماع اللجنة التنفيذية للكومنتيرن. حاول ستالين أن يستغل، للحد الاقصى، «لين كامنييف أمام النظام الملكي». كانت خطبة ستالين في ذلك الاجتماع محاولة لاستحضار الماضي وإلقاء الضوء على أيام شباط ـ آذار ١٩١٧.

بدأ ستالين خطبته بانفعال غير معهود: «حصل ذلك عندما كنت منفياً مع

كامينيف في مدينة آتشينسك عام ١٩١٧ بعد اندلاع ثورة شباط. كنا في وليمة أو حفل ـ لم أعد أذكر. أثناء هذا التجمع أرسل البعض مع الرفيق كامينيف برقية لميخائيل رومانوف (وهنا شب كامينيف من مكانه صارخاً: إذاً اعترف أنك كاذب... اعترف أنك كاذب...) أصمت يا حضرة كامينيف. (وهنا صاح كامينيف من جديد: إذاً تعترف أنك كذاب) وأضاف أصمت وإلا سيكون الوضع أسوأ. (طلب أ. تيلمان، رئيس الجلسة، من كامينيف ان ينضبط). البرقية لميخائيل التي تنصبه مواطن روسيا الأول أرسلت من قبل لفيف من التجار والرفيق كامينيف. وفي اليوم التالي عرفت بهذا الأمر من الرفيق كامينيف نفسه الذي زارني وأبلغني أنه ارتكب حماقة. (كامينيف من مكانه مرة أخرى: كذاب... لم أقل لك شيئاً من هذا القبيل). نشرت هذه البرقية على صفحات جميع الصحف ما عدا البلشفية. هذه هي الحقيقة الأولى.

والحقيقة الثانية: في نيسان عقد «مؤتمر» حزبي. أثار المندوبون أن شخصاً مثل كامينيف يرسل برقية من هذا النوع، لا يجوز أن ينتخب عضواً في اللجنة المركزية مهما كانت الظروف. واحتاج لينين لجلستين مغلقتين مع البلاشفة لتمرير ترشيح كامينيف عضواً في اللجنة المركزية من جديد. لينين فقط هو الذي كان بإمكانه إنقاذ كامينيف. وأنا أيضاً ساهمت بحماية كامينيف آنذاك.

والحقيقة الثالثة: لقد أصابت البراقدا عندما انضمت لبقية الصحف بنشرها نفي كامينيف توقيعه لمثل تلك البرقية، لأن ذلك كان الوسيلة الوحيدة لإنقاذ كامينيف وحماية الحزب من سهام الخصوم. وكما ترون، فإن كامينيف قادر على الكذب على الكومنترن ايضاً.

ولي كلمتان أخريان: بما أن الرفيق كامينيف ما عاد قادراً على نفي الحقيقة الثابتة بنفس القوة السابقة، دعوني أجمع تواقيع المشاركين في مؤتمر نيسان الحزبي الذين أصروا على فصله من اللجنة المركزية بسبب تلك البرقية. (تروتسكي، من مكانه: لم يبق إلا توقيع لينين). حبذا لو تصمت أنت أيضاً يا رفيق تروتسكي... (تروتسكي، مرة أخرى،: لا تخفني... لا تخفني...) سأجمع التواقيع، فكامينيف قد وقع البرقية...[٢٠].

لقد توغلنا في المستقبل لعلاقة ذلك النقاش بأحداث بداية عام ١٩١٧ التي نحن بصددها الآن. حتى كامينيف الذي يعتبر نفسه ماركسياً أورثوذكسياً اعتبر «سعة صدر»ميخائيل إنجازاً ثورياً. الآن فقط تبدت لنا أسرار تلك الفترة. أما في حينه فقد كانت مناورات القيصر والبرجوازية قادرة على إحراج حتى بعض أعضاء اللجنة المركزية...

ولنعد من جديد إلى مذكرات شولفين. عبر شولفين بتأثر عن تنحي القيصر

عن العرش: كأنني في تلك اللحظة سمعت ارتطام المعدن العريق ـ الذي جاوز ثلاثة قرون ـ بجسر موحل. ورنين أجراس كاتدرائية بيتروبافلوفسك يخترق السماء كالسهم. كان الشروق دموياً.

خلال عدة أيام ـ تابع شولفين ـ كنت شاهداً على تنحي قيصرين (يقصد ميخائيل أيضاً). كنت أتصور أننا جميعاً على منصة الاعدام. أثناء اجتماع «الدوما» طلب ميلوكوف وغوتشكوف من سمو الأمير ميخائيل الكساندروفيتش، الشاب الطويل النحيل، بقبول العرش...

بعد نصف ساعة من التفكير في الغرفة المجاورة عاد سموه ووقف في وسط القاعة قائلاً: «في هذه الظروف، لا أستطيع قبول العرش الآن...» ولم يكمل حديثه لأنه أغرق بالدموع. قطعت سلالة آل رومانوف بشكل ميلودرامي. ـ تابع شولفين بسخريته السامة ـ روسيا الآن لا ملكية ولا جمهورية... تكوّن نظام لا يمكن تسميته. بدأ كل شيء «بمذبحة اليهود» وانتهى بانهيار سلالة تحكم منذ ثلاثة قرون...[٢١].

لم يكن حماس شولفين مجرد حنين للماضي. لم ينته عهد الغابرين بعد، فهم سيفعلون الكثير حيث سيبعثون من جديد؛ كراسنوف وكورنيلوف وفرانغل، لتأسيس جيش المتطوعين وجيوش التدخل المختلفة. وسيتذكر أ.أ. دينيكين في «مقالات عن الفتنة الروسية» الملكيين أمثال كريموف الذين اقترحوا «تطهير بتروغراد بالحديد والدم». تأسف دينيكين لتأخر تفهم الناس لتلك النصائح: «بدلاً من ان نقرع ناقوس الخطر فقد انشغلنا الوقت الطويل بأجراس عيد الفصح»[٢٢]. وحسم الأمر ـ في اليومين الأخيرين من شهر شباط (فبراير) ١٩١٧ ـ اللذين كانا الفرصة الأخيرة أمام الملكيين لكبح جماح الثورة، فقد الجنرال خابالوف بشكل نهائي السلطة على الجيوش المحرضة من قبل البلاشفة. عشية ٢٨ شباط (فبراير) بات وزراء آخر حكومة ملكية معتقلين في قلعة بتروبافلوفسك. انتصرت ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية. وكان ذلك تمهيداً لأكتوبر القريب.

آلاف المنفيين السياسيين، في المنافي النائية، وقبل استلامهم أوراق الإفراج الرسمية، كانوا يستعدون للعودة الى بتروغراد وموسكو وكييف وأوديسا وتيفليس وباكو وغيرها من المراكز الثورية. لو كان للتاريخ أجنحة لاستطاع أن يرى من السماء بعيونه الثاقبة الصماء الثوار ـ كهنة «عيد المضطهدين» ترنو من كل انحاء روسيا إلى مناطق بداية اشتعال مشاعل الحرية. وكان ستالين مع مجموعة من المنفيين السابقين، وقد استطاع تامين تذاكر درجة ثالثة في القطار، ينظر بنهم إلى مساحات سيبيريا الثلجية الواسعة التي تمر بسرعة أمام نافذة القطار. وما كان لستالين أن يعرف حينذاك انه بعد عشر سنوات ونيف سيعود إلى هذه المنطقة، ليس باعتباره «العامل الأتعس للثورة» بل كقائد للحزب تتعاظم قوته كل يوم. كان ينزل في المحطات للتزود بالماء المغلي، وما كان ليتوقع انه بعد سنة ونصف السنة ستندلع انتفاضات دموية على هذه الأرض، كما كان في حينه في بريتان وطولون

وفانديا. لم يكن ستالين يدري بعد ما ينتظره في بتروغراد، وما كان يعرف مهامه بدقة، ومع من سيلتقي من قادة الحزب، ولكنه يعرف انه ترك الأسى والخمول على ضفاف نهر الـ «ينيسي» القابع تحت صدفته الجليدية. وقريباً ستحتويه ناعورة الأحداث السياسية والاجتماعية، وستدثره بأمواج وزبد الثورة، وفجأةً ستلقي به في بؤرتها.

على بوابة جبال الأورال، وفي المحطات القادمة، كانت الأحداث في أوجها. أما البرجوازية الصغيرة فكعادتها، كانت تميل تارة نحو الرأسماليين الميالين لليسار وأحياناً أخرى تتحد مع البروليتاريا. تذبذب البرجوازية الصغيرة هذا كان يزيد من ارجحة سفينة النظام. تنامى المزاج الاصلاحي في روسيا. كان الناس يعتقدون ان الهدف الرئيسي قد أُنجز، الا وهو انهيار الملكية. كتب لينين آنذاك: «موجة البرجوازية الصغيرة الضخمة جرفت كل ما في طريقها، وطغت على البروليتاريا الواعية ليس عددياً فقط، بل وفكرياً...»[٢٤] والتأرجح الحاد للمجتمع يمنة ويسرة يعكس تعايش ديكتاتوريتين. وذلك تعبير عن تفرد هذه المرحلة خلافاً لمألوف الثورة البرجوازية الديمقراطية. والتعبير الأساسي عن هذه السمة المتميزة هو «ازدواجية السلطة». كانت تُعقد جلسات حادة لجهازي سلطة في نفس الوقت، في نفس القصر (قصر تافريتشسك). وحسب تعبير مليكوف انه في احد جناحي القصر ـ «ملعب السلطة» ـ توجد اللجنة المؤقتة للدوما كحكومة مؤقتة، يقودها اغرار البرجوازية «اليسارية». وفي الجناح الآخر يتمركز مجلس «سوفييت» بتروغراد كجهاز السلطة الثورية، وعلى رأس هذا المجلس تربع المناشفة ـ ن.س. تشيخييدزيه، م.أ. سكوبيليف، العامل أ.فز كرينسكي. أما البلاشفة فكانوا أقلية في اللجنة التنفيذية للمجلس. لم يكن ذلك صدفة، فالمناشفة ـ الذين كانوا حزباً مصرحاً له قبل الثورة ـ استغلوا علنيتهم لصالحهم. كان من بين صفوف المناشفة عدد كبير من الإعلاميين والمثقفين ومنظري الاشتراكية العلمية المرموقين. وكان لينين قائد البلاشفة المعترف له لا يزال في المهجر خارج روسيا. وأما قادة الحزب البلشفي الآخرون (بوبنوف، دزيرجينسكي، مورانوف، رودزوتاك، أوردجونيكيدزيه، سفيردلوف، ستالين، ستاسوفا) كانوا إما في المنافي أو في السجون أو معتقلات الأشغال الشاقة، وكانوا على وشك العودة.

اتفق مناشفة السوفييت مع أعضاء الدوما على تسليم السلطة التنفيذية الى البرجوازية باسم الحكومة المؤقتة. كان تسيريتيلي وكرينسكي يؤيدان فكرة أن «الحكومة الثورية الجديدة ستعمل تحت رقابة السوفييت» وأن هذه هي «إرادة التاريخ». هذه الجمل الثورية الحماسية الرنانة حولت الرأي العام نحو الحكومة المؤقتة. أما ستالين ـ مثله مثل العديدين ـ فقد جرفته الأحداث.

كرينسكي، وهو يبذل قصارى جهده لانتصار البرجوازية، كان يحاول الإبقاء على السلالة المالكة كعامل احتياطي. سيكتب كرينسكي، ذلك الذي دخل التاريخ مؤقتاً لتقذفه الأحداث للحظة قصيرة على قمة هرم السلطة البرجوازية، سيكتب في إحدى مقالاته في المهجر تحت عنوان « تسفير نيكولاي الثاني إلى توبولسك»:

«...بالرغم من الإشاعات والافتراءات، فالحكومة المؤقتة لم تكن فقط قادرة على تهريب العائلة المالكة إلى الخارج، بل وقررت ذلك فعلاً في بداية آذار (مارس). وأنا شخصياً قلت في ٧ (٢٠) آذار ١٩١٧ في اجتماع مجلس (سوفييت) موسكو رداً على الهتافات العنيفة «الموت للقيصر! فليعدم القيصر!».

لن يحصل ذلك أبداً ما دمنا في السلطة. لقد أخذت الحكومة المؤقتة عهداً على نفسها بحماية القيصر وعائلته ولن ننسى ذلك العهد أبداً. وسيرسل القيصر وعائلته إلى الخارج، إلى انكلترا. وأنا شخصياً سأرافقهم حتى مورمانسك.

ـ وتابع كرينسكي في مقاله ـ وتصريحي ذلك أدى إلى انفجار استنكارات عديدة في سوفييتات العاصمتين ـ موسكو وبتروغراد...

ولكن، في الصيف، في حين أصبح بقاء العائلة المالكة في كراسنوي سيلو مستحيلاً، استلمنا ـ نحن، الحكومة المؤقتة ـ بياناً رسمياً قاطعاً من الحكومة البريطانية يفيد بأنه «حتى نهاية الحرب ليس هنالك إمكانية لدخول القيصر وعائلته إلى الامبراطورية البريطانية»[٢٥]. لذلك اضطرت الحكومة المؤقتة لإرسال القيصر وعائلته إلى توبولسك. كانت الحكومة المؤقتة، وهي تنشغل بقضايا طارئة من هذا النوع، تستخدم كل قوتها لتهدئة الثورة وإلباسها قميص المجانين، محاولة الاستبقاء على السلطة. كانت البرجوازية ـ كما كتب كرينسكي نفسه ـ تريد «للشعب أن يشبع نهمه للكلام».

كانت الثورة في تلك الفترة ـ كما لاحظ لينين ـ قد أنهت المرحلة الأولى. نوّمت ازدواجية السلطة اليقظة. فرسمياً كانت السلطة كلها بيد الحكومة المؤقتة التي تمسك بجهاز الدولة القديم، ولكن الكواليس تشهد تحرك سوفييت بتروغراد من مندوبي العمال والجنود. تتعايش ديكتاتوريتان، لا أحد منهما يمسك بكامل السلطة، لم تستطع بعد أي منهما تجريد الأخرى من سماتها. ولكن ازدواجية السلطة، كمرحلة ثورية اجتماعية، لم تكن قادرة على كبح الإبداع الثوري الشعبي. فعلى سبيل المثال، في الثاني من آذار (مارس) ١٩١٧ نُشر على صفحات الـ «إزفستيا» البلاغ رقم (١) الشهير، يعلن دمقرطة الجيش: انتخاب لجان الوحدات، إلغاء الرتب والألقاب العسكرية، الامتثال لأوامر السلطات فقط إذا حازت على موافقة السوفييتات، ضرورة الانضباط الثوري، المساواة بين الجنود والضباط في الحقوق المدنية. ستالين، الذي كان قد احتل مكاناً مرموقاً، يرقب الأحداث بنهم، فالمستقبل أمامه ما زال ضبابياً.

كل هذا ـ سأكرر نفسي ـ حصل قبل عودة العديد من الثوار إلى بتروغراد، كان لينين ما يزال يستعد لاقتحام روسيا المنتفضة، تروتسكي سيعود إلى المدينة على ضفاف النيفا في بداية أيار (مايو) ولم يحسم بعد أسيكون مع المناشفة أم البلاشفة. كانت الأكثرية في سوفييت بتروغراد للمناشفة وحزب الفلاحين الاشتراكي، وبمساعدتهما انطلقت حكومة «الرأسماليين العشرة، والاشتراكيين الستة» سيئة السمعة. كل من كرينسكي وتسيريتيلي وتشرنوف وسكوبيليف وغيرهم كانوا

يهتمون بمسألة واحدة ألا وهي كيف يمكن ألا يُسمح «للطاقة الثورية أن تتسرب من بين أصابعهم».

كان ستالين لا يزال يجهل سمات وتفاصيل الوضع السياسي. وهو «يتجه نحو الثورة» كان يرى «بعيونه البنية الغائرة المائلة للاصفرار» تراكض القرى الصغيرة المتناثرة على طرفي سكة الحديد في سهوب روسيا الشاسعة. اين سيسكن؟ مما لا شك به انه سيكون عند عائلة أليلوييف. كان ستالين يستلم خلال سنوات النفي الطويلة رسائل دورية فقط من سيرجي ياكوفلبفيتش أليلوييف الذي سيكون حماه والذي دخل التاريخ لأنه البلشفي الذي احتضن لينين وخبأه في بيته من ملاحقة الحكومة المؤقتة في أيام تموز (يوليو) الدرامية عام ١٩١٧.

ليست الأحزاب هي التي تقوم بالثورة. كتب لينين في آذار (مارس): «ليست دوماً الحكومة ـ دوماً الملاكين والأغنياء ـ بل العمال والجنود المنتفضون هم الذين أطاحوا بالقيصر»[٢٦]. وكان يجب على حزب لينين ان يقود المنتفضين. ما كان يراه لينين لروسيا ـ حسب مفهومه ـ أنه لا يكفي أن تقام المآتم على رفات القيصرية بل يجب أن تتجاوز ذلك كثيراً... همز لينين حصان التاريخ...

لعب فرع الداخل من المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب دوراً مرموقاً في آذار (مارس) قبل عودة لينين، دخلت فيه وجوه جديدة كان من بينها ي.ف. ستالين. كما اعتمد المكتب السياسي هيئة تحرير البرافدا التي أصبح ستالين عضواً فيها. وكان لإعادة إصدار صحيفة البروليتاربا أهمية تعبوية لا بأس بها.

كيف برز ستالين في ثورة شباط (فبراير) ومن ثم في ثورة اكتوبر؟ ماذا كان دوره الحقيقي؟ ماذا كان خلال الثورة ـ دخيلاً أم قائداً أم «كومبارس»؟ تحليل الدلائل والوثائق الحزبية وشهادات المشاركين في تلك الأحداث يسمح لنا بالإجابة على هذه الأسئلة.

لفترة طويلة كانت الإضاءة على دور ستالين في الثورة مختلفة ومزيفة. وفي «سيرة ستالين القصيرة» أكد الكاتب على أنه «في تلك الفترة الحاسمة التف الحزب حول ستالين للنضال من أجل تطوير الثورة البرجوازية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية. وكان ستالين، بمشاركة مولوتوف، يقود نشاط اللجنة المركزية ولجنة بلاشفة بتروغراد. كان البلاشفة يستلهمون من مقالات ستالين التعليمات والتوجيهات القيادية والالتزام المبدئي»[٢٧]. هذه الكتابات تعطي ستالين دور لينين في تلك الفترة. وكما تشهد المدونات التاريخية، لم يكن هنالك أي أساس لمثل تلك الاستنتاجات المشتطة. فستالين لم يعط أي «تعليمات قيادية». فعندما وصل إلى بتروغراد لم يكن اكثر من أحد الحزبيين التنفيذيين. في وثائق تلك الفترة، بالكاد يجد المرء أي ذكر لاسم ستالين في قوائم أعضاء اللجنة المركزية التنفيذية. أجل، كان ستالين عضواً في الأجهزة السياسية العليا، ولكنه لم يلمع في اي من تلك الأجهزة إبان تلك الشهور. لم يكن معروفاً تقريباً في تلك الفترة إلا في دائرة ضيقة. لم يكن يثير الانتباه، فهو مجرد «مفوض القوميات». لم يكن يتمتع بالشعبية. وهذه هي الحقيقة.

ل.د. تروتسكي، الذي أصبحت له شعبية واسعة بعد عودته، كتب، في وصف نشاط ستالين، في كتابه «ثورة شباط»، أن «الوضع في الحزب ازداد تعقيداً بعد عودة كامينيف وستالين اللذين ادارا دفة سياسة الحزب الرسمية نحو اليمين بحدة». يرى تروتسكي أنه بينما كان كامينيف إلى جانب لينين لعدة سنوات في المهجر أين كان العش الأساسي النظري للحزب حيث نما كإعلامي وخطيب، فإن ستالين المسمى «بالمناضل التنفيذي» والذي كان أقل مما هو مفترض في «المجال النظري، وبدون اهتمامات سياسية واسعة، ولا يعرف لغات أجنبية، كان جزءاً من التراب الروسي... جماعة كامينيف وستالين كانت تتحول شيئاً فشيئاً لتكون جناح اليسار في ما نسميه الديمقراطية الثورية، وكانت لها علاقة مع الجماعة «الضاغطة» على البرجوازية برلمانياً من وراء الكواليس...»[٢٨]. اتهام ترتسكي لستالين هذا بالسياسة الدفاعوية لم يكن يتطابق دائماً مع الواقع، ولكن يجب أن نمسك بسهام تروتسكي الصائبة لكبد الحقيقة في كتابته عن ضيق أفق ستالين قبل ثورة أكتوبر مما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى نزعة تطبيقية ضيقة لا تتعدى أرنبة أنفه.

لم يباغت شباط ستالين كلياً. فرغم مرحلة اكتئابه الطويلة فإنه كان يؤمن أن الثورة آتية لا ريب فيها. وأشدد ـ هنا ـ على «يؤمن»، فستالين كان لا يفصل بين الحقيقة والإيمان بها. وإذا لم تتجلبب الحقيقة بالإيمان بها فهي مشوهة ومنقوصة. قد لا يكون ذلك سلبياً بشكل مطلق ولكن يكمن به خطر ظهور التفكير الدوغمائي. كان «إيمان» ستالين بالبرامج والمناهج والقرارات يساعده دائماً على الحفاظ على حزمه وثقته بصحة أعماله. لم يكن اندلاع أو عدم اندلاع الثورة بيد ستالين، ولكنه لم يشك أبداً أنها ستندلع. بينما كان يهتز داخل عربة القطار الباردة من آتشينسك إلى بتروغراد في بداية شهر آذار (مارس) ١٩١٧، كان ستالين يعتبر انهيار الملكية حتمية ثورية. من المتوقع انه كان يؤمن انه سيرى هذا الحدث التاريخي قبل مماته. ولكنه شعر أن القضية التي كرّس لها حياته، والتي كان يعتقد أن لها فرصة تاريخية، شعر أنه واتاها فجأة أكثر مما كان يتوقع.

الأدوار الثانوية

عاد ستالين إلى بتروغراد في ١٢ آذار. لم يحضر أحد لاستقباله مع زميليه كامينيف وموارنوف. كانت بتروغراد مشغولة بهمومها الثورية. كان وصول ستالين «قائد» المستقبل دون أن يحس به أحد يعبر عن حقيقة واقعية آنذاك. حمل ستالين صندوق «حوائجه» واتجه إلى بيت عائلة آليلوييف، فاستقبلوه بحرارة وكأنه أحدهم. وفي اليوم نفسه التقى مع عدد من أعضاء اللجنة المركزية. وفي المساء اختير عضواً في مكتب اللجنة المركزية ـ قسم الداخل، وعضواً في هيئة تحرير البرافدا. فبعد هدوء كوريكا، كيف سيتعايش مع ضجيج وصخب الثورة؟ ابتداءً من منتصف شهر آذار أصبح كامينيف ومورانوف وستالين هم القادة الفعليون لصحيفة البرافدا. ومنذ الأيام الأولى لعملهم «انزلقوا» إلى عدة أخطاء نظرية وسياسية صارخة. لم تكن هذه الانزلاقات صدفة، فستالين لم يكن لديه إمكانية للتفكير المستقل، أو لأخذ المواقف المحددة أو للفهم الواضح لجدلية عاصفة أكتوبر المعقدة. لقد اعتاد تنفيذ

التعليمات وتطبيق الخط السياسي. والآن عليه أن يتخذ بنفسه القرارات. وبدأت تلك «الانزلاقات» باستحسانه لنشر مقالة كامينيف تحت عنوان «الحكومة المؤقتة والديمقراطية ـ الاشتراكية الثورية»، التي حث بها الحزب صراحة على دعم الحكومة المؤقتة لأنها «في الحقيقة تناضل ضد بقايا النظام القديم». ولكن ذلك كان يتناقض بشكل واضح مع مواقف لينين.

وفي اليوم التالي بالضبط، نشر كامينيف، الذي كان معروفاً بقلمه السيال، مقالاً آخر تحت عنوان «بدون دبلوماسية سرية» اتخذ به فعلياً موقفاً إلى جانب «الدفاعوية الثورية». كتب كامينيف، بما أن الجيش الألماني يشن الحرب فإن الشعب الثوري «سيصمد ويرد على الطلقة بالطلقة وعلى القذيفة بالقذيفة، وهذا أمر مبرم»[٢٩]. ولم يعارض ستالين وطنية كامينيف هذه لأنه كان لا يزال يجهل دهاليز السياسة العليا. وفي اليوم التالي ظهر جهله هذا مرة أخرى عندما ارتكب ستالين حماقة سياسية في مقالة «حول الحرب». رغم أن هذه المقالة كُتبت من موقع معادٍ للحرب إلا أنها كانت تتناقض تناقضاً كلياً مع مواقف لينين. وكان يرى أن المخرج من الحرب الامبريالية يكمن في «الضغط على الحكومة المؤقتة ومطالبتها بالاعلان عن موافقتها لبدء المحادثات السلمية»[٣٠].

وكي لا نظلم، علينا أن نشير أنه فيما بعد، عام ١٩٢٤، في كلمته أمام الاجتماع العام للجناح الشيوعي في نقابة العمال، اعترف ستالين علانية بخطأه. وفي تحليله لموقفه من الحكومة المؤقتة في موضوع الحرب سيقول أن «ذلك الموقف خطأ فادح لأنه يثمر سلاماً وهمياً، ويصب في طاحونة الدفاعوية، ويعيق التربية الثورية للجماهير»[٣١]. ويضيف ستالين أن الحزب بشكل عام قد اتخذ هذا الموقف الخاطىء رغم أنه كان هنالك بعض المنظمات الحزبية التي اتخذت الموقف السليم. وإذا توغلنا في المستقبل فعلي أن أشير إلى أنه وإن شهدت العشرينات بعض اعترافات ستالين بأخطائه إلا أنه في صيرورة «عصمته» ما كان يمكن لأي من هذه الاعترافات بالظهور.

ما كان ستالين بعيداً عن قرار مكتب اللجنة المركزية «حول السلم والحرب» الذي اتخذ بعد أسبوع من نشر مقالته «حول الحرب»، حيث وردت في القرار فكرة «الضغط» على الحكومة المؤقتة لبدء المحادثات السلمية. بغياب لينين كان لكامينيف تأثير كبير على البرافدا. كان يبدو «بطلاً» حقيقياً للمرحلة الانتقالية. كان لكامينيف يد في تعزيز الاتجاه الدفاعوي في آذار، وكان ستالين في حينه أضعف من أن يقاومه. ورغم غياب لينين وغيره من قادة البلاشفة البارزين، وخروج الحزب للتو من تحت الأرض وحاجته الماسة لتكاتف كوادره وتعاضدهم، لم يستطع ستالين أن يبرز كقائد. وكان سفيردلوف وكامينيف وشبيابنيكوف أبرز منه في تلك المرحلة، مرحلة تحديد استراتيجية وتكتيك الحزب.

أعتقد أن ستالين، حينذاك، ما كان يتصور ما سيعلنه لينين بعد أقل من شهر: خطّة الثورة الاشتراكية. كان ستالين يرى أن المناورات الثورية التي انغمس بها في

شهر آذار هي الهدف المنجز. وفي تلك الأيام كان لينين مفتقَداً، ففي ظل الحس الثوري البسيط والوعي السطحي للقيادات الحزبية في غيابه كان من المستحيل حل القضايا الكبرى. وكان ستالين، الذي وصل من كوريكا، لا يستطيع رفع مستوى القيادة. وكتب أحد قادة ومنظري المناشفة، ن.ن. سوخانوف (غيمبّر)، في مذكراته في حينه «لم يكن ستالين في الحلبة السياسية أكثر من بقعة رمادية باهتة». أما أعضاء المكتب الآخرين: ب.أ. زالوتسكي، ف.م. مولوتوف، أ.غ. شليابنيكوف، م.أ. كالينين، م.س. أولمينسكي، فلم يستطيعوا كذلك أن ينفذوا بحيوية تعليمات لينين التي كان يبعث بها من المهجر. كان ملحوظاً أن كامينيف وغيره من القادة لم يتخلصوا كلياً من أوهام الدفاعوية ومن ثقتهم بالحكومة المؤقتة، وكأنهم كانوا يعتقدون أن إنجازات البرجوازية الديمقراطية هي قمة الانجازات في تلك المرحلة. ومن يعلم؟ فلعلهم كانوا على حق...

ما كان تردد ستالين قبل أكتوبر بدون سبب. لم يكن لدى ستالين مفهومه الخاص لإنجاز الهدف الأكبر. أثناء ثورة شباط واقتحام اكتوبر كُشفت نقاط ضعفه: ضحالة تربيته النظرية، تواضع إمكانياته للابداع الثوري، جهله (حتى الآن!) في تحويل الشعارات السياسية إلى مواقف برنامجية محددة. لا يمكن لأحد مطلقاً أن يتهم ستالين في أي فترة من الفترات بأنه يتهرب من النضال ويحاول سلوك الطريق الأسهل أو أنه كان يهاب مواجهة خصومه السياسيين. فهذا الرجل لم يعانِ أبداً من عجز في الإرادة، ولكن الباحث المدقق في حياة ستالين السياسية سيلاحظ ان هذا الثائر المحترف يعاني من نقطة ضعف هامة (كعب أخيل)، وإن كانت وحيدة. وكان ستالين يدركها.

كان حينما يكون عليه أن يذهب إلى ورشة أو مصنع أو وحدة عسكرية أو تجمع جماهيري، يشعر ـ كما ذكرنا من قبل ـ بانعدام الثقة الداخلية والقلق، والحقيقة أنه مع الوقت تعلم إخفاءهما. لذلك لم تكن الحشود الجماهيرية تغريه كما كان الحال مع العديدين من زملائه الثوار. وهو بشكل عام لم يكن يحب ـ وعلى الأغلب لأنه لا يجيد ـ القاء الخطب. وفي إحدى وثائق العشرينات يقوّم العامل أ. كوبزيف كلمة ستالين التي ألقاها في تجمع جماهيري في جزيرة فاسيلييفسك في شهر نيسان (ابريل) ١٩١٧: «مع انه كان يتكلم ببساطة ووضوح إلا أنني لا أتذكر شيئاً مما قاله». ليس صدفة أن ستالين كان أقل من غيره من المحيطين بلينين القاءً للكلمات في التجمعات واللقاءات والمظاهرات.

وأصبح إلقاء الكلمات ـ بالنسبة له ـ أصعب بكثير بعد عودة لينين وتروتسكي، وبعد أن صار كل من لوناتشارسكي، فولودارسكي، كامينيف، زينوفييف وغيرهم من الخطباء المفوهين يلقون الخطب والكلمات في الاجتماعات الحزبية والتجمعات الجماهيرية. فتروتسكي، على سبيل المثال، أجاد اختيار المكان الذي يلقي به الخطب، فقد اختار حلبة «السيرك الحديث» التي كان مدرجها مكتظاً باستمرار. وأحياناً كان تروتسكي يُحمل إلى منصّة الخطابة على رؤوس الجماهير. وكان الانطباع أن تروتسكي في بعض الأحيان يعطي الأولوية على المضمون إلى التأثير الوجداني على المستمعين. كما كتب سوخانوف في مذكراته عن الأسابيع الأولى لتروتسكي في

بتروغراد أنه ذات مرة، بعد خطبته المعتادة في «السيرك الحديث»، انطلق إلى مصنع أوبيخوفسكي ومنه إلى مصنع تروبوتشني ومنه إلى بوتيلوفسكي ومنه إلى مصنع بلطيسكي ومن ثم إلى مضمار سباق الخيل وأخيراً إلى الثكنات العسكرية، وكان موجوداً في كل مكان في الوقت نفسه. وما كان بإمكان ستالين أن يلحق بـ «شيشرون» الثورة الروسية. كان تروتسكي ينتشي من شعبيته المتصاعدة حتى الثمالة، وما كان بإمكان احد أن ينافسه بتهييج الجماهير. وكان ستالين، وهو يستمع إلى خطابات تروتسكي، بغض النظر عن الاجتماع والمناسبة، يحس نحوه بحسد وكراهية دائمة. فتروتسكي كان في مركز الاهتمام ويجتذب الجميع، عكس ستالين الذي لم يشعر بوجوده أحد قبل اكتوبر.

كان ستالين يفضل كتابة المقالات والردود والتعليقات على الأحداث السياسية. وبعد عودته من المنفى، بين آذار (مارس) وأكتوبر (تشرين أول)، نشر ستالين أكثر من ستين مقالة طويلة وقصيرة في الـ «برافدا»، «بروليتاري»»، «سولداتسكايا برافدا»، «بروليتار سكويه ديلو»، «رابوتشي أي سولدات»، «رابوتشي»، «رابوتشي بوت» وغيرها من الصحف. وكإعلامي غير عادي، كان ستالين - وسأكرر مرة أخرى - منطقياً وقطعياً في استنتاجاته. الدوغمائية الدينية، التي رفضها من حيث المضمون، كان يروق له وضوحها. ويبدو أنه ليس من قبيل الصدفة أن كتاباته كانت مبسطة وتفتقد إلى المصطلحات التخصصية والتعريفات المعقدة والالتواء التعبيري. وكانت معظم مقالاته الساذجة تحتوي على حقائق عادية ما كان لأحد أن يهتم بها بعد عشرات السنين لولا أن ستالين هو الذي كتبها.

كان العمل في «المقر»، والأجهزة القيادية (المكتب السياسي، اللجنة المركزية، السوفييت) أحب إلى قلب ستالين. ومنذ آذار أضاف مكتب اللجنة المركزية مهمة إلى مهام ستالين الأخرى - اختير عضواً في اللجنة التنفيذية لسوفييت مندوبي العمال والجنود في بتروغراد. وكان المكتب يجتمع يومياً تقريباً لمناقشة مواضيع مختلفة تتعلق بالنشاط الثوري وتوزيع المهام الجديدة على أعضائه. وبذلك كان ستالين يشارك بتوثيق العلاقات المنتظمة مع المنظمات الحزبية في المناطق وراء جبال القفقاس، ومناطق أخرى.

وفي المحافظات، وفي تلك الفترة، بدأت ،تظهر منظمات بلشفية ومنشفية متحدة. وكان موقف اللجنة المركزية يعارض هذه الوحدة. إن النظرة الموضوعية للأمور، على الأقل، تشكك بصحة هذا الموقف التقليدي. بينما كانت الوحدة تدعم الثورة في صراعها مع الملكية، وفيما بعد - مع البرجوازية، فإنه - على ما يبدو - كان يُنظر لها كحل وسط لإنجاز أهداف معينة. وبذل ستالين - بشكل خاص - جهداً كبيراً لتحطيم وتدمير هذه المنظمات الموحدة. ألم يكن من الواجب الاستماع لاقتراحات المناشفة؟

وبلا ريب، أنه عندما كانت «التوفيقية» تعرّض المثل والمبادىء البرنامجية وبعض الانجازات المعينة للخطر، كان تحطيم المنظمات المتحدة له ما يبرره. ويخيّل لي أن تركيز الجهود ضد المناشفة وحزب الفلاحين الاشتراكي بشكل خاص أساء أكثر مما أفاد، ومع الوقت سيصبح ذلك تقليداً مؤسفاً. وفي الثلاثينات، على سبيل

المثال، ورغم اننا كنا في مرمى الفاشية، لم نزل نعتبر أن الاشتراكيين الديمقراطيين يكادون أن يكونوا عدونا الرئيسي.

كان لينين تواقاً للعودة إلى روسيا، ولكن ذلك كان في غاية الصعوبة. وبعد حل كل العقبات المتوقعة، غادر لينين سويسرا مع مجموعة من المهاجرين، ومن بينهم غ.ي. زينوفييف، عن طريق ألمانيا والسويد إلى روسيا. وسأعالج تفاصيل عبور لينين للأراضي الألمانية وبدون أية عقبات والحرب على أشدها في كتابي عن لينين في سلسلة «القادة». وفي بيلو أوستروف، المحطة الأولى في الأراضي الروسية، في الثالث من نيسان (ابريل)، كان ممثلو اللجنة المركزية ولجنة بتروغراد البلشفية ومندوبو العمال في استقباله. وكان من بين المستقبلين ل.ب. كامينيف، أ.م. كولونتاري، أ.ف. ستالين، م.أ. أوليانوفا، ف.ف. راسكولنيكوف، أ.غ. شليابنيكوف. ويستذكر راسكولنيكوف في مذكراته أنه ما كاد يدخل غرفة لينين في القطار ويحييه حتى رشقه لينين بالقول:

ـ ما هذا الذي تكتبونه في البرافدا!! تمكنا من قراءة بعض الأعداد وقد أنّبناكم عليها..

وفي طريق العودة من بيلو أوستروف إلى بتروغراد دارت نقاشات بين لينين ورفاقه الذين استقبلوه حول وضع الحزب، انتقد بها كامينيف، على مقالاته التي نشرت في البرافدا التي تؤيد فعلياً الحكومة المؤقتة، كما انتقده على موقفه من الحرب الذي جره إلى الدفاعوية(٣٢).

استقبل الحزب والشعب والثورة قائدهم. لم يستقبلوا إلهاً أو كاهناً أو قديساً سياسياً، بل قائداً ذا قوة داخلية قوية وهيبة معنوية لدى الجماهير الثورية. ليس مملاً أن نشير إلى وصف خصمه الفكري ن.ن. سوخانوف لذلك الاستقبال، الذي حضره بنفسه، في «مذكرات (ـه) عن الثورة» المملة بشكل عام والتي نشرت عام ١٩٢٢ ـ ٢٣ حيث كتب:

في محطة فنلندا دخل، بل ركض، لينين إلى ما يسمى بـ «مقصورة القيصر» وهو يرتدي قبعة مستديرة ووجهه يكاد يتجمد من البرد حاملاً باقة ورد فاخرة. وما ان توسط المقصورة حتى توقف امام تشيخييدزيه وكأنه اصطدم بعقبة غير متوقعة. وهنا ألقى الأخير، دون تغير لمظهره الكئيب، كلمة «الترحيب» التالية التي حاول بشكل جيد ألا تكون كلمة بائسة: «الرفيق لينين، نحن نرحب بكم في روسيا باسم سوفييت ببيتروغراد والثورة كلها... ولكننا نعتبر ان هدف الديمقراطية الثورية الأساسي الآن [وكان ذلك «ملح» الفكرة الأساسية في كلمة تشيخييدزيه] هو حماية ثورتنا من أي تطاول عليها من الداخل أو الخارج... نأمل أنكم ستشاركوننا تحقيق هذا الهدف». صمت تشيخييدزيه. واحترت لذلك البتر الفجائي...

ويبدو أن لينين كان يحذق التعامل مع هذه المواضيع، فبقي واقفاً وتعابير وجهه كأن الأمر لا يعنيه بتاتاً، يلتفت يمنة ويسرة متفحصاً ما حوله من وجوه وجدران وحتى سقف «مقصورة القيصر»، ويربت على باقة الورد (التي لم تكن تنسجم مع جسمه). وبعد ذلك أدار ظهره إلى وفد اللجنة المركزية وردّ قائلاً:

«الرفاق والجنود والبحارة والعمال الأعزاء!! إنني سعيد، وأحيي بكم الثورة الروسية المنتصرة وأحييكم كطليعة لجيش البروليتاريا العالمي.. لقد دنت الساعة لتلبي الشعوب نداء رفيقنا كارل ليبكنيخت وتوجه سلاحها نحو رأسمالييها ومستغليها... والثورة الروسية التي أطلقتموها افتتحت مرحلة جديدة... فلتعش الثورة الاشتراكية العالمية!!»(٣٣).

كان هذا الاقتباس المطول من مذكرات سوخانوف للتمثيل على انه حتى الذي يختلف جوهرياً مع أفكار لينين ما كان بمقدوره إلا أن يلاحظ حكمة قائد البروليتاريا السياسية ونواياه الراديكالية. شعر ستالين قبل أن يغادر المحطة أن كلمة لينين الأممية بيّنت له مدى خطأ مراهنته على الحكومة المؤقتة لتحقيق السلام، وسذاجة تردده أمام الدفاعوية. في ذلك الوقت كان لا يزال يجيد التعلم من لينين. انه لمؤسف جداً انه بعد سنوات من تآكله الروحي والنفسي، لم يستطع ستالين الاستفادة من دروس لينين رغم الحاجة الماسة لها.

سيستذكر ستالين انه في مساء الثالث من نيسان (ابريل) كان قد أصبحت «أمور كثيرة أكثر وضوحاً» له. ورغم أن لينين وصل لتوه من البعيد إلا أنه كان يرى ويدرك هذه اللحظة التاريخية غير العادية ذات الخصائص المميزة بشكل أفضل من الآخرين، وكأنه كان في خضم الأحداث ولم يغادر روسيا أبداً. في اليوم التالي أدهشني ستالين، وهو يستمع لخطاب لينين في قصر تافريتشيسك والذي أعلن فيه مقولاته الراديكالية العشر التي دخلت التاريخ باسم «مقولات نيسان»، أدهشه حزم وعدوانية القائد. قلبت المقولات تكتيك «بما أن... ولأن» رأساً على عقب ولم تبقِ منه حجراً على حجر، ووسمت ذلك المنهج المتردد بالمحدودية والسلبية.

لم يكن زملاء لينين، القائد المعترف له، يعتبرونه مقدساً «لا يجوز المساس به». وكانت مقولات لينين جديدة وجريئة لدرجة أن العديد من قادة الحزب كانوا غير مستعدين لقبول برنامجه. وترددت أصوات أن لينين في الخارج تغرب عن واقع روسيا، وانه انزلق إلى الراديكالية المتطرفة. أما بالنسبة لستالين، وبعد خطابه الحذر في اجتماع البلاشفة في شهر آذار (مارس)، فقد وخزته كلمات لينين. وكتب سوخانوف فيما بعد أن كلمة لينين «أدارت رؤوس العديدين». وفي اجتماع البلاشفة في الرابع من نيسان (أبريل) حيث أعلن لينين لأول مرة مقولاته لم يدافع عنها سوى أليكساندرا كولونتاي. ليس زينوفييف وكامينيف وتروتسكي وحدهم، كما ممم من قبل، هم الذين عارضوا وانتقدوا وشككوا باستنتاجات لينين. بعد الثورة لم يكن هنالك «قديسون لا يجوز المساس بهم». فعلى سبيل المثال، في شهر أيار (مايو) ١٩١٩ بعث أنطونوف ؛ أوفسيينكو برسالة حادة للجنة المركزية يعبر بها عن معارضته لتقويم لينين للوضع العسكري على أحد أجنحة الجبهة الجنوبية. ولم يكن ذلك مستهجناً. كان التعبير عن الرأي بحرية هو القانون، ولذلك كلف لينين أخصائيين من المجلس الثوري العسكري ليقدموا تقريراً مختصاً.

لم يكن اعجاب ستالين الخفي براديكالية لينين ضريبة احترامه للقائد بل تعبيراً عن مقدرته على تنمية الجديد في أفكار لينين. وبالمناسبة، ليس الجميع دائماً

يستطيعون فعل ذلك. فقبل المؤتمر السابع للحزب لم تلقَ «مقولات نيسان» تأييد أغلبية لجنة بتروغراد.

كان لينين لا يتمتع إلا بتأييد الأقلية أحياناً، ولكنه كان يحظى بتأييد الأكثرية في معظم الأحيان. لم يكن يجعل من هزائمه القليلة مأساة ولا من انتصاراته الكثيرة خيلاء. مما لا شك فيه أن حالة بروز آراء ومواقف بل ومناهج فريدة وجديدة أفضل من تأييد الأكثرية التلقائي للقائد. إن كنت على حق، فلا يخيفني أن أكون في الأقلية. وقال لينين بهذا الخصوص: «من الأفضل أن أبقى مثل ليبكنيخت وحيداً ضد ١١٠»[٣٤]. بدأ خط لينين الراديكالي يكسب الجولة.

بعد عودة لينين تتغير البرافدا، ويصبح فلاديمير إليتش رئيس تحريرها. فاختفت نغمات الدفاعوية والتوفيقية التي كان يعزفها كامينيف وستالين على صفحاتها. واصل ستالين عمله في البرافدا ـ كما كان سابقاً ـ يظهر من خلال مقالات وتعليقات وأنباء حول القضايا السياسية الراهنة.

استندت قرارات المؤتمر السابع لعموم روسيا للحزب العمالي الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي (بلشفيك) ـ ٢٤ ـ ٢٩ نيسان (ابرايل) ١٩١٧ ـ، استندت على مقولات لينين. ولأول مرة، يعلن أن المندوبين المائة والواحد والخمسين للمؤتمر يمثلون ثمانين ألف عضو للحزب. وكان لهذه «الحفنة» ـ بالمقارنة مع عدد سكان روسيا الهائل ـ في الأشهر القريبة القادمة، أن «تهز العالم». أجاب لينين أثناء المؤتمر، كبلشفي حقيقي، على مواضيع الثورة الروسية: الانتقال من مرحلة البرجوازية ـ الديمقراطية إلى مرحلة الاشتراكية، موقف البروليتاريا وحزبها من الحرب والحكومة المؤقتة، دور السوفييتات وحصول البلاشفة على الأغلبية بها وغيرها من المواضيع.

واحتدّ النقاش في المؤتمر. انتقد كامينيف لينين مدعياً انه لم يولِ التحالف مع الحكومة الاهتمام الكافي[٣٥]. كما عبر كل من (سميدوفيتش، ريكوف، بيانكوف، ميليوتين، باغدانيف) عن معارضتهم للينين. وسيأتي يوم يقوّم فيه ستالين هذه المعارضة بأنها «خيانة وعدائية وثورة مضادة»، وستدرج ضمن قائمة «الجرائم». وبعد مداخلة بوبنوف حول اشكال الرقابة على الحكومة المؤقتة من القمة والقاعدة، تدخل ستالين تأييداً لمقولات لينين، ولكن كلمته كانت باهتة وغير مقنعة بسبب ضعف البراهين. ومن المعروف أن البراهين هي عضلات الأفكار، فلم يستطع ستالين إقناع المؤتمر برفض تعديلات بوبنوف. أما تقريره الأقوى فكان حول المسألة القومية والذي اشتمل على فكرة أن «تقسيم البروليتاريا في الدولة الواحدة حسب القوميات سيؤدي حتماً إلى موت فكرة التضامن الطبقي»[٣٦]. بالنسبة للدولة متعددة القوميات، فالطريق السليم الوحيد هو المحافظة على وحدة الحزب. ولذلك اعتبر ستالين أن اقتراح البوند بما يسمى «الاستقلال الثقافي» ليس أممياً. قام ستالين بدور «المنفذ الحازم» باخلاص ولكن بذبول. وبشكل عام حاول في تلك الأيام العصيبة أن يبقي نفسه في خط الوسط مدركاً أنه في ظل التغيرات السريعة فإن هذا الخط هو الأسلم.

ولدى الاطلاع على وثائق تلك الفترة (قرارات اللجنة المركزية، محاضر الجلسات الحزبية، برقيات الأجهزة الثورية) نلاحظ ان اسم ستالين يظهر بها بشكل نادر على عكس زينوفييف، كامينيف، تروتسكي (الذي لم يعد إلى روسيا من المهجر إلا في أيار ١٩١٧)، بوخارين، سفيردلوف، دزيرجينسكي وغيرهم من نشطاء الحزب. وبالطبع لا أتكلم عن لينين الذي كان دائماً في بؤرة الثورة حيثما كان. كما تظهر في أعمال ستالين الكاملة و«موجز سيرته» فكرة أساسية: كان ستالين دائماً بجوار لينين. وعلى سبيل المثال، في المجلد الثالث من أعماله، يؤكد بشكل واضح: إن «ف.إ. لينين وي.ف. ستالين يترأسان المؤتمر السابع لعموم روسيا للحزب البلشفي في نيسان (ابريل)»، «في العاشر من تشرين الأول (اكتوبر) ستختار اللجنة المركزية لقيادة الانتفاضة مكتباً سياسياً من سبعة أفراد يترأسهم ف.إ. لينين وي.ف. ستالين»، ٢٤ ـ ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر). ف.إ. لينين وي.ف. ستالين يقودان انتفاضة أكتوبر المسلحة»[٣٧]. وعلى أمثال هذه الادعاءات البعيدة كل البعد عن الحقيقة تربى ملايين الناس لعدة عقود.

وإذا عدنا إلى المحاضر، والملخصات، واليوميات، والمذكرات التي يذكر بها ستالين، نستنتج أن ستالين دخل الثورة ليس كشخصية بارزة ذات هيمنة على العقول، أو كمنظم يلهب الجماهير، بل كبيروقراطي باهت في مؤسسات الحزب. وعلى سبيل المثال، ففي اليوميات المعدة عام ١٩٢٤ من قبل اللجنة المختصة في تاريخ ثورة أكتوبر يظهر اسم ستالين خلال أربعة شهور (حزيران/ يونيو ـ أيلول/ سبتمبر١٩١٧) تسع مرات فقط، بينما سافينكوف ـ أكثر من أربعين مرة، سكوبيليف ـ أكثر من خمسين مرة، تروتسكي ـ أكثر من ثمانين مرة. يمكن المجادلة ان هذه الطريقة «الإحصائية» لتقويم النشاط السياسي غير دقيقة... بالطبع... ولكنها تعكس تحليل الإشعاع الشخصي من خلال «المنشور الزجاجي» للرأي العام. أجل، كان ستالين عضواً في اللجنة المركزية، وكان يعمل في البرافدا، وكان عضواً في عدد من أجهزة الحزب الأخرى، في السوفييتات واللجان. ليس أمامنا إلا تعداد اللجان والمؤسسات التي عمل بها، أمّا مضمون عمله فلا يستحق الذكر. وأعتقد أن السبب الرئيسي لذلك هو ضعف إمكانيات ستالين في الإبداع الثوري. لقد كان منفذاً جيداً ولكنه يفتقد سعة الخيال. ليس صدفة انه أثناء اجتماع البلاشفة في آذار (مارس) لم يقدم أي فكرة أو قرار فريد أو منهج جديد سوى تحذيره من «استباق الأحداث». رغم انه كان عضواً في اللجنة المركزية ورغم غياب لينين، لم يستطع أن يثبت نفسه قائداً على مستوى روسيا. فلينين، ممثل مصالح الراديكاليين كان، وهو يحل المشاكل اليومية، يرى المستقبل. كان ستالين أبعد عن الناس، وكان يتعامل معهم من خلال الأجهزة والدواوين. بينما كان لينين يبحث عن أية إمكانية للاتصال والحوار مع ممثلي الشعب، كان ستالين يكتفي بالاتصال مع ممثلي المنظمات واللجان.

بالطبع، انه خلال عام ١٩١٧ بقي ستالين في الظل، ولم يكن ذلك بسبب سلبيته الاجتماعية فقط بل وبسبب دور المنفذ المعدّ له والذي كان كفوءاً له. لم يكن

قادراً ـ في الأشهر العاصفة والحاسمة من عام ١٩١٧ على الصعود فوق القضايا اليومية والعادية. والكثير من زملائه كانوا شخصيات ألمع. ليس مؤكداً أن لستالين ـ في تلك الفترة ـ مطامح. وفي الحقيقة، إن انزلاقاته «التوفيقية» في آذار وموقفه الجنيني فيما يخص بعض القضايا المفصلية لم تكن عابرة بل كانت تذكرنا بنفسها بين الحين والآخر. وقيام ستالين على الدوام بالأدوار الثانوية جعل هيبته السياسية المستقرة تتسلل، ببطء ولكن بشكل متواصل، بين قادة البلاشفة. وأعيد اختياره في المؤتمر السابع (في نيسان)، عضواً باللجنة المركزية للحزب.

الانتفاضة المسلحة

بعودة لينين أصبح دور ستالين أكثر تحديداً: كان ينفذ ما يكلف به من القيادة الحزبية بشكل منتظم. كان في الظل، ونادراً ما كان يقع في مجال رؤية الجماهير الثورية، ولكنه كان الرجل المناسب فيما يخص المؤامرات وتوثيق العلاقات مع اللجان الحزبية وتنظيم الأمور في المراحل المختلفة فيما يتعلق بالإعداد للانتفاضة المسلحة. كانت بنيته الضئيلة لا تزال غير مرئية على شاشة التاريخ.

كانت اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييت مندوبي العمال والجنود التي تم اختيارها في مؤتمر السوفييتات الأول لعموم روسيا (٣ ـ ٤ حزيران (يونيو) ١٩١٧)، ذات أكثرية غير بلشفية. كان من بين أعضائها ١٢٣ منشفياً (من بينهم ١٦ مرشحاً) و١١٩ من حزب الفلاحين الاشتراكي (من بينهم ١٨ مرشحاً) و٧٥ بلشفياً فقط (من بينهم ٢٢ مرشحاً)[٣٨]. وكان من بين البلاشفة في تلك اللجنة: لينين، دزيرجينسكي، كامينيف، بودفويسكي، شاوميان وغيرهم من مشاهير البلاشفة، كما كان ستالين أيضاً عضواً فيها. كانت قرارات مؤتمر السوفييت ولجنته التنفيذية غير بلشفية، وخاصة بعد قمع الحكومة المؤقتة لمظاهرة تموز (يوليو). وأصبح واضحاً أن إنجاز الثورة الاشتراكية سلمياً أمر غير ممكن. سيكتب لينين أن «حزبنا أدى واجبه المفروض عندما سار مع الجماهير المظلومة الغاضبة في الرابع من تموز (يوليو) محاولاً إلقاء الطابع السلمي على تلك المسيرة وتنظيمها بقدر الامكان. ففي الرابع من تموز (يوليو) كان لا يزال انتقال السلطة إلى السوفييتات سلمياً أمراً ممكناً...»[٣٩]. وأكد لينين بغضب أن قادة المناشفة والفلاحين «غاصوا في قعر حفرة الثورة المضادة النتنة»، وتآمروا مع الحكومة التي قذفت الجيش على مظاهرة سلمية. انتهى عهد «ازدواجية السلطة». وبدأت مرحلة جديدة، مرحلة الإعداد للثورة البلشفية.

بتكليف من اللجنة المركزية، نظم ستالين مع غيره من الرفاق تحول لينين للنشاط السري. ومكث لينين بعض الوقت في شقة س.يع أليلوييف، حيث عقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب في أوائل تموز (يوليو). وحضر الاجتماع مع لينين الرفاق نوغين، أوردجونيكيدزيه، ستاسوفا وغيرهم، كما حضره ستالين أيضاً. دار نقاش حول ردة الفعل على مطلب السلطات بالاستسلام لأيدي «العدالة». ومن

المعروف أن لينين كان قد صرح قبل هذا الاجتماع: «في حال صدور قرار حكومي باعتقالي وموافقة اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت عليه سأمثل في المكان الذي تحدده اللجنة لاعتقالي»[٤٠]. واختلفت الآراء إزاء ذلك. في البداية كان الكثيرون مع امتثاله للمحكمة إذا توفرت ضمانات كافية من لجنة السوفييت. ولكن م.أ. ليبرون، أ. أنيسيموف (أعضاء مناشفة في اللجنة) صرحا بأنه «ليس هنالك إمكانية لإعطاء أية ضمانات». في تلك الظروف، حيث كانت التهم توجه للبلاشفة أنهم «يعملون لصالح الألمان»، و«يخونون المصالح الوطنية»؛ كان واضحاً أن الرجعية تنتظر التنكيل بالقائد. وبعد المناقشات الطويلة، أمكن اقناع لينين بعدم الامتثال للمحكمة والاختباء خارج بتروغراد لبعض الوقت[٤١]. لم يكن لستالين - في بداية الاجتماع - موقف محدد، ولكن ما لبث أن صار ضد الامتثال للمحكمة بشكل حازم. وبقطعيته المميزة قال ستالين بما لا لبس به: «لن يوصله الأغرار للسجن، بل سيقتلونه في الطريق، فعلينا ان نخبىء الرفيق لينين في مكان أمين...».

كانت هنالك موجبات كثيرة لمثل ذلك التصريح. ففي مذكرات ف.ن. بولوفتسوف، عضو الدوما، سيذكر أن الضابط المرسل إلى تيريوكي للقبض على لينين سأله: «كيف أحضر لك هذا السيد؟ كاملاً أم قطعاً متعددة؟»، فأجابه مبتسماً ان الناس الذين يقبض عليهم كثيراً ما يحاولون الفرار...

كُلف ستالين بتأمين هرب لينين إلى مكان آمن، ومما لا شك فيه أن خبرة ستالين في التآمر أُخذت بعين الاعتبار. بمساعدة أناس مخلصين، أعدت ودققت خطة خروج لينين من بتروغراد.

في تلك الأيام الدرامية، المليئة بالتوتر الاجتماعي، جد في حياة ستالين حدث مهم: لقد تعرف على ناديجدا ابنة أليلوييف زوجة المستقبل الثانية. وكان يكبرها باثنين وعشرين عاماً. كان ستالين يعرف اسرة أليلوييف قبل بداية القرن الحالي، منذ كان يعيش في باكو. وبالمناسبة، ستكتب ابنة ستالين سفيتلانا أليلوييفا في مذكراتها «عشرون رسالة لصديق»، أن ستالين، عام ١٩٠٣، انقذ حياة زوجة المستقبل، ابنة السنتين التي سقطت في البحر فانتشلها. ستعتبر ناديجدا أليلوييفا أن ذلك كان «إكليلها» الرمزي.

عندما عادت ناديجدا إلى البيت وجدته مكتظاً بوجوه جديدة. انهالت عليها الأسئلة حول ما يدور في الشوارع. كانت متأثرة وهي تحدثهم أنها سمعت بأن المسؤولين عن انتفاضة تموز (يوليو) ليسوا إلا «عملاء سريين لِـ ويلْهلم (امبراطور ألمانيا)»، وأنهم فروا على متن غواصة إلى ألمانيا، وأن زعيمهم يدعى لينين... وعندما علمت أن بطل هذه القصة موجود في شقتها احمرت خجلاً...

انصرف المجتمعون عن التحقيق مع الفتاة المرتبكة واستنتجوا أن اقتراح اوردجونيكيدزيه ونوغين بعدم الامتثال للمحكمة صائب - يجري التخطيط للتنكيل بلينين، وقرروا إجراءات تخفّيه وتسفيره إلى سيستروريتسك أولاً ومن ثم إلى

فنلندا. سيستذكر س.ي. أليلوييف، مضيف لينين: اتجهنا في المساء جميعاً إلى محطة القطار وكان العامل يميليانوف (العضو في الحزب منذ عام ١٩٠٤) في المقدمة، وخلفه بقليل كان فلاديمير إليتش وزينوفييف، أما أنا وستالين فكنا نمشي وراء الجميع. كان القطار في الانتظار... استقل ثلاثتهم العربة الأخيرة من القطار، أما نحن الاثنان فقد انتظرنا حتى انطلق القطار بسلامة وعدنا أدراجنا.

لم يكن أليلوييف دقيقاً تماماً في مذكراته، حيث أن زينوفييف لم يكن من بين مرافقي لينين لأنه كان في ذلك الوقت سرياً، فالذين رافقوه هم أليلوييف والعامل ف.أ. زوف وستالين.

سيصبح ستالين منذئذ، حلقة الوصل بين لينين واللجنة المركزية. يوجد ما يثبت أن لينين كان يثق به ويوجهه، والتقيا أكثر من مرة قبيل المؤتمر السادس للحزب(٤٢). بالطبع لم يكن هنالك محاضر لتلك اللقاءات، ولكن طيف لينين كان يطبع كل وثائق المؤتمر المهمة بطابعه. فرح لينين بأن مندوبي المؤتمر صاروا يمثلون عشرين ألف عضو. خلال الأشهر الأربعة الأخيرة تضاعفت صفوف الحزب ثلاثة أضعاف! وكان قائد الثورة يرى أن ذلك تأكيد على صحة منهج الحزب. استند المؤتمر في قراراته على أعمال لينين «الوضع السياسي»، «نحو الشعارات»، «الجواب» وغيرها. وجاء في قرار خاص أن عدم امتثال لينين للمحكمة كان قراراً صائباً، كما أيد الحزب ضرورة الانتفاضة المسلحة، تلك الفكرة التي طرحها لينين.

منذ ذلك صار ستالين يجد الوقت لزيارة أسرة أليلوييف باستمرار بالرغم من انشغاله. طفولة وبراءة وطهارة زوجة المستقبل جذبت ذلك الرجل البارد الجاف. كانت تحدق بإعجاب بذلك الذي تراه «المناضل السري القديم».

ظل ستالين، كما كان سابقاً، غير بارز على الحلبة السياسية. اضطر نصف اعضاء الحزب الى النزول «تحت الأرض». بتكليف من لينين كان سفيردلوف وستالين يقومان بالعمل اللازم، وكان الأخير لا يزال غير معروف للجماهير، ولكن دوره في اللجنة المركزية تصاعد.

وفي الوقت نفسه كانت الأمور كأوراق الشجر الخفيفة تدفعها رياح الخريف نحو أكتوبر. وكانت هنالك أحداث مضحكة ومبكية، آنية وتاريخية عن جدارة. لن أقوّمها ولن أعلق عليها، ولكنني سأذكر بعضها لكي يستطيع القارىء أن يلتمس الجو السياسي آنذاك. وإليكم ما كتبت صحف بتروغراد في حينه واحتفظ بها في الأرشيف.

٢٦ تموز (يوليو). افتتح المؤتمر السادس للحزب البلشفي. ملأ ١٧١ شخصاً استمارات من بينهم كان ١١٠ أعضاء خريجو سجون وقد كان مجموع أحكامهم ٢٤٥ عاماً، وعشرة خريجي معتقلات الأشغال الشاقة ومجموع أحكامهم ٤١ عاماً، و٢٤ منفياً مجموع أحكامهم ٧٣ عاماً، و٥٥ مبعداً مجموع أحكامهم ١٢٧ عاماً، و١٥٠ ألقي القبض عليهم ٥٤٩ مرة، و٢٧ مهاجراً خلال ٩٨ عاماً. بتكليف من

المكتب التنظيمي افتتح أولمينسكي المؤتمر. سفيردلوف، أولمينسكي، لوموف، يورنيف وستالين من أعضاء هيئة رئاسة المؤتمر. لينين، زينوفييف، كامينيف، تروتسكي، كولونتاي ولوناتشارسكي اختيروا أعضاءً تقديريين في الهيئة.

٨ آب (أغسطس). الأمير كيريل رفع على بيته علماً أحمر، أما نيكولاي الثاني الذي أصبح امبراطوراً سابقاً يكتب في يومياته انه بدأ قراءة «ترتران من ساراسكون».

٢٤ آب، يقوم كرينسكي بزيارة القيصر السابق ليهيئه وعائلته «للسفر إلى مكان آمن». نيكولاي: «أنا لست قلقاً. أنا أصدقك...».

٢٨ آب. أرسل الجنرال كورنيلوف إلى قائد منطقة موسكو العسكرية البرقية التالية: «في هذه الظروف العصيبة، وكي نتجنب أي اقتتال داخلي وسفك الدماء على شوارع بيرفوبريستولنايا عليكم اطاعتي والامتثال لأوامري من الآن فصاعداً». ورد قائد منطقة موسكو: «صدمت بقراءة أمركم بعدم الامتثال للحكومة الشرعية. انتم وراء الاقتتال الداخلي، وهذا كما سبق وقلت هو نهاية روسيا. كان من الممكن، بل ومن الضروري، انتهاج سياسة جديدة، ولكن ليس بتبديد طاقة الشعب الأخيرة، والعدو يخترق الجبهة. أنا لا أغير قسمي كما أغير ثيابي...».

٢٠ أيلول (سبتمبر). نشرت الإزفيستيا أن الموقوفين في فنلندا (فيروبوفا، باداميف، ماناسيفيتش وغيرهم) هم في قلعة سفيابورغسك. رفض البحارة بشكل قطعي الإفراج عنهم وقرروا مواصلة اعتقالهم في القلعة حتى انتقال السلطة إلى السوفييتات.

٤ تشرين الأول (أكتوبر). اكتسح الألمان جزيرة أيزيل في خليج ريغا وتشن قواتهم هجوماً على جزيرة مون. أما الأسطول الروسي، وبسبب التفوق الألماني الساحق، وبعد فقدان البارجة «سلافا» إثر معركة طاحنة، تراجع إلى مونزوند.

١٠ تشرين الأول (اكتوبر). حضر لينين، بعد غياب طويل، اجتماعاً للجنة المركزية. عقد الاجتماع في شقة المنشفي سوخانوف المتزوج من بلشفية. ترأس الاجتماع سفيردلوف. أكد لينين: «الأغلبية الآن معنا. نضج الوضع السياسي تماماً لانتقال السلطة... يجب أن نناقش القضايا الفنية، فهي الأهم»[٤٣].

١٤ تشرين الأول (اكتوبر). نشرت «نوفايا جيزن»: حاجة بتروغراد اليومية من الخبز حوالى ٤٨ ألف بود [أي ٧٨٦ طناً]. وصل في ١١ أكتوبر ١٨ ألف بود [٢٩٥ طناً] من الحبوب وفي ١٢ أكتوبر - ١٢ ألف بود [١٩٧ طناً] وفي ١٣ أكتوبر - أقل من ٤ آلاف بود [٦٥,٥ طن]. دوما بتروغراد كلفت عمدة المدينة أن يطمئن الشعب، وحددت موعداً لاجتماع طارىء لمناقشة قضية الغذاء.

١٦ تشرين الأول (أكتوبر). عُقد في بتروغراد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي حضره ممثلو منظمات حزبية أخرى كما حضره لينين، زينوفييف،

كامينيف، تروتسكي، سفيردلوف، أوريتسكي، دزيرجينسكي، سوكولنيكوف ولوموف. تحدث (بوكي) من لجنة بتروغراد عن استعداد ومزاج المناطق: «لا يوجد رغبة قتالية بعد، لكن التدريب العسكري مستمر. عند الحاجة ستقف الجماهير إلى جانبنا». تم إصدار النداء التالي الذي اقترحه لينين: الاجتماع يهيب بجميع المنظمات والعمال والجنود الاستعداد بشكل مكثف ومن جميع النواحي للانتفاضة المسلحة... حاز هذا النداء على ١٩ صوتاً «مع» واثنين «ضد». اختير المركز التنفيذي لقيادة تنظيم الانتفاضة من: بوبنوف، دزيرجينسكي، أوريتسكي، سفيردلوف وستالين.

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر). نشرت صحيفة «رابوتشي بوت» أن «الثورة الروسية قلبت موازين كثيرة. وبالمناسبة فإن من مكامن قوتها انها لم تطأطىء «للأسماء الرنانة»، فكانت إما أن «توظفهم» لديها أو ترمي بهم إلى الهاوية اذا لم يتعظوا، وقد تكدست أكوام من «الأسماء الرنانة» التي نبذت فيما بعد: بليخانوف، كروبوتكين، بريشكوفسكايا، زاسوليتش وغيرهم من الثوار «القدامى» الذين كان قِدَمهم سبب روعتهم و«بلوتهم». ونخشى أن أكاليل «أقطاب العلم» تقلق غوركي. ونخشى أنها سحبته إلى الأرشيف... إيه... كلٌ يفعل ما بدا له!... الثورة لا تعرف الشفقة ولا تعرف كيف تدفن موتاها...»(٤٤).

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر). انتقل لينين من منطقة فيبورغسك إلى «سمولني» [مقر اللجنة الثورية ـ العسكرية]. وفي الليلة نفسها ستأتي مجموعة من «العساكر» الأغرار إلى بيت رقم (٦) على شارع فنلندا من أجل القبض على هيئة تحرير صحيفة «رابوتشي بوت» وف.إ. لينين. ولكن فئة من الميليشيا الحمراء تصدت لهم وجردتهم من السلاح وجرتهم إلى قلعة بيتروبافلوفسك. وفي ذلك اليوم عقد اجتماع اللجنة المركزية الذي عالج المواضيع التالية: تقرير اللجنة الثورية ـ العسكرية، مؤتمر السوفييتات، الاجتماع العام للجنة المركزية. اقترح كامينيف ألا يسمح لأي من أعضاء اللجنة المركزية بمغادرة «سمولني» دون تصريح خاص... يعتبر تروتسكي انه من الضروري اتخاذ قلعة بيتروبافلوفسك مقراً احتياطياً، وأن يرسلوا إلى هناك أحد أعضاء اللجنة المركزية. يقترح كامينيف انه في حال سقوط «سمولني» يجب أن يكون هنالك نقطة ارتكاز على البارجة «أورورا». لم يحضر ستالين ذلك الاجتماع...(٤٥).

ليلة ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر). اجتاحت اللجنة الثورية ـ العسكرية «القصر الشتوي» حيث كانت تتخندق الحكومة المؤقتة...

٢٥ تشرين الأول (أكتوبر). صار الحزب يحسب التاريخ بالساعات، إنها لساعات تاريخية حقاً... اجتيحت محطة «نيكولاي». دنت البارجة «أورورا» من جسر «نيكولاي» وأرست. قام فوج «بافل» بحراسة شارع «مليونايا» القريب من «القصر الشتوي»، يوقف جميع المارة، ويلقي القبض على جميع المشبوهين ويرسلهم إلى «سمولني». اقتحمت إحدى سرايا البحرية، بدون مقاومة، بنك الدولة... رفضت أفواج قوزاك بتروغراد تأييد الحكومة المؤقتة. قُطعت خطوط الهاتف في المقر والقصر

الشتوي... سقطت محطة «وارسو». أُفرج عن المعتقلين السياسيين في سجن «كريستوف»... وحدات فوج «إزمايلوف» اجتاحت قصر «مارينسكي» وأمرت أعضاء لجان البرلمان التحضيرية باخلاء المكان. احتل فوج «بافل» شارع «نيفسكي».

الساعة (١٤,٣٥). افتُتح اجتماع طارىء لسوفييت مندوبي عمال وجنود بتروغراد برئاسة تروتسكي. وعلى نغمات التصفيق الصاخب اعلن تروتسكي انتهاء الحكومة المؤقتة وحل لجان البرلمان التحضيرية، والإفراج عن المعتقلين، وانه ارسلت البرقيات للجيوش تعلن سقوط النظام القديم. يجب تقرير مصير القصر الشتوي في الساعات القادمة. وبعد ذلك استقبل لينين بالتصفيق الحار وألقى كلمة: إيها الرفاق، الثورة العمالية الفلاحية التي كان يتحدث عنها البلاشفة باستمرار قد أنجزت!!

ومن المعروف ان مسؤولية تنظيم الانتفاضة كانت قد انيطت بالمركز الثوري ـ العسكري، المكون من خمسة أعضاء من اللجنة المركزية ومن بينهم ستالين، وباللجنة الثورية ـ العسكرية التابعة لسوفييت بتروغراد الذي كان يقوم بتعبئة القوى الثورية بانتظار اللحظة الحاسمة. كتب لينين في رسالته الشهيرة (٢٤ أكتوبر) لأعضاء اللجنة المركزية محاولاً اقناعهم:

«هذا المساء، أو الليلة، لا بد من إلقاء القبض على أعضاء الحكومة وتجريدهم من السلاح (وسحقهم اذا قاوموا)، وعلى جنودهم الأغرار... إلخ...

لا يمكننا الانتظار!! قد نخسر كل شيء!!
... الحكومة ستتردد. يجب الإمساك بأعضائها مهما كان الثمن!!
الابطاء في التحرك كالموت!!»(٤٦).

اليوم أي تلميذ يعرف ان نداء لينين هذا قد مورس، وان الانقلاب المسلح قد أنجز، وتكرست إنجازاته السياسية الأولى في المؤتمر الثاني لمندوبي سوفييتات العمال والجنود والفلاحين لعموم روسيا الذي أفتتح مساء ٢٥ أكتوبر. واختير لهيئة رئاسة ذلك المؤتمر البلاشفة (لينين، زينوفييف، تروتسكي، كامينيف، سكلانسكي، نوغين، كريلينكو، كولونتاي، ريكوف، انطونوف ـ أوفسيينكو، ريزانوف، مورانوف، لوناتشارسكي، ستوتشكا) وكذلك من يسار حزب الاشتراكيين ـ الثوريين (كامكوف، سبيريدونوفا، كاخوفسكايا، مستيسلافسكي، زاكس، كاريلين، غوتمان). أما ستالين فقد ضاع في تلك الأجواء. كان يقوم بما يكلفه به لينين: توزيع التعليمات الدورية للجان، المشاركة بإعداد المواضيع للنشر. لم يرد اسم ستالين في أي وثيقة من الوثائق المتعلقة بتلك الأيام والليالي التاريخية التي اطلعت عليها في الأرشيف.

حاول مارتوف في المؤتمر تمرير قرار يقضي بضرورة الحل السلمي للأزمة، كما حاول أحد أعضاء حزب «الاشتراكيين ـ الثوريين» تمرير قرار يستنكر «الاستيلاء على السلطة» [ولكن حتى بين أعضاء حزبه لم يحصل إلا على ٦٠ صوتاً «مع» و«٩٣» ضد] . كما أن جماعة «البوبد» ويمين «الاشتراكيين ـ الثوريين» كانوا

ضد الاستيلاء على السلطة. أما المناشفة ـ الأمميون وأعضاء «بوالي ـ تسيونيستي» (منظمات يهودية قومية برجوازية صغيرة كانت تحاول المزج بين الأفكار الاشتراكية والصهيونية ـ المترجم)، فقد انسحبوا من المؤتمر. وفي نفس الوقت، وقبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان «القصر الشتوي» قد سقط. (بالنسبة للقطاع الواسع من القراء اليوم، فإن أسماء وزراء الحكومة المؤقتة السابقين قد لا تعني شيئاً: كيشكين، بلتشينسكي، روتينبيرغ، بيرناتسكي، فيرديريفسكي، مانيكوفسكي، سالانسكين، ماسلوف وغيرهم، الذين تم القبض عليهم بأمر من أنطونوف ـ اوفسيينكو وأرسلوا إلى قلعة بيتروبافلوفسك). أما المؤتمر فتابع عمله حتى الصباح.

وصف جون ريد (صحفي شيوعي امريكي عاش أحداث أكتوبر وألف كتابه الشهير «عشرة أيام هزت العالم ـ المترجم) جو المؤتمر بقوله: «زاحمنا حتى دخلنا إلى قاعة الجلسة الضخمة المضاءة بثريات بيضاء عملاقة. كان عمال وجنود روسيا يجلسون على المقاعد والكراسي وفي الممرات وعلى حوافي النوافذ وحتى على درج المنصة، ينتظرون جرس رئيس الجلسة تارة بهدوء قلق وتارة بضجيج وهياج. لم يكن في القاعة تدفئة، ولكن الجو كان حاراً بسبب تصاعد البخار من الأجسام الآدمية غير المغتسلة. كان دخان التبغ الأزرق المزعج يتصاعد مكوناً غيمة من الدخان»(٤٧).

أصبحت السلطة بيد البلاشفة. إلا أن فرسان ثورة شباط لم يسلّموا بذلك. نشرت جريدة المناشفة المركزية «رابوتشايا غازيتا» في ٢٩ أكتوبر ١٩١٧، وكأنها تتنبأ بمآسي المستقبل، نشرت نداءً إلى كل المواطنين:

«إلى الجميع!! إلى الجميع!! إلى الجميع!!

يا مواطني روسيا، تراجع المجلس المؤقت للجمهورية الروسية أمام هجوم الحراب، واضطر أن يوقف أعماله مؤقتاً. الذين استولوا على السلطة بشعارات «الحرية والاشتراكية» يمارسون العنف والتعسف. لقد قبضوا على أعضاء الحكومة المؤقتة، وحتى على الوزراء الاشتراكيين منها، ورموا بهم في السجن. الدماء والفوضى تنذر بقتل ثورتنا، والقضاء على الحرية والجمهورية، وستعيد النظام القديم بثوب جديد. علينا أن ندين هذه السلطة باعتبارها عدوة الشعب والثورة». وبعد عدة أيام ستغلق هذه الصحيفة مع غيرها من صحف المعارضة. ستُهمل فوراً الشعارات البرنامجية حول «حرية الكلمة».

كيف كان سلوك ستالين في أيام أكتوبر العصيبة؟ ماذا كان دوره الحقيقي؟ لماذا لا يظهر اسمه إلا نادراً في يوميات الثورة مع أنه عضو منتظم بل شبه دائم في الأجهزة القيادية؟

إليكم تقويم دور ستالين في الثورة كما جاء في «سيرة قصيرة». تشهد الكاتبة ان «لينين وستالين هما مُلهما ومنظما ثورة أكتوبر الاشتراكية العظيمة.

ستالين هو نصير لينين الأقرب، وهو يدير ترتيبات الانتفاضة بشكل مباشر. مقالاته التوجيهية يعاد نشرها في الصحف البلشفية المحلية. انتخبت اللجنة المركزية في ١٦ أكتوبر «المركز الحزبي لقيادة الانتفاضة» ووضعت الرفيق ستالين على رأسه...»[٤٨] المديح في هذه الشهادة واضح: ستالين وحده الذي كان مع لينين، وهو الذي يقود بالنداءات والتعليمات، مع أن هذه المصطلحات دخلت اللغة الروسية في الثلاثينات، صعُب على كاتبة هذه السيرة الحديث بشكل محدد أن ستالين لم يكن «يقود» شيئاً، ولم يكن «يوجه» شيئاً، ولم يكن «يصدر» تعليمات لأحد. كان، فقط، ينفذ قرارات اللجنة الثورية ـ العسكرية التابعة لسوفييت بتروغراد، وما يكلفه به لينين.

علينا أن نحدد أن البلاشفة استولوا على السلطة بمساعدة «الاشتراكيين الثوريين اليساريين». أجل، كانوا لا يتفقون مع البلاشفة في العديد من النقاط، ولكن، بالرغم من ذلك، كانوا في المجرى الرئيسي للثورة. وبعد مباحثات كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ اشتركوا في الحكومة السوفييتية وكان لهم ثلث الحقائب، وأصبح عدد من قادتهم مفوضي شعب (أ.ز. شتينبرغ، ب.ب. بروشيان، أ.ل. كوليغاييف، ف.ي. تروتوفسكي، ف.أ. كريلين، ف.أ. ألفاسوف، م.ن.بريليانتوف).

أعتقد أن التعددية الاشتراكية تلك وفرت تاريخية مميزة. أدرك لينين ذلك، فأكد أن اتحاد البلاشفة مع «الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين» «يمكن أن يكون تحالفاً شريفاً، اتحاداً شريفاً لأنه لا يوجد اختلاف جذري بين مصالح العمال المأجورين وعمال المصانع والفلاحين المستغلين»[٤٩]. ولو حوفظ على هذا الاتحاد ربما لما حلت المآسي العديدة التي سببها احتكار السلطة. ولكن،. لا الاشتراكيون ولا البلاشفة قدّروا الأهمية التاريخية لذلك التحالف حق قدره. كان انهياره في صيف ١٩١٨ منبع مصائب المستقبل. وبالمناسبة، كان ستالين يعتبر الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين» حزباً برجوازياً صغيراً نموذجياً، ينجذب إلى الثورة المضادة، وللأسف لم يكن ستالين وحيداً في رأيه هذا آنذاك. فرّط البلاشفة في صيف ١٩١٨ بالفرصة التاريخية لتثبيت التعددية الثورية. سيؤدي احتكار الفكر والسياسة والسلطة إلى الحكم الفردي الغاشم.

دخل ستالين في الحكومة السوفييتية كـ «مفوض شعب للقوميات». مع أنه أصبح من «صفوة» القيادة التي تقرر كافة قضايا الثورة الهامة، فهو لم يبادر، أبداً، خلال عام ١٩١٧، مبادرة ذات شأن، ولم يبدع فكرة للجنة المركزية. لم يكن رجلاً طليعياً في القيادة. وكل ما جدّ من اطراء لدوره المميز في الثورة لم يكن إلا «بهرجة» لا أساس لها في الواقع.

ستالين، الذي كان عضواً في كل أجهزة الثورة الممكنة، لم يكن مسؤولاً عن أي شيء محدد، ولكن عينه الثاقبة «اللاقطة» كانت ترى الكثير. كان يندهل لطاقة تروتسكي وجلد كامينيف واندفاع زينوفييف. كان ستالين يحس نحو بليخانوف بتقدير قريب من الاحترام، وقد التقى به عدة مرات. لقد انبهر بكلماته في إحدى

التجمعات: «... لم يطحن تاريخ روسيا بعد ذلك الطحين الذي ستُخبز منه كعكة الاشتراكية». كما نعلم، فإن بليخانوف، ذلك الداعية الماركسي وأحد مؤسسي «حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي»، لم يتوقف عند هذا الحد. لقد نعت «مقولات نيسان» بـ «الهلوسة»، كما استنكر ثورة أكتوبر الاشتراكية، وفيما بعد «صلح بريست». وعندما صنفته الثورة في معسكر خصومها الديمقراطيين خاب أمله في الواقع الذي لا يتفق مع نظريته، وابتعد إلى فنلندا، فلم يكن قادراً على قبول الثورة ولا يريد أن يصارعها. كان ذا اخلاق عالية في مبادئه السياسية.

دهش ستالين عندما كُرّم بليخانوف الراحل بدقيقة صمت على روحه في الرابع من حزيران (يونيو) ١٩١٨ في الجلسة الموحدة للجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا وسوفييت موسكو ونقابات عمال موسكو التي حضرها لينين. فبالنسبة لستالين، ان الشخص الذي يعبر علانية عن معارضته لقضية يصبح عدوه إلى الأبد. كما اعتبر ستالين تأبين تروتسكي لبليخانوف في الجلسة ونعي زينوفييف له في البرافدا أمراً لا لزوم له. بالنسبة لستالين، كانت الثورة **صراعاً فقط**. إمّا معنا أو ضدنا، فإما صديق أو عدو!! وحسب منطق ستالين «الثنائي» هذا فإن من لا يريد أن ينحاز لطرف عليه الترقب فقط. اعتبر ستالين تكريم بليخانوف سلوكاً «ليبراليا» لا يليق بالثوار، و«تفتفة» مثقفين. وسيأتي يوم يكتوي به رفاق ستالين من منطقه هذا.

بعد ثلاث سنوات من انتفاضة أكتوبر المسلحة، في ٧ نوفمبر ١٩٢٠، نظمت مجموعة من المشاركين بتلك الانتفاضة أمسية ذكريات. كان ستالين من بين المدعوين، ولكنه لم يرد الاشتراك. حضر الكثيرون تلك الأمسية، منهم: تروتسكي، سادوفسكي، ميخونوشين، بودفويسكي، كوزمين. جرى تذكر نشاط لينين وتحدثوا في هذا المجال عنه كما جاءوا على ذكر كل من كامينيف، كالينين، زينوفييف، نوغين، سفيردلوف، لوموف، ريكوف، شاوميان، ماركين، لازيمير، تشيتشيرين، فالدين وغيرهم من صانعي العالم الجديد. وصلنا محضر ما دار في هذه الأمسية، لم يرد به اسم ستالين أبداً... مع أن أمين عام المستقبل كان عضواً في جميع الأجهزة القيادية، إلا أنه لم يخطر على بال أحد أن يذكر اسمه لا فيما يتعلق بنشاط اللجنة الثورية ـ العسكرية ولا بنشاط البلاشفة التعبوي في صفوف قوات البحرية والمشاة. شملت قائمة الأسماء آنفة الذكر معظم مجالات النشاط الثوري في تلك الليلة: الصعود إلى البارجة «أورورا»، حجز القوات لنجدة كرينسكي، الاستيلاء على البنك المركزي والبريد ومحطات القطار. وبقي ستالين «كومبارس» غير ملحوظ، يقوم بما تكلفه به الأجهزة الثورية. اتضح انه غير قادر على الإبداع الثوري وإثبات نفسه على عكس العديد من رفاقه.

كان طاغية المستقبل يعاني من «بهاتته» و«هامشيته». وفي الثلاثينات لن يستمع بهدوء للحديث عن أكتوبر إلا ضمن إطار «القائدين». في بداية عهده منع الحديث عن أبطال الثورة الحقيقيين ثم فرض «تصحيح» التاريخ و«تنظيفه»، وفي أيام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ المأساوية لجأ لتصفيتهم جسدياً. وفي الأربعينات بقي منهم ما

يمكن عده على الأصابع. وكقاعدة عامة، لم يبق سوى من أعاد كتابة سيرة «القائد» الثورية. كان كلما «قل» عدد المحاربين القدماء الذين اشتركوا بانتفاضة أكتوبر كلما «زاد» دور ستالين في تلك الانتفاضة.

بالطبع، بما أن تروتسكي ـ بعد عام ١٩٢٩ ـ جعل من ستالين موضوع دراساته النقدية، فقد كانت كتاباته عن دور ستالين في فترة أكتوبر سلبية بشكل حاد. سيؤكد في كتابه «مدرسة ستالين للتزوير» أن ستالين ما كان إلا صامتاً خلال اجتماعات عام ١٩١٧. كان لا يفعل أكثر من أن يسير على الآثار التي يتركها خلفه لينين. «لم يكن يظهر أية مبادرة، ولم يقدم بشكل مستقل أي اقتراح. ولن يغير هذه الحقيقة ادعاءات أي من «مؤرخي الماركسية» في العهد الجديد»(٥٠).

يذكر تروتسكي عدة أحداث، عندما كان ستالين يؤيد لينين، وفي الوقت نفسه يدافع عن كامينيف وتعرجاته بما في ذلك مقالاته الصحفية. بقيت العلاقة لا بأس بها بين ستالين وكامينيف لفترة معينة بعد عودتهما من المنفى. ومستقبلاً، وخصوصاً في الثلاثينات، سيحاول كامينيف وزينوفييف خلال أيامهما المأساوية تذكير ستالين بتلك «الصداقة القديمة». واتضح أنهما لم يكونا يعرفانه جيداً...

نشر تروتسكي في عام ١٩٢٤، بعد وفاة لينين، مقالاً عن القائد الراحل اشتمل على الحوار التالي:

ـ هل تعتقد ـ سألني فلاديمير إليتش ذات مرة بعد ٢٥ أكتوبر بقليل ـ اننا اذا قُتلنا، ان سفيردلوف وبوخارين يستطيعان تدبر الأمور؟

أجبته مبتسماً ـ لن نقتل «ان شاء الله».

قال لينين ضاحكاً ـ ومن يعلم؟

وبعد نشر مقالي هذا (يستذكر تروتسكي في كتابه «حياتي») شعر الثلاثي (ستالين، زينوفييف، كامينيف) بالإهانة، بالرغم من أنهم لم يحاولوا دحض هذا الحوار. وتبقى الحقيقة حقيقة: لم يذكر لينين ضمن خلفائه المحتملين هذا «الثلاثي»، وذكر فقط سفيردلوف وبوخارين، ولم يأت في ذهنه في حينه أي اسم آخر(٥١).

من المعروف أن ردة فعل ستالين كانت عنيفة عندما تتسرب لوسائل الإعلام أية معلومات تقلل من دوره في الثورة وتزيد من دور تروتسكي. كان ذلك وراء كلمة ستالين في الاجتماع العام للفرع الشيوعي في اتحاد العمال الروسي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ والتي لم تصدرها دار النشر الحكومية كَكتيّب إلا عام ١٩٢٨. وإليكم تحليل ستالين لدور تروتسكي في انتفاضة أكتوبر المسلحة، كما جاء في تلك الكلمة: «أجل، لقد حارب الرفيق تروتسكي جيداً في أحداث أكتوبر، ولكنه لم يكن الوحيد، فحتى الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون الذين كانوا يتكاتفون مع البلاشفة آنذاك حاربوا جيداً. ولكن هنالك سؤال هام: لماذا لم يرشح لينين تروتسكي لعضوية «المركز العملي لقيادة الانتفاضة» بل رشح سفيردلوف

وستالين ودزيرجينسكي وبوبنوف وأوريتسكي؟ وكما ترون فإن الرفيق تروتسكي «الملهم»، «الشخصية الرئيسية»، «القائد الأوحد للانتفاضة» لم يدخل لعضوية المركز. فكيف ينسجم ذلك مع الرأي السائد حول دور تروتسكي المميز؟»[٥٢].

وهنا أيضاً يشوه ستالين الحقيقة، فالقيادة الفعلية للانتفاضة لم تكن بيد «المركز العملي» بل بيد اللجنة الثورية العسكرية.

كما نرى فاثنان من نشطاء الحزب المشهورين، سيحاول كل منهما بعد الثورة بعدة سنوات، التأكيد على دوره المميز في الانتفاضة المسلحة من جهة، ومن جهة أخرى يحاول التقليل من دور الآخر. مع أن فترة الثورة ما كانت لتسمح بما سيسمى «القيادة البيروقراطية». إلا أن دور ستالين كان محصوراً في تجهيز تعليمات وإرشادات اللجنة المركزية وتسليمها إلى الأجهزة الثورية. ليس هنالك أية وثيقة تشهد بمشاركته المباشرة في القتال أو في تنظيم القوات الحربية أو في زيارة المواقع الحربية أو البوارج أو المصانع من أجل رفع مستوى الجماهير على طريق حل مسائل تكتيكية وعملية. وحكمت الظروف أن يكون ستالين في «مقر» الثورة وعلى منصتها الرئيسية؛ ولكن... بدور «كومبارس». اتضح انه لا يملك المواصفات التي تثمّن في الفترات الثورية: مواصفات فكرية، جاذبية روحانية، حماس متقد، طاقة فوارة. كان لينين موجوداً دائماً في بؤرة الثورة... وكان بعده تروتسكي، وبعده ـ زينوفييف، كامينيف، سفيردلوف، دزيرجينسكي، بوخارين... وبعده حشد من بلاشفة المدرسة اللينينية، من بينهم شخص يدعى ستالين.... إذاً، لم يكن هنالك «قائدان» للثورة. لو قلنا عام ١٩١٧ للبلاشفة: كريستينسكي، رادك، راكوفسكي، ريكوف، تومسكي، سيريبرياكوف وعشرات من البلاشفة، لو قلنا لهم انه خلال عقد ونصف سيرد في «التاريخ الرسمي» أن الثورة قادها اثنان هما لينين وستالين سيعتبرون ذلك طرفة باهتة... ولكن للأسف!! التاريخ لا يغير مجراه. بالخيال فقط نستطيع أن نسأل من لم يعودوا بيننا. أصبح ستالين بطلاً بعد أن زيف التاريخ.

بالرغم من أن ستالين كان عضواً في الحزب منذ أواخر القرن الماضي، وعضواً في اللجنة المركزية منذ ١٩١٢، وعضواً في سوفييتات ولجان وهيئات تحرير مختلفة، ومفوض شعب للقوميات، إلا أن ذلك كله لم يعطه إلا موقعاً رسمياً، بل نستطيع القول موقعاً بيروقراطياً فقط. حضور ستالين لجلسات واجتماعات ومؤتمرات عديدة لا يثبت إلا أنه كان عضواً في الأجهزة القيادية. لقد سمح له ذلك بالتعرف على دائرة واسعة من الناس، كما مكنه من فهم «ميكانيزم» الأجهزة الحزبية بشكل أعمق، وتراكم خبرة سياسية. والأهم من ذلك أنه في موقع جعل لينين يقوّمه ككادر سياسي موثوق وقادر، ليس فقط على التقيد المتشدد بالقرارات كمنفذ بسيط، بل وعلى المهارة بإيجاد حلول وسطية والسير بالطرق المتعرجة والقدرة على تحديد الحلقة الرئيسية في سلسلة المشاكل التي تطرأ. كان ستالين يجيد الانتظار والتأقلم.

فرصة للإنقاذ

في ثورة أكتوبر، فاضت روسيا عن ضفافها. السيل الاجتماعي جرف كل ما في طريقه. أهم شهر من أهم سنة في تاريخ روسيا السوفييتية المأساوي كان مليئاً بالأحداث والانتصارات بالنسبة للبلاشفة. الحزب، الذي لم يكن كبيراً نسبياً عشية ١٩١٧، تحول - خلال عدة شهور - إلى قوة سياسية جبارة. ولكن «شهر العسل» كان قصيراً. فقبل نهاية العام بدأت تنفجر المشاكل الخطيرة والمميتة التي كانوا يعتقدونها كامنة. وعد البلاشفة الشعب أثناء استيلائهم على السلطة بالأرض والخبز والسلام. بدأوا بتوزيع الأرض، وأعطت الأرض الأمل بالخبز، ولكن السلام كان لا يعتمد على البلاشفة وحدهم - كما لا يستطيع الإنسان أن يصفق بيد واحدة لا يستطيع أن يصل السلام من جهة واحدة، خاصة إذا كان سلاماً عادلاً وديمقراطياً بدون استيلاء أو عقوبات... كيف يمكن تحقيق ذلك السلام وجيوش الألمان تدوس أراضي روسيا الغربية؟

لم يكن أحد يدرك «درامية» تلك اللحظة مثل لينين. وبعد أن أصبح رئيس «مجلس مفوضي الشعب» بعدة أيام وجه أ.أ. يوفيه وأرسله على رأس وفد للمفاوضات مع القيادة الألمانية.

وفي ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧، بعد التوقيع على هدنة حتى ١ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨، بدا وكأن السلام صار قريباً. بعد ذلك بدأت المفاوضات السلمية. دُعم يوفيه بحضور كامينيف وعدد من البلاشفة و«الاشتراكيين - الثوريين اليساريين». ولكن الوضع كان قد تغير: انتصرت القوة الشوفينية في ألمانيا وصارت أطماعهم أعلى، فهم يعرفون أن خنادق الروس الآن نصف خالية، وليس وراء ظهر الوفد السوفييتي سوى شبح قوة روسيا السابقة. وضع الألمان للصلح شروطاً قاسية جداً، تُفقد روسيا أراضي شاسعة.

أظهر قائد الثورة إرادة وبعد نظر يحسد عليهما. إذا لم توقع روسيا الصلح القاسي غير العادل «فجيش الفلاحين المرهق من الحرب منذ الهزائم الأولى سيُسقط الحكومة العمالية الاشتراكية، ليس خلال أشهر بل خلال أسابيع»[٥٣]. وبهذا نرى أن مصير الثورة كان لا يزال في الميزان. وفي اجتماع للجنة المركزية حول موضوع الصلح تضاربت وجهتا نظر متناقضتان: لينين والشيوعيون «اليساريون». وبعد التصويت الأول حصل خصوم الصلح، أنصار «الحرب الثورية»، على أغلبية الأصوات.

اقترح الشيوعيون «اليساريون»، وبشكل أساسي: بوخارين، بوبنوف، بريوبراجينسكي، بياتاكوف، رادك، أوسينسكي، لوموف، اقترحوا التركز على تصعيد الحركة الثورية في أوروبا. أعلن بياتاكوف أنه بدون انفجار ثوري فوري في أوروبا ستلقى الثورة الروسية حتفها. كان «اليساريون» يعتبرون أن حرباً ثورية ضد الامبريالية الألمانية قادرة على دفع البروليتاريا الأوروبية إلى الانتفاض ضد

حكوماتها. يجب الإشارة إلى أن «الأعراض» الثورية التي ظهرت في دول أوروبية عديدة، اعتبرها «اليساريون» بداية حريق قاري، وصاعق الثورة العالمية.

من المعروف أن تروتسكي ترأس الوفد السوفييتي في الجولة الثانية للمفاوضات في بريست ـ ليتوفسك بالرغم من أن ميزان القوى في اللجنة المركزية قد تغير ومال لصالح أنصار الصلح. خَطَا تروتسكي خطوة غير متوقعة، ففي العاشر من شباط (فبراير) ١٩١٨، وبعد مفاوضات ليست طويلة حول التفاصيل، أعلن تروتسكي انتهاء المفاوضات: «يجب أن يعود الجندي ـ الفلاح الروسي ليفلح بسلام في هذا الربيع حقله الذي انتزعته الثورة له من أيدي الإقطاعيين. يجب أن يعود الجندي ـ العامل الروسي إلى الورشة ليصنع هناك ـ لا أدوات تدمير بل أدوات بناء... نحن نخرج من هذه الحرب... نأمر بالتسريح الكامل لجيوشنا... وبهذا الخصوص، أرسل البيان التحريري الموقّع التالي:

«باسم مجلس مفوضي الشعب، تعلن حكومة جمهورية روسيا الاتحادية لشعوب وحكومات العالم (من الخصوم والحلفاء والمحايدين) أنها وهي ترفض توقيع اتفاق إلحاق أو ضم، تعلن من جهتها إنهاء حالة الحرب مع ألمانيا وإمبراطورية النمسا ـ المجر وتركيا وبلغاريا.

تصدر الأوامر للجيوش الروسية على كافة الجبهات في نفس الوقت بالتسريح الكامل.

بريست ـ ليتوفسك.
١٩١٨/٢/١٠

رئيس الوفد الروسي للسلام
مفوض الشعب للعلاقات الخارجية
ل. تروتسكي

أعضاء الوفد:
مفوض الشعب لممتلكات الدولة د. كاريلين، أ. يوفيه م. بوكروفسكي، أ. بيتسينسكي، رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم أوكرانيا ميدفيديف»(٥٤).

وبعد ثلاثة أيام، وفي كلمته في جلسة للجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا، حاول تروتسكي إثبات أن قراره «يثّور» الحركة الثورية في الغرب، وأن شعار (لا سلام ولا حرب!) سيجد تأييداً حتى في صفوف الجنود الألمان. ولكن رفع هذا الشعار غير العادي فتح الطريق لأعماق روسيا أمام المعتدين. الجميع يعتبر، وحتى يومنا هذا، أن تروتسكي هو صاحب ذلك الشعار. ولكن في نيسان (أبريل) ١٩١٧، كتب السفير الفرنسي في بتروغراد، في تقريره إلى باريس، مقوّماً إمكانيات الحليف الروسي العسكرية: «في هذه المرحلة من الثورة، إن روسيا لا تستطيع قبول السلام ولا مواصلة الحرب»(٥٥). هل كان لتروتسكي علم بتقويم السفير الفرنسي هذا؟ تصعب الإجابة على هذا السؤال.

بعد عدة أيام، شنت الجيوش الألمانية هجوماً على كل الجبهة، وداست أحذية الجنود الألمان الأراضي الروسية في: تفينسك، فيندين، مينسك، بسكوف وعشرات المدن الأخرى... وأخيراً، وبعد نقاشات حادة، قررت اللجنة المركزية بسبعة أصوات ضد أربعة، التوقيع على الصلح تحت الشروط الألمانية...

وحسب تعبير تشيتشيرين «وضعت ألمانيا مسدساً في رأس روسيا» وأجرت صلحاً مميتاً لروسيا. وبحكم هذا الصلح، انفصلت عن روسيا: بولندا، ليتوانيا، إستونيا، كورلاندا، كارس، باتومي، وجزر في بحر البلطيق... ولكن كان على الحزب أن يدافع عن هذا الصلح في مؤتمره السابع والمؤتمر الرابع لسوفييتات عموم روسيا الطارئين اللذين عقدا في شهر آذار (مارس) وبينهما أسبوع واحد.

علينا أن نشير أنه في ظل تلك الأوضاع كان ستالين يلعب دوراً سلبياً بشكل عام، ليس بسبب معارضته لمواقف معينة، بل بكل بساطة، لأن ذلك الوضع الديناميكي المعقد لم يكن واضحاً تماماً بالنسبة له. فعلى سبيل المثال، في جلسة اللجنة المركزية في ٢٣ شباط (فبراير)، عندما هدد لينين بالانسحاب من الحكومة واللجنة المركزية في حال رفضها لاقتراحه بالتوقيع على الصلح، ارتجف ستالين فجأة وتردد ثم سأل: «هل الانسحاب من المناصب يعني الانسحاب الفعلي من الحزب؟» وأجاب لينين ـ بالطبع ـ بالنفي.

الشعور بالضياع، الذي كان يساور ستالين بين الفينة والأخرى، كان يظهر بشكل خاص عندما تتردد أصوات تقول إن «شرف الحزب أهم من وجوده». أما لوموف فأعلن جهاراً: «لا تخافوا من استقالة لينين. فالثورة أهم». وكذلك قال أوريتسكي إنه بهذا «الصلح المخزي لن ننقذ السلطة السوفييتية». وتحت تأثير تلك الآراء المتناقضة اتخذ ستالين فجأة موقف الترقب: «يمكننا ألا نوقع هذا الصلح». فرد لينين: «ستالين غير محق عندما يقول إنه يمكننا ألا نوقع. يجب التوقيع تحت هذه الشروط. فإن لم توقعوه فإنكم ستوقعون على حكم إعدام السلطة السوفييتية خلال ثلاثة أسابيع. هذه الشروط لا تمس السلطة السوفييتية. أنا غير متردد أبداً، فإنذاري النهائي هذا غير قابل للسحب. وأنا لا أريد «جملة ثورية»[٥٦].

في تقريره المنفعل أمام المؤتمر، هاجم بوخارين بشدة موقف لينين دون مجاملة: «يتاجر» القائد بالجمل، ويعطي «مواصفات غير دقيقة»، «والوضع ليس كما رسمه الرفيق لينين»، «والذي يعيش بالأوهام هو الرفيق لينين وليس نحن»، «... ذلك المستقبل الذي يصوره لنا الرفيق لينين غير مقبول... ولكنني أعتقد أنه لدينا مخرج. وهذا المخرج، الذي يرفضه الرفيق لينين ونراه ضرورياً، هو الحرب الثورية ضد الامبريالية الألمانية»[٥٧]. ولكن حماس اليساريين الثوري هذا تحطم على صخرة ذرائعية (براغماتية) لينين اليقظة.

أما تروتسكي، فقد ظل صامداً على موقفه. أعلن في كلمته في المؤتمر السابع للحزب: «لقد امتنعت عن التصويت عندما كانت اللجنة المركزية تقرر هذا الأمر الهام لسببين: أولاً، لأنني لا أعتبر رأينا في هذا الخصوص مصيرياً بالنسبة للثورة... أما

بالنسبة للفرصة الأفضل للثورة فأعتقد أنها ليست في الجانب الذي اتخذه الرفيق لينين... وصوت واحد فقط في اللجنة المركزية كان مع التوقيع الفوري للصلح: وكان ذلك هو صوت زينوفييف». وهو يتحدث عن الذين أصروا على توقيع الصلح، قال تروتسكي إن ذلك الطريق لديه «بعض الفرص الواقعية. ولكنه طريق خطر يمكن أن يؤدي إلى إنقاذ الحياة ولكن بالتخلي عن معناها (ومبررها)»(٥٨).

بالرغم من أن المؤرخين السوفييت تكتموا على هذا الموقف لعقود فإن لينين نفسه كان قد قوَّم بالتفصيل موقف تروتسكي هذا ضمن كلمة اختتام نقاشات اللجنة المركزية للتقرير السياسي في ٨ آذار (مارس) ١٩١٨:

«والآن يجب علي أن أتطرق لموقف الرفيق تروتسكي. علينا أن نفرق بين موقفيه: عندما بدأ المفاوضات في «بريست» مستخدماً إياها بذكاء للتحريض، كنا جميعاً معه. كان يستشهد بحواري معه، وأضيف هنا أنني كنت قد اتفقت معه أن نبقى متشددين إلى أن يصدر الألمان تحذيرهم الأخير لنا، وعندئذ نستسلم... كان تكتيك تروتسكي صحيحاً في المماطلة، ولكنه غير صحيح عندما أعلن إنهاء حالة الحرب دون أن يوقع على الصلح»(٥٩).

أرهقت الدولة والشعب من الحرب لدرجة أن أية إمكانية لتنفس الصعداء كانت ـ بالنسبة للأغلبية ـ فرصة إنقاذ. استطاع لينين وخلاّنه المقربون، لا أن يقتنصوا هذه الفرصة فقط، بل وأن يستخدموها لصالحهم. **يفتقر التاريخ لمثل بعد النظر هذا والشجاعة في حل القضايا الهامة بالغة التعقيد، ومنها مسألة الحرب والسلم.** لم يخف لينين من أن يتهم بـ «الاستسلامية» و«الانسحابية» و«الرضوخ لرحمة الامبريالية»، تلك الاتهامات التي رشقه بها «الاشتراكيون الثوريون اليساريون» والشيوعيون «اليساريون»، و«فرسان الجملة الثورية» الذين كانوا يفهمون جوهر الشرف الثوري بتصلب بدائي. ولم يبق مع لينين في تلك الأيام العصيبة الدرامية إلا: زينوفييف، ستالوف، سفيردلوف، سوكولنيكوف، سميلغا، كامينيف. وفي اللحظة الحاسمة صوّت ستالين أيضاً لصالح لينين.

فانديا الروسية

كان قادة أكتوبر يحاولون دائماً في كلماتهم البحث في الثورة الفرنسية العظمى عن أمثلة ومرادفات لأحداث الثورة الروسية. في بداية عام ١٩١٨، أي بعد أقل من نصف سنة من انتصار الثورة، ظهر لديهم مرادف لمنطقة فانديا (في غرب فرنسا بين بريتان ولوار). في حزيران (يونيو) ١٧٩٣ انتفضت فانديا. لا يمكن للجديد أن يتقبله كل الناس فوراً. الملاكون الكبار ورجال الدين المتعصبون، حذروا الفلاحين الأميين من الثورة فرأوها وحشاً غامضاً يلتهم ـ دون تمييز ـ كل الثوابت والتقاليد والأعراف. نشبت حرب إقطاعية دموية في كل من بريتان ونورماندي وبواتا وبوردو وليموج. وأصبحت فانديا بؤرة الثورة الريفية المضادة. كما أشار

ب.أ. كروبوتكين، فإن «فانديا نكأت جرح الثورة الفرنسية الصدئ»[٦٠]، وأصبحت فانديا رمز الحرب الأهلية الغاشمة التي زاد من تفاقمها التدخل الأجنبي. وكذلك في روسيا السوفييتية، كانت «فانديا» روسية تنضج.

كانت فترة الاستراحة قصيرة. ففي آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٩١٨ بدأ التدخل الأجنبي العسكري، الذي بعث عند البرجوازية والإقطاع الأمل بالثأر. انتفاضات في كل مكان... ثورات مضادة يقوم بها الضباط البيض والقوزاق والكولاك والقوميون. ورد البلاشفة على الإرهاب الأبيض بإرهاب أحمر لا يقل شراسة. والدولة التي حطمتها سنوات الحرب الأربع، لم تعد فقط محاطة بدائرة نارية بل اشتعلت بها نيران الحرب الداخلية. لم يكن للجمهورية حدود، كان لها جبهات فقط.

في باريس ولندن وبرلين وطوكيو وواشنطن وعشرات العواصم الأخرى، كان الجميع يعتقد أن روسيا في النزع الأخير. شهدت تلك الفترة أكبر موجة هجرة. غادر روسيا العديد من البرجوازيين والملاكين الكبار وأصحاب المصانع والعلماء والمثقفين المبدعين وكبار الموظفين. ورسم العديد من هؤلاء ـ في المقالات والنداءات والبيانات ـ صورة استيلاء «الرعاع الشامتين» على السلطة وتنبأوا بالنهاية القريبة للسوفييتات. بعد عدة أعوام سيكتب م.أ. كالينين، في مقالته في الأزفيستيا بخصوص ما نُشر في صحيفة «دني» البيضاء: «أنتم الآن ضحايا نكبات الحرب الأهلية، ولكن مصائبكم هذه ـ مهما رأيتموها عظيمة ـ ليست سوى نقطة في بحر العذاب الذي عاشه الشعب الروسي في الفترة ما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٧ [فترة الحرب العالمية الأولى]. أنكم لم تروا معاناة الشعب تلك لأنها خفتت تحت «عواء» الوطنية...»[٦١].

كانت نهاية السلطة السوفييتية تبدو قريبة، خصوصاً عندما بدأت حفلة اصطياد جادة لمفوضي الشعب. في بتروغراد قتلت رصاصة ليونيد كانيغيسير «الاشتراكي الثوري»، قتلت مويسي أوريتسكي. وفي تموز (يوليو) اغتيل على أيدي البيض سيميون ناخيمسون مفوض القناصة اللاتفية الشهير. أما مفوض التموين لجمهورية تركستان ألكسندر بيرشين فقتل في طشقند على أيدي المتمردين. وفي ١٨ أيار (مايو) أعدم القوزاق «البيض» شنقاً البلشفيين المشهورين فيودور بودتيلكوف وميخائيل كريفوشليكوف. كما وقع في أيدي البيض ألكسندر تاوبي الفريق السابق في الجيش القيصري والذي انضم للثورة ورأس مركز سيبيريا. ولكن أقوى ضربة وجهتها الثورة المضادة كانت في عام ١٩١٨، بعد خطاب لينين أمام عمال مصنع ميخيلسون، عندما أصابته رصاصة فاني كابلان، «الاشتراكية الثورية».

تخوم دموية تقسم روسيا. ألمت بروسيا «فانديا» الحرب الأهلية، فأصبح الأخ يحارب أخاه، والأب يقاتل ابنه. وكانت كلمات جان جوريس التي تحدثت عن فانديا ١٧٩٣ كأنها مكتوبة للتحدث عن الحرب الأهلية في روسيا: «كم من المشاعر العنيفة

تلتهب في المدن التي شعرت بطعنات الخناجر حول قلبها!! آه!! من الكراهية التي ستنفجر في الغد!! يا للقمع الذي سيلاقيه أعداء اليوم ومن سيُعتقد أنه كان حليفه سواءً بأعماله أو بسكوته!!»[٦٢]. قساوة وضراوة الحرب الأهلية في روسيا خلفت كراهية طبقية عميقة قسمت الشعب إلى معسكرين معاديين. كانوا عادة لا يأخذون الأسرى. كان «البيض» «يخوزقون» الجرحى «الحمر» في المستشفيات. سيُظهر «الحمر» أيضاً قساوة رهيبة. في المعارك تختفي الرحمة. التيفوئيد يتبختر على الجبهات، ويقتل الأسرى رمياً بالرصاص في الأودية والشعاب، والحياة يهبط سعرها. النداء الطبقي أعلى من نداء التعاطف والرحمة والحكمة والمنطق. دم المواطنين يعم البلاد. الحرب لم تخضها فقط القوات المسلحة للطبقات المتعادية بل اشترك بها غالبية الشعب. ملهم الحرب الأول ومسرعها كان التدخل الأجنبي العسكري. أشار لينين إلى أن «الامبريالية العالمية التي كانت وراء الحرب الأهلية هي المسؤولة عن استمرارها أيضاً...»[٦٣]. أعلنت اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ان الجمهورية السوفييتية منطقة عسكرية، وأقامت مجلساً ثورياً عسكرياً للجمهورية برئاسة تروتسكي. كما عيّن إ.إ. فاتسيتيس قائداً عاماً للقوات المسلحة ثم حل محله س.س. كامينيف. ورداً على الرعب الأبيض بدأ الرعب الأحمر.

ظهر ستالين بشكل أوضح في الحرب الأهلية. كان يقوم بما تكلفه به اللجنة المركزية من مهام معقدة وذات مسؤولية. وفي منتصف عام ١٩١٨ صارت تساريتسين تلعب دوراً هاماً في الجناح الأيمن للجبهة الشرقية. لأسباب تموينية أكثر منها عسكرية أُرسل ستالين جنوباً إلى منطقة تساريتسين مفوضاً كامل الصلاحية للتموين الغذائي. في ٣١ أيار (مايو) ١٩١٨ يوقع لينين قراري مجلس مفوضي الشعب الصادرين في ٢٩ و٣٠ من نفس الشهر حول تعيين ستالين وشليابنيكوف قائدين عامين لشؤون التموين في جنوب روسيا ولهما صلاحيات فوق العادة[٦٤]. أنشوطة الجوع كانت تضيق أكثر فأكثر حول عنق المراكز السياسية والصناعية في روسيا. يبدو أنه كان قد تكوّن لدى لينين رأي في أحد مفوضي شعب الحكومة السوفييتية كمنفذ أمين. فمنذ عودة لينين إلى بتروغراد كان كثيراً ما يلتقي بذلك القوقازي الصامت، الذي نادراً ما كان يوجه أسئلة، ولا يشكك علانية بقرارات اللجنة المركزية، وكان على استعداد للقيام بكل ما يكلف به. كان يبدو وكأنه مكتفٍ بدور الموظف الأمين البعيد عن الأضواء. وبنفس الهدوء المعتاد تقبل ستالين تكليفه بمهمة تساريتسين. قبل سفره إلى الجنوب أبلغوه أن لينين ـ زيادة على قرار مجلس مفوضي الشعب ـ أمر س.أ. آرالوف أحد مسؤولي مفوضية الشعب العسكرية بتخصيص مجموعة من ٤٠٠ شخص، على أن يكون من بينهم مائة قناص لاتفي، لمرافقة ستالين[٦٥].

وفور وصوله اضطر ستالين لحل مسائل عسكرية، فتساريتسين كانت ضمن دائرة حصار قوقازي كثيف. أصبح ستالين عضواً في المجلس العسكري للمنطقة، الذي استطاع إعادة توحيد الوحدات العسكرية المبعثرة، والقيام بتعبئة وتكوين عدة فرق جديدة ووحدات خاصة، وبناء قطارات مصفحة، وتأسيس ميليشيا عمالية.

وبطلب من ستالين، أرسل لينين برقية مستعجلة لقيادة المواصلات المائية، يأمرهم بالتنفيذ الفوري والدقيق لأوامر وتعليمات ي.ف. ستالين مفوض الشعب فوق العادة كامل الصلاحية[٦٦].

تحسن وضع تساريتسين عند وصول وحدات الجيش الخامس من منطقة حوض نهر الدون بقيادة فوروشيلوف. ومن المثير أن نشير إلى أن ستالين كان لا يرسل تقاريره إلى تروتسكي رئيس المجلس العسكري الثوري للجمهورية بل يتخطاه ويتصل مباشرة بلينين حتى فيما يخص المسائل البسيطة. تتميز معظم برقيات ستالين بافتقارها للتعميم العميق والتقويم السياسي والاستقرار. وإذا جاز التعبير فقد كانت برقياته ضمن المذهب التجريبي. ونتيجة للاجراءات التي اتخذها المركز ومجلس تساريتسين العسكري، استطاعت المدينة الاستعداد للحصار بفترة قصيرة. وبالرغم من مساعدة الخائن نوسوفيتش الكولونيل الاخصائي العسكري في القوات القيصرية، فإن محاولة دينيكين (قائد البيض) اقتحام تساريتسين باءت بالفشل. في المستقبل، تساريتسين وغيرها من الأماكن التي تواجد بها ستالين خلال الحرب الأهلية، ستدخل التاريخ وستكتسب أهمية أسطورية سحرية.

ستالين، الذي كان يجهل الأصول العملياتية والتكتيك، أظهر ـ خلال معركة تساريتسين العتيدة ـ خصالاً ديكتاتورية و«قبضة حديدية». كتب ستالين في رسالته للمركز: «آملاً أن الوضع سيعود إلى مجراه، أحث وأؤنب كل من يستحق. يمكنكم أن تثقوا اننا لن نرحم أحداً ـ حتى ولا أنفسنا ـ ولكننا سنوفر الخبز. لولا أن «اخصائيينا» العسكريين (الكندرجية!) كانوا كسالى ونياماً لما اخترقت الجبهة، وإذا عادت الجبهة لتتصل من جديد فإن ذلك لن يكون بفضلهم بل رغماً عنهم»[٦٧]. زادت خيانة نوسوفيتش وعدد آخر من ضباط الجيش القيصري السابقين، من شكوك ستالين ـ الكبيرة أصلاً ـ في الأخصائيين العسكريين. مفوض الشعب الممنوح صلاحيات فوق العادة في مجال التموين، لم يكن يخفي عدم ثقته بالأخصائيين. وبمبادرة من ستالين ألقي القبض على مجموعة كبيرة من الأخصائيين العسكريين ورموا بهم في سجن عائم. أعدم الكثيرون رمياً بالرصاص. كان لديه اتباع. ليس صدفة أن لينين، في كلمته حول الحرب في المؤتمر الثامن للحزب، استنكر أسلوب العصابات، وقال بما لا يدع مجالاً للبس إن «الجيش النظامي يجب أن يحتل الأهمية الأولى. ويجب أن ننتقل إلى جيش نظامي بأخصائيين عسكريين»[٦٨]. لم يعارض ستالين لينين جهاراً، ولكنه حتى في أواخر الثلاثينات كان يعتبر أي خدمة سابقة للعسكريين الحمر في جيش القيصر مبرراً للعقوبة.

المجلس الثوري العسكري للجبهة الجنوبية المكون من: ي.ف. ستالين، ك.ي. فوروشيلوف، س.ك. مينين رئيس مجلس تساريتسين، ب.ب. سيتين قائد الجبهة، كانت تسوده العلاقات غير الودية. كان ستالين يعتبر أن جميع القرارات ـ وحتى غير المهمة ـ يجب أن تؤخذ جماعياً فقط، أما سيتين قائد الجبهة، فكان يحاول بمنطقه العسكري أن يتجنب «التنسيق والتدقيق» عند أخذ القرارات. أفهم ستالين موسكو أن سيتين ليس جديراً بالثقة. رد سيتين بتقرير للمجلس العسكري الثوري

للجمهورية يؤكد به أن مينين وستالين وفوروشيلوف يحدون من نشاطه كقائد الجبهة، ويطلبون دائماً تنسيق جميع الأمور ـ حتى التافه منها ـ مع المجلس العسكري، مما يعقد عملية القيادة(٦٩). انتصر ستالين: في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ سُحب سيتين من منصب قائد الجبهة.

وضع ستالين في نهاية النهايات الأخصائيين العسكريين تحت الرقابة المستمرة. كان يعلم أن تروتسكي يتعاطف معهم، ومنذ تلك الفترة كانت تنشب بينهما مشاحنات تلغرافية أسست نفوراً عميقاً تحول إلى كراهية ثم إلى عداء.

لم يكلف ستالين نفسه عناء أن يزور الخنادق والمستشفيات الميدانية وأماكن التجمع والمراقبة. كان في المقر باستمرار، يصدر الرسائل المستعجلة، ويستدعي المفوضين والمسؤولين، ويطلب التقارير والبلاغات، ويهدد بالمحاكمات العسكرية، ويرسل المحققين والمفتشين. ومنذ سنوات الحرب الأهلية وستالين يلجأ للإجراءات المتشددة القاسية ـ إعدام المخبرين والأخصائيين العسكريين المشكوك بهم والأشخاص الذين حسب رأيه أضروا بالقضية. هكذا كان الحال في تساريتسين وبيرم وبتروغراد. وأشار لينين بشكل مباشر في كلمته في المؤتمر السابع للحزب إلى الإعدامات التي نفذت خلال فترة وجود ستالين في تساريتسين وإلى اختلاف آرائهما في هذا الموضوع(٧٠). وظروف الحرب لا تسمح لنا دائماً ـ عندما نكتب التاريخ ـ تحديد ضرورة أو عدم ضرورة الإجراءات التي اتخذت. فانديا كانت دموية، وكذلك الحرب الأهلية. شعر ستالين بثقة أكبر بنفسه خلال تلك الحرب منه أثناء الثورة. كان شبيهاً بكوميسار «العهد» كاربيه الذي وصفه ج. ميشليه بأنه يعتبر أي قساوة وعنف مبرره في سبيل تحقيق أهداف معينة. في سنين الحرب الأهلية، آمن ستالين بجبروت العنف الذي كان ـ حسب رأيه ـ مبرراً دائماً فيما يخص الأعداء.

لم يكن أسلوب عمله يعجب الكثيرين. والقادة ذوو النظرة الثاقبة ما كان بإمكانهم إلا أن يروا «لقطته» الحديدية وأنه لا يمكن دفعه لاتخاذ قرارات عرضية أو التأثير على أفكاره. ويثير الانتباه في هذا الخصوص، رسالة أنطونوف ـ أوفسيينكو في ١٩ أيار (مايو) ١٩١٩ الموجهة للجنة المركزية للحزب والتي يحتج بها على «التعامل الظالم معه كقائد جيش أوكرانيا». وبالرغم من أنه انتبه لضعف دعم المركز له إلا أنه كتب أن «ليو دافيدوفيتش يدرك ذلك (يقصد تروتسكي)... وما أن «صفْينَ» الرفيق ستالين حتى انتقل الرفاق الأوكرانيون من التآمر للعمل»، وبهذا يثبت أنطونوف ـ أوفسيينكو بشكل غير مباشر إمكانيات ستالين في التأثير على الوضع في الجبهة.

بما أن ستالين كان يجهل تفاصيل الفن العملياتي، فقد كان يشدد بشكل أساسي على الانضباط والواجب البروليتاري والوعي الثوري، وكثيراً ما كان يهدد بالعقاب الثوري. بعد تساريتسين تصاعدت ثقة ستالين بنفسه أكثر بكثير بين رفاقه في اللجنة المركزية ومجلس مفوضي الشعب. في ذلك الوقت صار ستالين شخصية

معروفة في أوساط قادة الحزب والجيش. والحقيقة أنه عندما كان يتواجد على الجبهات بتكليف من لينين لم يكن يظهر أية «موهبة عسكرية» خاصة. لا توجد شهادة موضوعية يوثق بها تثبت أن ستالين كان قادراً على تقويم الوضع العملياتي حقّ التقويم، أو «تقدير الموقف»، أو استنباط فكرة استراتيجية مميزة. أسلوب الضغط الذي تجذر فيما بعد كنظام «بيروقراطي ـ تعليماتي» يدين لستالين كخالقه الرئيسي. تعليمات ستالين العملياتية مبسطة جداً ـ إن لم نقل بدائية. وإليكم نوعاً من أوامره المعتادة في الجبهة. خلال اتصال سلكي مباشر مع عضو المجلس العسكري الثوري للجيش الرابع عشر (غ.ك. أوردجونيكدزيه) في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٩، الذي رفع له أن الجيش يستعد لاسترجاع مدينة كرومي وأنه بحاجة للدعم، أجابه ستالين:

«كان جوهر آخر توجيهاتنا لكم أن تعيدوا توحيد الأفواج في مجموعة واحدة وسحق أفضل فرق دينيكين. أكرر ـ سحق، لأننا نتكلم عن السحق. استيلاء العدو على مدينة كرومي ليس سوى حادث يمكن ـ دائماً ـ معالجته. وواجبنا الأساسي ليس أن نجعل قواتنا الضاربة تهجم كل على حدة، بل أن نجمع هذه القوات في مجموعة واحدة قوية مؤثرة تضرب العدو في اتجاه واحد معين»[٧١].

يحس الإنسان ـ دائماً ـ بقوة تعليمات عضو المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية، ولكن لا يحس بالفن العسكري للقائد. مع أنه فيما بعد، في الثلاثينات، سيُكتب العديد من الكتب والأطروحات حول ذلك الفن العسكري لديه بالتحديد. كانت أعمال ك.ي. فوروشيلوف من أكثر الأعمال مديحاً لستالين، «كأعظم قائد عسكري في كل العصور». هذا، مع أنه لم يكن قائداً عسكرياً بل ممثلاً سياسياً للمركز وعضواً ذا صلاحيات في المجلس العسكري الثوري. وكثير من أعضاء اللجنة المركزية والمرشحين عملوا ليس أقل بل أكثر من ستالين من أجل الانتصار في الحرب الأهلية، أهمهم: ل.د. تروتسكي، س.أ. غوسيف، م.ن. سميرنوف، أ.ت. سميلغا، غ.ي. سوكولنيكوف، م.م. لاشيفيتش، ل.ب. سيريبرياكوف، أ.س. بوبنوف، ك.خ. دانيشيفسكي...

على أية حال فإن دور ستالين في الحرب الأهلية لم يقتصر على القيام بمهام مفوضيتي القوميات والرقابة الحكومية. كان له دور سياسي وتعبوي وعسكري. أثناء الحرب الأهلية كان لينين يستخدمه كمفوض فوق العادة كامل الصلاحية للتفتيش وتقصي الحقائق وتدقيق الملفات واستلام المعلومات الدقيقة. وهكذا، في حزيران (يونيو) ١٩١٨ أبرق لينين لستالين يعلمه بأن أوامر الحكومة حول إغراق سفن أسطول البحر الأسود يجب أن تنفذ، ومن لا يلتزم سيعتبر مجرماً خارجاً عن القانون. كما اقترحت البرقية على ستالين أن يرسل إلى نوفوروسيسك شخصاً كفؤاً قادراً على تنفيذ ذلك الأمر[٧٢]. وفي كلمته في مؤتمر اتحاد العمال ولجان مصانع ومعامل مدينة موسكو في نفس الشهر، ورداً على سؤال حول مصير أسطول البحر الأسود، وضح لينين الوضع مضيفاً: «مفوضو الشعب ـ ستالين وشليابنيكوف

وراسكولنيكوف ـ سيعودون قريباً إلى موسكو وسيبلغونكم حقيقة ما جرى هناك»[٧٣].

عندما كان لينين يوجه ويرشد ستالين قبل ذهاب الأخير للجبهة كان لا يراه عضو اللجنة المركزية فقط بل وأحد ممثلي بلد متعدد القوميات ـ يعتمد مصيره بشكل كبير على اتحاد روسيا مع الجمهوريات السوڤييتية الأخرى. وأثناء إعداد مشروع قرار المكتب السياسي بخصوص الدفاع عن أذربيجان، كتب لينين بخط يده: يكلف ستالين من خلال المكتب التنظيمي «باستقطاب أكبر عدد ممكن من المسلحين ـ الشيوعيين للعمل في أذربيجان»[٧٤].

قام ستالين بدور القائد السياسي في فصول متعددة من الحرب الأهلية. فأثناء أول محاولة معادية للثورة بهدف سحق السلطة السوفييتية، والتي كانت بمساعدة التمرد الذي قاده الجنرال كراسنوف، كلف لينين ستالين ودزيرجينسكي وأوردجونيكيدزيه وبودفويسكي وسفيردلوف وأورينسكي بتنظيم الدفاع عن بتروغراد وتعبئة القوى لسحق المتمردين. قام ستالين ـ باقتراح من لينين ـ باجراءات محددة لإعداد جنود حامية بتروغراد، ولبناء الدفاعيات، ولإنشاء «ميليشيات حمراء» في المصانع والمعامل.

ومنذ ذلك الوقت، كان بإمكان العديد ملاحظة صلابة وتشدد ستالين الذي كان يصدر الأوامر والتعليمات بصوت لا يدع مجالاً للنقاش، أما ثاقبو النظر من كوادر الحزب فقد لاحظوا ثأريته وحقده أيضاً. في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ اتهم ستالين وفوروشيلوف، اتهما أ.أ. أوكولوف أحد أعضاء المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية بالفوضى وعدم الانضباط. وبإلحاح من ستالين، اتخذ لينين قراراً: «نظراً لتوتر العلاقات بين فوروشيلوف، وأوكولوف، نرى انه من الضروري استبدال أوكولوف»[٧٥]. ولكن لينين، الذي اتفق مع ستالين في تلك المرة، دافع عن أوكولوف في المؤتمر السابع للحزب: «ان الرفيق فوروشيلوف أكثر من الكلام الرهيب باتهام أوكولوف أنه هو الذي حطم الجيش. وهذا اتهام مخيف. فأوكولوف كان ينفذ خط اللجنة المركزية، وأوكولوف كان يرفع لنا التقارير بأن الميليشيا لا تزال موجودة»[٧٦]. في حزيران (يونيو) ١٩١٩ حصل صدام جديد في بتروغراد بين ستالين وأوكولوف الذي طالب بخضوع منطقة بتروغراد العسكرية لقيادة الجبهة الغربية. وبعد إلحاح ستالين المفوض فوق العادة كامل الصلاحية، كلف لينين سكيليانسكي نائب رئيس المجلس العسكري الثوري أن يرسل برقية باسم لينين باستدعاء أوكولوف «كي لا تتفاقم المشادة»[٧٧]. وسيذكر ستالين أوكولوف بكل ذلك في الثلاثينات.

على الأغلب إن لينين بدأ استخدام ستالين بشكل فعال في الحرب الأهلية منذ سحق تمرد دوخونين. وفي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، عندما كان لينين عند آلة الإرسال للاتصال مع دوخونين في مقر القيادة العامة للجيش، كان بجواره ستالين وكريلينكو. تجاهل دوخونين أوامر الحكومة السوفييتية. وعند ذلك، وبعد

نقاش قصير في نفس المكان، أرسل لينين برقية تأمر بتنحية دوخونين من منصب قائد الجيش واستبداله بمفوض الشعب العسكري ن.د. كريلينكو. وبعد يومين توجه القائد الجديد، برفقة خمسمائة جندي، إلى مقر القيادة العامة للجيش. بالرغم من محاولات كريلينكو وغيره لتجنب القصاص الاعتباطي، فقد قتل دوخونين.

كما استخدم لينين والمجلس العسكري الثوري ستالين للتحقيق في أسباب الهزائم والنكبات على الجبهات. كان ذلك ضرورياً لا لأن الفوضى كان تسود أعمال الجيوش فقط، بل ولأنه كان يوجد خونة من القيصريين والبيض في لباس الثوار. ففي كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ هزم الجيش الثالث هزيمة نكراء في منطقة بيرم مما شكل خطراً جدياً بأن ينضم كولتشاك إلى قوات الثورة المضادة في الشمال والقوات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية التي كانت تحتل مساحات شاسعة حول مورمانسك وأرخانغلسك. أرسلت اللجنة المركزية لجنة خاصة إلى المنطقة يترأسها ستالين ودزيجينسكي لتقصي أسباب الهزيمة واتخاذ الإجراءات اللازمة لتصحيح الوضع. عمل المبعوثان كاملا الصلاحية بحزم وبدون تأخير، فقدما للمحكمة العسكرية المسؤولين عن تلك الهزيمة، وازاحا قادة الجيش والمفوضين الضعفاء، وركزا على العمل السياسي بين الجنود الحمر والانضباط وتحسين التموين. وستالين، الذي لم يكن يثق بالقادة والخبراء العسكريين، استغل حقائق خيانة بعض الضباط السابقين لقمع الجميع بدون رحمة.

كتب ستالين في التقرير الذي رفعه إلى المركز أنه بعد اتخاذ الإجراءات استعاد الجيش قدرته العسكرية. استطاع الجيش الثالث ـ وبمساعدة الجيش الثاني ـ في هجومه المضاد في كانون الثاني (يناير) أن يعيد الأمور إلى مسارها الطبيعي. في «خلفيات» الجيش يجري تطهير المؤسسات الحزبية والسوفييتية. في فياتكا والمدن المجاورة تم تنظيم لجان ثورية. طُهرت لجنة المحافظة الطارئة ودُعمت بكوادر جديدة.

استنتاجات ستالين قطعية كالعادة. إليكم مثالاً عن تقويم ستالين للمجلس العسكري الثوري للجيش الثالث: «تتكون اللجنة من عضوين، الأول (لاشيفيتس) يقود، أما الثاني (تريفونوف) فلم نستطع تحديد وظيفته ولا دوره: فهو لا يراقب التموين، ولا يراقب أجهزة التربية السياسية في الجيش، ويبدو أنه لا يفعل شيئاً. وفعلياً، لا يوجد هناك أي مجلس عسكري ثوري»[٧٨].

أشار ستالين في تقريره، دون ان يسمي تروتسكي بالاسم، إلى الدور الضعيف لـ «بعض قادة» المجلس العسكري الثوري للجمهورية الذين يكتفون في نشاطهم بإعطاء «ارشادات عامة». بناءً على أوامره (ستالين) حُولت مجموعة كبيرة من العاملين إلى المحكمة العسكرية. اجتماع اللجنة المركزية(١٩١٩/٢/٥)، الذي نظر في تقرير المفوضين كاملي الصلاحية، قرر: «تحويل جميع الذين ألقت عليهم القبض لجنة ستالين ودزيرجينسكي (في الجيش الثالث) إلى الدوائر المعنية...».

في رحلته تلك، تعرف ستالين عن كثب بـ دزيرجينسكي؛ ويبدو أن الأخير

حاز على احترامه لحزمه وصرامته. فستالين يقوّم الحزم والإرادة أكثر من أي شيء آخر، وهو لم يعان أبداً من نقص في هاتين السمتين. كان حزمه يظهر أحياناً في طلباته القطعية من المركز. فقد كتب من الجبهة رسالة إلى لينين في ١٩٢٠/٦/٣ يطالب بإغلاق جبهة القرم بأسرع ما يمكن: يجب علينا «اما أن نعقد هدنة فعالة مع فرانكل كي نتمكن من سحب وحدة أو اثنتين من جبهة القرم، وإمّا أن نستبعد فكرة المفاوضات معه كلياً، ولا ننتظره لتعزيز قوته، بل نضرب بشدة الآن؛ وبعد سحقه نسحب بعض قواتنا إلى الجبهة البولندية. لقد أصبح الوضع الراهن، الذي يميع مسألة القرم، غير محمول»[٧٩].

كتب لينين مباشرة إلى تروتسكي: «هذه طوباوية واضحة. ألن تكون الضحايا بالغة؟ سنقضي على حشود من جنودنا. علينا أن نزن الأمر عشر مرات. اقترح الإجابة على رسالة ستالين بما يلي: «ان اقتراحكم حول الهجوم على القرم هام لدرجة أنه يحتاج إلى تفكير عميق وحذر. وحري بنا أن نتحرى معلومات أوفى. انتظروا جوابنا.

لينين. تروتسكي»[٨٠]

عندما استلم لينين إجابة تروتسكي، التي جاء فيها أن ستالين، برسالته للينين، يخرق النظام (برأيه أن بيغوروف، قائد الجبهة الجنوبية الغربية، هو الذي له أن يكتبها)، أجاب لينين تروتسكي: «هذه المسألة لا تخلو من الحزازات. لكن يجب أن نناقش الموضوع بسرعة. فما هي الإجراءات المستعجلة؟»[٨١].

جميع محاولات لينين لتحسين العلاقة بين ستالين وتروتسكي باءت بالفشل. أمين عام المستقبل يقابل بامتعاض شعبية تروتسكي المتزايدة التي يعتبرها بغير حق. أثناء زياراته النادرة لمقر المجلس العسكري الثوري للجمهورية في موسكو، اطلعوه على عدد من البرقيات المتشابهة. سأورد واحدة منها:

«إلى رئيس المجلس العسكري الثوري، الرفيق تروتسكي.

في الذكرى الأولى لثورة أكتوبر... قرر مواطنو قرية كوتشيتوفكا من محافظة تامبوفسك تغيير اسم قريتهم لتصبح قرية تروتسكي. نرجوكم أن تسمحوا لنا بتسمية القرية باسم قائد وملهم الجيش الأحمر الغالي علينا.

رئيس مجلس المنطقة نيتشايف»

ومما يجدر الإشارة إليه أن أول مدينتين تغير اسمهما في روسيا السوفييتة أخذت كلتاهما اسم تروتسك (غيّرهما ستالين إلى غاتشينا، تشابايفسك).

تشهد مراسلات عديدة للينين أثناء الحرب الأهلية على اندهاشه لسرعة غضب وحرد ستالين. هكذا، فقد أجاب ستالين على إحدى برقيات لينين حول ضرورة مساعدة جبهة القفقاز: «إنني لا أفهم لماذا علي أنا بالذات الاهتمام بجبهة القفقاز... مسؤولية جبهة القفقاز يجب أن تقع كلياً على المجلس العسكري الثوري للجمهورية

الذي كل أعضائه ـ حسب معلوماتي ـ في صحة جيدة، وليس على ستالين المثقل ـ بدونها ـ بالعمل»[٨٢]. جاء جواب لينين حاسماً ومختصراً:

«٢٠/٢/١٩٢٠

عليكم تقع مسؤولية تسريع وصول الأمداد من الجبهة الجنوبية الغربية إلى جبهة القفقاز. بشكل عام، يجب أن تساعد بكل الوسائل والطرق، لا أن ننشغل بتحديد على أي من الإدارات تقع هذه المسؤولية أو تلك.

لينين»[٨٣].

لكن حساسية ستالين ستظهر بشكل واضح حتى في تقاريره اللاحقة. سيكتب لينين في الرابع من آب (أغسطس) برقية له:

«تحدد موعد الاجتماع العام للجنة المركزية غداً في السادسة مساءً. حاول حتى ذلك الوقت أن ترسل استنتاجاتك حول الوضع عند بوديني والوضع على جبهة فرانكل، وكذلك حول تصوراتك لهاتين الجبهتين. هنالك قرارات سياسية بالغة الأهمية قد تعتمد على استنتاجاتك تلك.

لينين».

أحبط ستالين. فعلى ما يبدو لا يريد تحمل مسؤولية «قرارات سياسية بالغة الأهمية» من جهة، ومن جهة أخرى ليس لديه موهبة التنبؤ. كتب في برقية جوابية أن «الحرب لعبة، ومن المستحيل أن يضمن كل شيء مسبقاً»، وبخصوص اقتراح لينين، أجاب:

«لا أعرف لماذا تحتاجون رأيي بالذات؛ لذلك لا أستطيع أن أوافيكم بالتقرير الذي طلبتموه، وأكتفي بإعلامكم بالحقائق المجردة بدون تعليق.

ستالين»[٨٤].

أجل، كان ستالين ينفذ تعليمات المركز. ولكن عندما كان يطلب منه أكثر مما يريد أو يستطيع، نستطيع من خلال ردوده وسلوكه استشعار إحساسه بالاستياء والحيرة والمزاجية التي التقطها لينين منذ سنوات الحرب الأهلية.

سأسمح لنفسي بالخروج عن الموضوع قليلاً. لقد حفظ في الأرشيف بريد تروتسكي الواسع. كان أ.أ. يوفيه يراسله أكثر من غيره، فهو من أتباعه ومماثليه في الفكر القدماء. في إحدى رسالاته المطولة (على أكثر من عشرين صفحة)، يطلب يوفيه فعلياً من تروتسكي أن يساعده لتسلمه مركزاً مهماً مثل مفوض الشعب للرقابة والتفتيش. يكتب يوفيه أنه «إذا عزل ستالين من منصب مفوض الشعب للرقابة والتفتيش فسيكون ذلك لمصلحة العمل لأن ستالين لا يعمل شيئاً من خلال هذا المنصب وسيكون مفيداً في أي منصب آخر، بينما تشيتشيرين لا يمكن عزله من منصب مفوض الشعب لشؤون التفتيش لأنه لن يكون مفيداً في أي مكان آخر...»[٨٥]. يصعب فهم لماذا سيكون ستالين «مفيداً في أي منصب»: ألأنه «لا يعمل

شيئاً» أم أن يوفيه كان يستشف إمكانيات مفوض الشعب الكامنة؟

وكتب يوفيه إلى لينين ايضاً، فاستلم الرد التالي:

«أولاً أنت مخطىء حين تردد أكثر من مرة أن «اللجنة المركزية هي أنا». يمكن أن يكتب ذلك فقط شخص متوتر ومرهق...

ثانياً... كيف يمكن تفسير ذلك؟ لقد «رماك القدر». لاحظت ذلك على كثير من الكوادر وستالين مثال. ولكنه، بالطبع، كان سيدافع عن نفسه. لكن القدر لم يجعله أبداً خلال الثلاث سنوات ونصف لا مفوض شعب للرقابة والتفتيش ولا مفوض شعب للقوميات. وهذه حقيقة...

أحييك وأشد على أياديك.

المخلص، لينين»[٨٦].

سيرسل ستالين أكثر من مرة خلال الحرب الأهلية ـ كالعديد من رفاقه في المركز ـ كمفوض كامل الصلاحية إلى مختلف الجبهات. ففي ربيع عام ١٩١٧، سيتدهور الوضع في منطقة بتروغراد. كان يودينيتش وجيوش الحلفاء يخططون للاستيلاء على مهد الثورة خلال فترة قصيرة. كلف الجيش السابع وأسطول بحر البلطيق بحماية بتروغراد. وصلت قوات الثورة المضادة المتفوقة إلى مشارف كراسنوي سيلو وغاتشينا. حولت القيادة العامة للجيش الأحمر أفواجاً كفؤة من الجهات الأخرى إلى أحواز بتروغراد. ستالين، كمفوض فوق العادة كامل الصلاحية، كان دائم الوجود ـ إمّا في سوفييت بتروغراد أو في مقر قوات الدفاع. وكالعادة، كانت أساليبه في العمل ديكتاتورية: عزل الفاشلين، تحويل من يعتبره مذنباً إلى المحكمة، تنظيم أمور التموين واللوازم، «هز» قادة الأجهزة. اكتشفت مؤامرة في مقر الجبهة الغربية وكذلك في الجيش السابع. وبالطبع، أعدم المتآمرون. تركت فوضى المظاهرات حقلها تدريجياً للانضباط والحزم الثوري. استجاب قادة الدفاع عن المدينة (ريميزوف، توماشيفيتش، بوزيرن، شاتوف، بيترس) وستالين الذي حضر خصيصاً، استجابوا لنداء «لِنحم» بتروغراد!!» وأعدوا العدة لصد قوات الثورة المضادة. ومنح ستالين وكذلك تروتسكي وسام الراية الحمراء لدفاعهما عن بتروغراد.

جميع الثورات الاجتماعية تتجسد في العنف. كان ستالين يعتبر ذلك طبيعياً، فالاحتجاج على استعمال العنف عنده كان «انحطاطاً ليبرالياً». امتعض ستالين من مقالة مكسيم غوركي التي نشرت في ٧ (٢٠) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ في «نوفايا جيزن» التي يؤكد الكاتب بها ان «... لينين وتروتسكي ومن لف لفهما قد تسمموا بسموم السلطة النتنة، ويثبت ذلك تعاملهم المخزي مع حرية الكلمة والحرية الشخصية وكل الحقوق التي ناضلت الديمقراطية لإنجازها. يتدافع ذوو التعصب الأعمى والمغامرون بلا ضمير إلى «الثورة الاشتراكية» ـ وفي الحقيقة إنما يهرعون إلى الفوضوية وموت البروليتاريا والثورة»[٨٧]. كان ستالين يعتبر تصريحات كهذه

ليست الا «ثقافوية عفنة». وعلى العكس، فقد كان يشجع بكل الطرق القسوة والإرهاب. سنضرب مثالاً: كتب لينين في برقيته لتروتسكي في سيفياجسك: «استلمت رسالتك. إذا كان ميزان القوى مختلاً والجنود يقاتلون، يجب اتخاذ اجراءات خاصة ضد قيادتهم. ما رأيك أن نبلغهم انه من الآن فصاعداً سنقتدي بالثورة الفرنسية، وسنحاكم، وقد نعدم، فاتسيتيس وقائد أحواز قازان والقيادة العليا في حال المماطلة والفشل؟»(٨٨) كان ستالين يعتبر جملاً كهذه عادية، لأنه، بنفسه، كان يلجأ ـ بدون تفكير ـ إلى القمع على الجبهة.

عندما كان ستالين يعود من رحلة دورية كان يستفاد منه في القضايا اليومية. ويشهد عدد من البرقيات من الجبهة على أن ستالين منذ ذلك الوقت كان يملك سلطة واقعية محددة. ففي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ أثار تروتسكي في برقية لستالين موضوع «ضرورة حل مشكلة الفرق القومية والمخازن العسكرية في ما وراء القوقاز، بحزم وبشكل نهائي». كما يتوجه تروتسكي إلى ستالين في الوقت نفسه، أنه يجب اتخاذ ثلاثة قرارات في هذا المجال عن طريق المكتب السياسي. هذه هي إحدى البرقيات النادرة من تروتسكي لستالين، فقد كانا يحاولان تجاهل بعضهما البعض. لقد تولدت كراهية متبادلة بينهما بعد تعارفهما الأول بقليل. كان ستالين في داخله لا يزال يعتبر تروتسكي منشقياً، لم تكن تعجبه ثقته بنفسه وبلاغة خطابه وهيبته و«عرضه الناجح لنفسه». كان ستالين يمتعض من أن رئيس المجلس العسكري الثوري للجمهورية كان يزور الجبهة بقطار خاص يرافقه قطار أو قطاران مدرعان وتحرسه مجموعة كبيرة من الجنود الحمر، الشباب المجهزين بشكل جيد. كانت الرفاهية التي يحيط تروتسكي بها نفسه تثير تحدي ستالين ولكن في مكان ما في داخله، كان ستالين يحسد «الرئيس» على فصاحته وطاقته وشعبيته. ولكن عندما صرح تروتسكي علانية: «لا يمكن بناء الجيش بدون قمع. لا يمكنك جر الناس لخطر الموت دون أن يكون لديك سلاح الإعدام»(٨٩)، لم يندد ستالين بهذا التصريح، فقد كان في داخله يؤيده. وقد كان يلجأ بنفسه إلى مثل تلك الإجراءات في الحالات الحرجة، ولم يكن وحيداً في ذلك. ففي ١٢ أيار (مايو) ١٩٢٠ رفع عضو المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية الغربية التقرير التالي:

«إلى الرفيق تروتسكي رئيس المجلس العسكري للجمهورية:

في جبهة الجيش الرابع عشر وأثناء هجوم البولنديين، كانت هناك حالات هرب مخزٍ لوحدات كاملة. أصدرنا قراراً بالإعدام رمياً بالرصاص لواحد من كل عشر هاربين.

بيرزين»(٩٠).

«فانديا» الحرب الأهلية قاسية على طرفيها. كما لاحظ نوسوفيتش القائد السابق لمقر منطقة شمال القوقاز العسكرية (والذي هرب فيما بعد إلى صفوف البيض)، إن ستالين لم يكن يظهر أي تردد إذا تأكد أن مَن أمامه هو عدوه. ففي تساريتسين، حينما ألقي القبض على المهندس ألكسييف وولديه وبعض الضباط السابقين بتهمة التعاون مع منظمة مضادة للثورة، كان قرار ستالين مقتضباً

وحازماً: «اقتلوهم!»، فأطلقت عليهم النار فوراً وبدون محاكمة. كان ستالين يعتبر ذلك طبيعياً، فهو يؤمن إيماناً عميقاً بنجاعة وشمولية العقاب القادر على تأمين «النتائج» السياسية المطلوبة. لم يكن ستالين وبيرزين الوحيدين باستخدام ذلك الأسلوب، ففيما يخص القمع كان تروتسكي نموذجاً، سأشير إلى مقتطف من بيانه رقم (١٠) في ٨ آب (أغسطس) ١٩١٨.

«إلى الجميع... إلى الجميع...

في قطار مفوض الشعب العسكري، حيث يكتب هذا البيان، تعقد جلسة المحكمة العسكرية الثورية كاملة الصلاحية. قام الرفيق كامينشيكوف الذي عُيّن مسؤولاً عن حماية سكة الحديد (موسكو ـ قازان)، بإنشاء معتقلات في موروم وأرزاماس وسفيياجسك حيث سيوجد عتاة المحرضين وضباط الثورة المضادة والمخربون والطفيليون وتجار السوق السوداء، هذا غير الذين سيعدمون على أرض جريمتهم أو ستصدر ضدهم أحكام أخرى...

رئيس المجلس العسكري الثوري: ل. تروتسكي»[٩١].

عندما شعر ستالين بالقوة والقدرة على التأثير بالأحداث وصيرورتها ـ بالرغم من أن أهميتها محلية فقط إلا أنها تبقى بارزة ومهمة ـ بدأ يظهر شخصيته التي ستكون أحد منابع مصائب كثيرة. وعندما كان عضواً في المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية اختلف في الرأي مع سميلغا عضو المجلس العسكري الثوري للجمهورية حول توجيه الضربة القاضية إلى جيوش دينيكين. كان ستالين حاداً وفظاً في تفكيره ولا يحتمله أحد. فكان لا يكتفي بالإصرار على رأيه بل وكان يصر على إهانة خصومه. فبدلاً من أن يناقش بهدوء إيجابيات وسلبيات ما يقدم من اقتراحات من رفاقه (فهم جميعاً أعضاء مجلس واحد)، كان يتخذ موقفاً لا يتزحزح عنه، يكاد يصل إلى درجة أن يرفض بغضب أية وجهة نظر أخرى. وإذا حدث أن أحدهم كان لا يوافقه الرأي أو يناقشه أن يطلب تعليمات وأوامر من المركز دعماً لرأيه، كان ستالين يشكك بأمانته. وعملياً، كل من كانت له مشاحنات مع ستالين (وهؤلاء ليسوا قلة) خلال الحرب الأهلية سيدفع ثمن ذلك غالياً بعد عقدين. كانت ذاكرته سوداوية وحقودة.

نظراً لعضوية ستالين، لفترة طويلة في المجلس العسكري الثوري للجهة الجنوبية الغربية فقد تكونت له لغة مشتركة مع قائد الجبهة أ.أ. بيغوروف مارشال الاتحاد السوفييتي في المستقبل الذي سيُنكل به أثناء التطهير الدموي عام ١٩٣٧ بعلم ورضاء ستالين. لم تظهر أية ردة فعل من ستالين على رسالة استرحام بيغوروف، مع أن الأخير ذكّره انهما ـ خلال الحرب الأهلية ـ «إحتسيا حساء الملفوف من صحن واحد». ولكن حصل مرة أن دافع (وهذا نادر جداً!) ستالين عن بيغوروف ذاته. كان المركز ينظر في اقتراح تروتسكي بتنحية بيغوروف من منصب قائد الجبهة نظراً لفشله في القرم. سؤل ستالين عن وجهة نظره حيال ذلك، فكان رده غريباً ويخرج عن إطار الجواب:

«إلى تروتسكي ـ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي ـ موسكو.

اعترض بشدة على استبدال بيغوروف بـ أوبوريفيتش الذي لم «ينضج» بعد لمثل هذا المنصب أو بـ كوركي الذي لا يناسب هذا المنصب. لقد أضاع القرم بيغوروف والقائد الأعلى معاً، فالأخير كان في خاركوف قبل هجوم فرانكل بأسبوعين ثم سافر إلى موسكو ولم يلاحظ تفتت جيش القرم. وإذا كان لا بد من عقاب أحد، فيجب أن يعاقبا معاً. أرى أنه الآن لا يوجد أفضل من بيغوروف. والأصح أن يُستبدل القائد العام الذي أفلس وفقد إمكانية العطاء، فهو الذي يتأرجح بين التشاؤم المتطرف والتفاؤل المتطرف ولا يعمل ولا يترك قيادة الجبهة يعملون.

١٤/٦/١٩٢٠ ستالين»[٩٢].

على الأغلب إن ستالين حمى بيغوروف لأن تروتسكي هو الذي اقترح تنحيته، أما الذين «أضاعوا القرم»، فستالين كان من ضمنهم. كان بإمكان ستالين عام، ١٩٢٠، أن يقول بحزم أن القائد العام س.س. كامينيف «لا يعمل ولا يترك الآخرين يعملون». كانت قيم ستالين الأخلاقية شاذة منذ زمن طويل. وكلما تعزز موقعه كلما كانت قيمه الأخلاقية هذه أكثر خطراً وشراً. ولدى متابعة هذا التطور عن ستالين، يبرز سؤال يطرح نفسه: هل كان لمفهوم الضمير مكان في منظومة ستالين الخلقية أبداً؟

لم يكن بيغوروف الوحيد الذي عرفه ستالين عن كثب منذ أيام الحرب الأهلية، فقد كان يعرف العديد من قادة الجيش السوفييتي الذين أنتجتهم الثورة: م.د. فرونزيه، م.ن. توخاتشيفسكي، إ.ب. أوبوريفيتش، أ.إ. كورك... وكما نعلم، لقد أحرز الجيش الأحمر انتصارات كبيرة في صراعه مع جيش بولندا البرجوازية ـ الإقطاعية، ثم هُزم هزيمة نكراء عام ١٩٢٠. في المستقبل. بعد حوالى عشرين عاماً تقريباً، سيعتبر ستالين أن بيغوروف وتوخاتشيفسكي وغيرهما من قادة الجيش «تباطأوا لأنهم مجرمون متآمرون»، ولن يخطر ببال ستالين أنه كعضو في المجلس العسكري يتحمل كامل المسؤولية في انتصارات وهزائم الجيش.

عندما قرر المكتب السياسي في ٢ آب (أغسطس) ١٩٢٠ تقسيم الجبهة الجنوبية الغربية إلى جبهة جنوبية (القرم) وأخرى غربية، اقترح مجلس الجبهة العسكري ضم الجيش الثاني عشر والرابع عشر وجيش الخيالة الأول إلى الجبهة الغربية. ولكن لم يتم تنفيذ هذه العملية بسرعة. ففي ١٣ آب (أغسطس) رفع بيغوروف وستالين تقريراً للقائد العام يفيد بأن الجيوش مشتبكة في القتال في منطقة لفوف ـ رافاروسكايا، «ونعتبر أن تغيير المهام الرئيسية للجيوش في مثل هذه الظروف أمر غير ممكن»[٩٣].

عندما بعث القائد العام س.س. كامينيف أمراً جديداً لقيادة الجبهة الجنوبية الغربية لتسليم الجيش الثاني عشر وجيش الخيالة الأول للجبهة الغربية، رفض ستالين توقيع وثيقة التسليم، ولم يوقعها سوى ر.أ. بيسرزين عضو المجلس العسكري. وفي غمرة جدل وحوار أعضاء المجلس العسكري قات الأوان، إذ إن

جيش الخيالة الأول لم يبدأ انسحابه من لفوف إلا في ٢٠ آب (أغسطس) فلم يستطع نجدة الجبهة الغربية. وبالطبع فإن من يتحمل مسؤولية ذلك الخطأ الاستراتيجي هم: المجلس العسكري الثوري للجمهورية والقيادة العامة للجيش وقيادة الجبهة. ولكن، ألم يوافق ستالين في ٥ آب (أغسطس) على ضم الجيوش الثلاثة للجبهة الغربية؟!! فلماذا عطل ذلك القرار في اللحظات الأخيرة الحاسمة مما أدى إلى خسائر فادحة؟!! لم يحاول ستالين أبداً تنفيذ اقتراحه الذي وافقت عليه موسكو. فستالين مثله مثل تروتسكي وتوخاتشيفسكي وييغوروف وغيرهم من المسؤولين مذنب ويتحمل مسؤولية ذلك الفشل الذريع. لكن ـ وبالطبع ـ لم يخطر على بال ستالين الاعتراف بخطأه في التقدير. فمنذ ذلك الوقت بدأ يتكون لديه إحساس بـ «العصمة».

أثبت لينين مرة أخرى أنه في تقويم أي وضع لا يجوز الابتعاد عن الحقيقة. قال لينين محللاً أسباب الهزيمة: «عندما وصلنا مشارف وارسو كانت جيوشنا قد أنهكت لدرجة أنها لم تستطع مواصلة الانتصار. أما الجيش البولندي فقد ساعده أنه يقاتل في بلده الذي يشتعل حماساً وطنياً وتأييداً لجيشه، وهذا ما حفزه للصمود والهجوم من جديد. اتضح أن الحرب فتحت لنا الطريق للاقتراب من سحق بولندا كلياً، ولكنه في اللحظة الأخيرة خارت قوانا»[٩٤]. من الجدير بالذكر أن المؤرخين في المستقبل سيشددون على فضل ستالين «الخاص» في منعطفات الجبهات الجنوبية والشرقية والشمالية الغربية، ولن يذكروا أبداً دوره في الحملة البولندية، فهو لم يبرز بشكل ايجابي في تلك الحملة. فقوانين التطور الاجتماعي والفن العسكري لا تعمل بوجود أو عدم وجود شخص ما، بل تحتاج توفر ظروف وشروط ملائمة.

إذا استثنينا كل الأعمال الرهيبة التي لا تغتفر والتي سيقوم بها ستالين في المستقبل، وإذا اعتبرنا أنه لم يولد شريراً، يمكننا التحدث عن بعض أفضال ستالين في الحرب الأهلية. لكن هذه الأفضال هي أفضال «منفذ»، ولم يكن له «أفضال في الحسم» كما سيكتب فيما بعد. ومع ذلك لا يجوز تجاهل حقيقة أن ستالين، ومنذ بداية الثورة، كان عضواً في أجهزة الحزب العليا: في البداية في اللجنة المركزية ثم في المكتب السياسي والمكتب التنظيمي. وتدريجياً ـ وخاصة قبيل انتهاء الحرب الأهلية ـ تعزز موقعه، وأصبح أحد الأعضاء الأساسيين في نواة الحزب القيادية.

وبالتحليل الدقيق لنشاط ستالين الحزبي في تلك الفترة يتضح أنه يقل عن العديد من القادة الحزبيين. فهو كمنظر لم يكن أكثر من مروِّج، ولم يكن مشهوراً بالفن التنظيمي ذي الأهمية الخاصة في فترات الاضطرابات. لم يكن بإمكان أحد أن ينعته بالطيبة والروحانية، فهو لم يوهب الصفات الأخلاقية التي يتمتع بها الرجال الفاضلون. لكن إرادته وإصراره وصلابته وحزمه في الوصول إلى الأهداف التي حددتها قيادة الحزب كانت تترك انطباعاً إيجابياً على من يعملون معه. لا يمكن أن نتجاهل أيضاً أن ستالين القائد تكون بشكل أساسي في سنوات الحرب الأهلية. فقد

أحس بالسلطة وفهم «ميكانيزمها» في المركز وفي الأطراف، وتأكد أن الضغط والإصرار والصلابة في اللحظات الحرجة تعطي النتائج المطلوبة.

كانت قيادة الحزب تضم عدداً كبيراً من المثقفين، أو «الكتّاب» كما علق ستالين بسخرية ذات مرة في نهاية العشرينات. لكن ستالين لم يتطرق أبداً لهذا الموضوع أمام الناس، بشكل أساسي لأن فلاديمير لينين نفسه كان «مثقفاً» و«كاتباً» و«مهاجراً». فإن هيبة القائد الحقيقي والفعلي للثورة كانت عالية جداً لدرجة أن ستالين لم يسمح في يوم من الأيام بالتعدي على سمعته، حتى بعد انتشار فكرة «القيادة المزدوجة» للثورة و«القائدين الاثنين» - أي لينين وستالين. وعندما كان لينين يوجه نقداً للأخير (بخصوص قضية إنشاء مناطق للحكم الذاتي، واحتكار التجارة الخارجية، وأمور الجبهة وغيرها) كان ستالين يستمع بصمت ولا يعارض أبداً. فقد كانت سيطرة لينين الروحية والعقلية على ستالين واضحة لأعين الجميع. ومن يدري، ما كان سيكون مصير ستالين كقائد من الدرجة الثانية أو الثالثة لو لم يقتل المرض لينين بتلك السرعة الفتاكة؟! من يدري؟ لكن، بالنسبة لنا اليوم، وقد اكتشفنا حقائق كثيرة عن ذلك الرجل، فإن مجرد التفكير في ستالين كقائد يبعث فينا الرعب والألم ويطلق فينا صرخة اعتراض.

أثبتت وفاة لينين ضعف تلك «الشريحة المثقفة» من اللينينيين الذين سمحوا لرجل ذي نزعات ديكتاتورية قيصرية كستالين باستغلال سلطته على صعيد الحزب والبلاد ككل. ولكن، كي لا نظلم، علينا الإشارة إلى أن شعار: «ستالين هو لينين اليوم!» الذي سيرفعه البلاشفة بهدف الدعاية ليس مجرداً من الحقيقة، فقد استمد ستالين عدداً من المواقف العملية من دورس أستاذه ومعلمه لينين، والستالينية تنبع من منابع اللينينية. لكن ستالين خيب أمل لينين في أيامه الأخيرة. وبالرغم من ذلك فإن المحيطين بلينين لم يريدوا تنفيذ وصية القائد الراحل. جميعهم يعتبرون أنفسهم لينينيين، لكنهم في اللحظة الحاسمة تخلوا عنه ولم ينفذوا وصيته. كيف ولماذا حصل ذلك؟ لماذا لم يتم تنفيذ الخيار الآخر؟ إن هذا سؤال لن يجد له الفلاسفة والكتّاب والمؤرخون جواباً في المستقبل القريب. وبينما نقاشهم دائر يتابع نهر التاريخ مساره ناقلاً أحداثاً لا نستطيع سوى تحليلها. والتاريخ ليس مسرح أشباح: ففيه يسود الخلود لا الزوال.

المراجع

الفصل الأول: اختلاجات اكتوبر

١ ـ ي.ف. ستالين. الأعمال الكاملة. المجلد ١٣. ص، ١١٣.
٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٥٥٨. أوب ١.د٥٠٧٨، ٥٠٨٠.
٣ ـ متحف ناريمسك للمنفيين السياسيين من البلاشفة. ف ٩٩٨.
٤ ـ ك.ت. سفيردلوفا. ي.م.سفيردلوف. موسكو، ١٩٦٠. ص، ١٩٩.
٥ ـ ي.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٨. ص، ١٦٩.
٦ ـ ز.غ. أوردجينيكيدزيه. طريق البلشفي. موسكو، ١٩٥٦. ص، ١٢٨ ـ ١٢٩.
٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ١٧. أوب ٢. د ٥٧٧. ل ١٨ ـ٢٥.
٨ ـ الأرشيف المركزي الحكومي لثورة اكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٢٠٠. ل ٣٠٤.
٩ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٤٣٥٨. ل ١.
١٠ ـ ف. شفيتسر. ستالين في منفى توروخانسك ـ ذكريات ثائر تحت الأرض. موسكو، ١٩٤٠. ص، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٣٤.
١١ ـ L.Trotsky. Stalin, vol.1,p.148
١٢ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ١١٢.
١٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٦. ص، ٥٢ ـ ٥٤.
١٤ ـ ف.إ. لينين. تاريخ سيرته. المجلد ٣. ص، ١٤٧.
١٥ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٢. أوب ١. د ٢٣٨٥١. ل ١.
١٦ ـ ف.إ. لينين. تاريخ سيرته. المجلد ٣. ص، ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
١٧ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ١٢١.
١٨ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٣٢٢٣.ل ١.
١٩ ـ نقلاً عن: ثورة شباط. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. ص، ٥٩.
٢٠ ـ أرشيف رئاسة أركان الجيش الأحمر. ف ٥٥٥. أوب ١. د ٢٨٠٢.ل ١ ـ ٢.
٢١ ـ نقلاً عن: ثورة شباط. ص، ١٣١.
٢٢ ـ نقلاً عن: ثورة شباط. ص، ١٥٣.
٢٣ ـ أ.ز. مانفريد. الثورة الفرنسية العظمى. موسكو، ١٩٨٣. ص، ٣٢١.
٢٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣١. ص، ١٥٦.
٢٥ ـ نقلاً عن: ثورة شباط. ص، ٣٣٦ ـ ٣٣٧.
٢٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣١. ص، ٦٣.
٢٧ ـ ي.ف. ستالين. السيرة المختصرة. موسكو، ١٩٥١. ص، ٥٧.
٢٨ ـ ل.د. تروتسكي. ثورة شباط. برلين: غرانيت، ١٩٣١. ص، ٣٢١ ـ ٣٢٢، ٣٢٥.
٢٩ ـ الـ «برافدا». ١٥/٣/١٩١٧.
٣٠ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٦. ص، ٨.
٣١ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٦. ص، ٣٣٣.
٣٢ ـ ف.إ. لينين. تاريخ سيرته. المجلد ٤. ص، ٥٥؛ عام الثورة. بتروغراد، ١٩١٩. ص، ١٦.
٣٣ ـ ن.ن. سوخانوف. ملاحظات حول الثورة. مؤلفات. برلين ـ بيتربورغ ـ موسكو، ١٩٢٢. المجلد ٧. ص، ٤٤.
٣٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣١. ص، ١١٢.

٣٥ ـ محاضر الكونفرنس السابع لحزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي (بلشفيك). موسكو، ١٩٨٠. ص، ٨٠.
٣٦ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٣. ص، ٥٥.
٣٧ ـ المصدر السابق. ص، ٤١٣.
٣٨ ـ ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى. موسوعة. موسكو، ١٩٨٧. ص، ١٠٩.
٣٩ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٤. ص، ٢٥.
٤٠ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٩. ص، ٤٤٥.
٤١ ـ ف.إ. لينين تاريخ سيرته. المجلد ٤. ص، ٢٨٢.
٤٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٤. أوب ٣. د ٨١٣.
٤٣ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٤. ص، ٣٩٢.
٤٤ ـ ك.ريابينسكي. ثورة ١٩١٧ ـ تاريخ الأحداث. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. المجلد ٥: اكتوبر. ص، ١٣٨.
٤٥ ـ المصدر السابق. ص، ١٧٢.
٤٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٤. ص، ٤٣٥، ٤٣٦.
٤٧ ـ ج. ريد. عشرة أيام هزت العالم. موسكو، ١٩٥٧. ص، ٨٩.
٤٨ ـ ي.ف. ستالين. السيرة المختصرة. ص، ٦٥.
٤٩ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٥. ص، ١٠٢.
٥٠ ـ ل. تروتسكي. مدرسة ستالين للتزوير. برلين: غرانيت، ١٩٣٢. ص، ٢٦.
٥١ ـ ل. تروتسكي حياتي. برلين: غرانيت، ١٩٣٢. المجلد ٢. ص، ٦٠.
٥٢ ـ ي.ف. ستالين. مقالات وخطابات ١٩٢١ ـ ١٩٢٧. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٨. ص، ١٠٤ ـ ١٠٥.
٥٣ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٥. ص، ٢٥٠.
٥٤ ـ ل. تروتسكي. مؤلفات. المجلد ١٧. الجمهورية السوفييتية والعالم الرأسمالي. الجزء ١. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. ص، ١٠٣، ١٠٦.
٥٥ ـ Paleolgue M. La Russie des Tsars pendant la grande guerre. vol. 3. Paris, P. 245
٥٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٥. ص، ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٤٩٠.
٥٧ ـ المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). المحضر بالاختزال. موسكو ـ براغ، ١٩٢٣. ص، ٣٢ ـ ٥٠.
٥٨ ـ المصدر السابق. ص، ٧٨، ٧٩، ٨٦.
٥٩ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٦. ص، ٣٠.
٦٠ ـ ب.أ. كروبوتكين. الثورة الفرنسية العظمى ١٧٨٩ ـ ١٧٩٣. موسكو، ١٩٧٩. ص، ٣٥٥.
٦١ ـ الـ «إزفستيا». ١٩٢٣/٧/٨.
٦٢ ـ ج. جوريس. مؤلفات. المجلد ٦. ص، ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
٦٣ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٩. ص، ٣٤٣.
٦٤ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٢. أوب ١. د ٦١٥٧.
٦٥ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ١. أوب ٢. د ١١١.ل ٨٤.
٦٦ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٢. أوب ١. د ٦٢٣٥.
٦٧ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٤. ص، ١١٨.
٦٨ ـ مختارات لينينية. موسكو، ١٩٧٠. المجلد ٣٧. ص، ١٣٩.
٦٩ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ١٠. أوب ١. د ١٢٣. ل ٢٩ ـ ٣٠.
٧٠ ـ مختارات لينينية. المجلد ٣٧. ص، ١٣٦.
٧١ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ١٠٠. أوب ٩. د ٣٤. ل ٢٦ ـ ٢٧.

٧٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٢. أوب ١. د ٦٣٢٤. ل ١ ـ ٢.
٧٣ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٦ ص، ٤٦٣.
٧٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٢. ص، ٤٧.
٧٥ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٥٨٨. أوب ١. د ٤٨٦.
٧٦ ـ مختارات لينينية. المجلد ٣٧. ص، ٣٩.
٧٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب. ف ٢. أوب ١. د ١٠٠٢٢.
٧٨ ـ ي.ف. ستالين المجلد ٤. ص، ٢١٠.
٧٩ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٨. أوب ٢. د ٢٨٩. ل ١٩ ـ ٢٠، ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٥١. ص ٤٢٨.
٨٠ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٥١. ص، ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
٨١ ـ المصدر السابق. ص، ٢٠٨.
٨٢ ـ إرشادات قيادة جبهات الجيش الأحمر (١٩١٧ ـ ١٩٢٢). موسكو، ١٩٧٢. الملجد ٢. ص، ٧٩٠.
٨٣ ـ المصدر السابق، ص، ٤١٠.
٨٤ ـ المصدر السابق. الملجد ٣. ص، ٢٤٤.
٨٥ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٤٦. ل ١٤٥ ـ ١٤٧.
٨٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٥٢. ص، ٩٩ ـ ١٠١.
٨٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣٢٥. أوب ١. د ١١.
٨٨ ـ المصدر السابق. ف ٣٢٥. أوب ١. د ٤٠٣.ل ٨٤ أ.
٨٩ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ١٤١.
٩٠ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٤٦. ل ٢٠٠.
٩١ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣٢٥. أوب ١. د ٤٠. ل ٢.
٩٢ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٤٦. ل ٤١٣.
٩٣ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ١٠٤. أوب ٤. د ٤٨٤. ل ١١.
٩٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤١. ص، ٣٢١.

تحذير القائد

كانت قضايا السلطة الأهم
بالنسبة للينين ولجميع الذي تلوه.
ن. بيرديايف

يقف كل إنسان على عتبة مصيره. لكن، هل يقرع الباب؟ وما وراء ذلك الباب؟ وكيف يدخل؟ وما الذي ينتظره في الداخل؟ وهل ستتغير حياته وكيف؟ لا أحد يعلم ذلك... من كان له أن يعرف بعد انتهاء الحرب الأهلية أن بين نخبة الثوار - رفاق لينين يوجد رجل سيصبح خليفة، وذلك دون أن يكون الأذكى أو الأبرز أو الأقدر؟ وهل كان لستالين نفسه أن يتصور أنه هو الذي سيقف على رأس الحزب، ثم على رأس دولة كبرى وشعبها؟ من كان يتوقع ذلك؟ لا أحد. أعتقد أن ستالين نفسه، عندما كان لينين لا يزال في صحة جيدة، لم يكن «يصلي» لأكثر من أن يبقى في قائمة القادة.

العصور تختلف: تكون بعضها عصور تغيرات تاريخية حاسمة، وبعضها عصور اضطرابات شعبية، وبعضها الآخر عصور «كوارث» ثورية. لكن الحياة تستمر دون توقف: تستمر الآمال وخيبات الأمل، تستمر الأفراح والمآسي. والشعوب هي التي تقرر مصيرها ومستقبلها بنفسها، لكن القائد، الزعيم يلعب دوراً حاسماً في هذه العملية. وكون لينين، القائد المعترف له، على رأس الثورة خُلق جو من الثقة والامان والتفاؤل. كان لينين ضمانة البلاد من الصدف غير المرغوبة. وساد الظن أن الوضع سيبقى على ما هو عليه إلى الأبد.

لم يكن لينين يعاني من أية مشاكل صحية. كان رجلاً عفياً، لا يعرف التعب والإرهاق الجسدي أو النفسي. يكفي أن نتصور عدد الأعمال الهامة التي كتبها - بنفسه، دون أية مساعدة من المستشارين أو السيكرتاريا، كما يفعل قادة اليوم - وذلك فقط في سنوات الثورة والحرب الأهلية! دراسة سيرة لينين تعطينا فكرة عامة عن العمل الهائل الذي كان يقوم به. فمن جهة، كان يكتب أعمالاً إبداعية عديدة، ومن جهة أخرى، كان يحمل عبء حاضر الثورة ومستقبلها، عبء مصير الدولة بأكملها!

بينما كان لينين في صحة جيدة لم يكن أحد يفكر مجرد تفكير في خلفائه أو «ورثته» الممكنين. لكن، ما أن بدأت علامات الإرهاق تظهر عليه في نهاية عام ١٩٢١، وما أن اتضح أنه مصاب بمرض قاتل، حتى طرح السؤال نفسه: من الأقرب للينين؟... كتبت ن.إ. سيدوفا، زوجة تروتسكي: «في البداية، تهامس الناس الإشاعات حول مرض لينين، وكأن أحدهم لم يفكر يوماً ما أن لينين يمكن أن يصاب بمرض. فكثيرون يعلمون أن لينين يراقب صحة جميع من حوله باهتمام شديد، لكن بدا وكأنه لا يعرف، ولا يستطيع معرفة، المرض شخصياً. الجيل القديم من الثوار يعاني معظمه من أمراض القلب الذي بذل جهوداً أكبر من طاقاته. الأطباء يشكون أن «محركات» الجميع تقريباً بحاجة للتصليح. كان البروفيسور غيتيو يقول: القلبان الوحيدان اللذان لا يحتاجان لعلاج هما قلبا فلاديمير إليتش وتروتسكي»[١].

وكما سيكتب في صحيفة «إزفيستيا» الأساتذة فيرستير وأوسيبوف وأبريكوسوف وفيلدبيرغ وفيسبرود وديشين، وكذلك سيماشكو، مفوض الشعب للصحة: «أصيب فلاديمير إليتش أولينانوف (لينين) بالمرض في نهاية عام ١٩٢١، لكنه يصعب تحديد وقت الإصابة بدقة، إذ أن جميع المعلومات المتوفرة تؤكد أن المرض تطور ببطء وأكل جسمه تدريجياً وهو لا يزال في أوجه. كما أن فلاديمير إليتش لم يكن يعير مرضه الاهتمام اللازم. حتى شهر آذار (مارس) ١٩٢٢ لم يكتشف الأطباء المشرفون على صحة لينين وجود أي خلل عضوي في جهازه العصبي أو أي مرض باطني. لكن نظراً لمعاناته من آلام في الرأس والإرهاق نصحه الأطباء بالراحة، مما أدى إلى انتقاله إلى بلدة غوركي. لكن سيكتشف الأطباء قريباً، في بداية شهر أيار (مايو)، إصابة عضوية في الدماغ. أتت النوبة الأولى على شكل ارتخاء جسدي عام وفقدان النطق وصعوبة في تحريك أطراف الجسد اليمنى... لكن، نظراً لمتانة عوده، وبفضل اهتمام المحيطين به، ظهر في شهر تموز (يوليو) تحسن كبير في وضعه استمر خلال آب ـ أيلول (أغسطس ـ سبتمبر)، مما دفعه لمعاودة نشاطه العملي في تشرين الأول (أكتوبر) بشكل جزئي. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ألقى لينين ثلاثة كلمات برنامجية هامة»[٢].

بالنسبة لمقاييس اليوم، توفي لينين وهو لا يزال في عز شبابه، لكن علينا ألا ننسى أنه لم يرتح يوماً واحداً منذ عودته إلى روسيا في نيسان (أبريل) ١٩١٧. وكان يعمل أربع عشرة أو ست عشرة ساعة متواصلة في اليوم. يقول مساعدوه أنه بعد أن اضطر ملازمة الفراش لاحظ لينين أنه لم يرتح سوى مرتين طوال تلك السنين. كانت فترة الاستجمام الأولى ـ إنْ كان كتابة عمل كـ«الدولة والثورة» يسمى استجماماً ـ أثناء وجوده في رازليف هروباً من مطاردات الحكومة المؤقتة؛ أما المرة الثانية، فكانت «بفضل» فاني كابلان التي أطلقت الرصاص على فلاديمير إليتش في محاولة لاغتياله. يبدو أن ذلك هو مصير القادة الحقيقيين: فهم «يحرقون أنفسهم» أسرع من غيرهم من البشر. إنهم كالشمعة التي تحترق من الجهتين في الوقت ذاته، إنهم يحملون أعباء العمل الرسمية اليومية، ثم يعودون إلى بيوتهم وعائلاتهم، لكنهم لا يتخلصون من تلك الأعباء أو من مسؤولياتهم أمام المجتمع والدولة والمستقبل. ولا أحد يستطيع رفع تلك الأعباء والمسؤوليات عنهم.

حالما شعر لينين بزحف المرض أدرك أن قيادة الحزب دونه قد تنشق أو تنفصل. أعتقد أن لينين بدأ «فرز» رفاقه القادة منذ نهاية عام ١٩٢١. أليس ممكناً أنه بدأ يخطط لـ«وصية» منذ ذلك الحين؟ ففي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢، طلب لينين من مدير مكتبته ـ وكأنه شعر بأنه سيصاب قريباً بنوبة قاسية جديدة ـ ش.م. مانوتشاريانتس أن يسترجع الكتب الذي انتهى من مطالعتها للتو، لكنه استبقى كتاب إنجليس تحت عنوان «الوصية السياسية (من الرسائل غير المنشورة)»، وكتب على الغلاف: «يُحفظ على الرف. ١٩٢٢/١١/٣٠. لينين»[٣].

وبعد أقل من شهر، وقبل أن يسترجع قواه كلياً من إحدى النوبات القاسية، أملى لينين ليلة السادس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) على ل.أ. فوتييفا الجزء الثالث من الـ«رسالة للحزب». تشهد «الرسالة» أن لينين، وهو يحمل أعباء المسؤوليات اليومية، لم يتوقف يوماً عن التفكير في المستقبل، عما سيأتي من بعده. كان لينين قائداً دون أية صفة رسمية، كان قائداً لأنه يتحلى بصفات عقلية وروحية مميزة. من هم المقربون له؟ وما الذي جرهم للثورة؟ وما الذي يخبئه تاريخهم؟ دعونا نحاول الإجابة على جميع هذه الأسئلة معاً.

النخبة

إن الإنتقال من السلم إلى الحرب عملية صعبة؛ لكن عملية الإنتقال من الحرب إلى السلم ليست بالأسهل؛ وخاصة عندما يكون الوضع شبيهاً بما كان عليه في روسيا السوفييتية إثر الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي. ولا تستطيع الكلمات: «دمار»، «إفقار» «مجاعة» تصوير حقيقة الإضطراب والتشوه والإنهيار الاجتماعي الذي عاشته البلاد في بداية العشرينات. كانت روسيا آنذاك جزيرة ضخمة في بحر من الدول المعادية، تلتهمها نيران الثورة. وتعاني الجزيرة من الداخل من اختلاجات انتفاضية، ومن مقاومة صلبة للنظام الجديد من قبل مناطق ومحافظات بأكملها. وعلى الأغلب أن لا أحد يعلم أكثر من لينين أن السلطة تواجهها مشاكل ضخمة يعتمد مصير الدولة على حلها. الثورة انتصرت وصمدت وثبتت سلطة السوفييتات، لكنها لم تعط ـ ولم يكن بمقدورها أن تعطي ـ العامل والفلاح إلا أقل من القليل. كما أن نظام «الشيوعية العسكرية»(*) لا يستطيع تنفيذ قانون الحق في العمل والراحة والضمان الاجتماعي الذي أصدرته القيادة الثورية، ولتجنب تطور لشيوعية الفقر كانت البلاد في أمس الحاجة لافكار وخطوات فعالة جريئة. ومن قادر على تنفيذ مثل تلك الأفكار واتخاذ مثل تلك الخطوات؟ فقط الحزب الذي استلم زمام السلطة

(*) «الشيوعية العسكرية»: سياسة اقتصادية مارستها الحكومة السوفييتية اثناء الحرب الأهلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) اعتمدت فيها على تعميم جميع وسائل الإنتاج الزراعية والصناعية، والتركيز على الصناعات الحربية، وإجبار المزارعين على تسليم محاصيلهم باكملها للدولة، إلخ.

والدولة. في بداية عام ١٩٢١ كانت الخلايا الحزبية تضم ما يزيد عن ٧٣٠ ألف شيوعي، يخدم ربعهم في صفوف الجيش الأحمر. بدأ التحام الحزب والدولة.

أصبحت اللجنة المركزية برئاسة لينين جهاز (إدارة) الدولة الرئيسي فعلياً. لم يكن عدد أعضائها كبيراً في ذلك الوقت. فقد انتخب المؤتمر العاشر للحزب، على سبيل المثال، لجنة مركزية تتألف من خمسة وعشرين عضواً وخمسة عشر مرشحاً إزداد عددهم بعض الشيء في المؤتمر الحادي عشر (٢٧ عضواً و١٩ مرشحاً). كان ذلك آخر مؤتمر يترأسه لينين. قبل وفاة لينين كانت اللجنة المركزية تجتمع مرة كل شهرين(*)، وكانت نواة اللجنة المركزية تتألف من أعضاء فرع موسكو بشكل أساسي لكونهم يتحملون معظم المسؤوليات اليومية: حل قضايا عملية البناء الإقتصادي والعسكري، تعزيز العلاقات مع الفروع في المحافظات، تنفيذ «السياسة الاقتصادية الجديدة»، تحديد موقف الحزب من جماعة «المركزية الديمقراطية»(**) و«المعارضة العمالية»(***) والخ... ومن الجدير بالذكر أن بعض أعضاء تلك النواة «غير الرسمية» أو «غير التنظيمية»، كما يحلو للبعض تسميتها اليوم، كانوا ينتمون لتلك الجماعات أو غيرها... فكل شيء يحصل للمرة الأولى ولا أحد يملك التجربة الكافية. استلم الحزب سلطة حقيقية وأصبح حزباً حاكماً، لذلك صارت حياة البلاد تعتمد على مواقف الحزب السياسية، وأخلاق أعضاء الحزب وكفاءاتهم، وقدرات نواة الحزب القيادية.

في فترة ما بعد الحرب عقد الحزب مؤتمراته العاشر والحادي عشر والثاني عشر، لم يحضر لينين الأخير منها. لم يحظَ أحد، باستثناء لينين، على الإجماع في انتخابات اللجنة في المرات الثلاث. فإن تجربته وقراراته وأعماله النظرية وسلوكه العام كانت مثالاً أعلى لجميع أعضاء اللجنة المركزية ونواته القيادية، وذات تأثير روحي وعقلي متميز عليهم. وقد تبينت شدة حاجتهم له عندما اعتزل العمل بسبب المرض.

أكد ستالين في تقريره التنظيمي أمام المؤتمر الثاني عشر للحزب في ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٢٣ أنه «داخل اللجنة المركزية توجد نواة تتألف من عشرة ـ خمسة عشر شخصاً اكتسبوا خبرة عالية في قيادة العمل السياسي والإقتصادي لأجهزتنا حتى صاروا على حافة التحول إلى كهنة مختصين بالأعمال القيادية. وذلك له إيجابيات، وسلبيات أيضاً: قد يصاب هؤلاء الرفاق الخبيرون بالكبرياء، فينعزلون

(*) فيما بعد أصبحت اللجنة المركزية تجتمع مرتين فقط في العام.

(**) الـ «ديتسيستي»: جماعة «المركزية الديمقراطية» ـ جناح تألف عام ١٩٢٠ في الحزب البلشفي ترأسه عدد من الشيوعيين «اليساريين» (ف.ف. أوسينسكي، ت.ف. سابرونوف، ف.ن. ماكسيموفسكي وغيرهم)، عارضوا فكرة المدير الواحد في المؤسسات، وطالبوا بحرية التجنح في الحزب، وقسموا سلطة الحزب الى: فرع ومركز.

(***) «المعارضة العمالية»: جناح في الحزب البلشفي (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) يعتبر أن أعلى مستويات تنظيم الطبقة العاملة يكون في النقابات العمالية وليس في الحزب، ويقترح تسليمها ادارة اقتصاد الدولة. ومن مؤسسيه أ.غ. شليابنيكوف، م.ك. فلاديميروف، أ.م. كولونتاي. ي.خ. لوتوفينوف، س.ب. ميدفيديف وغيرهم.

على أنفسهم وينفصلون عن العمل الجماهيري... وإن لم يلفوا حولهم شريطاً من قادة المستقبل من الجيل الصاعد، فإن هؤلاء القادة الأكفاء سوف يصابون بالخمول ويبتعدون عن الجماهير»[٤]. هكذا كان يتكلم ستالين قبل وفاة لينين. أليست كلماته مستوحاة من فكرة لينين حول ضرورة التجديد الدائم لنواة الحزب القيادية؟! لكن عقداً ونصف من السلطة ستحدث تغييراً جذرياً في استنتاجات ستالين، بالرغم من أن كلامه، حتى خلال ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، لن يكون خالياً تماماً من الصحة. فهو كثيراً ما يتفوه بأفكار عظيمة ثم يقوم بأعمال بشعة لا تتطابق وكلامه، لكن ازدواجية (انفصام) الكلام والعمل التي يعاني منها لم تكن لِتُرى بعد «بالعين المجردة» في بداية العشرينات. وتابع ستالين تعليقه على نواة الحزب القيادية، أي على رفاق لينين وتلامذته، قائلاً: «كهلت نواة اللجنة المركزية القيادية وأصبحت بحاجة لمن يستبدلها. أنتم تعرفون وضع الرفيق لينين الصحي، وتعرفون أن وضع باقي أعضاء اللجنة المركزية الأساسيين «مهترىء» للغاية. ونحن لا نملك البديل حتى الآن، هنا المشكلة. وخلق قادة حزبيين ليس بالأمر السهل، فهو يتطلب خمس أو عشر سنوات،... [بل].. أكثر من عشر. عملية الإستيلاء على دولة أخرى أسهل بكثير من التنقيب في القاعدة. واستخراج قائدين أو ثلاثة منها قادرين أن يصبحوا قادة فعليين للبلاد في المستقبل»[٥].

يمكننا، على الأغلب قبول استنتاجات ستالين حول ضرورة التجديد المستمر لأعضاء اللجنة المركزية. لكن، إذا قسنا الموضوع بمقاييس اليوم فإن اللجنة المركزية آنذاك كانوا مجرد أطفال! فقد كان لينين الذي تعدى الخمسين أكبرهم! وليس صدفة أنهم كانوا يلقبونه بـ«العجوز». أما الباقون فكانوا في الأربعين، أي أنهم كان لا يزالون في ذلك السن الذي سماه الأغريق «تاج الحياة» لأنهم كانوا يعتبرونه السن الذي يتم فيه التوازن بين العقل والروح، السن الذي يزدهر فيه الإنسان.

قبل أن نبدأ برسم شخصيات بعض رفاق لينين، علينا أن نوجه لهم جميعاً توبيخاً: فهم، وبدون استثناء، لم يحافظوا على قائدهم. أحبوه، واحترموه، قدروا مقدراته حق التقدير، أجل... لكن، هل حافظوا عليه وعلى مقدراته؟ كلا... إن جميع القضايا الرئيسية والهامة كانت تمر «من تحت يديه» (كان يقوم بها بنفسه). لكنه، إضافة إلى ذلك، يقوم بعدد كبير من القضايا التي كانت تُعتبر، حتى في تلك الأيام، «آنية» أو «فراطة» كما كانوا يسمونها. لينين يتابع موضوع شحن الوقود إلى مدينة إيفانوفو ـ فوزنيسيسك، لينين يكتب الرسائل لعضو مفوضية العمل أ.م. آنيكست حول تأمين الملابس لعمال المناجم، لينين يتابع مسألة تصنيع المحركات ـ الدينامو، لينين يكتب مشاريع لعشرات الوثائق اليومية والعقود التجارية، لينين يحلّ مسألة توزيع الأجور، لينين يكتب مقالات نقدية لكتب وكتيبات بناءً على طلب رفاقه، لينين يمد يد المساعدة لأحد المصانع، لينين يدرس رسالة المهندس ب.أ. كوزمين وفكرته لاستخدام الطواحين الهوائية لتزويد القرى بالطاقة الكهربائية، لينين... لينين... لينين.

بالطبع، لجميع تلك الأمور أهميتها الخاصة. ولعشرات السنين ظل المؤرخون

ينظرون للينين لاهتمامه بها كمثال أعلى للقائد الذي يقوم بعمل عميق ومحدد ومباشر في الوقت نفسه. كتب ي. لارين إثر وفاة لينين في مجلة «الحياة الإقتصادية»: «كان لينين يهتم، بل يكثر الاهتمام، بالمسائل «الصغيرة»، لأنها كانت الطريقة الوحيدة لتربية وإعادة تربية كل عامل أو موظف على حدة، لتوعيته وتعليمه أسس الإدارة في مجال عمله بشكل خاص. فقد كان يدرك كغيره... [من الرفاق]... أن تلك «الفراطة» تمتص قواه وتحرقها؛ لكنه يدرك كذلك أن تلك هي الوسيلة لإنشاء الكوادر الحكومية الضرورية للحفاظ على سلطة البرولتياريا،... [أنها ذات]... أهمية تاريخية ضخمة»(٦). تلك كانت وجهة نظر أحد معاصري لينين. من الممكن أنه لم يكن له آنذاكم أن يقدر أهمية ذلك القائد بالنسبة لمصير روسيا حق التقدير، أليس كذلك؟ لذلك يبقى السؤال الذي لن نجد له جواباً: لماذا لم يعفه الرفاق من تلك المشاكل اليومية؟ لنأخذ تروتسكي: ألم يكن يذهب بشكل منتظم لاصطياد السمك والطيور والحيوانات؟ ألم يكن يقضي أوقات الراحة في أحواز موسكو؟ ألم يكن يطلب الإجازات الرسمية لكتابة عمل ما؟ ألم يسمع خبر وفاة لينين في مصح في أحد المصايف؟ وماذا عن ستالين؟ فالمعروف عنه أنه لم يكن يرحم نفسه في العمل. ألم يكن هو المسؤول عن الشؤون التنظيمية داخل اللجنة المركزية؟ إذن، لماذا لم يبذل أي مجهود كان من أجل التخفيف من أعباء القائد اليومية، والروتينية على الأغلب؟ بل ما كان يحدث هو العكس تماماً. ففي ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٢٢ على سبيل المثال، نصح ستالين فلاديمير إليتش بمقابلة أحد الصحافيين بالرغم من أنه كان يعلم أن القائد لم يسترجع كامل قواه إثر نوبة مرضية قوية. (اضطر لينين لرفض النصيحة.) لكن، سبحان مغير الأحوال! سيسمح ستالين لنفسه في كانون الثاني (يناير) من نفس العام، أي بعد أن عينته اللجنة المركزية مسؤولاً عن الحفاظ على النظام (٧) الصحي الذي فرضه الأطباء على لينين، سوف يسمح لنفسه بتهديد ناديجدا كروبسكايا لأنها «أخلّت» به...

يمكننا، بكل ثقة، التأكيد أن نواة الحزب القيادية، نخبته، كانت تضم في سنوات ما بعد الثورة كلاً من أوردجينيكيدزيه وبوخارين وتروتسكي ودزيرجينسكي وردزوتاك وريكوف وزينوفييف وستالين وسفيردلوف وكالينين وكامينيف وكويبيشيف وفرونزيه. يجدر كذلك ذكر بياتاكوف وبيتروفسكي وتومسكي ورادك وسميلغا ومولوتوف... وبالطبع، كان لكل من أولئك الرجال تاريخه النضالي الخاص وتربيته الخاصة، لكل منهم آراءه الشخصية. نصفهم تقريباً قضوا سنوات عديدة في المهجر، وشاركوا في العديد من الاجتماعات والكونفرانسات والمؤتمرات الإشتراكية أو الإشتراكية ـ الديمقراطية، أو الإنسانية ـ الثقافية على الأقل. أما ستالين، فلم يكن مرتبطاً بتلك «الطوشة». كما سبق وذكرنا، مر ستالين بمراحل مدهشة ملتوية قبل أن يصبح ثائراً شيوعياً، وقد درّب ذكاءه الطبيعي وتعلم الحذر واكتسب الخبث والحزم في «مدرسة» مشكوك فيها. عشرون عاماً في المعاهد الدينية والمنفى، وشحنة الخبرة في القضايا النضالية البروليتارية، وعدم تعلمه مهنة معينة، ـ جميعها عوامل جعلت منه (من ستالين) **عاملاً تنفيذياً لفكرة**. وستالين، قبل غيره، أدرك وشعر بإمكانيات جهاز الحزب وسلطته، بينما كان معظم المحيطين بلينين غافلين

عن أهمية الدور الذي تلعبه أجهزة السلطة المجردة من الإنسانية. كوّن ستالين مواقف محددة من جميع أعضاء النواة القيادية. وكان أولئك الرجال الذين «اكتسبوا خبرة عالية في العمل القيادي» حسب أقوال ستالين، كانوا أناساً مختلفين اختلافاً كبيراً بعضهم عن البعض.

في بادىء الأمر، كان ستالين مثلاً، كما سبق وذكرنا، يشعر بالإرتباك أما فصاحة تروتسكي وثقته بالنفس وعنجهيته. لكنه سيدرك فيما بعد أن تروتسكي يحب الكلمة المؤثرة والوقفة الجميلة والنبرة المعبرة، فقط لا غير. كانت الثورة والحرب الأهلية عصر تروتسكي الذهبي. حاز خلالهما على شعبية عالية واكتسب الأتباع. ظهر أناس لا يرون فيه «الرجل الثاني» فحسب، بل يتصورونه قائداً للحزب في المستقبل. كان تروتسكي رجلاً لا يتمتع بالمقدرات التنظيمية بقدر ما يتميز بمقدراته البلاغية العالية، ولسانه اللاذع وذكائه الحاذق. وبفضل ميزاته تلك كان تروتسكي قادراً على تحريك الجماهير وتحميس الجنود على جبهات الحرب الأهلية المختلفة مكوناً لنفسه بذلك شعبية واسعة. غير أن «قائد الجيش الأحمر» بدأ يضمر ويضمحل عندما حان وقت العمل الروتيني اليومي. وبدأ يستفز الآخرين في طرحه لبعض الأفكار والنظريات ـ حتى الصحيحة منها ـ وتخلى عنه (عدد من) أتباعه. الشعار، المنصة، النظرة المؤثرة ـ هذا ما يهم بالنسبة لتروتسكي، وليس العمل «الأسود». أمين عام المستقبل، قبل غيره، على ما يبدو، فهم نقاط ضعف ذلك الرجل وميزاته، سلبياته وإيجابياته. ونظراً لشعبية تروتسكي العالية، حاول ستالين في الفترة الأولى تعزيز علاقته معه، إن لم يكن كصديق فكرفيق. حصل ذات مرة أن حضر ستالين، دون دعوة مسبقة، لزيارة تروتسكي في بيته الريفي في أرخانغلسكويه لتهنئة الأخير بعيد ميلاده. لكن الجليد لم يذب بينهما وكان جو الزيارة متوتراً. كما حاول لينين التدخل لتوطيد العلاقات بينهما، وبذلك تشهد برقية لينين لتروتسكي في ٢٣ تشرين الأول ١٩١٨ التي أجمل فيها ما جرى في نقاشه مع ستالين، ولخّص تقويم عضو المجلس العسكري للوضع في منطقة تساريتسين، وعبّر عن رغبة ستالين في التعاون مع المجلس العسكري الثوري للجمهورية بشكل أكبر. وينهي لينين برقيته:

«لقد أفدتكم علماً بتصريحات ستالين تلك طالباً منكم دراستها والرد إن كنتم، أولاً: توافقون على مصارحة ستالين شخصياً، حيث أنه يبدي استعداداً للحضور إلى طرفكم بهذا الخصوص؛ وثانياً: تعتبرون أنه من الممكن نسيان التطاحن القديم والتوصل إلى تفاهم متبادل مشترك، كما يطمح ستالين بشدة؛ أم لا.

وأنا، من ناحيتي أعتبر أنه من الضروري بذل مجهود كبير من أجل إقامة عمل مشترك مع ستالين»[٨].

لكن جميع المحاولات باءت بالفشل. لم يكن تروتسكي ليخفي حقيقة مشاعره تجاه من يعتبره أقل منه ثقافة وذكاء. وكتب تروتسكي حول ستالين: «بالرغم من مطامحه الحسودة الكبيرة، لم يكن لستالين إلا أن يشعر، في كل خطوة يتخذها، بأنه

ذو عقل وروح من الدرجة الثانية، كان يحاول، على ما يبدو، التقرب مني. ولم أنتبه إلى محاولاته لرفع الكلفة بيننا، أو شيء من هذا القبيل، إلا مؤخراً، لكن ما جعلني أنفر منه هي تلك الصفات نفسها التي ستصبح من مكونات جبروته وستساعده على امتطاء حصان السلطة: ضيق اهتمامه، حبه للتجارب... [على البشر]...، فظاظته النفسية، ووقاحة القروي الذي حررته الماركسية من العديد من الخرافات دون استبدالها بفلسفة حياتية جديدة تغير نفسيته من الداخل جذرياً»[٩]. وأثنى ستالين على دور تروتسكي في الثورة والحرب الأهلية في عدد من كلماته الجماهيرية، لكن ذلك لم يجدِ شيئاً ولم يتغير موقف تروتسكي النافر من ستالين.

من أبرز الدراسات التي تتضمن تحليلاً شيقاً لشخصيات أعضاء نواة اللجنة المركزية القيادية تحمل عنوان: «صور ثوار» لـ أ. لوناتشارسكي، «صور ومناشير» ـ لـ ك.. رادك، وكذلك كتب ومقالات ن. دودل، وم. أوراخيلاشفيلي، ون. بدوفويسكي، وم. روشال، وف. بونتش ـ برويفيتش، وأ. سليبكوف، وإ. ليفين. تكمن أهمية تلك الأعمال وغيرها في رسمها لشخصيات رفاق لينين في الدرب، لصور من رافقه للثورة، من باشر لبناء أول دولة إشتراكية في العالم بالعنف الثوري.

يحتل «ثنائي» زينوفييف وكامينيف مكانة هامة في نخبتنا تلك. فقد كانا متقاربين في الآراء، ولم يكن النقاش يحتد بينهما أبداً، كما أن مواقفهما كانت واحدة بشكل عام. كان زينوفييف أبرزهما، كما أنه ظل يلعب دوراً هاماً داخل الحزب لفترة طويلة. يتميز تاريخه السياسي بالتحليقات العالية والإنهيارات المؤلمة (بالقمم الشاهقة والوديان السحيقة). انضم للحزب مبكراً، عام ١٩٠١، ثم قضى سنوات طويلة في المهجر تفرغ فيها للكتابة. ثم، إبّان انتفاضة أكتوبر، لطخ كلاهما (أي زينوفييف وكامينيف) سمعتهما الثورية، كما اعتبر آنذاك، حيث صرحا للصحافة (نشرت الصحف مقالاتهما) حول معارضتهما للإنتفاضة المنتظرة. سيكتب لينين فيما بعد أن «موقف زينوفييف وكامينيف في أكتوبر لم يكن صدفة».

كانت السنوات السبع التي ترأس خلالها زنيوفييف التنفيذية للكومنتيرن قمة نشاطه السياسي. زينوفييف صاحب عدد كبير من المقالات، كان يحاول باستمرار أن ينشرها ضمن كتيبات وكتب من خلال مختارات كاملة لأعماله. إليكم «عيّنة» من كتاباته: «إن البروليتاريا العالمية، بفروعها المختلفة، التي تمشي في طريقها نحو النصر لن تنحرف مرة واحدة أو مرتين فقط عن الطريق لتغطس في بحر الدماء ثم تبحث عن طريق جديد لها. إن البروليتاريا العالمية لم تتغلب بعد على شعورها الرهيب بالضياع الذي غمرها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأمبريالية الأولى، والخدعة التي خدعها إياها «قادة» الأممية الثانية المنافقون...»

وأفضل صفات زينوفييف الشخصية تبلورت من خلال مرافقته الطويلة للينين في المهجر كما في روسيا ما بعد الثورة. وذهب لوناتشارسكي بعيداً في عمله «صور ثوار» في تقويمه لدور زينوفييف في الحزب معتبراً إياه إحدى نقاط ارتكاز


زينوفييف


بوخارين


كامينيف


تروتسكي

لينين وواحداً «من الرجال الأربعة أو الخمسة الذي يمثلون الدماغ السياسي للحزب». ويمضي لوناتشارسكي ليكتب أن الجميع كان يعتبر زينوفييف «المساعد» الأقرب للينين وموضع ثقة القائد»(١٠).

كان زينوفييف يغلي حيوية كالبركان الثائر. لكنه معروف بمزاجه شديد التقلب: فهو إمّا يفوح تفاؤلاً بلا حدود وإمّا يغرق في اليأس أو حتى الهيستيريا «الباردة». وهو بحاجة دائمة للتشجيع و«الشحن» كالبطارية. ظل زينوفييف لفترة طويلة ينظر لستالين نظرة رفق، أو حتى كبرياء. وفي بداية العشرينات، استهزأ عدة مرات، لكن بدماثة، من أسلوب ستالين البدائي والجاف في كتابة المقالات. أما هو، فقد كان صاحب قلم رفيع وأسلوب سلس مليء بالمعاني وذي مضامين عميقة. ومثال على ذلك مقاله تحت عنوان «مذكرات من المعارك الأولى من أجل اللينينية» الذي يبرهن فيه بلباقة أن ادعاءات تروتسكي لمكانة خاصة في الحزب لا أساس لها.

حاول زينوفييف، خلال فترة ترؤسه لتنظيم بتروغراد الحزبي، أن يظهر بمظهر القائد الصلب. بل والديكتاتوري أيضاً، لكنه لم يكن كذلك، إذ ما أن بدأت شمس الثورة تلوح في الأفق إلا وارتبك ارتباكاً واضحاً لعيان الجميع، بمن فيهم ستالين الذي كان قد عاد من المنفى للتو. رأى ستالين في زينوفييف رجلاً تافهاً شديد الطموح بالرغم من ضعفه. حاول ستالين قبل وفاة لينين الحفاظ على علاقة شبه ودية مع زينوفييف وكامينيف. وعندما كان لينين يجتمع بزينوفييف وكامينيف وستالين خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٢٢ كان يبدو للوهلة أن «الثلاثي» ذلك عبارة عن كتلة متراصة متكاتفة واحدة. لكن (ذلك) للوهلة الأولى فقط. فكل «ثلث» يهمه القاسم المشترك وتميزه مصالح شخصية خاصة به وحده. من كان ليعلم آنذاك أن ستالين هو الذي سوف يكون وراء فصل زينوفييف وعودته للحزب مرتين، وأنه في المرة الثالثة، عام ١٩٣٤، سيفصل لا ليعود، بل ليلقى حتفه؟! وبالمناسبة، سيكون ذلك مصير النصف الآخر من «الثنائي» أيضاً ـ كامينيف.

كان زينوفييف خطيب الحزب الأول، أو أحد أفضلهم، على الأقل. ليس صدفة أن اللجنة المركزية كلفته بإعداد وتقديم التقرير السياسي للمؤتمرين الثاني عشر والثالث عشر للحزب. وكان زينوفييف من مؤيدي وجود نواة قيادية داخل اللجنة المركزية، حيث أنه صرح عام ١٩٢٥ في كلمته أمام المؤتمر الثالث عشر للحزب: «...أصيب فلاديمير إليتش بالمرض... إضطررنا لعقد أولى مؤتمراتنا (أي الثاني عشر ـ الكاتب) بدونه. أنتم تعلمون أنه دار حديث حول نواة اللجنة المركزية لحزبنا، وأن أعضاء المؤتمر الثاني عشر وصلوا إلى اتفاق غير مكتوب يفيد بأن تلك النواة سوف تتابع عملها القيادي لحزبنا إلى أن يشفى إليتش»(١١).

ظل زينوفييف ـ كما هو حال كامينيف ـ يُعتبر صديقاً لستالين لفترة طويلة. وعندما تم فصله من المكتب السياسي عام ١٩٢٦ اعتقد زينوفييف أن ذلك لن يدوم طويلاً. وفي ليلة رأس السنة من عام ١٩٢٧ بادر زينوفييف وكامينيف بزيارة

ستالين في شقته القريبة «متسلحين» بزجاجتي كونياك وشامبانيا. بدا وكأن المياه عادت لمجاريها، فقد أخذت محادثتهم طابعاً ودياً، استرجعوا الأيام الخوالي، لكنهم لم يتطرقوا إلى مواضيع العمل. استقبل ستالين «أصدقاءه» القدامى بحرارة، وكان مضيافاً متبسطاً في كلامه، وكأنه لم يكن هو السبب في استبعادهما عن المكتب السياسي. عاد «الثنائي» إلى البيت مغتبطين. إلا أن ستالين كان قد قرر منذ وقت أنه لم يعد بحاجة إلى هذين الرجلين اللذين يعرفان الكثير عنه.

سيأتيان لزيارته مرة أخرى (كلا، سيُجلبان إليه!). في عام ١٩٣٦، وهما في السجن، بعثا لـ«القائد» عدة رسائل. فاجأهما يوماً بطلبهما إليه. رفيقا لينين السابقان، عضوا المكتب السياسي سابقاً اللذان كانا يتطلعان ـ ليس بدون سبب ـ إلى مواقع هامة بعد وفاة لينين، دخلا مكتب ذلك الرجل الذي لم يقدراه حق قدره. حضر معه لقاءهما فوروشيلوف ويوجوف. ألقيا التحية. لم يرد ستالين التحية، ولم يعرض عليهما الجلوس. متمشياً جيئة وذهاباً، عرض عليهما صفقة: لقد ثبت ذنبهما، والمحكمة القادمة قد تحكم عليهما بـ«أقصى العقوبة». لكنه يتذكر أفضالهما السابقة. (أعتقد أن شيئاً ما رقص داخلهما عند سماعهما هذه الكلمات.) إذا اعترفا بكل شيء، وخاصة بقيادتهما المباشرة للنشاط التروتسكي، سينقذهما من الموت... سيحاول إنقاذهما، ومن ثم سيفرج عنهما، قرِّرا!! إعترافكما ضروري للقضية... فترة صمت طويلة. زينوفييف، الأكثر تجاوبا وضعفاً، يقول بصوت خافت: «حسناً! نحن موافقان». (لقد تعود أن يقرر نيابة عن كامينيف.) سيعدمان بعد شهرين.

كنت أعيش مع والدتي وأختي وأخي في إحدى قرى سيبيريا. سرعان ما بني قرب القرية معتقل. كان لبعض المعتقلين الحق بالخروج أحياناً. بوريس سيميونوفيتش، قبل أن يعتقل عام ١٩٣٨ كان يعمل في «الأجهزة»: في السجن الذي احتجز فيه رفيقا ستالين آنفا الذكر. حدثني بوريس سيميونوفيتش عام ١٩٤٧ أنه حينما جاءوا في الليل ليأخذوا زينوفييف وكامينيف، كان تصرفاهما مختلفين. بالرغم من أنهما كتبا لستالين عدة استرحامات، وكانا، كما يبدو يأملان في العفو (ألم يعدهما بذلك؟) فقد شعرا بأنها النهاية. كامينيف يمشي في الممر بصمت ويفرك يديه بعصبية. أما زينوفييف، فقد انتابته موجة من الهيستيريا، فحملوه. بعد أقل من ساعة عبر خط النهاية الأبدية فارسان آخران من نواة اللجنة المركزية. ثمن «أفضالهما» ـ حياتهما.

أتذكّر أن ستالين يعرف كامينيف عن قرب منذ كانا في منفى توروخانسك. وهناك تلقيا معاً خبر ثورة شباط (فبراير). هنا استشف ستالين سعة اطلاع واندفاع رفيقه، وقدرته على اتخاذ القرارات بسرعة والتخلي عنها بسرعة. وما أثر على علاقتهما أن كامينيف كان نائب لينين في مجلس مفوضي الشعب، وكثيراً ما كان يترأس اجتماعات اللجنة المركزية ومجلس مفوضي الشعب والمؤتمرات الحزبية. وحتى في حياة لينين، كان كامينيف يرأس، في الغالب، اجتماعات المكتب السياسي.

زينوفييف وكامينيف كانا خطيبين مفوَّهين وإعلاميين بارزين، إلا أنهما لم

يكونا «مشدودي البراغي»: كانا، في اللحظات الحاسمة، قادرين على الإلتواء في موقفهما والمناورة من أجل مكانتهما وأهدافهما ومطامحهما الشخصية. وللأسف، فقد حشرا صراعهما مع ستالين في الجهاز الحزبي، فكانت فرصتهما بالنجاح ضئيلة. ومن الأسباب الرئيسية لخسارتهما أنه، بالرغم من أنهما كانا يتمتعان بكفاءات عالية وبصمود ومثابرة، إلا أن «القائد» استكشف بسرعة هشاشتهما الداخلية.

بالرغم من أن لينين كان يعرف نقاط ضعفهما، إلا أنه كان «يتكىء» عليهما بشكل واسع. وذلك ينطبق أكثر على كامينيف الذي طالما نفذ ما كلفه به لينين. كان معروفاً أن كامينيف يجيد التفاوض وحل المشاكل الحزبية الحساسة. كان أقل شعبية من زينوفييف، إلا أنه أكثر ثقافة ورسوخاً. كان ذا أفكار خاصة وإستنباطات نظرية عميقة، وشجاعاً وحازماً. كلمات كامينيف في ١٩٢٥/١٢/٢١ (عيد ميلاد ستالين)، في المؤتمر الرابع عشر للحزب، ستدخل التاريخ:

«نحن ضد ابتداع «نظرية القائد». نحن ضد تصنيم «قائد». نحن ضد أن تتبوّأ الأمانة العامة للحزب المهام التنظيمية والسياسية معاً، وتقف فوق المكتب السياسي. نحن مع أن تنتظم هيئاتنا العليا بحيث يكون للمكتب السياسي السلطة الكاملة، ويضم كل سياسيّي حزبنا، وتلتزم له الأمانة العامة وتنفذ قراراته... وأنا شخصياً لا أعتقد أن أميننا العام يستطيع أن يوحد حوله الكادر البلشفي القديم... وبالذات لأنني قلت ذلك مراراً للرفيق ستالين، وبالذات لأنني قلت ذلك مراراً لمجموعة من الرفاق ـ اللينينيين، أكرر ذلك الآن أمام المؤتمر: **لقد توصلت الى قناعة أن الرفيق ستالين لا يستطيع القيام بدور موحِّد المركز البلشفي**... لقد بدأت خطابي هذا بالقول: نحن ضد نظرية الفرد، نحن ضد تصنيم قائد!»(٦٢).

كانت تلك كلمات شجاعة. والأكثر منذ ذلك، كانت جرس إنذار. جاء بيان كامينيف وتفرد ستالين في تجلياته الأولى. لو لم يكن لكامينيف إلا هذا، لكان جديراً بالإحترام. يبدو أن كامينيف استوعب، أكثر من غيره، دروس الشجاعة الفكرية التي مد لينين الحزب بها. ولكن، لماذا لم تؤيد تلك «المجموعة من الرفاق ـ اللينينيين» الإقتراحات التنبؤية اليقظة التي قدمها أحد أعضاء النواة القيادية؟ الذنب ليس فقط ذنب أولئك «الرفاق ـ اللينينيين» قصيري النظر، بل وذنب كامينيف أيضاً. تأرجحه في الصراع مع تروتسكي تارة، ومع ستالين تارة أخرى، أعطى انطباعاً (ليس بعيداً عن الحقيقة) أن حوافزه مرتبطة إلى حد كبير بمطامحه الشخصية. ولكن القدر لم يتح لكامينيف أن يصد ستالين. ما حصل هو العكس تماماً: بدلاً من أن يَضعف ستالين، توطدت أركانه؛ ألم يهاجم كامينيف الأمين العام من موقع «المعارضة»؟

كانت العلاقة بين تروتسكي وكامينيف وزينوفييف معقدة. بالرغم من أن كامينيف كان متزوجاً من أخت تروتسكي، إلا أن علاقتهما لم تكن وطيدة. وذلك لأن تروتسكي وزينوفييف كانا يدعيان القيادة في الحزب، وخاصة عندما اتضح أن حالة لينين الصحية خطرة. أساء تروتسكي، في «دروس أكتوبر» المثيرة للجدل، لدور

زينوفييف وكامينيف في الثورة. فطالب الأخيران بطرد الأول من المكتب السياسي وعضوية الحزب. لكن ستالين لم يكن قد أصبح بعد ما سيمسيه في الثلاثينات. في المؤتمر الرابع عشر للحزب، حيث اكتفت اللجنة المركزية بتنحية تروتسكي عن منصب مفوض الشعب للحرب، سيقول ستالين: «نحن لم نتفق مع زينوفييف وكامينيف لأننا ندرك أن سياسة الاجتثاث تجر أخطاراً كبيرة على الحزب، إن سياسة الاجتثاث، سياسة إراقة الدماء - وهذا ما طالبا به عملياً - هي سياسة خطرة و«سارية»: اليوم نجتث واحداً، غداً نجتث آخر، بعد غد نجتث الثالث - من سيبقى في الحزب؟».

قوبلت كلمات ستالين هذه بالتصفيق. لكن بعد ثلاث أو أربع دقائق من تلك الكلمات، سيتابع ستالين كلمته الإختتامية، معلقاً على منع صدور مجلة «بلشفيك» في لينينغراد: «نحن لسنا ليبراليين. مصلحة الحزب، بالنسبة لنا، هي فوق الشكليات الديمقراطية. أجل، لقد منعنا ناطقاً تجنحياً، وسنفعل ذلك في المستقبل أيضاً»[١٢]. وقوبلت كلمات ستالين هذه بالتصفيق الحار جداً، فالمندوبون تعجبهم صرامة وحزم ستالين. هل كان المندوبون يعرفون أنه لن يمضي أمد طويل لينضج ستالين لـ«سياسة الإجتثاث»، وأن مقصلة الإستبداد ستحصد أعناق العديدين منهم؟

لنستبق الأحداث... سيصبح كامينيف مدير معهد الأدب العالمي، بعد أن يطرد من النواة القيادية. وسينبه ستالين ياغودا لخطورة كامينيف. أثناء تقديم ياغودا لتقريراً دورياً لستالين، قاطعه الأخير، قائلاً:

- راقب كامينيف جيداً! لا تدعه يغب عن ناظريك... أعتقد أنه مرتبط بـ ريوتين. ليو برويسوفيتش [كامينيف] ليس من النوع الذي يستسلم بسرعة. فأنا أعرفه منذ عشرين عاماً. إنه - عدو...

وياغودا لم يدعه «يغب عن ناظريه». سيعتقل كامينيف عام ١٩٣٤، سيحاكم عام ١٩٣٥ ويحكم عليه بالسجن خمس سنوات. وستعاد محاكمته في نفس العام لتزيد المدة إلى عشر سنوات. نهاية عام ١٩٣٦ ستكون نهايته أيضاً.

بعد إعدام رفيقه السابق بقليل تقع يد ستالين على كتابه بعنوان «ن.غ. تشيرنيشيفسكي» (من أوئل سلسلة «سير شخصيات بارزة»). تصفحه ستالين لفترة طويلة، تمعن في العنوان، وقرأ صفحات متفرقة. يسترجع ستالين رحلته مع كامينيف في القطار من أتشينسك إلى بتروغراد في شباط (فبراير) ١٩١٧. كان كامينيف يحدثه عن بليخانوف ومارتوف وأكسيلرود، المهاجرين المناشفة، وعن كرههم للينين. كان يحدثه بنشوة عن خططه ومشاريعه في أجواء تلك الأحداث. يضع ستالين الكتاب على الطاولة ويسرح: «يا للنفاق!» مشاكل كامينيف انتهت، أما هو، فلا يزال أمامه الكثير...

لنعد حيث كنا. ستالين لا يزال بحاجة لكامينيف وزينوفييف في صراعه مع تروتسكي، عدوه الرئيسي، عدوه وعدو الحزب.

أثبت ستالين بسرعة أنه منظِّم جيد. وهو يزاول أعماله، كان يراقب بانتباه أعضاء المكتب السياسي وغيرهم من قادة اللجنة المركزية البارزين. لاحظ ستالين أن القادة الأكثر تأثيراً من بين أفراد النواة هم من يسميهم بـ«الأدباء». هكذا كان يسمي المهاجرين السابقين. ما كان له إلا ليعترف لنفسه أنهم جميعاً ذوو مستوى ثقافي عال ومؤهلون نظرياً، واطلاعهم واسع بشكل عام. كان ذلك يستفزه: «بينما كنا نحن هنا نعد للثورة، كانوا هم هناك يقرأون ويكتبون...»

ذات مرة كاد أن يتكلم عن ذلك علنياً وبشكل مفتوح. عندما ناقشت اللجنة المركزية قرار تعيين مفوض فوق العادة لها في إحدى لجان المناطق، تبين أن المرشح يكاد لا يعرف القراءة والكتابة. لكن ستالين ألقى برأيه في كفة ميزان القرار، قائلاً:

ـ لم يكن في الخارج. فأين كان له أن يتعلم!... إنه قادر على عمله.

كان في محيط لينين عدد غير قليل من الشخصيات البارزة. سرعان ما لاحظ ستالين أن بوخارين وريكوف وتومسكي، رغم أنهم لا يشكلون مجموعة خاصة، إلا أنهم يميلون جميعاً لحل القضايا الإقتصادية والصناعية. فهم إقتصاديون جيدون و«تكنوقراط» بارعون. للأسف، في الثلاثينات، بل ولعقود بعد الحرب الوطنية العظمى، لن يكون هناك مكان في الهيئات الحزبية العليا للإقتصاديين و«التكنوقراط». وكقاعدة عامة، فسيحتل مكانهم الإداريون ـ البيروقراطيون أمثال كاغانوفيتش ومالينكوف. في رحاب نظام العمل الأوامري الإعتباطي، ليس هناك مكان للإقتصاديين البارعين أمثال فوزنيسينسكي؛ فالعديد من الإنجازات ما كانت تتم استناداً إلى القوانين الإقتصادية، بل رغماً عنها.

من بين ذلك الثلاثي (بوخارين، ريكوف، تومسكي) برز، بالطبع، بوخارين. في كتابه الأول «الإقتصاد السياسي لدى المضاربين(Rentiers)» الذي كتبه عشية الحرب العالمية الأولى، يشعر القارىء بتعمقه بأصول العلاقات الإقتصادية. في عام ١٩٢٠ ظهر المجلد الأول من «الإقتصاد» الذي أراد بوخارين من خلاله أن يشرح تطور الإقتصاد الرأسمالي إلى اقتصاد إشتراكي. لكن ظروف النضال حالت دون أن ينجز بوخارين المجلد الثاني. في «الإقتصاد» يؤكد أن «الرأسمالية لم يبنها أحد، بنيت بنفسها. أما الإشتراكية كنظام منظَّم، فنبنيها نحن. والأهم بالنسبة لنا هنا هو إيجاد التوازن بين جميع فواعل النظام». ستالين، بمعرفته البدائية السطحية في الإقتصاد، كان يتابع بوخارين بانتباه.

في ذلك الوقت، لم يكن هناك تعقيدات كبيرة في علاقتهما؛ فقد كان بوخارين مثقفاً مرهفاً سلساً. كان يبدو أحياناً أنهما صديقان حميمان. بل كانا جارين في الكرملين. بوخارين لم يكن يهتم ولا يحب، بل وتزعجه مشاحنات أعضاء المكتب السياسي وصراعهم على القيادة. فليس صدفة أنه لم يتخذ موقفاً محدداً بين المتصارعين: ستالين وتروتسكي؛ ولذلك سيسميه تروتسكي، في خطاباته وأعماله المقبلة، «داعية السلام غريب الأطوار». أعتقد أن القائد المهزوم (تروتسكي) غير

محق: بوخارين كان يقدر هيبة وسلطة لينين (بالرغم من أن النقاش بينهما كثيراً ما كان يحتد) ورأي المكتب السياسي الجماعي أكثر من أي شيء آخر.

كان ستالين دائم الحذر في تعامله مع ريكوف. وليس فقط لأن الأخير، بعد وفاة لينين، خلفه برئاسة مجلس مفوضي الشعب. كان ريكوف رجلاً مستقيماً وصريحاً إلى أبعد حدود. وذلك بالذات ما جعل علاقاته ليست طبيعية دائماً مع زملائه. الجميع يذكر أن سميلغا بعث بتذمر للجنة المركزية طالباً إعفاءه من منصب نائب رئيس المجلس الأعلى للإقتصاد الوطني نظراً لعدم إمكانية العمل مع ريكوف... عندما أطلع لينين على تذمر سميلغا، نصح ستالين أن لا يستجيب لطلبه، فالعلاقة بين القائدين يمكنها، بل ويجب، أن تتحسن.

ريكوف كان يقول ما يعتقده بالناس مواجهة؛ ويكتب ذلك. كتب عام ١٩٢٢ دراسة تحت عنوان «الوضع الإقتصادي في البلاد والاستنتاجات حول العمل في المستقبل». كان موقف ريكوف من «السياسة الجديدة» إيجابياً، وسلبياً من الأسلوب الأوامري في حل المشاكل الإقتصادية. ترتبط بإسم ريكوف إنجازات كثيرة: إنشاء محطات توليد الكهرباء بالطاقة المائية، تنشيط الحركة التعاونية، الخطة الخمسية الأولى وغيرها من إنجازات الدولة الإشتراكية الفتية. وريكوف هو الذي سيحاول لاحقاً أن يقنع ستالين ومؤيديه بأن الإشتراكية يجب أن تحسن وتطور العلاقات السلعية ـ النقدية، وأن لا تحد من الإستقلالية الإقتصادية للمنتجين المباشرين. ولكن للأسف، كان لكل لغته...

في نهاية العشرينات، وعندما صار لستالين ثقله السياسي، وأثناء مناقشة إحدى «الإرشادات» الدورية لإنشاء التعاونيات، قذفه ريكوف بـ: «سياستكم ليس بها طعم الإقتصاد!». تلك الكلمات لم تهز الأمين العام، ولكنه لن ينساها.

ستالين لم يكن ينسى شيئاً أبداً. ذاكرته الباردة «الكمبيوترية» كانت تحتفظ في خلاياها بآلاف الأسماء والحقائق والأحداث. ولم ينس أن لينين كان يقدر ريكوف عالياً. في أعمال لينين ورد اسم ريكوف ١٨٩ مرة، وذلك أقل بقليل من اسم ستالين. أثناء ترؤس ريكوف لمجلس مفوضي الشعب، ترأس أيضاً (منذ ١٩٢٦) مجلس العمل والدفاع، ولجنة العلم وتطور الفكر العلمي. لم ينس ستالين أن ريكوف قال في كلمته، في الإجتماع العام لمجلس موسكو في آذار (مارس) ١٩٢٢، أنه لا يجوز الإنزلاق مرة أخرى إلى أسلوب «الشيوعية العسكرية». كما انتقد بحدة الذين يهاجمون «السياسة الإقتصادية الجديدة» واصفاً إياهم بـ«المؤذين الخطرين فوق العادة»، وطالب بالتخلي عن أساليب العنف في القرية، حيث يجب ـ حسب كلماته ـ الحفاظ على «القانونية الثورية». بعد سنوات عديدة سيلقي ريكوف آخر كلماته، وذلك في الإجتماع العام للجنة المركزية، ليدحض الإتهامات الفظيعة بالتجسس والتخريب والإرهاب. دخل ريكوف في أول حكومة سوفييتية كمفوض شعب للشؤون الداخلية، لكنه استقال بعد عدة أيام محتجاً على أن الحكومة اقتصرت على البلاشفة، ولم تكن حكومة إئتلافية... بخبث ابتسم ستالين: «كان كذلك دائماً».

بوخارين وريكوف يهمّهما بشكل خاص مصير الفلاحين الروس، بينما

تروتسكي (وستالين كان يتفق معه في أعماق ذاته) يعتبر أن الفلاحين «هم مادة للتغييرات الثورية». ما كان لأحد أن يتجاهل اتساع شعبية بوخارين وريكوف. كانا يتعاطفان مع الجميع، ويسهل الوصول إليهما؛ فقد كانا بلا حراس وحجّاب. عامة الشعب تقدر عالياً مثل هذه الصفات في القادة. أما ستالين، فكان يعتبر بساطتهما واختلاطهما بالجماهير «تلاعباً بعواطف الجماهير». حتى السلوك الطبيعي للإنسان الطيب يثير شكوك ستالين.

وبالشكوك نفسها كان ستالين يتعامل مع تومسكي (يفريموف)، المشارك في ثلاث ثورات، العامل البارز في النقابات، والذي كان يجيد الدفاع عن آرائه. تحمل ستالين «صديق ريكوف» هذا رئيساً لهيئة رئاسة نقابة العمال إلى أن أدخل إلى تلك الهيئة كاغانوفيتش وشفيرنيك اللذين أزاحا الرئيس. في ١٩٣٦/٨/٢٢، وعندما انتحر تومسكي في بيته الريفي في بولشيفو، قال ستالين:

ـ انتحاره اعتراف بذنبه ضد الحزب...

لكننا نعلم اليوم أن الأمور كانت عكس ذلك تماماً. كان ذلك ملاذه الأخير للإحتجاج على سلطة «القائد» الفردية.

دزيرجينسكي أيضاً احتل مكاناً مرموقاً في نواة الحزب؛ أطلق عليه بوخارين لقب «اليعقوبي البروليتاري». كان من أقدم أعضاء الحزب ومنظمي الإشتراكية الديمقراطية في بولندا ولتوانيا. سيثني عليه رادك لاحقاً وهو يقوّمه: «أعداؤنا خلقوا أسطورة عن عيون لجنة الطوارىء (الـ كي. جي. بي. لاحقاً ـ المترجم) التي تخترق الجدران، وعن آذانها التي تسمع كل همس، وعن قائدها دزيرجينسكي الموجود في كل مكان. ولكن الأسطورة الحقيقية كانت في مقومات الحزب البلشفي في ثقته الكاملة بالجماهير العمالية والفقراء...»[١٤]. كانت علاقته بستالين لا بأس بها، خاصة بعد مصاحبته في عدد من الجولات على جبهات الحرب الأهلية. ستالين، البخيل في تقويماته للآخرين، جاد على دزيرجينسكي عندما اختطفه الموت: «لقد احترق دزيرجينسكي في أتون العمل النشط لمصلحة البروليتاريا». ولكن، هل كان ذلك «في مصلحة» التاريخ؟ ما كان لأحد أن يعرف آنذاك...

فرونزيه، لم يكن شكله الخارجي جذاباً؛ جاذبيته كانت في نفسيته الداخلية. ستالين، الذي قضى سنين عديدة في السجن والمنفى، كان يكن احتراماً خاصاً له وكذلك بقية رفاقه. كانوا يعلمون أنه قد حكم عليه بالإعدام مرتين عام ١٩٠٧، وقد قضى أسابيع طويلة في زنزانته بانتظار تنفيذ الإعدام. هذا وقد قضى عدة سنوات في المنفى مع الأشغال الشاقة. معظم الناس كانوا يعرفون التفاصيل الدقيقة لدوره العظيم في إحراز النصر على الجبهات الشرقية والتوركستانية والجنوبية. ستالين، الذي يتمتع بحزم صارم، كان يدهشه الأسلوب القيادي الهادىء لذلك القائد الحربي البروليتاري القادر على إظهار الإرادة الحربية السياسية في أرقى تجلياتها. تمكن فرونزيه، في الفترة القصيرة التي قضاها في منصب مفوض الشعب للأسطول البحري الحربي، أن يأسر الجميع بعمق ثقافته وأسلوبه الجديد في التعاطي مع

قضايا القوانين والأعراف العسكرية، والتعاطي مع الإصلاحات في الجيش، وإتقانه لفن الحرب العصرية.

كان فرونزيه يعاني من قرحة في معدته، ويفضّل العلاج التقليدي. وانتابته نوبة، وتصل اللجنة الطبية مرة أخرى إلى الإستنتاج أنه: «يحتاج إلى عملية جراحية». تشهد عدة مصادر (كتاب إ.ك. هامبورغ «هكذا حصل بالفعل»، وكذلك كتاب بيلنياك «رواية القمر غير المنطفىء»، وغيرها) أن ستالين وميكويان حضرا لزيارته في المستشفى وحاولا إقناعه بإجراء العملية. قبل العملية بعث فرونزيه برسالة مقتضبة لزوجته: «أشعر الآن بالصحة التامة، ومن المضحك أن أذهب إلى العملية، أو حتى أفكر بها. لكن كلتا اللجنتين الطبيتين قررتا ذلك»[١٥].

من الصعب الحكم على التخمينات العديدة التي ظهرت بعد وفاة فرونزيه: هل كان لأحد يد في الأمر، أم أن القدر أصدر حكمه؟ بعد وفاته صرح عديد من الأطباء أن العملية الجراحية، التي كانت ـ حتى في تلك الأيام ـ تعتبر بسيطة، لم تكن ضرورية. سيقول ستالين في جنازة فرونزيه: «لعله هكذا يجب أن يكون، أن يهبط الرفاق القدماء إلى القبر بهذه السهولة والبساطة؛ ولكن للأسف، فإنه ليس بنفس البساطة، وأبداً ليس بنفس السهولة يرتفع رفاقنا الشباب ليستبدلوا القدماء»[١٦]. رأى البعض في كلمات ستالين هذه بعداً سرياً ومغزى جوهرياً لا يعرفه سواه. أعتقد أن الأمر لا يستحق منا التخمين، فنحن لا نملك الدلائل لاستنتاجات حاسمة. واضح فقط أنه لو لم تأته هذه الميتة السخيفة (أم الغامضة)؟ للعب ذلك الرجل دوراً مهماً على المسرح السياسي في البلاد. وقد استشف ستالين ذلك منذ فترة طويلة، من خلال رأي لينين في فرونزيه. كل أعمال فرونزيه كانت تحمل خاتم ذكائه الحاد غير الإعتيادي.

كان سفيردلوف منظّماً بارزاً في اللجنة المركزية، كان منفذاً كلاسيكياً ومتفانياً. «لقد كان ذا أفكار أرثوذكسية في كل المجالات. كان انعكاساً للإرادة والإشادات العامة. لم يكن يبدعها، كان فقط ينقلها؛ يتلقاها من اللجنة المركزية وأحياناً من لينين شخصياً». عندما كان يتحدث ـ يستذكر لوناتشارسكي ـ كان حديثه أشبه بافتتاحية الجريدة الرسمية. كان يتمتع، ويمتاز بذلك عن أغلب الناس، بقدرات تنظيمية عالية، ومعرفة حقيقة وضع الحزب بأدق تفاصيله. يمكن القول أنه عندما اتُخذ قرار بتعيين رئيس للأمانة العامة، الأمين العام للجنة المركزية، كان سفيردلوف يقوم منذ فترة بتلك المهام. ولكنه كان يعقوبياً واضح الملامح، ومؤيداً لأسلوب القوة الصارمة في إعادة بناء المجتمع. كان ستالين معجباً بكيفية إدارة سفيردلوف العملي الصامت لاجتماعات اللجنة المركزية. إنه يتذكر أحد تلك الإجتماعات في آذار (مارس) ١٩١٨. على جدول الأعمال عدة نقاط: الوضع في أوكرانيا، إعلان «اليساريين»، تفريغ الـ«برافدا»، تنظيم الرقابة على العسكريين، بيان كريلينكو، قضية ديبينكو...

البلاد في حالة غليان. أخرج سفيردلوف دفتراً أسود لكتابة محضر الإجتماع.

نظر إلى الحاضرين ـ لينين، زينوفييف، آرتيم (سيرغييف)، سوكولنيكوف، دزيرجينسكي، فلاديميرسكي، ستالين ـ، وطلب منهم بحيوية أن يتحدثوا ضمن بنود جدول الأعمال...(١٧).

بعد وفاة سفيردلوف، قوّمه لينين تقويماً ممتازاً: هكذا أناس لا يمكن استبدالهم، لا يستبدل الواحد منهم إلا بمجموعة كاملة من العاملين. كان سفيردلوف مستعداً لتنفيذ إرادة لينين بأي ثمن. وفي بعض الأحيان ـ بثمن مريع.

روبنسون كروزو لا يوجد إلا في الروايات. الإنسان يشكل سماته في حلقة رفاقه ونظرائه بالتفكير ومنافسيه. ستالين، عندما انضم إلى دائرة رفاق لينين وتلامذته، كان يجب عليه أن يستوعب الكثير من خلال علاقته بالقائد ومحيطه؛ لكن ليس كل سمات الإنسان الناضج يمكن تغييرها. الكثير مما غرس به أيام الطفولة ـ حب الغموض، القسوة، الحذر، برود العواطف، الذرائعية الباردة ـ ليس فقط لن تقل أو تخف، بل ستزداد عمقاً.

منذ زمن بدأت تظهر في ستالين سمة، كان قد سماها «البابلية». يكمن جوهر هذه السمة في أن الشخص الذي يقوم بعمل مشين أخلاقياً يحاول داخلياً أن يبرر فعلته لنفسه، فيتصورها خيّرة. هكذا كان يفعل ستالين. عندما تبين له أن القائد المعترف له يعاني من مرض عضال، راح يحاول تعزيز وضعه في القيادة للحد الأقصى. حاول في البداية أن يقنع نفسه: هذا ضروري لـ«حماية اللينينية». ثم أمسى يعتبر كل أفعاله مبررة أخلاقياً من أجل «بناء الإشتراكية في بلد واحد». وفي نهاية المطاف سيحتل مبدأ «البابلية» مكانه الهام في ذخيرته السياسية. الشعب يجب أن يعرف ـ يعتقد ستالين: كل ما سيفعله (ستالين) هو باسم الشعب ولمصلحته.

أعتقد أن العديد من المحيطين بلينين، ولفترة طويلة، لم يستطيعوا فهم ستالين. بعضهم كان يعتقده مجرد مُنفّذ، والبعض الآخر ـ ممثلاً لا بأس به للأقليات القومية، وآخرون يرونه رجلاً وسطاً عادياً يكثر أمثاله في اللجان القيادية للأحزاب والأنظمة. كلا، رفاق لينين لم يقدروا ستالين حق قدره. أما هو، فقد فهمهم جميعاً، حتى أقرب المقربين للينين: زينوفييف، كامينيف، بوخارين، ريكوف، تومسكي، رودزوتاك وكثيرون غيرهم، الذين باتوا، بإرادته، «أعداء للشعب». أليس هو الذي رأى أن قيادة الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية تقتصر على «الأعداء»: تروتسكي، يغوروف، توخاتشيفسكي ومئات وآلاف غيرهم من «الخونة»؟ لينين لم ينتبه، لكن ستالين لاحظ أن «قيادة الصناعة» أيضاً تقتصر على «المخربين»: بياتاكوف، غرينكو، سيميونوف وآخرون. فقط ستالين كان بإمكانه أن يلاحظ أن الفئة العليا من الدبلوماسيين السوفييت كانت فقط من «الجواسيس»: كريستينسكي، سوكولنيكوف، راسكولنيكوف وآخرون. وكم من «المنافقين» الآخرين سيفضحهم في جميع مجالات الدولة!

أيعقل لـ«رجل وسط» أن يكتشف كل ذلك! تروتسكي كان مخطئاً هنا. روبيسبيير، في كلمته في كونفينت في ١٧٩٤/٢/٥، قال: «...أول قاعدة في

سياستنا هي أن إدارة الشعب يجب أن تكون ـ بالعقل، وإدارة أعداء الشعب ـ بالإرهاب»[١٨]. كم كان أسلوب روبيسبيير إزدواجياً وغير شامل! ستالين وضع «قاعدة» توحيدية: إدارة الأولين والآخرين بأسلوب واحد ـ العنف. أعتقد أن لا أحد من رفاق لينين كان يستطيع، حتى في كابوس، أن يتوقع أن وحشاً ينضج بينهم، ليس في مكان ما، بل في صميم دائرتهم.

أكرر مرة أخرى: أخطأ تروتسكي بقوله أن ستالين «رجل وسط بارز». يكفينا أن نشير الى أن الرجال الوسط لا يكون لديهم أعداء واضحون. أما ستالين، فكان لديه أكثر مما يلزم. سرعان ما سيعلم ذلك الحزب باكمله، الشعب باكمله. اتضح أن ستالين سياسي خبيث وماكر الى أبعد الحدود. إستطاع أن يتفرد بتفسير و «حماية» اللينينية. نجح في استخدام المحيطين بلينين لتركيز السلطة بيده. دوره غير الملحوظ في الثورة دفعه للمشاركة بشكل أكبر في الحرب الأهلية. شعر ستالين: المحيطون بلينين يتفوقون عليه بالكثير، لكنهم يتأخرون عنه بأمور أخرى. لو كان يعرف هيغل، لقال لنفسه: «الإنسان هو سيد حياته وقدره»[١٩].

الأمين العام

لمسار التاريخ ميزته، أنه لا يعود للوراء، فالوقت لا يسير إلا إلى الأمام. بالفكر فقط يمكن أن نعود به للوراء. «مثلما يغطي رمل البحر الجديد ما استقر قبله على الشاطىء ـ كتب مارك أوريليوس ـ، كذلك الجديد في الحياة يجرف القديم». أراد القدر للينين أن يعيش ست سنوات ونيف فقط بعد ثورة أكتوبر. ولكن كم من أحداث وآمال وخيبات حُشرت في السنوات الست تلك!

المؤتمر الحادي عشر هو آخر مؤتمر يحضره لينين. قدم فيه مولوتوف تقريراً عن نشاط اللجنة المركزية. أوضح مولوتوف أن أقسام اللجنة المركزية مثقلة بالعمل. فخلال «عام واحد مر على اللجنة المركزية ٢٢٥٠٠ عضو حزبي، أي حوالى ٦٠ رفيقاً يومياً». تحدث مولوتوف عن تبسيط عملية «تصعيد» الكوادر، وعملية تقديم التقارير، وتعزيز النظام في جهاز اللجنة المركزية. كما أكد في تقريره أنه خلال العام المنصرم «ازدادت كذلك اجتماعات اللجنة المركزية؛ والقضايا المطروحة على جداول أعمالها ازدادت بحوالى ٥٠٪، وازدادت «الكونفرنسات» وغيرها من الإجتماعات الحزبية.

أظهر أعضاء المؤتمر عدم رضاهم عن عمل الأجهزة الحزبية. أوسينسكي على سبيل المثال، أنّب المكتب السياسي لأنه، وهو الهيئة الأعلى، يهتم بالقضايا التفصيلية الصغيرة: يناقش هل «يجب منح مفوضية الشعب للزراعة قصر«بوبارسكي دفور» أم لا، أيجب منح المطبعة لهذه المؤسسة أم لتلك»[٢٠]. من أجل تحسين إدارة الحزب والبلاد، اقترح المندوبون أن يكون للجنة المركزية ثلاثة مكاتب: المكتب السياسي، المكتب التنظيمي، المكتب الإقتصادي.

عندما نقرأ محاضر المؤتمرات الأولى بعد أكتوبر تبهرنا الصراحة والإنفتاحية الحقيقية في التعبير عن وجهات النظر. كان النقد شيئاً طبيعياً كالهواء. لم يكن هناك أي نفاق أو تملّق أو تزلّف. لم يكن أحد يهدف إلى الوحدة من أجل الوحدة. كان هناك قادة، ولكنهم لم يكونوا معبودين. في المؤتمر الحادي عشر على سبيل المثال، قوبل خطاب لينين باستحسان عام؛ لكن العديد من أعضاء المؤتمر انتقد نقاطاً واستنتاجات كثيرة به... ريازانوف انتقد نشاط اللجنة المركزية بشكل أضحك الجميع: «لجنتنا المركزية مؤسسة خاصة وخارقة للعادة. يقولون أن البرلمان البريطاني قادر على كل شيء؛ فقط لا يستطيع أن يحول الرجل إلى امرأة. لجنتنا المركزية أقدر منه بكثير: لقد حولت الكثير من الثوار الرجال إلى حريم. وعدد «أولئك» الحريم يزداد بسرعة غريبة... ما دام الحزب وأعضاؤه لا يشاركون في المناقشة العامة لجميع الخطوات والإجراءات التي تتخذ باسمهم، وما دامت هذه الإجراءات تسقط على رؤوسهم كندف الثلج، ما بقي الأمر كذلك، سيبقى ما سماه الرفيق لينين «مزاج الإضطراب» مسيطراً علينا»[٢١].

كانت الصراحة المفتوحة في مناقشة جميع القضايا الحزبية لا تزال قاعدة عامة إعتيادية. لاحقاً، في الثلاثينات، ستقوّم جميع تلك الآراء التي طرحت في أجواء الصراحة في الماضي كأعمال «تخريبية». خلال عقود من احتكار السلطة، ما كان بإمكان الجميع إلا أن يعجبوا ويوافقوا ويؤيدوا بالإجماع... تشهد محاضر المؤتمرات والإجتماعات أثناء حياة لينين أن الأمل بحكم الشعب لم يمت، رغم أنه كانت قد بدأت تظهر علامات «سلطنة» الحزب.

أظهر نشاط اللجنة المركزية منذ ١٩٢٠ أن إدارة نشاط الأمانة العامة يحتاج إلى شخص متفرغ لها. ناقشت اللجنة المركزية في اجتماعها العام ١٩٢٠/٤/٥ هذا الموضوع وأقرت ما يلي:

١) اختيار الرفاق كريستينسكي وبريوبراجينسكي وسيريبرياكوف أمناء سر. لا يعيَّن أحدهم مسبقاً مسؤولاً. يُطلب منهم أن يرشحوه بعد فترة بناءً على تجربتهم.

٢) يضاف إلى المكتب التنظيمي، إضافة إلى أمناء السر الثلاثة، الرفيقان ريكوف وستالين»[٢٢].

تشهد محاضر اللجنة المركزية، التي كثيراً ما كانت تكتب على أوراق سائبة من الدفاتر المدرسية، أن موضوع تعيين أمين سر «مسؤول» لم يطرح عام ١٩٢٢ (المؤتمر الحادي عشر) فقط، بل قبله بكثير. بعد المؤتمر الحادي عشر بقليل تميز أحد أمناء السر ـ ستالين. لم تكن تلك المرة الأولى التي يختار أمناء سر مسؤولين؛ لقد اختير من قبل: كريستينسكي، ستاسوفا، مولوتوف. لكن الحديث الآن (المؤتمر الحادي عشر) يجري عن استبدال منصب أمين السر «المسؤول» بـ«الأمين العام». اقتراح من هذا؟ من مصدره؟ تثبت المعلومات المتوفرة أنه اقتراح ـ كامينيف

وستالين. ومما لا شك فيه أن لينين كان على علم بهذه البدعة.

بناءً على طلب أعضاء المؤتمر (الحادي عشر)، اختار اجتماع اللجنة المركزية الجديدة في ١٩٢٢/٤/٣ مكتباً سياسياً تنظيمياً وأمانة عامة. وأقر الإجتماع استحداث منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب. في ذلك اليوم اختير أول أمين عام للحزب ـ ي.ف. ستالين.

هكذا، صار يحتل ثلاثة مناصب حزبية عالية: عضو المكتب السياسي، عضو المكتب التنظيمي والأمين العام. اختير مولوتوف، العضو المرشح في المكتب السياسي، وكويبيشيف أميني سر. اليوم، المؤرخون والفلاسفة وجميع الناس الذين يهمهم تاريخ بلادنا يتساءلون: لماذا ستالين ـ بالذات ـ وليس شخصاً آخر؟ من الذي رشح ستالين؟ ما دور لينين في هذا الأمر؟ هل كان تعيين ستالين أميناً عاماً يعني منحه صلاحيات خاصة؟ أجوبة هذه الأسئلة وغيرها منوطة مباشرة ليس فقط بتاريخ الحزب والبلاد بعد لينين، بل وبمصدر مصائب المستقبل. لنتجه إلى الوثائق المجردة.

حضر اجتماع اللجنة المركزية كل الأعضاء، وشارك به الأعضاء المرشحون. ناقشوا عدة قضايا واتخذوا قرارات. القضية الأولى: «النظام الداخلي للجنة المركزية». وفي هذا المجال، وبخصوص الرئيس:

«ثُبت بالإجماع التقليد الموجود سابقاً، والذي يقضي بأن اللجنة المركزية لا رئيس لها. والرسميون الوحيدون في اللجنة المركزية هم أمناء السر؛ أما الرئيس، فينتخب في كل إجتماع على حدة».

ثم ناقشوا قضية: لماذا توجد ملاحظة «أمين سر» أمام أسماء بعض أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين في المؤتمر (ستالين، مولوتوف، كويبيشيف)؟ شرح كامينيف (وأخذ الإجتماع علماً بذلك) أنه «خلال الإنتخابات، وباستحسان كامل من المؤتمر، أعلن أن الملاحظة تلك على بعض البطاقات (بطاقات التصويت المترجم) لا يجب أن تشكل إحراجاً أثناء التصويت في الإجتماع العام للجنة المركزية، فقد جاءت تلك الملاحظات بناءً على رغبة بعض المندوبين»[٢٣]. هذه «الرغبة» كانت رغبة كامينيف وزينوفييف، وستالين من وراء الستار.

المؤتمر ينتخب عادة فقط أعضاء اللجنة المركزية، ولكن هناك ما يدعونا للإعتقاد بأن كامينيف فعل الكثير لضمان إنتخاب أمناء السر. لا يمكننا إلا أن نلاحظ (خصوصاً وأن كامينيف كان على علم بمسألة استحداث منصب الأمين العام) أنه كان يهدف إلى تعيين أشخاص معينين في الأمانة العامة. وبكلمات أخرى، كان يريد أن يكون الأمين العام أحد «خلصائه». لقد كانت علاقته آنذاك بستالين حميمة جداً. أمين عام المستقبل سيؤكد مراراً على المكانة الخاصة لكامينيف، نائب لينين في مجلس مفوضي الشعب. كان كامينيف آنذاك في قمة الهرم الحزبي. تثبت شهادات عديدة غير مباشرة انه كان يريد تنصيب ستالين، طبعاً بعلم الأخير ورغبته. ستالين

كان يحب العمل في الجهاز الحزبي، وقد شعر قبل غيره بالإمكانيات الكامنة لهذا الجهاز.

جاء في محضر الإجتماع العام للجنة المركزية:

«يثبّت منصب الأمين العام وأميني سر. يعيّن الرفيق ستالين أميناً عاماً، والرفيقان مولوتوف وكويبيشيف ـ أمناء سر».
كتب لينين بخط يده بعد تلك الكلمات:
«ووفِقَ على اقتراح لينين التالي:

تكلف اللجنة المركزية الأمانة العامة بتحديد جدول المقابلات الشعبية والإلتزام به ونشره. ويجب الإلتزام بألا يمارس الأمناء أي عمل سوى العمل القيادي فعلاً، أما الأعمال الأخرى فيكلفون بها مساعديهم والمختصين التقنيين.

يكلَّف الرفيق ستالين بالبحث فوراً عن نواب ومساعدين له، ليعفوه من العمل (بإستثناء العمل القيادي الفعلي طبعاً) في المؤسسات السوفييتية.

تكلف اللجنة المركزية المتكب التنظيمي والمكتب السياسي بتقديم ـ خلال أسبوعين ـ قائمة بالمرشحين لعضوية الهيئة ونواب لـ رابكرين كي يتم إعفاء الرفيق ستالين كلياً خلال شهر من عمل لجنة التفتيش العمالي ـ الفلاحي...»[٢٤].

في اليوم التالي، في الرابع من نيسان (أبريل)، نشرت الـ«برافدا»:

«إلى منظمات وأعضاء الحزب الشيوعي الروسي. عينت اللجنة المركزية، المنتخبة من قبل المؤتمر الحادي عشر، أمانة عامة لها بعضوية: الرفيق ستالين (أمين عام)، الرفيق مولوتوف والرفيق كويبيشيف.

أقرت الأمانة العامة للجنة المركزية الجدول التالي للمقابلات الشعبية: يومياً من الساعة ١٢ ـ ٣ بعد الظهر. يوم الإثنين ـ مولوتوف وكويبيشيف، يوم الثلاثاء ـ ستالين ومولوتوف، يوم الأربعاء ـ كويبيشيف ومولوتوف، يوم الخميس ـ يوم الجمعة ـ ستالين ومولوتوف، يوم السبت ـ ستالين وكويبيشيف.

عنوان اللجنة المركزية: شارع فوزدفيجينكا، رقم (٥).

سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي
ستالين».

اختار ذلك الإجتماع مكتباً سياسياً ضم سبعة أشخاص: لينين، تروتسكي، ستالين، كامينيف، زينوفييف، تومسكي، ريكوف، وثلاثة مرشحين: مولوتوف، كالينين، بوخارين[٢٥]. كما شكل مكتباً تنظيمياً. رُشح شخص واحد لمنصب الأمين العام (من قبل كامينيف). لم يعترض أحد. هكذا حصل...

تحدث لينين في المؤتمر الحادي عشر عن ضرورة تحسين عمل اللجنة

المركزية والمكتب السياسي معيراً انتباهاً خاصاً لتحسين العمل التنظيمي. وأبدى عدداً من الملاحظات الهامة جداً التي، وللأسف، لم تؤخذ بعين الإعتبار كلياً لا في ذلك الوقت ولا فيما بعد (تحت سلطة ستالين). إحدى هذه الملاحظات تتعلق بفن وعلم الإدارة. قال لينين إن عدداً من الشيوعيين المسؤولين لا يفقهون فن الإدارة. وأشار إلى أن أحد أهم أركان الإدارة يكمن في القدرة على إيجاد الحلقة الرئيسية في سلسلة المشاكل العامة. اليوم ـ قال لينين في المؤتمر ـ إن الحلقة الأساسية هي **وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.**

مباشرة، بعد الثورة، كلف عدد من الرفاق بالمهام السكرتارية والتقنية. كان على رأسهم سفيردلوف الذي، بعد وفاته، شعر الجميع فوراً بفداحة الخسارة. ارتبكت بعده أعمال اللجنة المركزية. بعد المؤتمر الثامن استُحدث منصب أمين السر المسؤول الذي شغلته ستاسوفا، عضوة الحزب منذ عام ١٨٩٨. وخلفها كريستينسكي الذي اختير، في نفس الوقت، عضواً في المكتب السياسي (كان ما زال يقوم بمهام مفوض الشعب للشؤون المالية في روسيا الإتحادية)، وبعد المؤتمر التاسع اختير أمينا سر آخران لمساعدته ـ بريوبراجينسكي وسيريبرياكوف. في المؤتمر العاشر استبدلوا بـ مولوتوف وميخايلوف وياروسلافسكي. لكن بعد وفاة سفيردلوف لم يعد عمل أمانة السر يعجب لينين: بطء في العمل، روتين، أخطاء عديدة. هكذا، فقد عبر في ملاحظة إلى مولوتوف في ١٩٢١/١١/١٩ عن عدم رضاه عن قرار المكتب التنظيمي (أعده مولوتوف) الذي حُدد فيه موقف مؤسسات المحاكم والتحقيق من سلوك الشيوعيين:

«الرفيق مولوتوف.

سأرفع هذا الأمر إلى المكتب السياسي.

بشكل عام، ليس صحيحاً أن يُبتّ بمثل هذه الأمور في المكتب التنظيمي. فهذه مسألة سياسية بحتة.

وحلها لا يجوز أن يكون بهذه الطريقة»[٢٦].

يمكن القول أن استحداث ذلك المنصب الحزبي أملته الضرورة لتنظيم عمل «مقر» اللجنة المركزية ـ أمانة السر، ولكن في الوقت نفسه، لم ير أحد آنذاك في منصب الأمين العام منصباً أساسياً مفصلياً حاسماً. لو كان الأمر غير ذلك، لاختير لينين بلا شك.

في الوقت الذي عين فيه ستالين أميناً عاماً، كان الأطباء ما زالوا يصرون على لينين أن يلتزم بالعلاج. وفي شهر نيسان (أبريل) نفسه، وصلوا إلى استنتاج بضرورة الراحة الطويلة والمناخ الجبلي. قرروا أن رحلة إلى القفقاز ستكون مفيدة. وافق لينين، بل وكتب عدة رسائل لـ أونشليخت وأوردجينيكيدزيه العاملين آنذاك في القفقاز. هذه إحدى الرسائل، والتي بعثت في ١٩٢٢/٤/٩.

«الرفيق سيرغو:

بناءً على طلب كامو، وتبعاً له، أشير إلى أنني يجب أن **أعتزل**. يلزمني نظام حياة مريض. أنا لا أتحمل الحديث مع اثنين (حضر مرة لزيارتي كامينيف وستالين: **ساءت حالتي!**). أحتاج إما لبضعة بيوت صغيرة منفصلة أو لبيت كبير حتى أستطيع الإعتزال فيه كلياً. عليكم أخذ ذلك بعين الإعتبار. يجب ألا تكون هنالك أية زيارات...

المخلص، لينين»(٢٧).

لكن للأسف، اضطر لتأجيل العلاج؛ استمر لينين في العمل. كان يريد فعلاً أن يقوم جهاز اللجنة المركزية بعمله دون روتين أوبيروقراطية. لكن البيروقراطية كانت قد تجذرت عميقاً في إدارة الحزب.

المكتب السياسي يجتمع، وفقاً لإقتراح لينين، مرة في الأسبوع. لكن المهام اليومية يجب أن تنفذ يومياً. أمانة السر تعد المواد لاجتماع المكتب السياسي، تنظم عملية تنفيذ قراراته، تنفذ ما يكلفها به المكتب السياسي. أمانة السر لا تعنى مباشرة بقضايا الإقتصاد والدفاع والجهاز الحكومي والتربية. فهي تقوم بشكل أساسي بدور تقني تنفيذي في الآلية العامة لإدارة الجهاز الحزبي. بما أن المؤسسات الأساسية يترأسها بلاشفة بارزون لا يعيرون اهتماماً كافياً للجانب الفني للعمل، فقد تقرر تعيين واحد من أعضاء المكتب السياسي مسؤولاً عن عمل أمانة السر ـ الأمين العام. (أكرر مرة أخرى:) كامينيف هو الذي اقترح ترشيح ستالين لذلك. كما أنه هو الذي ترأس الإجتماع العام للجنة المركزية الذي اختار الأمين العام. هناك ما يدعونا للإعتقاد أن هذه القضايا تم الإتفاق عليها مسبقاً مع لينين.

هل كان ستالين مؤهلاً لهذا المنصب؟ رسمياً كان، كما بدا؛ لنحكم معاً: ستالين عضو في الحزب منذ عام ١٨٩٨، عضو في اللجنة المركزية منذ عام ١٩١٢، عضو مكتب اللجنة المركزية، عضو المكتب السياسي، وعضو في المكتب التنظيمي. وهو الوحيد بين أعضاء المكتب السياسي الذي يشغل منصبين حكوميين ـ مفوض الشعب للقوميات ومفوض الشعب للتفتيش العمالي ـ الفلاحي. وهو ممثل اللجنة المركزية في المخابرات، وعضو في المجلس العسكري الثوري للجمهورية، وعضو في مجلس العمل والدفاع... أنا لم أعدد مناصب ستالين التي سيشغلها بعد تعيينه أميناً عاماً للحزب.

مما لا شك فيه أن كل هذا يشهد على مساهمته في الإنقلاب الجذري للمجتمع، ويشهد على معرفة بآلية الإدارة السياسية والحكومية، ويشهد على ميله للعمل المؤسساتي. وإن كان العديد من الثوار البارزين آنذاك يتهربون من العمل الإداري،

فإن حب ستالين له كان ملحوظاً. بشكل عام، لم يأت تصعيد ستالين للمنصب الجديد هذا مفجأة غير متوقعة. معظم القادة كانوا لا يعتبرون هذا المنصب قيادياً، وليس احتلاله تصعيداً. هكذا كان المنصب بالفعل ما دام لينين حياً وبصحة جيدة.

لم تكن مسألة «القائد» في الحزب مطروحة بعد. كان هناك قائد، وقائد لا خلاف عليه ـ لينين. كان ستالين غير ملحوظ في موقعه الجديد، كان، كما في السابق، واحداً بين كثيرين. لكن، منذ تلك اللحظة، أصبحت إيجابيات ستالين وسلبياته أوضح للقيادة الحزبية.

ستمضي عقود قبل أن يستطيع أحد وصف شخصية ستالين بشكل دقيق. استطاع أن يخفي مشاعره في الأعماق السحيقة. حتى غضبه لم يره سوى القلائل. كان قادراً على اتخاذ أكثر القرارات قسوة بهدوء. في المستقبل، سيقوّم المحيطون به ذلك كرمز للحكمة وبعد النظر العميقين. فهل خُص الجميع بالقدرة على الحفاظ على الهدوء في هذا العالم المضطرب أزلياً؟ ستالين لم يكن يعرف الرحمة. أما إحساس حب الإبن لأبيه، أو الأب لأبنائه، أو الجد لأحفاده، فهل كان يعرفه؟ لا أعتقد. فهو لم ير من أحفاده أكثر من مرة سوى أبناء ابنته سفيتلانا، وبنت وإبن ابنه البكر ياكوف. كان بينه وبين الحياة الشخصية سد، فقط: عمل وعمل وعمل... قرارات وإجتماعات وتعليمات وخطابات...

كان العالم بالنسبة له إمّا أبيض أو أسود. جميع ألوان قوس قزح لعالم غني بالألوان حشرت في رسم بياني: كل ما لا يتفق مع «الخط» ـ هو عدائي. لم يكن ستالين يعترف بأنصاف الألوان. كان يحب الثنائية التي تدور حول مفهومين فقط: «نعم» و«لا». القطعية وأحادية المعنى. لكن، أليست الحياة أغنى بكثير؟ بين الخير والشر توجد درجات عديدة، في لعبة ألوان الكون... لكن ستالين لم يوهب ذلك.

أسلوب ملاحظاته وخطاباته وتقاريره قطعي و«برقي». وأعجب ذلك العديدين: إنه رجل عمل، إنه رجل واجب، وليس عاطفياً. لم يكن يحبّ كلمة «إنسانية». لكن عن ذلك، وعن أشياء كثيرة أخرى، لم يعرف أحد بعد... الجميع في اللجنة المركزية يرون أنه بالنسبة لستالين لا يوجد شيء أهم من الإنضباط الحزبي والواجب الحزبي والخط العام للحزب.

خلال عام ١٩٢٢ ـ بداية عام ١٩٢٣، وقبل أن يقضي المرض كلياً على قدرة لينين على الكتابة والإملاء، بعث لستالين عدداً من الملاحظات ومشاريع القرارات والرسائل. نرى منها أن لينين كان قلقاً من الطريقة التنظيمية والسياسية التي أقر بها عدد من القضايا.

ليس صدفة أبداً أنه خلال تسعة (!) أشهر بعد تعيين ستالين أميناً عاماً، توصل لينين إلى استنتاج أن الإختيار لم يكن موفقاً، وأنه يجب تحويل ستالين إلى منصب آخر. اقتنع لينين بضرورة ذلك من مجرد خطوات قليلة قام بها ستالين في منصب الأمين العام، ولينين لا يزال على قيد الحياة.

هكذا، على سبيل المثال، أخطأ ستالي عندما أيد اقتراح سوكولنيكوف وبوخارين حول إلغاء احتكار الدولة للتجارة الخارجية. بعث لينين بملاحظة قطعية لستالين:

«الرفيق ستالين:

أقترح... إستفتاء أعضاء المكتب السياسي وتوزيع المذكرة التالية عليهم: «اللجنة المركزية تؤكد احتكار التجارة الخارجية، وتُقر وقف العمل والتحضيرات الخاصة بتوحيد المجلس الأعلى للإقتصاد الوطني ومفوضية الشعب للتجارة الخارجية. على جميع مفوضي الشعب التوقيع سراً» وتعاد النسخة الأصلية لستالين مع عدم استنساخ تلك المذكرة.

١٥ أيار (مايو)

لينين»(٢٨).

في أيلول (سبتمبر)، بعد أن صح لينين من النوبة الأولى الكبيرة، قدم ستالين فكرة «الأتونوميا» (الحكم الذاتي)، أي توحيد الجمهوريات السوفييتية عبر ضمها إلى جمهورية روسيا الإتحادية السوفييتية. وهذا يعني أنه لا يريد اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية، بل يريد روسيا اتحادية، تدخل فيها القوميات الأخرى ضمن حكم ذاتي. تمكن ستالين من تمرير هذا الإقتراح في اللجنة المختصة في اللجنة المركزية. جاء رد فعل لينين فوراً في رسالة إلى كامينيف موجهة إلى أعضاء المكتب السياسي:

«إلى الرفيق كامينيف:

لقد استلمتم، على الأغلب، من ستالين قرار لجنته حول ضم الجمهوريات المستقلة إلى روسيا الإتحادية...

أعتقد أن هذه القضية هامة جداً. ستالين يحب العجلة، دائماً. عليكم (كنتم تهدفون في يوم ما إلى هذا العمل وقد مارستموه قليلاً) أن تفكروا جيداً، وزينوفييف كذلك...»(٢٩).

على الأغلب، لم يزر أحد لينين أثناء مرضه في غوركي أكثر من ستالين. كان فلاديمير إليتش يدعوه أحياناً بنفسه للإطلاع على مجريات العمل اليومي؛ وأحياناً كان الأمين العام يبادر بزيارته. أثناء أحاديثه الكثيرة، كان لينين يسأل عن عمل الجهاز الحزبي، وعن سير تنفيذ قرارات اللجنة المركزية، ويطمئن على صحة دزيرجينسكي وتسوروبا وغيرهم من الرفاق المرضى. من المعروف مثلاً، أن لينين كان يهتم كذلك بصحة ستالين، وقد تكلم هاتفياً مع طبيب ستالين (أوبوخ).

بعد تخبطات ستالين لتمرير فكرة الحكم الذاتي، دعاه لينين في ١٩٢٢/٩/٢٦ إلى غوركي، وتحدث معه حوالى ثلاث ساعات (٣٠). أكد لينين أن توحيد الجمهوريات السوفييتية مسألة مهمة جداً، ولا يُسمح بالتسرع في حلها. واقترح أساساً جديداً لم يسبق لبناء دولة متحدة: تتحد الجمهوريات المستقلة، بما فيها جمهورية روسيا ـ تطوعياً ـ في اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية، مع المساواة الكاملة بين جميع الجمهوريات. لم يجادل ستالين لينين علانية أبداً؛ فعادة

كان يتقبل جميع آرائه. لكن بعض مصادر العشرينات تفيد أن ستالين اعتبر موقف لينين في مسألة القوميات «ليبرالياً»(٣١).

لم تكن أحاديث القائد مع الأمين العام مجرد وسيلة لاستلام المعلومات وإعطاء النصائح والإقتراحات فقط، بل ووسيلة لدراسة مسؤول جهاز اللجنة المركزية. أعتقد أن لينين استطاع، من خلال تلك اللقاءات، أن يفهم نقاط قوة وضعف ستالين بشكل جيد. لذلك، فإن التقويمات والإقتراحات التي قدمها في نهاية ١٩٢٢ ـ بداية ١٩٢٣ بخصوص الأمين العام جاءت نتيجة تحليل وتفكير عميق. مسألة القوميات، ومحاولات ستالين على حلها على طريقته الخاصة، فتحت للينين، ليس فقط جوانب سياسية جديدة من شخصية ذلك الرجل، ولكن بشكل أساسي جوانبه الأخلاقية. في ملاحظاته «حول مسألة القوميات أو حول الحكم الذاتي» اعتبر لينين فكرة ستالين للحكم الذاتي تخلياً عن مبادىء الأممية البروليتارية. يعطي لينين تقويماً ملخصاً لصفات ستالين السياسية والأخلاقية:

«أعتقد أن ما لعب الدور الحاسم هنا هو تسرع ستالين وحبه للعمل الإداري، وكذلك حقده على «الإشتراكية ـ القومية» سيئة الصيت والسمعة. إن الحقد بشكل عام يلعب أسوأ الأدوار في السياسة»(٣٢).

كما لم يرحم لينين أوردجينيكيدزيه «ليده» أثناء رحلة الأخير مع اللجنة؛ وكان المكتب السياسي قد كلفه بترؤس تلك اللجنة لحل المشاحنة التي ظهرت في قيادة الحزب الشيوعي الجورجي. لم ينجح في مهمته، والأكثر من ذلك، فقد ضرب مديفاني، أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجورجي أثناء أحد النقاشات. كتب لينين، بدقته المعهودة، إن «أي استفزاز أو إهانة لا يبرر هذا الضرب بالأيدي على الطريقة الروسية، وإن الرفيق دزيرجينسكي ارتكب ذنباً لا يغتفر لأنه لم يعر اهتماماً خاصاً لهذا الضرب»(٣٣). في هذه المشاحنة، لم يتخذ ستالين موقفاً مبدئياً، مما جعل لينين يلاحظ علانية أن الأمين العام لا يتميز فقط بـ«التسرع وحب العمل الإداري»، بل ـ وهذا مهم جداً ـ ويرى فيه «الحقد» في حل المسائل السياسية.

سيعود مراراً إلى هذه القضية، وهذا ما تشهد عليه «يوميات سكرتيرات لينين المناوبات»، حيث توجد ملاحظات فوتييفا التي تؤكد أن لينين أمر بإحضار مواد إضافية حول هذه «الحادثة». رفض ستالين تزويدها بالمعلومات مدعياً أنه لا يجوز إزعاج القائد. لكن لينين أصر.. قبل خمسة أيام من النوبة الجديدة التي ستفقده القدرة على الكلام، أملى في ١٩٢٣/٣/٥ رسالة إلى تروتسكي على الهاتف:

«الرفيق تروتسكي المحترم:

أطلب منكم بإلحاح أن تقوموا بالدفاع عن قضية جورجيا في اللجنة المركزية. القضية الآن «يحقق بها» ستالين ودزيرجينسكي؛ لكنني لا أضمن موضوعيتهما. بل على العكس تماماً»(٣٤). لكن تروتسكي تهرب من المهمة.

في نفس اليوم، أملى لينين رسالة أخرى. هذه المرة ـ لستالين. بدت الرسالة

وكأنها شخصية. لكنها بدت فقط. إليكم تاريخ قصتها. في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢، أملى لينين على كروبسكايا عدداً من الرسائل الهامة جداً لمصير الحزب. بعد واحدة منها (يبدو أنها كانت الرسالة الموجهة إلى تروتسكي حول احتكار التجارة الخارجية) ساءت صحة لينين، في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ كانون الأول (ديسمبر)، شلت ذراعه اليمنى ورجله. أعلم أعضاء المكتب السياسي بذلك. في اليوم التالي اتصل ستالين بكروبسكايا، وبشكل وقح جداً، أنبها على «الإخلال بنظام حياة القائد المريض». كان فظاً إلى أبعد الحدود. فُجعت كروبسكايا لفظاظة الأمين العام هذه؛ وفي نفس اليوم كتبت رسالة إلى كامينيف:

«ليو برويسوفيتش! بالنسبة للرسالة القصيرة التي أملاها علي فلاديمير إلتيش، كانت بعد أن سمح له الأطباء بذلك، ولكن ستالين سمح لنفسه البارحة أن يكون قليل التهذيب معي إلى أبعد الحدود. أنا لم ألتحق بالحزب يوم أمس. خلال هذه السنوات الثلاثين لم أسمع من أي رفيق أية كلمة غير لائقة. مصلحة الحزب وإليتش لا تهم ستالين أكثر مما تهمني. أحتاج في هذه الظروف إلى التحكم بأعصابي للحد الأقصى. أنا أعرف أكثر من أي طبيب عن ما يجوز وعن ما لا يجوز التحدث به مع إليتش لأنني أعرف ما يزعجه وما لا يزعجه؛ وعلى كل حال أعرف أكثر من ستالين». طلبت كروبسكايا أن يجنبوها «التدخل الفظ في الحياة الخاصة، والشتائم المنحطة والتهديدات... أنا لا أشك بقرار لجنة المراقبة بالإجماع الذي يسمح ستالين لنفسه أن يهددني به، لكنني لا أملك القوة ولا الوقت لأضيعهما في التفكير في هذه المسألة السخيفة. أنا أيضاً إنسانة وأعصابي متوترة جداً. ن. كروبسكايا»(٣٥).

ستالين، وفقاً لقرار المكتب السياسي، كان «يبعد» التوتر عن القائد. لكن يبدو أن عزل لينين عن المعلومات والحد من تأثيره على أوضاع الحزب يدخلان في خطط ستالين لتعزيز نفوذه أثناء مرض لينين.

أحاط كامينيف ستالين علماً بمضمون رسالة كروبسكايا. قام الأخير، دون نقاش، بكتابة رسالة إعتذار إلى كروبسكايا يفسر فيها أن سلوكه ذلك ما كان إلا لاهتمامه بإليتش. يصعب علينا أن نحكم على مدى صدق الأمين العام. فهو يتعامل مع الأخلاق بشكل براغماتي بحت: فهو على استعداد لعمل المستحيل إذا أحس أن مصلحته الشخصية في ذلك. على كل حال، لم يعلم لينين بهذه الحادثة إلا بعد شهرين ونيف، من زوجته نفسها ـ في ١٩٢٣/٣/٥. رأى لينين في تصرف الأمين العام ذلك، ليس فقط أمراً شخصياً، بل أمراً أكبر من ذلك بكثير. بعد حديثه مع زوجته بقليل، استدعى لينين فولوديتشيفا وأملى عليها رسالة إلى تروتسكي حول مناقشة «القضية الجورجية» في اجتماع اللجنة المركزية الآتي. وطلب منها أن تبلغ الرسالة هاتفياً وأن تعود إليه بالجواب بأسرع ما يمكن. ثم أملى رسالة إلى ستالين:

«الرفيق ستالين المحترم.

لقد كنت وقحاً عندما طلبت زوجتي على الهاتف وأنبتها. بالرغم من أنها وافقت

على نسيان ما قلت، إلا أنها أبلغت زينوفييف وكامينيف بهذا الموضوع. أنا لا أنوي نسيان ما يُفعل ضدي بهذه السهولة. ولا حاجة لأقول أن ما يقال ضد زوجتي أعتبره ضدي أيضاً. لذلك، أطلب منكم أن تفكروا بالأمر وتقرروا: إن كان لديكم الإستعداد للإعتذار وسحب ما قلتموه، أو تفضلون قطع العلاقة بيننا.

مع الإحترام،

لينين.

١٩٢٣/٣/٥»(٣٦)

لينين حاد. لا أحد يعلم بعد أنه كتب في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ «رسالة إلى المؤتمر» التي يقوّم بها الصفات الشخصية لقادة الحزب، ويقترح تنحية ستالين عن منصب الأمين العام. لذلك، فإن رسالته لستالين في ١٩٢٣/٣/٥ تكمل تصوره لشخصية ذلك الرجل من الناحية السياسية والأخلاقية، وموقفه منه. توصل لينين إلى إستنتاج نهائي أن سوء الأخلاق، غير المحبذ ولكنه يحتمل في القاعدة الحزبية، لا يحتمل أبداً في قائد حزبي. **رأى لينين في تشوهات ستالين الأخلاقية خطراً على سياسة الحزب وقضاياه.** للأسف، في السنوات اللاحقة، لن تعود الأخلاق تعني شيئاً مقارنة بالمزايا الطبقية والسياسية. بدأ كل ذلك عندما كان لينين لا يزال حياً...

في اليوم التالي، أملى لينين آخر رسالة في حياته، ورد فيها إسم ستالين:

«للرفيقين مديفاني وموخارادزيه. ونسخة أخرى للرفيقين تروتسكي وكامينيف.

أيها الرفاق المحترمون.

أتابع قضيتكم بكل جوارحي. إستأت لفظاظة أوردجينيكيدزيه، وتغاضي ستالين ودزيرجينسكي. أنا أعد لكم ملاحظات وكلمة.

مع إحترامي،

لينين

١٩٢٣/٣/٦»(٣٧).

للأسف، لم يقدر لينين، لا أن يكتب الملاحظات ولا الكلمة. بعد أربعة أيام ستُفقده نوبة جديدة ليس فقط القدرة على الكتابة، بل وعلى الإملاء أيضاً. ولكن هنالك ما يدعونا للإعتقاد (وهذا ما تشهد عليه ثلاث ملاحظات أملاها لينين في ٥ و٦ آذار ـ مارس) أن سلوك ستالين بخصوص «حادثة جورجيا» أكد للينين مرة أخرى صحة استنتاجاته في الـ«رسالة إلى المؤتمر». لم يكن سهلاً على لينين أن يقتنع بخيبة أمله في اختيار اللجنة المركزية في نيسان (أبريل) (بتشجيع من كامينيف، وبرغبة من ستالين). لقد أخطأ الجميع بذلك ـ بما فيهم هو. ولكن لا تزال هناك إمكانية لتصحيح الخطأ. لا يمكننا أن نسمح بأن يبقى على رأس جهاز اللجنة

المركزية رجل لا أخلاق له ويشكل خطراً على قضيتنا. إن كان ستالين ذا وجهين وقادراً على الوقاحة والحقد على أكثر الناس قرباً من لينين، فكيف سيكون مع الآخرين؟

ألعل سوء حالة لينين الصحية في آذار (مارس) لم يكن صدفة؟ أنا لا أملك دلائل قطعية تؤكد أن «حادثة جورجيا» أو المشاحنة مع ستالين لعبت دوراً حاسماً في تدهور صحة لينين؛ لكن الظروف تؤكد أن تلك الإمكانية كبيرة. الضغط النفسي عليه في تلك الظروف كان لا بد أن يسرع تلك النوبة المأساوية التي ألمّت بلينين.

يبقى لنا أن نضيف أن الأفكار التي ناضل من أجلها لينين في مجال المسألة القومية، بدأت تتحقق. رُفضت فكرة ستالين بالحكم الذاتي. أعلن المؤتمر الأول للسوفييتات، الذي إفتتح في ١٩٢٢/١٢/٣٠، إنشاء اتحاد الجمهوريات السوفييتية الإشتراكية. قدم ستالين تقريراً، استند أساساً على رسالة لينين «حول مسألة القوميات أو حول الحكم الذاتي». (بالرغم من أن رسالة لينين هذه لم تنشر إلا بعد ٣٤ عاماً!) ركز ستالين في خطابه وفي إعلان إنشاء الإتحاد السوفييتي الذي قرأه هو على فكرة الأممية البرولتيارية، وعلى تمسك جميع قوميات الإتحاد السوفييتي بالصداقة والتضامن الطبقي والإخلاص للمبادىء الثورية. في ذلك الوقت، قال ستالين، مكرراً أفكار لينين ـ دون الإشارة إلى أنه يستشهد بالقائد ـ إن مهمة الإتحاد الجديد هو القضاء على التمييز بين القوميات الموروث من الماضي.

لينين كان مريضاً، لكنه يحاول بإصرار عجيب أن يدافع عن الحل الأسلم لمسألة القوميات في دولة كبرى هي وطن لأكثر من مئة قومية. أعتقد أن ستالين كان يريد ذلك أيضاً؛ لكنه كان يفتقر لبعد النظر والحكمة النظرية اللازمة لحل مثل هذه المسألة المعقدة.

يؤكد عدد من كتاب سيرة ستالين الأجانب بوضوح ذنب ستالين في وفاة لينين. وهذا تقريباً ما يؤكده تروتسكي ايضاً؛ فهو يؤكد في مذكراته أن مرض لينين هو فقط الذي «حال دون أن يقضي على ستالين سياسياً». كما كتب أيضاً أن تخبطات ستالين كثيراً ما كانت تثير غضب القائد المريض، مما أدى إلى تطور مرضه.

أنا لا أملك معلومات محددة حول نية لينين بـ«القضاء» على ستالين. لكنني لا أشك أنه لو لم يمت لنفذت إرادته. مجرد واقعة استنتاج لينين الصارم بضرورة «تنحية» ستالين عن منصب الأمين العام بعد تسعة أشهر فقط من تعيينه، تدل على الكثير. إن الـ«رسالة إلى المؤتمر» والمقالات والرسائل الأخرى، المعروفة معاً بـ«الوصية»، تساعدنا على فهم الجانب السياسي والأخلاقي من شخصية ستالين.

«رسالة إلى المؤتمر»

خط دقيق لا يكاد يُرى يفصل بين الحياة والموت؛ يمكن تخطيه بإتجاه واحد فقط. العودة غير ممكنة. ذكّره تدهوره الصحي في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٢٢، بقسوة، ان الأفكار قد تكون أزلية، لكن الإنسان زائل. **أظهر لينين، وهو على حافة هذا الخط، شجاعة إنسانية وسياسية كبيرة.** فقد طلب لينين صباح ١٩٢٢/١٢/٢٣ من الأطباء أن يسمحوا له (خلال خمس دقائق فقط!) أن يملي بعض السطور لأن «هناك موضوعاً يهمه جداً». يصر. يطلب. يطالب. يحصل على الإذن. يبدأ بإملاء الـ«رسالة إلى المؤتمر» الشهيرة. تلك كانت شجاعة فكرية كثيرة.

في اللحظات التي لم يكن أحد متأكداً من أنه لن يصاب بنوبة جديدة، كان لينين يفكر في المستقبل. من يعلم؟ ربما تذكر ديدرو الذي كتب في رسالة فالكوني: «لعلكم ـ في أعينكم ـ تبدأون، ولكنكم ـ في أعين الاخرين ـ تنتهون». أجل، كان لينين، الذي تنطفىء شعلته بسرعة، ينهي قضية حياته من أجل الآخرين. رسالته تلك جاءت تحذيراً ونهجاً فلسفياً. إنه يشعر بالخطر الذي ولدته البلشفية. الثورة «تحجرت» تحت ثقل البيروقراطية. إنه يتنبأ بأن ذلك الذي سيضع نفسه في مركز الكون قد يميت القضية التي كرس لها لينين حياته بأكملها.

إن لم يهتم الإنسان بعالمه، يزول ويزول عالمه معه. بم كان يفكر لينين وهو يستعد لإملاء مقالاته ورسائله الأخيرة؟ أكان يفكر بأنه، بالرغم من التوقعات والتصورات، لم تنتشر شعلة أكتوبر إلى باقي دول أوروبا، ولا إلى الشرق؟ وحتى الآن روسيا لم تصبح «صاعق» الثورة ،لعالمية، أيجب عليها تثبيت نفسها وحماية حدودها؟ أم أنه كان يفكر في هاوية المصاعب التي ظهرت أمام البلاشفة بعد أن استولوا على السلطة؟ قد يكون فكر بذلك؛ وربما فكر بشيء آخر؛ أو بأن الحياة قاسية بإيقافها إياه في بداية الطريق لبناء مجتمع جديد؟ أو بخطيئة فرض الإشتراكية بالعنف؟ أم أنه تذكر كلمات بليخانوف الموجهة له:

ـ إنني أسمع القديم في الجديد الذي تتحدث عنه!

ـ لماذا؟

ـ لأن عصر ثورة الدهماء لم يأت بعد...[٣٨]

أجل، لقد تخلى بليخانوف عن الثورة، تخلى... لكنه لم يتخل عن الإشتراكية العلمية، وسيبقى إسمه في التاريخ بجانب أسماء كاوتسكي، لافارج، هيد، بيبل، ليبكنيخت... سيبقى إلى الأبد. أجل، وبجانب إسم غيرتسين كذلك. وبالمناسبة، كم هو جميل ما قاله غيرتسين عن الجديد والقديم:

«الجديد يصنعه عرق الجبين، أما القديم فيستمر ويتشبث بعكازتي التقاليد. الجديد يجب دراسته وتحليله؛ إنه يتطلب عملاً داخلياً وتضحيات. القديم نتقبله بلا

تحليل، فهو جاهز؛ وهو ـ بعيون الناس ـ قانون. أما الجديد، فينظر إليه الناس بعدم ثقة، لأن ملامحه فتية، وقد تعودوا على ملامح القديم المترهل، فباتوا يعتقدونها أزلية»[٣٩]. يا لها من كلمات! يا له من تحليق بالأفكار!

أم أنه تذكر مارتوف؟ كانوا في الخارج، يوماً ما، يتكلمون عن الثالوث: لينين، بوتريسوف، مارتوف... وراء خطابات مارتوف المملة المميتة يختبىء عقل رفيع، بل ومرموق، قادر على تشريح كل ما يقوله خصمه واستغلال أية هفوة أو انحراف لصالحه. إنه على الأغلب، منشد الإنطباعية (حركة ثورية حديثة ـ في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ـ فرنسية المنشأ، في الفن والأدب والموسيقى، تقول بأن، مهمة الفنان الحقيقية هي نقل «انطباعات» بصره أو عقله إلى الجمهور، وليس تصوير الواقع الموضوعي ـ المترجم) الفلسفية. إنه رجل يشعر بمتعة خاصة في تغيير آرائه بشكل دائم. إنه مثال على الثقافة العالية التي ليس لها أسس إجتماعية صلبة.

لم يفكر لينين في الوحدة مع مارتوف، على الأقل منذ عام ١٩١٧. لكن ذلك الرجل (مارتوف) الذي طالما انحرف إلى اليمين، كتب عنه لوناتشارسكي أنه «قرر مصيره بنفسه: أنْ لا أحد يعترف به لا هؤلاء ولا أولئك. وأن يبقى معارضاً لاذعاً إلى حد ما، ومعارضاً نبيلاً إلى حد ما أيضاً، ولكن غير فعال أبداً»[٤٠]. وهكذا، بقي ذلك الماركسي اللامع على هامش الثورة البلشفية!

قبل حوالى عامين، وفي اجتماع اللجنة المركزية، لفت انتباه لينين بند من بنود جدول الأعمال الطويل:

«١٠) رسالة اللجنة المركزية إلى مجلس مفوضي الشعب حول السماح لمارتوف وأبراموفيتش بالسفر إلى الخارج...

تقرر: قبول الطلب»[٤١].

يريد الهرب إلى أحضان الغير! يبدو أن تروتسكي كان محقاً في تقويمه اللاذع لمارتوف في نيسان (أبريل) ١٩٢٢ في المجلد الثامن من أعماله بعنوان «صور ساسة». بقطعيته المعتادة، وليس دون «نهفة» فكرية، كتب تروتسكي:

«مارتوف، بلا شك، واحد من أكثر الشخصيات مأساوية في الحركة الثورية. إنه كاتب موهوب، وسياسي مبدع، وذكاؤه حاد، وقد تخرج من المدرسة الماركسية، لكنه، بالرغم من كل ذلك، سيدخل تاريخ الثورة العمالية بدور منقوص. فكره يفتقر للشجاعة، وحِدّة ذكائه تنقصها الإرادة... وهذا ما قضى عليه... فكره وجّه كل قدراته على التحليل كلياً إلى التبرير النظري للخط ذي المقاومة الأقل. لا أعتقد أنه يوجد، أو أنه سيوجد يوماً ما، سياسي إشتراكي آخر قادر، بهذه الجدارة، على استغلال الماركسية لتبرير الإنحراف عنها وخيانتها مباشرة. يمكننا تسمية مارتوف ـ بدون أية سخرية ـ فناناً في هذا المجال... «قططيته» غير العادية ـ إرادة اللا إرادة، وحزم باللا حزم ـ سمحت له أن يحافظ على نفسه في مواقع لا مخرج لها ومتناقضة جداً

لشهور وسنين»[٤٢]. يا له من تقويم قاس، وعلى الأرجح أنه غير عادل... ألم يثبت التاريخ صحة مارتوف في الكثير مما قاله؟!

ليس للثورة هوامش فقط، بل لها طليعة، لها خط أمامي، لها «مركز». دعونا نتكلم عنه الآن. لينين يقف على الخط الحاسم، وفي أية لحظة قد يتخطاه إلى اللاعودة. الوضع في اللجنة المركزية والمكتب السياسي مثير للقلق. لا بد من إحداث تغييرات. لا بد من الوحدة. لا بد من تثبيت الأسس الديمقراطية في عمل اللجنة المركزية. الجميع يحترمون رأيه. الجميع ينتظرون رأيه. لينين يطالب مرة أخرى أن يسمحوا له بالإملاء. خطته عظيمة. إنه لا يريد فقط أن يتحدث عن أساليب تعزيز قيادة الحزب، لكنه يريد كذلك إملاء رؤاه لطرق بناء المجتمع الإشتراكي، وكيفية تخطي العقبات المتكاثرة.

كان مصير آخر أعمال لينين مأساوياً. الجزء الأكبر منها أخفوه عن الحزب ودثروه بسرية ستالينية. بعض أعماله الفذة («إسناد المهام التشريعية للجنة الدولة للتخطيط»، «حول مسألة القوميات أو حول الحكم الذاتي»، «رسالة إلى المؤتمر» وغيرها) لم تنشر إلا بعد عام ١٩٥٦، بعد المؤتمر العشرين للحزب. أما مقالة «كيف نغير نظام اللجنة العمالية ـ الفلاحية للتفتيش (إقتراحات للمؤتمر الثاني عشر للحزب)»، فقد أرادوا في البداية أن يطبعوا منها... نسخة واحدة فقط لعرضها على لينين. وعند طباعتها لم يكتفوا بـ«قصقصتها»، بل وبعث المكتب السياسي برسالة خاصة إلى لجان المناطق تعلمهم أن هذه المقالة هي مجرد صفحات من يوميات لينين المريض الذي سمح له بالكتابة لأنه لم يعد يحتمل ألا يعمل شيئاً... وقع هذه «السخافة»: ستالين، تروتسكي، مولوتوف، وآخرون في ١٩٢٣/١/٢٧.

لم يفهم ستالين، وليس ستالين فقط، محاولة لينين لتوعية الحزب لمخاطر «التسلط». لينين كان يقف في موقع فكري أعلى بكثير من رفاقه؛ أحياناً كان يبدو أن صوته لا يخترق آذانهم. لينين يتقدم عليهم، والمسافة بينهم طويلة، ولم يستطيعوا اللحاق به. لم يقدروا تنبؤاته (التي كان بعضها طوباوياً) حق قدرها.

يغلب التفاؤل على جميع أعماله الأخيرة: الإشتراكية في روسيا لها مستقبل. جميع المسائل المفصلية ـ التصنيع، الإصلاح الزراعي على أساس تعاوني تطوعي، تعميم الثقافة، تأسيس آلية إدارة الدولة ـ ينظر إليها من منظار حكم الشعب ودمقرطة جميع جوانب حياة المجتمع. لكنه أخطأ في تصوره أن الديمقراطية يمكنها أن تتعايش مع الديكتاتورية... «كروكي» خطته لبناء مجتمع جديد تتطلب أناساً جدداً قادرين على النضال من أجل تحقيقه. كان ذلك هو الأهم للينين آنذاك.

إن الدراسة المتعمقة لآخر رسائله وملاحظاته ومقالاته تدعونا إلى التأكيد أنه، قبل غيره، أدرك خطورة النظام «التسلطي». في دراسة لجذور القيصرية (الرومانية)، عبر غرامشي عن فكرة جميلة وهي أنه عندما تنهك قوتان متصارعتان بعضهما، تتدخل بينهما قوة ثالثة فتخضعهما لها[٤٣]. أعتقد أن الكلام هنا ليس عن مجموعات

محددة من الناس بقدر ما هو عن القوى الإجتماعية الاساسية في بلدنا. هذه القوى هي: الطبقة العاملة، الفلاحون، والحزب الذي قال عنه لينين: «تلك السلطة الضخمة التي تُتقاسم مع أحد، لتلك الشريحة الرفيعة جداً التي يمكننا تسميتها بالحرس الحزبي القديم»(٤٤).

بناء الإشتراكية كان ممكناً فقط على أساس الحل الوسط الإجتماعي الحكيم الذي اقترحه لينين ـ «السياسية الإقتصادية الجديدة»، وإنشاء التعاونيات الزراعية طوعياً وتدريجياً. وأي طريق آخر كان لا بد له أن يؤدي إلى اصطدام مع الفلاحين، وجرف الحريات، وتثبيت النهج التوتاليتاري في الإدارة ـ الذي غرسته البلشفية. التوتاليتارية تحتاج دائماً إلى قياصرة. ستالين، وكذلك عدد آخر من القادة الحزبيين من حواريّي لينين، لم يفهم كلمات لينين أن حزبنا مجرد «مجموعة صغيرة من الناس بالمقارنة مع سكان بلدنا»(٤٥)؛ لم يفهم أن «السياسة الإقتصادية الجديدة» هي الشرط الأساسي للوصول إلى الإشتراكية.

البلاشفة هم ثمرة البروليتاريا المدينية. الوحدة مع الفلاحين، إن لم تكن قادرة على مساواتهم بالعمال، فيجب على الأقل أن تسمح للفلاح بامتلاك الأرض والمتاجرة الحرة. والشيء الوحيد القادر على تقريب الفلاح من الإشتراكية ـ برأي لينين ـ هو الإنشاء الطوعي للتعاونيات الزراعية. و«السياسية الإقتصادية الجديدة» هي الغراء الموحِّد لهاتين القوتين. حتى تلك «الشريحة الرفيعة» في الحزب لم تفهم عمق أفكار القائد وفداحة المخاطر التي تنتظر الشعب إذا ما اختار طريقاً آخر. أي طريق كان لا بد أن يؤدي إلى العنف، إلى الإنزلاق المباشر لـ«التسلطية». كان يجب أن ينتهي العنف؛ فما حصل منه أكثر من كاف. وإلا ـ القيصرية. وللأسف، هذا ما حصل.

لينين المريض في عجلة من أمره. قد لا يتيح له القدر العمر الكافي للتفكير في المستقبل. ذات مرة، لاح في الأفق بصيص أمل: ألم يتمكن في خريف ١٩٢٢ من أن يعود إلى نشاطه العملي؟! ألا يمكنه أن يتغلب على المرض كلياً؟!

يستذكر بوخارين فرحة الجميع عندما عاد لينين لحالته الطبيعية: «توقفت قلوبنا عن الوجيب عندما وقف لينين على المنصة (منصة المؤتمر الرابع للكومنتيرن في ١٩٢٢/١١/١٣ ـ المؤلف). رأينا جميعاً ما كلفته هذه الكلمة من جهد. ها هو قد أنهاها! العرق على جبينه، عيناه غائرتان لكنهما تلمعان ببريق الفرح وتصرخ فيهما الحياة وتنشد روح إليتش العظيمة أنشودة العمل! بفرحة عظيمة، والدموع في عيونها، هرعت إليه كلارا تستيكين وراحت تقبل يدي «الختيار». إليتش محرجاً ومنفعلاً، راح يقبل يدها. لا أحد، لا أحد كان يعلم أن المرض قد تفشى في دماغ إليتش، وأن النهاية المأساوية الرهيبة قريبة...»(٤٦). يبدو أنه كان شاعراً بذلك. لذلك... كان يصر ويطالب. في صباح ١٩٢٢/١٢/٢٤ ناقش ستالين وكامينيف وبوخارين الوضع: إنهم لا يملكون الحق في إجبار القائد على السكوت، لكنه يحتاج إلى الراحة التامة. لذلك قرروا:

«١) يُسمح لفلاديمير إليتش بالإملاء ٥ ـ ١٠ دقائق يومياً. لكن لا يجب أن يكون ذلك مراسلة، أي لا يجوز أن ينتظر جواباً. الزيارات ممنوعة.

٢) لا الأصدقاء ولا الحاشية لهم الحق في إبلاغ لينين شيئاً عن الأوضاع السياسية كي لا يتاح له المجال للتفكير فالتوتر».

أثناء مرضه كان بجواره سكرتيرون مناوبون، يملي عليهم ملاحظات إلى المكتب السياسي، وطلب أن يبلغوا رفاقه شيئاً ما على الهاتف، ويطلب أن يحضروا له معلومات ومواد ووثائق. تتابع على ملازمته: ناديجدا أليلوييفا (زوجة ستالين)، م. فولوديتشيفا، فوتييفا وغيرهن. في ١٩٢٢/١٢/٢٣، عندما بدأ بإملاء الـ«رسالة إلى المؤتمر»، كانت مناوبة فولوديتشيفا. دونت ملاحظة مختصرة في يومياتها:

«أملى عليّ لأربع دقائق. صحته متدهورة. حضر الأطباء. قبل أن يبدأ بالإملاء قال: أريد إملاء رسالة إلى المؤتمر. أكتبي! أملى بسرعة، لكن ألمه كان واضحاً»(٤٧).

لينين ينظر إلى النافذة، إلى الأفق الذي تحجبه الأشجار، ويقول: رسالة إلى المؤتمر...

في نيسان (أبريل) من العام القادم، عام ١٩٢٣، يجب أن يعقد المؤتمر الدوري الثاني عشر للحزب. إن هو لم تتحسن صحته، فلتُقرأ رسالته على المندوبين... عباراته دقيقة مدروسة بشكل جيد واختمرت في ذهنه. «إنني أنصحكم بأن تتخذوا في هذا المؤتمر عدداً من التغييرات في نظامنا السياسي».

دعونا نستطرد. لينين قطعي: «... عدد من التغييرات في نظامنا السياسي». للوهلة الأولى يبدو أن الحديث سيدور حول مجرد تغييرات في «النظام السياسي»... لكن بعد بضعة سطور، يلاحظ القارىء أنّ لينين يتحدث عن أمور أساسية حيوية: عن الديمقراطية في الحزب، عن الحكم الشعبي في المجتمع، وعن طرق تحقيقهما. رأى المفكر، وهو في النَّزع الأخير، بثاقب نظره، في الديمقراطية محرّكاً أساسياً وأسلوباً في الحياة لمجتمع ونظام جديدين. لكن للأسف، لم يشكّك أبداً في رهانه على ديكتاتورية البروليتاريا.

دعونا نستشهد أكثر بالـ«رسالة إلى المؤتمر»:

«أريدكم أن تشاركونني الأفكار التي أعتبرها الأكثر أهمية. إنني أعتبر أن الأمر الرئيسي هو زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية لبضعة عشرات أو حتى لمئة، وأعتقد أنه بدون ذلك يوجد خطر كبير على لجنتنا المركزية فيما لو لم تكن لصالحنا(وليس هنالك ضمان بأن تكون لصالحنا)...

أعتقد أن حزبنا يملك الحق بمطالبة الطبقة العاملة بـ ٥٠ ـ ١٠٠ عضو للجنة المركزية، فالطبقة العاملة تستطيع أن تزودنا بذلك العدد دون أن ترهق نفسها.

مثل هذا الإصلاح يعزز من صلابة حزبنا ويساعدنا في صراعنا مع الدول

المعادية، ذلك الصراع الذي أعتقد أنه قد، وحتماً، سيتفاقم في السنوات القادمة. أعتقد أنه، بفضل هكذا خطوة، سيتضاعف توازن حزبنا وثباته آلاف المرات.

١٩٢٢/١٢/٢٣

لينين

أملي على م.ف.»(٤٨).

الخطوط الأولى على طريق تعزيز الديمقراطية، برأي لينين، هي توسيع تمثيل العمال، القوة الرئيسية في الثورة، في هيئة الحزب العليا. يجب مضاعفة عدد أعضاء اللجنة المركزية ٢ ـ٣ مرات. توسيع التمثيل، التجديد، القرب من الجماهير ـ هكذا تقل إمكانية تأثير مجموعة صغيرة من الناس على مصير الحزب بأكمله.

ونضيف: لينين يحذر بأن الوضع العالمي في المستقبل القريب جداً سيضطرب. علينا أن نسرع. بالمناسبة، حتى أبرز قادة الحزب، كـ بوخارين، لم يفهموا هذا التحذير، وسيقفون في المستقبل ضد بناء الإشتراكية بشكل سريع. أما ستالين، فلا...

أعتقد أنه عندما نقوّم عقل لينين، لا يجوز أبداً أن ننسى أنه كثيراً، بل غالباً ما كان غير مفهوم أبداً لحواريّيه؛ وإن فهموه، فلم يؤيدوه حتى النهاية. لنتذكر أكتوبر ١٩١٧، بريست ـ ليتوفسك، «السياسة الإقتصادية الجديدة»، إقتراح زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية لحساب العمال... لكن ذلك، على الأغلب، ليس ذنب المحيطين بلينين، بل مصيبتهم. ما كان يراه كانوا لا يرونه. وآخر مرة لن يفهموه ولن يؤيدوه بها، ستكون بعد وفاته: فكثير من تحذيراته لن تقدر حق قدرها. أما الخطر الرئيسي ـ ديكتاتورية البلاشفة ـ فلم يكن يراه حتى لينين نفسه.

في الماضي، حتى عندما كان لينين في الأقلية، كانت قوة براهينه وعواطفه وإرادته كافية لتجعل قافلة الثورة تسير خلفه في الطريق الصحيح. الآن مات لينين. ولن يعرف أبداً أن وصيته بخصوص ستالين لن تنفذ.

لنعد إلى الـ«رسالة».

١٩٢٢/١٢/٢٤. «إنني أقصد الصلابة كضمان ضد الإنشقاق في المستقبل القريب. وأود هنا تحليل عدد من الخواص.

أعتقد أن الأعضاء الأصلب من هذه الناحية هما عضوا اللجنة المركزية ستالين وتروتسكي، ولكن العلاقة بينهما تشكل النصف الأكبر من خطر الإنشقاق الذي يمكن للحزب تجنبه عن طريق توسيع اللجنة المركزية إلى خمسين أو مئة عضو».

هناك عدد من الباحثين الذين، حتى يومنا هذا، لا يقدرون ثقل تروتسكي السياسي في ذلك الوقت حق قدره. «النصف الأكبر من الخطر» ـ هو العلاقة بين تروتسكي وستالين. رأى لينين أن تروتسكي له شعبية أكبر من الأمين العام، لكنه رأى أيضاً قبضة الأخير. العلاقة المتوترة بين هاتين الشخصيتين المركزيتين تنذر بمشاحنة قد تشق الحزب.

«الرفيق ستالين، عندما أصبح أميناً عاماً، ركز في يديه سلطة كبيرة جداً، وأنا لست متأكداً إن كان سيستخدمها دائماً بحذر»(٤٩).

فيم تكمن سلطة الأمين العام «الكبيرة جداً»؟ على كاهله يقع تقرير المسائل اليومية التي كثيراً ما تكون حيوية وهامة جداً للحزب. لكن أهم ما في الأمر ـ هو إن ستالين يقرر تصعيد الكوادر الحزبية في المركز وفي المناطق. آلاف الحزبيين... في البداية لم يلحظ الجميع الأهمية السياسية لـ«توضيع» الكوارد اللازمة. كما أن ستالين ـ كما رأينا من قبل ـ كان يعتبر جهاز الحزب هو جهاز الدولة. لينين أدرك ذلك دون غيره.

«من ناحية أخرى، الرفيق تروتسكي، كما أثبت صراعه مع اللجنة المركزية بخصوص مفوضية الشعب، لا يتميز فقط بقدرات فذة. إنه، على الأغلب، أقدر رجل في لجنتنا المركزية الحالية، لكنه يستعرض ثقته بنفسه كثيراً، ويميل جداً إلى الجانب الإداري البحت للقضايا»(٥٠).

ربّما لينين قد تأمل قبل أن يلفظ عبارته التالية: «لو كانت البراغي الثورية لهذا الرجل مشدودة أكثر، لكان منه قائد فذ لعموم روسيا!» ربما تذكر لينين، وهو يبتسم داخلياً، تقرير تروتسكي حول الجيش الأحمر في المؤتمر السابق. لقد أنهى تقريره، ليس بتلخيص لطرائق تحسين بناء الجيش، بل تكلم عن «أولوية تربية الجنود تربية ثقافية عسكرية». قال تروتسكي ـ أثناء هرج ومرج القاعة ـ: «تعالوا لننجز نظافة جنودنا من القمل. هذه مهمة تربوية هامة وضخمة، ونحتاج إصراراً ومثابرة وصلابة وقدوة لتخليص جماهير حاشدة من قذارة نموا معها واستفحلت بهم. فالجندي المقمّل هو نصف جندي وليس جندياً كاملاً... والأمية؟! إنها تقميل روحي، يجب أن نقضي عليها قبل الأول من أيار (مايو)، ثم نواصل هذا العمل بوتيرة لا تخف»(٥١).

لينين أعجبته عبارة تروتسكي هذه: «الأمية تقميل روحي». يمتاز تروتسكي بقدرة على إبتكار أفكار وصور أخاذة خلال الحديث. كم من المرات تغلب تروتسكي الإعلامي على تروتسكي السياسي. تغلبت فيه النرجسية على العقل السليم، تغلب حبه بإعجاب الناس به على تواضعه. كلا، لن يستطيعا التعايش معاً (تروتسكي وستالين)... كلاهما مغال في طموحه... ما قاله عن ستالين، ومن ثم عن تروتسكي، يثبت قطبيتهما...

«هاتان الخاصيتان لهذين القائدين الفذين... قادرتان على شق الحزب تلقائياً...

لن أقوّم السمات الشخصية لأعضاء اللجنة المركزية الآخرين. فقط سأذكّر بأن موقف زينوفييف وكامينيف في أكتوبر لم يكن صدفة، فهو خاصية من خواصهما كـ بلشفية تروتسكي.

أريد أن أقول بضع كلمات عن أعضاء اللجنة المركزية الفتيين، عن بوخارين وبياتاكوف. إنهما ـ برأيي ـ أبرز القوى الفتية؛ وبخصوصهم، علينا أن نأخذ

بالإعتبار ما يلي: بوخارين ليس فقط أكبر وأثمن منظر للحزب، فهو يعتبر كذلك - بحق - محبوب حزبنا كله. لكن آراءه النظرية يمكن التشكيك بماركسيتها، فهي تتميز بشيء من «السكولاستية» (هو لم يدرس أبداً، وأعتقد أنه لم يفهم جوهر الديالكتيك حتى النهاية)»[٥٢].

كتبت م. فولوديتشيفا في يوميات المناوبين بعد إملاء لينين: «في اليوم التالي (١٩٢٢/١٢/٢٤)، ما بين السادسة والثامنة، طلبني فلاديمير إليتش مرة أخرى. حذر أن ما أملاه علي بالأمس (١٩٢٢/١٢/٢٣)، واليوم (١٩٢٢/١٢/٢٤) سري **للغاية**. أكد على ذلك مرة أخرى. أمر بإخفاء **كل** ما يمليه في مكان خاص، وتحت طائلة المسؤولية الخاصة، واعتباره سرياً **بشكل مطلق**...»[٥٣]. للأسف، فوتييفا، مديرة أمانة سر مجلس مفوضي الشعب، والتي كانت سكرتيرة مناوبة للينين كذلك، ورغم إرشادات القائد، سرعان ما أعلمت ستالين (وعدداً آخر من أعضاء المكتب السياسي) بمحتوى ملاحظات كانون الأول (ديسمبر)... لذلك «رسالة» لينين لم تأت مفاجئة لقيادة الحزب.

في اليوم التالي تابع لينين إملاء وثيقته الفريدة من نوعها التي ستثير ضجة في صفوف شعبنا، لكن بعد مرور بضعة عقود.

«١٢/٢٥. أما بياتاكوف، فهو رجل ذو إرادة فذة، وقدرات فذة بلا شك، لكنه يميل أكثر من اللازم للعمل الإداري والجانب الإداري للمسائل، لدرجة أننا لا نستطيع أن نتكل عليه في أي مسألة سياسية هامة...

١٩٢٢/١٢/٢٥

لينين

أملي على م.ف.»[٥٤].

في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) تابع لينين إملاء الـ«رسالة إلى المؤتمر» مطوراً فكرة تعزيز الديمقراطية داخل الحزب. فقد رأى بالديمقراطية فاعل تحسين العمل بشكل عام وجهاز الدولة بشكل خاص. جهاز الدولة «في جوهره عندنا موروث عن النظام القديم، إذ أن إعادة بنائه في هذه الفترة القصيرة، وخاصة في ظروف الحرب والجوع وما إلى ذلك، كان مستحيلاً تماماً»[٥٥]. كما أنه أضاف مسألة هامة وهي أن توسيع اللجنة المركزية يجب أن يكون ليس لحساب العمال فقط، بل وكذلك لحساب الفلاحين. لينين يعتبر حضورهم اجتماعات المكتب السياسي ضرورياً. لكنه، وهو يملي هذه الأفكار، يعود مرة أخرى إلى شخصيات محددة.

لقد أعطى وصفاً مختصراً وكاملاً لنواة اللجنة المركزية. سؤال واحد لم يغب عن ذهنه: من يمكنه أن يخلفه في القيادة؟ أدرك أن منصب الأمين العام بـ«سلطته الكبيرة جداً» يصبح حاسماً في غيابه. إنه هو قائد الحزب بالأمر الواقع(de facto)، ليس نظراً للمناصب التي يشغلها، بل لإمكانياته الذهنية والأخلاقية. المرض أزاحه

بحدة عن القيادة المباشرة للجنة المركزية. تلقائياً، برز واحد من أعضاء المكتب السياسي. وستالين ليس مجرد عضو في المكتب السياسي، فهو الأمين العام الذي يدير كل أعمال أمانة السر، يدير العمل اليومي. أصبح واضحاً أنه في حال وفاته (وكان لينين يعتبر ذلك قريباً جداً، وإلا لما كتب «وصية»)، سيحاول ستالين تعزيز موقعه كقائد للحزب. وتروتسكي سيحاول ذلك أيضاً... سيكون هنالك صراع، وقد يكون هناك انشقاق. عليه أن يعطي نصيحة ـ تحذيراً محدداً أكثر.

بعد عدة أيام، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣، سيملي لينين «إضافة إلى رسالة ١٩٢٤/١٢/٢٤» ذات الأهمية المصيرية:

«ستالين فظ أكثر من اللازم، وهذا العيب، الذي يمكن تحمله في دائرتنا نحن الشيوعيين، يصبح لا يحتمل في منصب الأمين العام. لذلك اقترح على الرفاق أن يفكروا لإعفائه من هذا المنصب، وأن يختاروا له رجلاً آخر يتميز عن ستالين بأن يكون ليناً أكثر، ومخلصاً أكثر، ومؤدباً أكثر، وأكثر تعاطفاً مع رفاقه، وأقل تطلباً... إلخ. قد تبدو هذه تفاهة. لكنني أعتقد أنه من زاوية ضمان عدم الإنشقاق، ومن زاوية ما أشرت إليه أعلاه عن علاقة ستالين وتروتسكي، ليست بتفاهة، أو إنها تفاهة ذات دور حاسم.

١٩٢٣/١/٤

لينين

أملي على: ل.ف..»[٥٦]

إضافة مهمة جداً. وضوح في الموضوع الأساسي: يجب نقل ستالين من منصب الأمين العام إلى منصب آخر. حتى الآن لا يوجد ضده، ضد ستالين، أي أمر سياسي هام. إنه، على ما يبدو، مخلص للفكرة الأساسية. لكن يبدو أنه يفهمها ليس كما يجب. وفي نفس الوقت، سمعته السياسية لا غبار عليها. لكن السياسة مقترنة دائماً بالأخلاق، وإن فُقد التوازن بينهما، تكون السياسوية أو الديكتاتورية.

نشعر من خلال «إضافة» لينين، بقلقه على المستقبل **وليس بكراهية شخصية؛ فلينين أعلى من ذلك.** «في تعامله مع خصومه ـ كتب لوناتشارسكي ـ لم يكن (لينين) حقوداً، ومع ذلك كان خصماً سياسياً قاسياً... كان يستخدم في الصراع السياسي كل الأسلحة، ما عدا القذرة منها»[٥٧]. رأى لينين، في آخر أيامه، في تشوهات ستالين الأخلاقية ما يمكن أن يكون في المستقبل منبع مصائب كثيرة. لم يخطىء المفكر **العظيم** في تنبؤاته المخيفة.

تروتسكي يقلقه أيضاً. ولا تكمن المشكلة في ثقته العالية بنفسه، بل في تعرجاته السياسية. تاريخ «لابلشفية» تروتسكي الطويل لا بد وأن يترك أثراً واضحاً على سياسته. الحزب بأكمله يعرف عدم تواضعه، تطرفه اليساري أدى أكثر من مرة إلى صراعات مع اللجنة المركزية بأكملها. مطامحه كبيرة جداً لدرجة أنه اعتبر أنه مهين وغير مقبول له اقتراح عام ١٩٢٢ بأن يكون نائب (لينين) رئيس مجلس

مفوضي الشعب... تروتسكي، على ما يبدو، يرنو لمركز خاص. فهو يكاد لا يخفي قناعته بعبقريته. قال إسحاق دويتشر، المختص بسيرة تروتسكي: «تنفيذ وصية لينين بتنحية ستالين كان لا بدّ وأن يؤدي بتروتسكي إلى موقع قائد الحزب. هو (تروتسكي) كان مقتنعاً بذلك».

تقويم لينين في صراحته لـ«قائدَيْ الحزب اللامعين» ـ مثال نادر للمواطنية المبدئية. بالمناسبة، الصراحة الرفاقية كانت تميّز دائماً أفضل الشيوعيين. وحتى سنوات عبادة الفرد الطويلة لم تستطع القضاء عليها كلياً. إليكم مثالاً من عام ١٩٤٢ البعيد.

«فيرخوربوف، أحد المفوضين السياسيين في الجيش، وبعد أن أنهى عمله في الجبهة كتب ـ كما كان متعارفاً عليه ـ تقريراً عن عمل العاملين السياسيين. لقد كتب تقويماً بمسؤول التفويض السياسي في الجيش الثامن عشر، ليونيد بريجنيف، وقد بقي تقريره هذا في الملف الشخصي لأمين عام المستقبل.

يتحدث القسم الأول عن إخلاص المفوض لأفكار حزب لينين ـ ستالين عن استعداده للقيام بواجبه. ثم يتابع: «يتحاشى العمل البدني. ثقافة الرفيق بريجنيف العسكرية متدنية جداً. يحل مسائل كثيرة كإداري اقتصادي وليس ككادر سياسي. لا يعامل الناس سواسية، يميل إلى تمييز محبوبيه». بضع جمل لا غير. لكنها تشهد أن التقليد اللينيني بالتعبير عن الرأي بصراحة وأمانة وبشكل مفتوح لا يزال حياً. القارىء يستطيع أن يحكم بنفسه على درجة موضوعية أو ذاتية استنتاجات المفوض السياسي فيرخوروبوف.

أشير هنا إلى أن لينين، وهو يقترح تنحية ستالين عن منصب الأمين العام، لا يجيب على السؤال: من البديل؟ وهنا تبرز ـ برأيي الخاص ـ كياسة القائد. فالإشارة إلى «أمير» محدد كانت ستبدو «توريثاً». وما كان لينين ليسمح بذلك. إنه يؤمن بحكمة الحزب ولجنته المركزية، وقدرتهم على أن يجدوا في صفوف الحزب، وليس فقط في النواة ـ كما سيقول ستالين في المؤتمر الثاني عشر للحزب ـ خلفاً جديداً. أعتقد أنه لا لزوم الآن للإفتراضات: فيما لو! لو أن!...

أعتقد أن لينين، بتقويمه لأشهر قادة الحزب، أراد أنه لا أحد منهم يليق بموقع قائد الحزب. لا أحد! وهذا واضح في الـ«وصية». وواضح أيضاً أنه لا يقترح عليهم أن يبحثوا عن البديل بين القادة الآخرين. أعتقد أن لينين في «الوصية» كان أعمق مما يبدو للوهلة الأولى. على الأغلب إعتقد قائد الثورة أن الشريحة الرفيعة لـ«الحرس القديم» عليها أن، يجب أن، قادرة أن تكون قائداً **جماعياً**. بهذه الطريقة لا يعود حاسماً كون أحد القادة موهوباً جداً أم لا. بهذه الطريقة كان سيضمن **نظاماً ديمقراطياً** يؤيد، وفقاً للأعراف الحزبية والدستورية، فقط ما يتماشى ومصلحة الشعب والدولة والحزب.

لكن... لينين لم يشكك، مجرد تشكيك، في ضرورة احتكار حزب واحد للسلطة. وهذا ما قلل من قيمة «الوصية».

تمكن ستالين، بمساعدة «الحرس القديم» بالذات، لا أن يبني نظاماً ديمقراطياً بل بيروقراطياً. لم يعط أحد حتى يومنا هذا جواباً مقنعاً على السؤال: لماذا حصل ذلك؟ كيف تربع ستالين فجأة على قمة هرم السلطة؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعود إلى تاريخ روسيا وتقاليدها في الإستبداد. علينا ألا ننسى مستوى الثقافة السياسية المتدني لدى الشعب والحزب في المجتمع الجديد: إنعدام الأسس الديمقراطية والضمانات القانونية لمنع سوء استخدام السلطة، أحادية الحزب. علينا ألا ننسى خصوصية البناء الطبقي في الإتحاد السوفييتي.

إضافة إلى الأسباب آنفة الذكر، يوجد تفسير آخر لـ«لغز حصانة» ستالين؛ وأعتقد أن ذلك كان له الدور الحاسم: ستالين احتكر حق تفسير أفكار لينين والتعليق عليها. في نهاية المطاف ولدت «حمايته» للينينية انطباعاً ثابتاً لدى الملايين أن بقرب القائد كان دائماً ـ ستالين، زميله، تلميذه، متابع نهجه. ظاهرة ستالين ـ ظاهرة إجتماعية، تاريخية، روحية، أخلاقية، نفسية.

لينين، وهو يعد «الوصية»، شعر أن الثورة المنتصرة تحتاج لتأطير، واستنباطاتها تحتاج لتصحيح. لكن لينين، مع كل مواهبه، كان ابن مرحلته. فهو لم يشكك أبداً في ديكتاتورية طبقة تشكل أقلية ضئيلة بالمقارنة مع الفلاحين، ولم يعد لفكرة التعددية الثورية التي كان يدافع عنها في نهاية ١٩١٧، ولم يُدِن العنف كوسيلة لحل المشاكل الإجتماعية. لقد عاش عصره.

بالرغم من أنه كان يرى لأبعد من الآخرين بكثير، إلا أنه لم ير الخطر الذي يهدد به الرهان على عصمة حزب واحد. يتكون لدينا انطباع أن العمر لم يسعفه ليقول كل ما عنده. فهو لم يشكك بأورثوذكسية العديد من الدوغمات (القوانين الجامدة) الماركسية التي صيغت في القرن الماضي... في «الوصية» لينين لم يتخذ الخطوة الأهم. وعلى الأغلب، ما كان بمقدوره أن يفعل. فلو فعل، لما كان لينين...

قبل المؤتمر الثاني عشر بشهرين عقد اجتماع عام للجنة المركزية. ناقش الإجتماع إعادة تنظيم وتحسين عمل أجهزة الحزب المركزية استناداً إلى مقالة لينين بعنوان «كيف نعيد تنظيم اللجنة العمالية ـ الفلاحية للتفتيش» (طور لينين أفكاره هذه في مقالة لاحقة: «الأفضل ـ الأقل الأفضل»). بناءً على رغبة لينين تقرر تكريس بند خاص للمسألة التنظيمية على جدول أعمال المؤتمر الآتي. استصوب الإجتماع توسيع اللجنة المركزية من ٢٧ عضواً إلى ٤٠ عضواً، وحبذ أن يقدم المكتب السياسي تقارير للإجتماعات العامة للجنة المركزية. ورأى الإجتماع أن يحضر اجتماعات المكتب السياسي بشكل دائم ثلاثة يمثلون اللجنة المركزية للمراقبة. وهؤلاء الثلاثة ـ كتب لينين في مقاله ـ عليهم أن لا يدعوا أحداً «لا **الأمين العام** (التشديد للمؤلف)، ولا أي عضو آخر من أعضاء اللجنة المركزية، يعيقهم عن

التحقيق والتحقق من الوثائق ومعرفة حقيقة الأمور والتأكد أنها تسير كما يجب»[٥٨].

لينين يعتبر أن مراقبة المؤتمر لأعمال الهيئة العليا المنتخبة ليست كافية؛ فبين المؤتمرين يجب أن تعمل لجنة خاصة لمراقبة أعمال اللجنة المركزية والمكتب السياسي. الإجتماع العام للجنة المركزية وافق لينين الرأي واقر بضرورة توسيع اللجنة المركزية للمراقبة، واهمية توطيد العلاقة ما بين أجهزة المراقبة الحكومية والحزبية. (من كان ليعلم آنذاك أن دور اللجنة المركزية للمراقبة في المستقبل سيتقلص إلى تسجيل الملفات الحزبية، ومن سيلغيها؛ ستالين، كلياً؟).

بالرغم من انقضاء ما يقارب العام على تعيين ستالين أميناً عاماً، إلا أنه لم يزد وضعه أهمية إذا ما نظر للأمر من الخارج. عندما ناقش الإجتماع العام تقرير ستالين حول «المسألة القومية في البناء الحزبي والحكومي»، تعرضت آراؤه لنقد جدي. قَبِلَ الإجتماع العام التقرير كأساس بعد أن سجّل عليه ملاحظات مبدئية كثيرة. أقر الإجتماع عرض التقرير على لينين بعد إجراء التعديلات عليه. يشهد هذا التقرير على أنه، حتى في المجال الذي «يختص» به ستالين (المسألة القومية)، هنالك نقاط ضعف كثيرة عنده. ولإعداد النص النهائي تكونت لجنة صياغة من ستالين وراكوفسكي ورودزوتاك[٥٩].

من المعروف أن الـ«رسالة إلى المؤتمر» طبعت على خمس نسخ، وحفظت في ثلاثة مغلفات: نسخة لأمانة سر لينين، ثلاث نسخ لكروبسكايا، والنسخة الخامسة لفلاديمير إليتش. طلب لينين من الكاتبة م. فولوديتشيفا أن تكتب على المغلفات: لينين فقط يحق له فتح المغلف، وبعد وفاته ـ كروبسكايا. لم تطاوعها يدها أن تكتب «بعد وفاته».

فقط الجزء الأول من الرسالة (حول توسيع اللجنة المركزية) سلم لستالين. في المؤتمر الثاني عشر، قدم ستالين موضوع زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية ـ وكأنه اقتراحه ـ ضمن تقريره حول النشاط التنظيمي للجنة المركزية. لينين لا يزال حياً، ومغلفاته لم تفتح بعد. أعضاء المؤتمر وافقوا بالإجماع على عضوية لينين في اللجنة المركزية الجديدة (وهو فقط الذي حظي بالإجماع!)، وبعثوا له بتحية حارة. قرأ كامينيف، رئيس الجلسة، رسالة التحية مصحوبة بدوي التصفيق الحار:

«من أعماق قلب الحزب والبروليتاريا وكل الشغيلة، يبعث المؤتمر للقائد، لعبقري الفكر البروليتاري والعمل الثوري، لـ إليتش الذي، حتى في أيام المرض العصيبة والغياب الطويل، دائماً يوحد بقوة شخصيته المؤتمر والحزب كله، إليه نبعث السلام الحار والحب الصادق.

اليوم، أكثر من أي يوم آخر، يدرك الحزب مسؤوليته أمام البروليتاريا والتاريخ. اليوم، أكثر من أي يوم مضى، يريد الحزب أن يكون، وسيكون، جديراً برايته وقائده. وهو يؤمن أن يوم عودة الربان للدفة ليس بعيداً.

المؤتمر يعاضد ويتعاطف برفاقية وأخوية مع ناديجدا كونستانتينوفنا ـ الزوجة الرفيقة ـ ومع ماريا إلينيتشنا ـ الأخت الصديقة؛ ونطلب منهما أن لا ينسيا أنهما ليستا وحيدتين في قلقهما، بل تعيش معهما هذا القلق عائلة كبيرة هي الحزب الشيوعي الروسي»(٦٠).

في آذار (مارس) ١٩٢٣ تلمّ بلينين نوبة قاسية جديدة. منذ الآن، لن يعود قادراً على التأثير مباشرة على أوضاع الحزب، ولا على تنفيذ وصيته.

جذور المأساة العميقة

هنالك أحداث تبقى لوقت ما مخبأة في ظلال التاريخ مع أنها تستحق أكثر من ذلك بكثير. وهذا ينطبق، بشكل خاص، على الـ«رسالة إلى المؤتمر». سبق وذكرنا أنها كانت موجهة، على الأرجح، إلى مندوبي المؤتمر الثاني عشر للحزب، ولكنها ـ نظراً لأسباب مختلفة ـ لم تصلهم. أعتقد أن مارك أوريليانوس قال: الأفكار والأسهم تطير كل على طريقتها، فالفكرة ـ وإن كانت حذرة، تتصفح شيئاً ما ـ لا بد وأن تصل مباشرة إلى هدفها. افكار لينين، التي طرحها في رسالته، «إندفعت نحو هدفها» واعترضها في طريقها عوائق كثيرة. يبدو أنها (أي الأفكار) لم تستطع في ظل العوامل المانعة في تلك الفترة التاريخية المحددة أن تلعب الدور المخصص لها، ولكن أهميتها بالنسبة للمستقبل لا تقدر بثمن. ستبقى تلك الأفكار في تاريخ الفكر السياسي **تنبّؤاً** وتحذيراً يؤكد بأن أكثر الأهداف سمواً ونبلاً تستوجب النظافة الأخلاقية من أجل تحقيقها.

سلمت كروبسكايا، وفقاً لطلب من لينين، رسالته الموقعة في ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٢ وملحق الرابع من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٣، بعد أن أعادت طباعتهما إلى اللجنة المركزية في الثامن عشر من أيار (مايو) عام ١٩٢٤، اي خمسة أيام قبل انعقاد المؤتمر الدوري الثالث عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). وكتبت كروبسكايا بخط يدها في محضر خاص يثبت تسليم تلك الأوراق الثمينة: «سلمت ما أملاه علي فلاديمير إليتش أثناء مرضه ما بين الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) وحتى الثالث والعشرين من كانون الثاني (يناير) وهي ثلاثة عشر تدويناً، لا تشمل ما سجل عن المسألة القومية (الموجود الآن في حوزة ماريا إليتشنا).

لقد تم نشر تلك التدوينات (عن رابكين وسوخانوف). ومن بين التدوينات التي لم تنشر بعد هنالك وثائق من ليلة الخامس والعشرين من كانون الأال (ديسمبر) عام ١٩٢٢ والرابع من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٣ تتضمن وصفاً شخصياً لبعض أعضاء اللجنة المركزية. لقد عبر فلاديمير إليتش أكثر من مرة عن رغبته الأكيدة أن يطلع المؤتمر الدوري للحزب على هذه التدوينات بالذات.

.. كروبسكايا»(٧٢).

لقد أخذ الإجتماع العام للحزب، الذي عقد قبيل المؤتمر الدوري، القرار التالي بناءً على تقرير اللجنة المسؤولة مدونات لينين: «تقرر تأجيل الإعلان عن الوثائق التي تمت قراءتها وطبقاً لرغبة فلاديمير إليتش حتى انعقاد المؤتمر، حيث سوف يتم الإعلان عنها للوفود المختلفة وبعد التأكد من أن أعضاء اللجنة المسؤولة عن استلام وثائق لينين هم الذين يقومون بهذا الإعلان، وإن تلك الوثائق لن تنسخ أو تصور»(٧٣).

كان هذا أول مؤتمر يعقد بدون لينين. قام زينوفييف بتقديم التقرير السياسي. فبدأ قراءة التقرير بانفعال غير معهود، قائلاً: «... نحن مضطرون الآن أن نحل مشاكل في غاية الأهمية ويعتمد عليها مصير حزبنا بدون لينين، بدون شعلتنا، بدون أكثر العقول عبقرية على الأرض...»(٧٤).

لقد عالج تقرير زينوفييف الطويل قضايا واسعة النطاق ومنها: نتائج ذلك العام، عنصر الوقت في التغيرات الإشتراكية، نشاط اللجنة المركزية والمكتب السياسي ونتائج النقاشات التي دارت بينهما، المسألة القومية، الوضع العالمي، دور الحزب الشيوعي في الكومنتيرن، إنجازات «السياسة الإقتصادية الجديدة»، خطة لينين للمؤسسات التعاونية... كما كرس جزءاً خاصاً من التقرير لأهمية أن يكون الحزب «ليس حزب المدينة فقط»، أي لـ«المقص الثقافي»، إلخ... إلا أن زينوفييف وستالين، في تقريرهما السياسي والتنظيمي، لم يشيرا فعلياً إلى الموضوعات التي تطرق لها لينين في رسالته للحزب. قد لا يكون ذلك التكتم مقصوداً. ولكن بكل بساطة، فالمستوى الفكري لرفاق لينين ـ بالرغم من أنه كان عالياً بشكل عام ـ ما كان ليساعدهم في رسم صورة واضحة وثاقبة عن المستقبل بمستوى القائد الراحل. كان إرث لينين أكبر من مجرد خطة لبناء الإشتراكية، أي في مجال التصنيع وتعميم الإقتصاد الزراعي والثقافة كما كنا نسميها. وهنا أيضاً برز تفكير ستالين التصويري الذي تعود تبسيط كل شيء فيغيره جذرياً. فوصية لينين هذه هي عبارة عن مفهوم لينين للإشتراكية التي تدور حول الإنسان، كما تعالج ضمانات الديمقراطية والإنسانية في النظام الجديد. كان لينين يبحث عن أجوبة للأسئلة الجوهرية: كيف يمكن تجنب إبعاد العامل والشغيل عن حقه في السلطة؟ كيف يمكن الإنتصار على البيروقراطية التي أخذت تنمو؟ كيف يمكن تحويل النظام القائم لنظام ديمقراطي، ليّن، وكيف يمكن الرفع عن مستوى الرقابة الإجتماعية؟ كيف يمكن لثمار الحرية أن تكون سهلة المنال للجميع؟ هذا ما قصده لينين بـ«بعض التغيرات في نظامنا السياسي». وكانت تغييراته تلك بعيدة عن الراديكالية.

وللأسف الشديد أن المكتب السياسي ونواته القيادية ـ زينوفييف، كامينيف، ستالين، تروتسكي، بوخارين ـ إمّا أنهم لم يفهموا أو لم يريدوا أن يفهموا أو ما كانوا قادرين على فهم مغزى كلام لينين بشكل كامل. أما المؤتمر الثالث عشر للحزب فقد عالج مواضيع الحياة اليومية وحل قضايا الحاضر قبل المستقبل. ففكرة وصية لينين المركزية، وإن كانت محدودة الذكر، أي فكرة تطوير الديمقراطية لم تصبح أهم نقطة في جدول أعمال المؤتمر.

وفعلياً لم تثر أي من المواضيع التالية: مسألة تطوير الديمقراطية والحد من ديكتاتورية البروليتاريا، تجديد الأجهزة القيادية، جذب الجماهير لاتخاذ قرارات ذات أهمية على مستوى روسيا ككل. لم يلتزم ستالين إلا بتوسيع اللجنة المركزية، ولكننا نذكر أن لينين تكلم عن توسيعها لحساب العمال والفلاحين. لقد تم تنفيذ ذلك أثناء المؤتمرين الثاني عشر والثاث عشر لصالح شخصيات جديرة، لا أحد ينكر ذلك، ولكن اغلبيتهم من الثوار المحترفين. ولم يكن من بينهم إلا قلة من العمال والفلاحين. وهذا ليس ما أوصى به لينين.

قام زينوفييف في تقريره السياسي بتغطية قضايا الديمقراطية الإشتراكية، التي ركز عليها لينين، بشكل غريب، أو بالأصح - من ناحية واحدة فقط. استرجع الخطيب أقوال مهندس إخصائي يعمل في أحد المصانع التي تفيد بأنه لا يكفي تأمين الأشياء الأساسية للإنسان، بل من الضروري إعطاؤه حقوقه كإنسان. وما دمنا نفتقد لتلك الحقوق - قال المهندس - سنبقى في مكاننا، وما دمنا لا نعترف بأن الإنسان هو أثمن ما في الدولة سيبقى نشاط الناس العملي والإجتماعي متدنياً. لا نستطيع إلا الإعتراف بعمق هذه الأفكار، ولكن في الحقيقة فللأخصائي أفكار أخرى خاطئة. وكان رد زينوفييف على مزاج المثقفين هذا كالتالي: «...ليس هناك أي سبب للكلام الكثير بهذا الموضوع. واضح جداً أنهم (أي الأخصائيون) لن يروا حقوقاً كهذه في جمهوريتنا كما أنهم لا يستطيعون رؤية آذانهم دون مرآة. وهذا شيء لا يحتاج للنقاش». ولم يكن هذا رأي زينوفييف فقط، بل الكثيرين من أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا غير قادرين على فهم جوهر الإشتراكية الإنساني، التي كان يجب أن ترتكز على الحرية والديمقراطية والإنسانية. وهذا الجهل يكمن وراء الكثير من مصائب المستقبل. لا يوجد تفسير لهذا الموقف. فقد مرت ست سنوات ونصف على اندلاع الثورة. صحيح أنه لولا ديكتاتورية البروليتاريا لما استطاع اتحاد الجمهوريات السوفييتية مواجهة الخصوم من الخارج والداخل، ولكن إهمال الديمقراطية كان سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى نتائج مؤلمة. كما أن للديكتاتورية أيضاً توجد نهاية.

لم تحتل رسالة لينين في المؤتمر المكانة التي كان يجب أن تحتلها. لقد تم اختيار أشخاص معينين لمساعدة وفود معينة لإطلاعهم عليها. كان كامينيف نشيطاً بصورة خاصة وهو ينتقل من وفد لوفد. ولم يترك أي مجال للنقاش. كانت الرسالة تقرأ قراءة جهرية ومن ثم يقرأ أحد الرفاق من لجنة استلام الوثائق اللينينية كلمة يقترح فيها توصية ستالين الأخذ بعين الإعتبار انتقادات لينين له في نشاطه العملي. ونظراً لهذا التعامل مع رسالة لينين فهي لم تتلق الإهتمام الفعلي الذي تستحق. وبهذه الطريقة فقدت وثيقة ذات أهمية تاريخية حقها في أن تكون سبباً لتثبيت المقاييس الديمقراطية في الحزب، أساساً لتغييرات تنظيمية في قمة الهرم الحزبي وترشيحاً لوجه جديد لمنصب الأمين العام للحزب. كما يجب ألا ننسى أن سنة ونصف قد مرت على كتابة تلك الرسالة. ترأس ستالين خلاها الصراع مع تروتسكي الذي كان قبل وفاة لينين بقليل قد هاجم البيروقراطية في الحزب و«السياسة الإقتصادية الجديدة». إنتقد ستالين وبإصرار تهجمات تروتسكي هذه مدافعاً بذلك

عن نفسه أيضاً. وكانت الأغلبية في الحزب تؤيده. ولم يكن بمقدور هذا الوضع إلا أن يؤثر على رأي الكثيرين في ستالين. كان الكثيرون يعتقدون أن إزالة ستالين تعني الإعتراف بصحة كلام تروتسكي...

الكثيرون من أعضاء المؤتمر كانوا غير متمكنين من «دهاليز» السياسة الواقعية، فكثيراً ما كانوا لا يميزون بين الشكل والمضمون. فلذلك لم يكن صدفة أن تروتسكي حافظ على شعبيته لفترة طويلة نظراً لخطاباته المؤثرة. عند قراءة «الرسالة» للوفود لم تثر أي من الشكوك أو الأسئلة التالية: لماذا لم تتم مناقشة هذه الوثيقة بالغة الاهمية في المؤتمر مباشرة؟ لِمَ هذه السرية كلها؟ لماذا لا يتم نشر اقتراحات لينين؟ ولم يأت هذا كنتيجة للضغط والاستدراج، ولكن قبل كل شيء كان ذلك نتيجة لمستوى العديد من المندوبين المتدني سياسياً وثقافياً. وفي فترة من الفترات كان سبب مصائب مستقبلية كثيرة. قد لا يكون الكثيرون قد أحسوا بأنهم رفضوا وجود إله في السماء ليخلقوا إلهاً على الأرض. كما أنهم كانوا لا يعرفون أيضاً أن إله السماء كان رمزاً يطلب في أكثر الإحيان تضحيات رمزية. أما إله الأرض فلن يستكفي بذلك وسيطلب تضحيات مخيفة. تثبيت الحزب الواحد وديكتاتورية طبقة واحدة سيصبحان أساساً لبعث روسيا.

ولكن، هل الجميع كانوا ذوي مستوى متدنٍ من الثقافة السياسية؟ ألم يدرك زينوفييف، كامينيف، ريكوف، تومسكي، دزيرجينسكي، كالينين، رودزوتاك، سوكولنيكوف، فرونزيه، أندرييف وغيرهم من البلاشفة أهمية التدقيق في تحليل وصية القائد؟ أعتقد أنهم كانوا يدركون ذلك. ولكن شعار الوحدة ـ الذي كثيراً ما يفهم شكلياً ـ طغى على صوت الضمير المتعقل. ويمكننا حتى القول إن فرصته، أي الضمير، لم تستغل أبداً. وسيتكرر ذلك أكثر من مرة في المستقبل. وأدى تنصيب القائد الجديد ليس فقط إلى تطهير وخصي الديمقراطية الواقعية وتحوّل الحزب إلى أداة سلطة، بل وإلى مسح صوت ضمائر الكثيرين الذين كانوا يجب أن يحتجوا جهاراً على اغتصاب الدولة من قبل شخص واحد. والجميع يعلم نتائج تلك الإحتجاجات الفردية. وهذا هو جوهر الموضوع ـ يمكن استغلال فرصة الضمير هذه فقط عند ربطها مع الشجاعة الفكرية... إلا أن الرق النفسي الداخلي كان، كقاعدة عامة، أقوى. وكان الناس لا يمارسون سوى حرية كالتي كانت تتمتع بها «سندريلا».

أعلن ستالين استقالته عندما علم برسالة لينين. ولو أنها قبلت كانت أمور كثيرة قد اختلفت. كانت هذه خطوة صحيحة. وهكذا يجب أن يتصرف أي بلشفي لو كان في مكانه. ولكن استقالته لم تكن جدية. وبالمناسبة، فإن ستالين سيعلن استقالته مرة أو مرتين في العشرينات من هذا القرن. وستكون استقالته بعد المؤتمر الخامس عشر للحزب الأكثر جدية. وكان ذلك عند انتصاره على المعارضة التروتسكية ـ الزينوفييفية، وبعد اتخاذ المؤتمر قراراً بفصلهما من الحزب. وأثناء أول اجتماع عام بعد المؤتمر تقدم ستالين إلى أعضاء اللجنة المركزية بالطلب التالي:

«أعتقد أنه حتى الفترة الأخيرة كانت توجد ظروف تضطر الحزب الحفاظ عليّ في منصبي كرجل صارم إلى حد ما، وكدواء مضاد لسموم المعارضة. أما الآن فالمعارضون لم ينهاروا فقط بل وطردوا من الحزب أيضاً. كما أنها توجد لدينا تعليمات لينين، وأعتبر أنه يجب الإلتزام بها. ولذلك أرجو الإجتماع العام أن يعفيني من منصب الأمين العام. وأؤكد لكم، أيها الرفاق، أن ذلك سيكون في مصلحة الحزب». ولكن ستالين في ذلك الوقت كان قد كون لنفسه شهرة في الحزب كمناضل من أجل وحدة الحزب، وكخصم ليس للإنشقاقية فقط بل وللتجنح أيضاً. فرفضت استقالته هذه أيضاً. ولكن يبدو أن ستالين كان متأكداً من رفضها ولكنه قدمها وكأنه بذلك يريد أن يرسخ وضعه في الحزب.

عمل كامينيف وزينوفييف المستحيل أثناء المؤتمر الثالث عشر كي لا تتم تنحية ستالين عن منصب الأمين العام وفقاً لطلب لينين. لعلّ تصرّفهما هذا كان أكثر صفحات حياتهما السياسية حقارة، إذا أخذنا بعين الإعتبار قربهما من لينين. لقد أقنعا ستالين بالتراجع عن استقالته، وعملا معاً على خطة تساعده على «الأخذ بعين الإعتبار» طلبات وانتقادات القائد الراحل. كما أخذا على عاتقهما شخصياً تفسير آراء لينين للوفود. لو كانوا يعرفون حينذاك أنهما يردون الإعتبار لدافنهما المستقبلي...

اعتبر كامينيف وزينوفييف، وهما من الموهوبين والعاملين لصالح الحزب، أن أهم ما في تلك الفترة هو عدم السماح لتروتسكي بترؤس الحزب. ولم يكن يهمهما آنذاك مصير الحزب أو وصية لينين أو مستقبل روسيا. فما دفعهما إلى ذلك هو دافع قديم كالتاريخ إلا وهو المصالح الشخصية والغرور والتعجرف. ومن الواضح أنهما وتروتسكي أخطأوا في تقويمهم لستالين. ولنسترجع كلمات زينوفييف الشهيرة التي أفضى بها في العشرينات لدائرة ضيقة من الأصدقاء: «ستالين منفذ جيد، ولكنه يسمح، بل ويحتاج، لمن يسيّره. فهو لا يستطيع تسيير نفسه». يبدو أن زينوفييف وكامينيف كانا يعتمدان في خططهما على أن ستالين سيكون له دور القائد في الأمانة العامة فقط، وأن الدور القيادي في المكتب السياسي سيلعبه شخص آخر ـ زينوفييف بالطبع... أدرك ستالين مأرب «الثنائي» وظل يلعب دور الراضي على ذلك التقسيم فترة طويلة. فاختياره لزينوفييف لقراءة أهم تقرير في المؤتمر الثالث عشر، أي التقرير السياسي، لم يكن صدفة. كان زينوفييف وكامينيف يهابان تروتسكي ولكنهما كانا يعتبران أن ستالين لا يشكل أي خطر يذكر. أما تروتسكي فكان سلبياً في ذلك المؤتمر، وكأنه ينتظر دوره مجرد انتظار... هكذا كان الوضع في النواة القيادية للحزب آنذاك.

اليوم، وبعد مرور عشرات السنين، يمكننا القول أن زينوفييف وكامينيف كانا الشخصين الأساسيين اللذين وقفا في طريق تنفيذ تعليمات لينين (كما شاركهما ستالين في ذلك بالطبع، ولكنه وحده ما كان ليفعل شيئاً). هذا السياسيان بالذات هما اللذان عملا خلافاً لإرادة القائد الراحل الأخيرة من أجل تحقيق أهداف شخصية آنية. هما اللذان عارضا فكرة الإنتفاضة المسلحة عام ١٩١٧، وهما اللذان استمرا

في معارضتها حتى بعد وفاته. وكل هذا بالرغم من أن زينوفييف كان يفخر بالكلام علانية عن أنه كان طوال عشر سنوات (١٩٠٧ ـ ١٩١٧) تلميذ لينين المقرب...، وأن أحداً لم يؤيد لينين في تسيمارفالد وكينتال مثله هو، زينوفييف... كما كان كامينيف صديقاً حميماً لعائلة لينين ولم يحاول إخفاء ذلك. على كل حال فإن هذين التوأمين السياسيين كانا يؤمنان بدورهما الخاص بعد لينين. وهما اللذان تعاونا مع ستالين وقررا عدم نشر «رسالة لينين للحزب». وبالرغم من أن هذه الوثيقة نشرت في بيان المؤتمر الخامس عشر (في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٢٧) وفقاً لاقتراح أوردجونيكيدزيه، إلا أنها لم تصل للقاعدة الحزبية أو للشعب.

التعامل المعادي للديمقراطية مع رسالة لينين علّم ستالين درساً لن ينساه أبداً، وسيستخدم ستالين هذا الدرس في المستقبل ضد زينوفييف وكامينيف اللذين أرادا نسيان الماضي. ولكننا نعلم أن ذلك لا يكون ممكناً دائماً، فالماضي قد يعود لينتقم. زرع هذان الرجلان، دون أن ينتبها لذلك، صراعاً بين الماضي والمستقبل. وفيما بعد ستحصد رؤوسهم في الغلة الدموية... وبعد أن يقضي ستالين على تروتسكي بمساعدتهما المباشرة، سيفقدان كل الأهمية بالنسبة له. وبعد عشر سنوات ونيف سيوافق ستالين ببرودة أعصاب على تصفيتهما الجسدية. ولا يصعب علينا أن نتصور ما سيفكر به زينوفييف وكامينيف وهما يستذكران بأسى ذلك اليوم عندما أهملا رسالة لينين ودفعا بديكتاتور المستقبل وقاتلهما للأمام. وللحقيقة، فإنه بعد انفصال ستالين من جهة، وزينوفييف وكامينيف من جهة أخرى، ستعود للاخيرين مبدأيتهما. وعندما صار الموضوع يخص مصالحهما الشخصية نسيا أنهما كانا قد دافعا عنه، وأخذا بمهاجمته. وفي المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٥ توجه أحد قادة المعارضة الجديدة إلى المندوبين قائلاً كلمات صحيحة ولكن قد فات أوانها: «...لقد توصلت إلى القناعة أن الرفيق ستالين لا يستطيع القيام بدور موحد الحزب البلشفي...» ولكن أعضاء المؤتمر أعتبروا ذلك التصريح مجرد تهجم تجنحي. كان قد فات الأوان. لن يستطيع هذان السياسيان تغيير الماضي عندما كانا السبب في اختيار ستالين أميناً عاماً للحزب خلافاً لطلب لينين. وبالمناسبة، فلن يستطيع أحد تغيير الوضع. ويمكننا هنا الإشارة إلى قول الكاتب اليوناني القديم الشهير بأن القدر لم يقدم السلطة إلى اسكندر المقدوني على طبق من فضة. أما ستالين فلم يصل إلى السلطة إلا بعد أن قدمت إليه يد المساعدة، من كامينيف وزينوفييف بشكل أساسي. وبالرغم من طلب لينين الأخير.

في ظل هذه الظروف حاول تروتسكي، الذي هُزم هزيمة فادحة في هذا الصراع، أن يحافظ على ماء الوجه، فاتخذ موقفاً مطاطياً مؤقتاً. وصف زينوفييف كلمة تروتسكي في المؤتمر الثالث عشر بأنها ليست «كلمة عضو مؤتمر» بل «كلمة عضو برلمان»، وأعتبر أن كلام تروتسكي لم يكن لأعضاء المؤتمر فحسب، بل وللحزب كله، وإنه «كان لا يعبر عن رأيه الحقيقي أبداً». فعلاً، كانت كلمة تروتسكي غريبة. أهم ما فيها هو موقفه المعارض للبيروقراطية في جهاز الحزب. كما هاجم تروتسكي قيادة اللجنة المركزية من موقع المجدِّد، المناضل من أجل الحفاظ على

السمات الثورية للحزب، مستشهداً بأقوال لينين وبوخارين للإقناع. أكد تروتسكي أن «الجماهير تفكر أبطأ من الحزب»، ومن أجل الحفاظ على قدرة الحزب على «التفكير السريع والسليم» يجب التخلص من «الأمراض» كالبيروقراطية في الجهاز الحزبي. لكن، اتضح أن تروتسكي شن هجومه هذا على البيروقراطية ليس من أجل «علاج» الحزب، بل لأنها (أي البيروقراطية) تعطي ثماراً «تجنحية»، كما أكد بنفسه. والبيروقراطية ـ كما أدعى ـ تبرر التهجم الفكري والسياسي على الحزب. وبكلمات أخرى، فالمعركة التي خاضها تروتسكي ضد الحزب كانت رداً على البيروقراطية في اللجنة المركزية ولجان المحافظات وكل المستويات الحزبية. في الحقيقة، إن موقف تروتسكي هذا ليس خالياً من الصحة، إلا أن الدافع له كان حماية النفس وليس الحزب. لم يتغير تروتسكي أبداً: كان يستغل تاريخه النضالي في سبيل الديمقراطية لتبرير أفكاره اليسارية المتطرفة. لكن الحزب لم ينسَ أنه كان من المبادرين بفكرة «شيوعية الثكنات»، التي كان لا بد أن تخلق تشوهات بيروقراطية.

يمكننا القول أن المؤتمر الثالث عشر لم يأخذ أية خطوات ـ وما كان بمقدوره أن يفعل ـ في طريق تطوير «الدمقرطة». ومن هنا ينبع العديد من مآسي المستقبل. لم ينفذ أعضاء المؤتمر طلب لينين الأخير حول تحويل ستالين من منصب الأمين العام إلى منصب آخر. سيدفع الحزب غالياً ثمن الخطأ الذي ارتكبته اللجنة المركزية حين تنازلت لكامينيف وزينوفييف، «صديقيْ ستالين».

كي لا نظلم، علينا أن نشير إلى أن العديد من أعضاء اللجنة المركزية أدركوا أن تنحية ستالين قد تبدو وكأنها تثبت صحة مواقف تروتسكي. ومن يعلم؟ لو أن تروتسكي لم يفضح نفسه بتحديه للحزب في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٣، لما انغلقت في وجهه الأبواب. لكن البديل الذي اقترحه تروتسكي لم يرق لمعظم اللينينيين. لذلك يمكننا القول أن ستالين حافظ على منصبه كأمين عام للحزب «بفضل» تروتسكي أيضاً!

وضع لينين حجر الأساس لبناء الدولة والحزب، لكنه لم يتخذ أية خطوات عملية في هذا المجال. دعونا ننظر إلى أحد وجوه الديمقراطية: التبديل الدوري للقياديين. ولو كان النظام الداخلي للحزب يحدد فترة «احتلال المناصب، لما اكترثنا لعدم تنحية ستالين من منصب الأمين العام آنذاك، ولمنعنا ولادة عبادة الفرد المشوهة. يمكننا استيعاب بقاء الأمبراطورة كاترينا الثانية، أو هيلا سيلاسي، أو شاه إيران رضا بهلوي على العرش لعشرات السنين ـ فهم ممثلو سلالات... لكن بقاء ستالين على رأس الحزب والدولة لمثل تلك الفترة الطويلة وتحكمه بلا حدود في العباد والأشياء كان لا بد أن يخلق تشوهات. ففي أحد اقتراحاته الموجهة للمؤتمر الثاني عشر للحزب يؤكد لينين على ضرورة تجديد أجهزة الحزب القيادية والحد من وظائف اللجنة المركزية والسوفييتات. لكن أحداً لم يهتم بنبتات الديمقراطية الفتية. داست عليها الدوغمائية والبيروقراطية تدريجياً. فعبادة القائد العظيم التي ستمارسها روسيا لم تكن صدفة.

في الأيام الأولى لم تكن علامات اغتصاب السلطة والتفرد بها ظاهرة بعد. بل على العكس. كان ستالين يخوض صراعه مع تروتسكي تحت شعار النضال الجماعي ضد عوائد الأخير التجنحية ورغبته في التفرد بالسلطة ومطامحه المفرطة. استمر تروتسكي في استغلال رصيده السياسي الذي كان قد تراكم خلال سنوات الحرب الأهلية غير منتبه إلى أنه، أي الرصيد، يتلاشى بسرعة منتظمة. أما ستالين، الذي ينتقد تروتسكي على مطامحه بأن يكون له دور مميز في القيادة، فقد قدم اقتراحاً يبدو ظاهرياً وكأنه البديل التقدمي والديمقراطي، إلا وهو القيادة الجماعية. وفي الحقيقة، فإن دفة القيادة بدأت تميل تدريجياً إلى جهة الأمين العام الذي كان قد وضع خطة لتغيير النواة القيادية في الحزب بشكل تدريجي. وتروتسكي هو أول من يجب التخلص منهم بالطبع. ولكن مرحلياً يجب ألاّ يستبق الأحداث، ولذلك أبقى المكتب السياسي على حاله بعد المؤتمر الثالث عشر. وحتى تروتسكي لم يفقد كرسيه. وكان بوخارين، الذي تسلق سلم الحزب بسرعة، العضو الجديد الوحيد، حيث سرّع تقويم لينين له كـ«رجل الحزب المفضل» من انتخابه في جهاز الحزب الأعلى. أما دزيرجينسكي وسوكولنيكوف وفرونزيه فرشحوا للمكتب السياسي ولكنهم لم ينجحوا. أما الأمانة العامة فحصلت فيها تغييرات أكبر: الأمين العام ـ ستالين، السكرتير الثاني ـ مولوتوف، أمين السر ـ كاغانوفيتش. أصبحت نواة اللجنة المركزية بأعضائها الجدد أكثر تأييداً لستالين. على الأغلب أن ستالين تغلب بذلك على أكثر المراحل صعوبة في حياته السياسية. فهو، بالرغم من إصرار لينين على تنحيته من منصبه، لم يبق أميناً عاماً للحزب فقط، بل واستطاع أيضاً تعزيز موقعه في القيادة الحزبية.

اختفت «رسالة لينين للحزب» عن الأنظار لعدة عقود. ولم تنشر في مجموعة أعمال لينين مع أن ستالين وعد بذلك بنفسه. الحقيقة تقال أنها طفت على السطح عدة مرات في العشرينات أثناء صراعات حزبية داخلية، كما نشرت في البيـان رقـم (٣٠) للمؤتمر الخامس عشر للحزب (بأكثر من عشرة آلاف نسخة) موجهة «لأعضاء الحزب الشيوعي لعموم روسيا فقط»، وأرسلت للجان حزبية في المناطق وللجناح الشيوعي في كل من اللجنة التنفيذية المركزية واتحاد العمال لعموم روسيا. كما ونشرت مقتطفات منها في عدد البرافدا الصادر في ٢ نوفمبر ١٩٢٧. لذلك لا يمكننا القول أن الحزب كان لا يعرف شيئاً عن تلك الوثيقة. لكن بما أن وصية لينين لم تنفذ فوراً فقد أصبح تنفيذها أصعب مع الوقت خاصة وأن ستالين حاول في بداية الأمر ـ على الأقل ظاهرياً ـ أن يغير سلوكه. والأهم من ذلك أنه أصبح في نظر اللجنة المركزية المناضل الأول ضد المعارضة، وذلك بالرغم من أن المعارضة ـ في كثير من الأحيان ـ لم تكن تفعل سوى التعبير عن وجهات نظر وبدائل مختلفة. لكن ستالين جعل كلمتي «معارضة» و«تيار» مرادفتين للعداء.

كما نعلم، فإن الحزب والأجيال الشيوعية القادمة لم يتعرفوا على وصية لينين إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب. ومثل هذه الأسرار خطرة، فهي كالصدأ، تأكل الأسس الديمقراطية مولدة لدى الناس تهيؤاً خاطئاً بأن الحقيقة يمكنها أن تعيش في

السراديب. وبالمناسبة، فقد جاء في كتيب ك. راديك «نتائج المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي الروسي»، الصادر عام ١٩٢٣، أن بعض الأشخاص أرادوا الإستفادة من رسالة لينين الأخيرة مدعين أن فيها من الأسرار ما يجعل نشرها غير ممكن.

يشهد التاريخ أنه كلما طالت فترة احتجاب الضوء عن الحقيقة، كلما كبرت إمكانية تزويرها لتصبح كل المحاولات لترميمها غير مجدية. ولكن قبل أن يتبين ذلك يكون قد ألحق ضرر كبير بالوعي الإجتماعي والثقافة السياسية والمثل الروحية في المجتمع. وتاريخ تلك الرسالة يذكرنا مرة أخرى أن الكذب يُصنع و«يُفبرك»، أما الحقيقة فلا تحتاج إلى «فبركة»، يجب فقط اكتشافها، إلقاء الضوء عليها، حمايتها. وهذا من الأسباب التي تجعل الحقيقة حقيقة والكذب كذباً. الحقيقة تحتاج دائماً للضوء، الضوء الساطع، أما الكذب فيبحث عن الظلام والإنغلاق والسرية. وستالين كان يحب الأسرار بشكل جنوني. ستظهر في عهده أختام «سري جداً» كثيرة على الإضبارات والملفات، وحتى على الوثائق البسيطة. بالطبع إن الحكومات والأحزاب لديها ـ وعلى الأغلب سيظل لديها ـ أسرار. لكن تحويل الرسائل البسيطة والتقارير والبرقيات والأخبار البديهية إلى أسرار غامضة كان لا بد أن يغير مجرى حياة الكثيرين. ولم يأت ببال أحد أن تلك السرية الزائدة في العلاقات الإجتماعية والرسمية تشكل أرضية جيدة لتأجير الذات وبيعها. ففي وسط جميع دوائر الأسرار كان يقف ستالين بنفسه ويجد الوقت الكافي للرد على الأخبار التي تتدفق باستمرار.

كان لتروتسكي يد في نشر نص رسالة لينين للحزب أكثر من مرة في الغرب. أول مرة كانت في الولايات المتحدة الأمريكية عندما نشر م. إستمان أحد أتباعه القدماء نص تلك الوثيقة بالإضافة إلى تعقيبات مطولة ضد السلطة السوفييتية. ومن ثم في الثلاثينات تناول ب. سوفارين المواطن الفرنسي روسي الأصل تلك الوثيقة في مقالاته في صحيفة «أومانيتيه» الفرنسية. كان تروتسكي يبذل جهداً متواصلاً من أجل جذب انتباه العالم لتلك «الرسالة»، فيقتبس منها مقتطفات ويغير فيها لدرجة يصعب بعدها التعرف عليها، وتوصل في أواخر أيامه إلى تفسير وصية لينين تفسيراً لا يدع أيّ مجال للبس: إقترح لينين على أعضاء اللجنة المركزية تنحية ستالين من منصب الأمين العام ورشحه، أي تروتسكي، كقائد للحزب كونه الأكثر ذكاء وموهبة في الحزب.

اشتملت وصية لينين، في الحقيقة، على العديد من الخطوات الجديدة التي يجب أن تتخذها أول دولة إشتراكية في العالم. ومن ضمن تلك الإجراءات: تجديد قيادة الحزب والدولة، تعزيز دور اتحادات العمال والسوفييتات والمؤسسات الإجتماعية والأجهزة الشعبية والرقابية، وتعميم مسؤولية القياديين أمام الشعب. لكن القائد الراحل لم يتكلم بشكل محدد عن أصول وضرورة الإستفتاءات ومحاسبة الشعب للقادة، أو عن التبديل الصارم للمناصب والكوادر وغيرها من بديهيات الديمقراطية. أدرك لينين قبل وفاته بقليل أن جوهر الإشتراكية في الإنسانية

والحرية والعدالة، لكنه توقف عند تعددية الأحزاب ولم يتخطاها.

كان لا بد لعدم الإلتزام حتى بالأشكال المحدودة للديمقراطية أن يترك أثراً عميقاً في جميع المجالات في الدولة السوفييتية. وهنا بالتحديد تكمن المنابع العميقة لجميع التشوهات التأليهية والتعسف في استعمال السلطة. لكن يجب الإشارة إلى أن الشحنة الفكرية التي ولدها أكتوبر كانت كبيرة جداً وأن الدوغمائية والبيروقراطية ستحاولان مطولاً امتصاصها ومنع تسربها مستخدمة لغرضها المصافي والعوازل. يجب ألا ننسى ذلك أبداً. وليس من أجل الإستيضاح، فلا الحاضر ولا المستقبل خالدان، كلاهما زائل لا محالة. يبدو أن الماضي فقط هو الدائم. وهو يعطي دروساً للمستقبل. وعلى المستقبل اليوم أن «يحل واجبين»: عليه أن يشبع نهم الماضي كي يستطيع تثبيت المثل الديمقراطية على أرض الواقع، كما عليه أن يستنبط دروس الماضي في الشجاعة وحماية الحقيقة. والضمير الحقيقي لا تضيع فرصته أبداً.

ستحصد روسيا مصائب، زرعت بذور الكثير منها قبل وفاة لينين: ديكتاتورية الطبقة، ديكتاتورية الحزب، ديكتاتورية القائد... أجل، إن جذور التوتاليتارية تعود لذلك الزمن البعيد. كان من الممكن أن تعطي وصية لينين الدفعة الأولى نحو الحكم الحقيقي للشعب في ظل الديمقراطية. ولكن، لا لينين ولا أتباعه تصوروا مدى مأساوية سنوات روسيا القادمة. إلا أن هذا لا يعني أننا يجب أن نقيس كل التاريخ السوفييتي بهذا المقياس.

علينا الإشارة إلى أن النظام السياسي الجديد اهتم إهتماماً كبيراً بتربية الشعب والأجيال الصاعدة تربية ثورية، إشتراكية، شيوعية. كانت فكرة «الإنسان الجديد» المثالي مثالاً يهدف إليه الجميع. ومنذ العشرينات، بالرغم من أن النزعات البيروقراطية كانت قد بدأت بالظهور، إلا أن الأولوية كانت لإعادة بناء المجتمع من الناحية الأيديولوجية. البساطة، التواضع في ظروف الحياة، الإعتدال في العلاقات مع الآخرين، الإستجابة لجميع متطلبات المجتمع، كراهية عميقة لكل ما له علاقة بالبرجوازية الصغيرة وإكتناز المال، المستوى العالي من الروحانية، العلاقات الصداقية التي لا تعتمد على المصلحة، ـ جميع هذه الصفات حاولت الحكومة السوفييتية طوال العشرينات والثلاثينات والأربعينات زرعها في الإنسان والمجتمع السوفييتي، ولكن ذلك كان يحصل في كثير من الأحيان بشكل منافق جداً.

لم تقتل التراكمات البيروقراطية والأختام الدوغمائية الأسس الشعبية. كانت أفكار لينين ـ حتى المبتورة والجزئية منها ـ السلاح الوحيد في النضال ضد الستالينية. بالرغم من النفاق والدرامية اللذين رافقا الستالينية، لم تستطع الأخيرة القضاء بشكل كلي على خيرة الأفكار الروحانية في حياة الشعب.

كان هيغل يعتقد أن القدر قوة عمياء غير عقلانية تسيطر على كل شيء. يضيف علماء الدين أن هذه القوة الخارجية تعلم بمستقبل كل إنسان على حدة وتقوده في الطريق المحدد له حتى النهاية. بعد وفاة لينين، بدلاً من أن يترك ستالين برج القيادة ليحتل مفوضية ما، كما كان متوقعاً، سيطر على القدر في

محاولة للتغلب على هيغل. ولكن آنذاك، من كان يتوقع أهمية الدور الذي سيلعبه أول أمين عام للحزب البلشفي في التاريخ؟

كان النظام الممركز الصارم يحتوي على طاقة كامنة خطرة منذ البداية. ازداد احتكار الحزب للسلطة. ازداد احتكاره للفكر والمثل والحرية. أصبحت تعددية الأفكار ووجهات النظر كفراً لا يغتفر. التحم الحزب والدولة التحاماً سريعاً. ارتدت الدولة رداء التوتاليتارية. قرر الرجل الذي يمسك السلطة من زمامها، خادم «الفكرة»، قرر منذ ذلك الحين أن يبقى الفارس الوحيد الذي يقود فرس السلطة. ولم يستطع أحد إيقافه. **ولم يقدّر أحد تحذير لينين.** فقد كان «الفرسان القدامى» مشغولين بالصراع فيما بينهم، ولم يقوموا بدور القيادة الجماعية التي عرضها عليهم التاريخ، لقد أعمتهم حريتهم الجديدة وأنستهم المستقبل. كما كتب نيكولاي بيرديابيف في سيرته الفلسفية: «لقد جاءت تجربة الثورة الروسية لتثبت رأيي القديم بأن الحرية ليست ديمقراطية بل ارستقراطية. الجماهير المنتفضة لا تهتم ولا تحتاج للحرية، فهي لا تستطيع تحمل عبء الحرية الثقيل». هذه الفكرة قابلة للجدل، ولكنها حقيقية، بلا شك، حين تفسر كالتالي: لم يستطع أحد، لا الجماهير ولا الفرسان القدماء، لم يستطيعوا أن يتصرفوا بالحرية. كان المستقبل، كعادته، في الضباب...

صناعة المستقبل لا تقل غموضاً عن أسرار الماضي وخباياه.

المراجع

الفصل الثاني: تحذير القائد

١ ـ نقلاً عن: ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ٢٠٨.

٢ ـ الـ «إزفستيا»، ١٩٢٤/١/٢٣. (نقلاً عن: امام القبر العظيم. دار نشر صحيفة «النجم الأحمر». موسكو، ١٩٢٤. ص، ٦٣).

٣ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٢. أوب ١. د ٢٣٣١٥.

٤ ـ المؤتمر الثاني عشر للحزب الروسي (بلشفيك). المحضر بالاختزال. موسكو، ١٩٢٣. ص، ٦٠ ـ ٦١.

٥ ـ المصدر السابق. ص، ٦١.

٦ ـ نقلاً عن: امام القبر العظيم. دار نشر صحيفة «النجم الأحمر». ص، ١٥١.

٧ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٧٠٩ ـ ٧١٠.

٨ ـ مختارات لينينية. المجلد ٣٧. ص، ١٠٦.

٩ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ٢١٣ ـ ٢١٤.

١٠ ـ أ. لوناتشارسكي. صور ثوار. موسكو، ١٩٢٣. ص، ٣١.

١١ ـ المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (بلشفيك). المحضر بالاختزال. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. ص، ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

١٢ ـ المصدر السابق. ص، ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

١٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٧. ص، ٣٨٠، ٣٨٢.

١٤ ـ مختارات: فيليكس دزيرجينسكي. موسكو، ١٩٣١. ص، ١٤١، ١٨٦.

١٥ ـ «النجم الأحمر»، ١٩٣٠/١٠/٣١.

١٦ ـ ي.ف ستالين. مؤلفات. المجلد ٧. ص، ٢٥١.

١٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢. د ١.
١٨ ـ أ.ن. مانفريد. مؤلفات. ص، ٣٢٨.
١٩ ـ هيغل. أعمال من سينين مختلفة. موسكو، ١٩٧١.
٢٠ ـ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). المحضر بالاختزال. موسكو، ١٩٢٢. ص، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٢.
٢١ ـ المصدر السابق. ص، ٦٩ ـ ٧٠.
٢٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢. د ٢٩.
٢٣ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. د ٧٨. ل ١ ـ ٢.
٢٤ ـ المصدر السابق. ل ١ ـ ٩.
٢٥ ـ المصدر السابق. ل ٢ ـ ٩.
٢٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٤. ص، ٢٤٣، ٥٦٣ ـ ٥٦٤.
٢٧ ـ مختارات لينينية. المجلد ٣٧. ص، ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
٢٨ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ١٨٨.
٢٩ ـ المصدر السابق. ص، ٢١١.
٣٠ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٤. أوب ١. د ١٤٢. ل ١٢٦؛ ف.إ. لينين. تاريخ حياته. المجلد ١٢. ص ٣٨٨.
٣١ ـ Adam B. Ulam. Stalin. The Man and his Era. N.Y. 1973, p.213, 214.
٣٢ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٥٧.
٣٣ ـ المصدر السابق. ص، ٣٥٨.
٣٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٥٤. ص، ٣٢٩.
٣٥ ـ المصدر السابق. ص، ٦٧٤ ـ ٦٧٥.
٣٦ ـ المصدر السابق. ص، ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
٣٧ ـ المصدر السابق. ص، ٣٣٠.
٣٨ ـ أ. لوناتشارسكي. مؤلفات. ص، ٤٢.
٣٩ ـ أ.إ. غيرتسين. مختارات فلسفية. موسكو، ١٩٤٠. ص، ١٥٤.
٤٠ ـ أ. لوناتشارسكي. مؤلفات. ص، ٤٢.
٤١ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢، د ٣١.
٤٢ ـ ل.د. تروتسكي. مؤلفات. المجلد ٨. صور ساسة. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. ص، ٦٦ ـ ٦٧.
٤٣ ـ أ. غرامشي. مختارات. موسكو، ١٩٥٩. المجلد ٣. ص، ١٨٥.
٤٤ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٢٠.
٤٥ ـ المصدر السابق. ص، ٣٠٨.
٤٦ ـ ن.إ. بوخارين. مختارات. موسكو، ١٩٨٨. ص، ١٢٠ ـ ١٢١.
٤٧ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ١٧٤.
٤٨ ـ المصدر السابق. ص، ٣٤٣ ـ ٣٤٤.
٤٩ ـ المصدر السابق. ص، ٣٤٥.
٥٠ ـ المصدر السابق.
٥١ ـ المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). محاضر معهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية. محاضر وتقارير، بالاختزال لمؤتمرات وكونفرنسات الحزب الشيوعي السوفييتي. موسكو، ١٩٦٩. ص، ٨٠ ـ ٨١.
٥٢ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٤٥.
٥٣ ـ المصدر السابق. ص، ٤٧٤.
٥٤ ـ المصدر السابق. ص، ٣٤٤ ـ ٣٤٦.
٥٥ ـ المصدر السابق. ص، ٣٤٧.
٥٦ ـ المصدر السابق. ص، ٣٤٦.

٥٧ ـ أ. لوناتشارسكي. صور. موسكو، ١٩٦٥. ص، ٢٦.
٥٨ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٨٧.
٥٩ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢. د ٨٨.
٦٠ ـ المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). محاضر معهد الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية. محاضر وتقارير بالاختزال لمؤتمرات وكونفرنسات الحزب الشيوعي السوفييتي. موسكو، ١٩٦٩. ص، ٨٠ ـ ٨١.
٦١ ـ المصدر السابق. ص، ٥٠ ـ ٥٣.
٦٢ ـ المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). تقارير بالاختزال. موسكو، ١٩٢٠. ص، ٨١.
٦٣ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٤. ص، ٣٥٤.
٦٤ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢. د ٣٤. ل ١.
٦٥ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ١٤١.
٦٦ ـ م. غوركي. مختارات. موسكو، ١٩٥٩. المجلد ١٧. ص، ٤٣.
٦٧ ـ Cohen S. Bukharin and the Bolshevik Revolution N.Y., Alfred A, Knopf, 1974, p. 139-140.
٦٨ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ٢١٨ ـ ٢٢٦.
٦٩ ـ نقلاً عن: امام القبر العظيم. دار نشر صحيفة «النجم الأحمر». ص، ٢٧، ٦٣.
٧٠ ـ المصدر السابق. ص، ٢٤٦، ٢٥٣.
٧١ ـ المصدر السابق. ص، ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
٧٢ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٥٩٣ ـ ٥٩٤.
٧٣ ـ المصدر السابق. ص، ٥٩٤.
٧٤ ـ المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). تقرير بالاختزال. موسكو، ١٩٢٤. ص، ٣٧ ـ ٣٨.

الفصل الثالث



الاختيار والصراع

في الثورة الروسية كان الحب
للسلطة أقوى من الحب للحرية.

ن. بيردياييف

استمرت آلام ولادة المجتمع الجديد. كانت الحياة تمشي في مسارها المعتاد، تتدخل في مصائر الكثيرين وظروفهم ومشاحناتهم. بعد المؤتمر الثالث عشر بدأ ستالين يستعيد ثقته بنفسه التي كاد أن يفقدها كلياً. لا أعتقد أنه قبل وفاة لينين كانت تساوره أفكار وصولية، أما بعد وفاته... فلا أعتقد إننا نستطيع أن نؤكد أن ستالين آمن منذئذ في إمكانية تحقيق ما كان يبدو مستحيلاً. فعالم الإنسان الداخلي كثيراً ما يكون غامضاً. في عام ١٧٩٣ أعدمت فرنسا ملكها لويس السادس عشر على المقصلة. قبل أن تهبط المقصلة لتقطع رأسه بدقيقة أو أقل سأل لويس السفاح: «أليس هنالك من أخبار عن لابوريز؟» (كانت بعثة لابوريز قد غادرت قبل خمسة أعوام في رحلة حول العالم ثم اختفت ـ إلى الأبد، كما سيتضح). فلا أحد يستطيع الوصول إلى خبايا العقل الإنساني: كان لويس السادس عشر على بعد ثانية من الموت ولكن بدلاً من أن يهتم بمصيره، يسأل عن مصير لابوريز... لم يكن ستالين على المقصلة ولكن خططه للمستقبل كانت مجهولة أيضاً. وهل كانت لديه خطط أم لا؟

منذ عام ١٩٢٠ بدأت تتراكم مكتبة ستالين في شقته الصغيرة في الكرملين. كانت معظم الكتب فيها قد صدر قبل الثورة: مجموعة أعمال ماركس وانجلس وبليخانوف ولافارغ ولوكسمبورغ ولينين والطوباويين، وروايات وقصص تولستوي وغارشين وتشيخوف وغوركي وأوسبينسكي، وكذلك أعمال كتّاب ما لبث أن طواهم النسيان ـ بينشتوك، زونتير، غوبسون، كينفورتي، تانخيليفيتش... لم تكن تلك الكتب مجرد ديكور في تلك الشقة المتواضعة، ففي الكثير منها توجد ملاحظات وإشارات وتسطيرات قد تكون من فعل يد ستالين.

في كتاب نابوليون «الأفكار» توجد الجملة التالية: «في ذلك المساء بالذات، في

مشارف «لودي»* آمنت بأنني رجل غير كل الرجال، وامتلأت طموحاً للقيام بأعمال عظيمة كانت تبدو لي حتى ذلك الوقت خيالية»[1]. هل كان لستالين «لودي» روسية عاشها عندها استبقى لنفسه منصب الأمين العام بالرغم من وصية لينين؟ أعتقد أن ستالين بلغ أوجه في تلك اللحظة: فبعد وفاة لينين لم يعد الأمين العام البالغ الخامسة والأربعين من العمر يحس بالنقص بين رفاقه من أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي.

كانت تلك الأفكار تحوم في رأس ستالين في أوقات الراحة القليلة التي كان يقضيها في مصيفه في زوبالوفو. في بداية العشرينات هجر العديد من الأغنياء «السابقين» المئات من البيوت والمصايف إمّا بسبب فرارهم إلى الخارج أو لأنهم قُرموا في «مفرمة» الحرب الأهلية الدموية، أو لأن «صفات الرفاهية البرجوازية» تلك كانت قد نهبت منهم. لقد تحول الكثير من هذه المساكن إلى مستشفيات وملاجىء للمتشردين ومخازن وبيوت نقاهة تابعة لمؤسسات حكومية مختلفة أخذت تكثر بسرعة. بالقرب من محطة أوسوفو كانت تنتشر حوالى عشرة بيوت صيفية ملك لأحد تجار النفط سابقاً. خصص أحد تلك البيوت لستالين، وخصص أخرى لـ فوروشيلوف، شابوشنيكوف وميكويان، وفيما بعد، غامارنيك وغيرهم من القادة الحزبيين والعسكريين ورجال الدولة الكبار.

في عام ١٩٢١ ولد لستالين طفل سماه فاسيلي، وبعد عدة سنوات ولدت سفيتلانا، ثم أتى ابنه ياكوف من زوجته الأولى للإقامة معه. أخذت زوجة ستالين ناديجدا سيرغييفنا ـ وهي، كما نعلم، تصغره بعشرين عاماً ـ أخذت ترتب بيتهم الجديد المتواضع بحماس وتضحية كبيرين كأية ربة منزل شابة. كانت حياتهم متواضعة، يصرفون من راتبه إلى أن بدأت زوجته العمل في مجلة «ريفولوتسيا أي كولتورا»، ومن ثم في الأمانة العامة لمجلس مفوضي الشعب. وبعد ذلك بدأوا يستفيدون من المنحة الدراسية التي كانت تحصل عليها ناديجدا من الأكاديمية الصناعية، إضافة إلى راتبه بالطبع. وفي إحدى المرات قال ستالين لزوجته فجأة وهم يتناولون الطعام: «أنا لم أحب المال في يوم من الأيام لأنني كنت لا أملكه عادة». وأنا أطلع على «أرشيف» ستالين لفتت انتباهي الوصولات التي كان يعطيها لستاسوفا باستلام ٢٥ أو ٦٠ أو ٧٥ روبلاً من خزنة الحزب من راتب الشهر التالي مقدماً، فقد كان ذلك الرجل يعرف الفقر عن كثب ولا «يسمع عنه في الراديو» فقط.

وتدريجياً جاءت المربية ثم القهرمانة. لم يكن هنالك آنذاك حراسة كبيرة ولا سعاة ولا العشرات من المناصب التي ستظهر فيما بعد، وسيسمي القادة الشخص الذي يحتل مثل تلك المناصب «صانعاً» كي لا يستخدموا الكلمة البرجوازية: «خادم».

في السنوات الأولى بعد الثورة عاش ستالين، كغيره من قادة الحزب، ببساطة

(*) لودي: بلدة ايطالية انتصر على مشارفها نابليون بونابارت انتصاراً باهراً خلال حملته الإيطالية (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧).

وتواضع، حسب ميزانية عائلته وتبعاً لتعليمات الحزب. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٣ أقرت اللجنة المركزية للحزب واللجنة المركزية للرقابة وأرسلت إلى جميع اللجان الحزبية وثيقة خاصة تحتوي على إجراءات كان المؤتمر الحزبي التاسع قد قرر اتخاذها في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ وتمنع الكوادر من استخدام أموال الدولة لصالحهم الشخصي: تأثيث وترتيب بيوتهم ومصايفهم، أخذ المكافآت النقدية أو المادية... كما تقرر متابعة سمعة الحزبيين بشكل صارم ومراقبة الفرق بين رواتب الخبراء والمسؤولين من جهة، والجماهير من جهة أخرى. وإهمال هذه النقطة ـ كما جاء في التعميم ـ «يزعزع الديمقراطية ويسبب انحلال الحزب ويسيء لسمعة الشيوعيين». توافق ذلك مع رأي لينين بأن «الكوادر الشيوعية لا يحق لها استلام رواتب مميزة أو مكافآت أو أجوراً للعمل الإضافي»(٢) الذي قد يقومون به. في عهد لينين كان أعضاء اللجنة المركزية يتبرعون بأتعابهم كمؤلفي كتب لخزنة الحزب، وكان ذلك تقليداً متعارفاً عليه.

لم يكن قادة الحزب آنذاك يملكون أية أشياء ثمينة، وحتى الحديث في مثل تلك الأمور كان يعتبر ظاهرة برجوازية سيئة لا تليق بعضو حزبي. ظلت فكرة زهد ستالين سائدة لفترة طويلة، وفعلاً، فبعد وفاته لم يعثر على أية ممتلكات شخصية له سوى بضع سُتَر رسمية وجزم ومعطف فرو مرقع. فهو لم يكن يحب الأشياء، بل كان يعشق السلطة، والسلطة فقط!

في أيام الآحاد كان يجتمع الأصدقاء في مصيف ستالين، عندما كانت الظروف تسمح بذلك. كان يأتي لزيارته بوخارين وزوجته وكذلك أوردجونيكيدزيه ويونيكيدزيه وميكويان ومولوتوف وفوروشيلوف وبوديني، مع زوجاتهم وأولادهم في كثير من الأحيان. وتحت أنغام هارمونيكة بوديني كانوا يغنون أغاني روسية وأوكرانية، وحتى يرقصون... أما تروتسكي، فلم يأت لزيارة ستالين في مصيفه أبداً.

كانوا وهم يتناولون الطعام، يشربون ويتحدثون عن الوضع في الحزب وفي البلاد وحول القضايا الراهنة على الساحتين الداخلية والخارجية. كان سي. ي. أليلوييف كثيراً ما يتواجد في تلك السهرات. لقد كان صهره يكن له احتراماً كبيراً. كان إليلوييف، بشكل عام، لا يتكلم إلا عن «أيام زمان» ـ فهو عضو في الحزب منذ تأسيسه، ويفخر بذلك. كانت تدور بينهم نقاشات، حادة أحياناً، والتكليف مرفوع، الجميع سواسية، حتى ستالين. لم تكن هناك أية ظواهر عبادة الرتب أو إطراء أو تملق.

ولقاءاتهم تلك هي لقاءات أشخاص كانوا قبل عقدين منبوذين من المجتمع ثم شاء القدر أن يضعهم على رأس دولة كبرى، دولة التأمت جراحها للتو، جراح لا تحصى أصابتها من طعنات سيوف الحروب الخارجية والأهلية والانتفاضات. والعديد من المواضيع التي يناقشونها أثناء تلك اللقاءات كانت تثار فيما بعد في المكتب السياسي. ففي إحدى السهرات جاء مولوتوف بمعلومة طريفة حول كمية الحبوب

التي تستهلك لصناعة الكحول في البيت والخسارة التي تلحق بخزينة الدولة من جراء ذلك. وبعد عدة أيام، في ١٩٢٣/١١/٢٧، قرر المكتب السياسي بعد الاستماع لكلمة مولوتوف بهذا الخصوص:

«تكليف الأمانة العامة بإنشاء لجنة دائمة لمكافحة صناعة الكحول في البيت، والكوكايين، والخمارات، والقمار (بما فيه اليانصيب). رئيس اللجنة: الرفيق سميدوفيتش، نائب الرئيس: الرفيق شفيرنيك، الأعضاء: الرفاق بيلوبورودوف، دانيلوف، دوغانوف، فلاديميروف.

امين عام اللجنة المركزية

ستالين[٣]

وبعد نقاش ضمن دائرة ضيقة حول أسباب مرض ووفاة لينين قرروا اتخاذ بعض الإجراءات للرفع من مستوى الخدمات الطبية لقيادة الحزب. وفي الاجتماع العام للجنة المركزية في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ قام فوروشيلوف برفع تقرير حول «الوقاية الصحية لقيادة الحزب»، فصدر قرار بـ:

«الطلب من هيئة رئاسة اللجنة المركزية للمراقبة بمناقشة الإجراءات اللازمة للوقاية الصحية لقيادة الحزب، وتعيين رفيق مختص لمراقبة ظروفهم الصحية والعملية»[٤].

أعتقد أنه لو كان لينين على قيد الحياة لطرح موضوع كهذا على مستوى أكبر، أي من خلال الاهتمام بالوقاية الصحية للشعب كله بما فيه القيادة. بدأت المصائب «بأمور صغيرة» كهذه، بشعور «زبدة الحزب» بالتفوق (بالرغم من مبادئها الداعية للمساواة)، بظهور الامتيازات على شكل «ظروف بريدية» تحتوي على «زيادات» على الرواتب، وعربات خاصة للقادة، ومصايف في الجنوب وفي أحواز موسكو، و«صانعين» عديدين، كل ذلك ظهر تدريجياً...

كثيراً ما كانت تدور النقاشات حول كيفية «نشر الاشتراكية». والخط إلى ما وراء الأفق، إلى المستقبل الذي رسمه لينين سرعان ما اختفى وراء الضباب كالمسار المقذوف. الاتجاه كان واضحاً، لكن، بأية خطى يجب السير؟ وبأية سرعة؟ وبأية وسائل؟ وما هي طرق بناء المجتمع الجديد؟ هذا ما كان غامضاً. كان ستالين، بعد توديع الضيوف، يتمشى طويلاً في أضواء الغسق، والخطط لليوم التالي تحوم في رأسه. ازداد إحساسه بالمسؤولية والقلق من أجل المستقبل، وازداد كبرياؤه، وازدادت مطامحه. من يعلم؟ قد تكون فترة الصراع والغموض تلك هي «لودي» ستالين؟!

كيف يمكن بناء الاشتراكية؟

يكون الوضع مثالياً عندما يوجد انسجام بين القوة والحكمة. لكن ذلك نادر جداً. في أغلب الأحيان يكون المستقبل في أيدي الأقوياء، ولكن للأسف، ليس بالضرورة في أيدي الحكماء، وميزان القوة والحكمة يميل تارة إلى جهة وتارة إلى أخرى، حسب المرحلة التاريخية. وهذه الظاهرة موجودة سواء اعترفنا بها أو لم نعترف. لم يكن ستالين يعرف، ولم يكن يقرأ، أعمال الفلاسفة القدماء. ولكن أحد هؤلاء الفلاسفة، سقراط، نطق بفكرة لا تزال حيوية حتى يومنا هذا: «الفلاسفة يجب أن يكونوا حكاماً، والحكام يجب أن يكونوا فلاسفة». فالقوة بحاجة للحكمة. وستالين كان قوياً، لكنه لم يكن حكيماً. بالرغم من أننا كنا نعتقد خبثه ومكره وغدره حكمة. لعب ذلك دوراً مأساوياً حين حان الوقت لاختيار طرق تحقيق الأهداف السامية.

أطلق سراح طاقة جماهير أول دولة عمال وفلاحين في العالم. كيف يمكن توجيهها للهدف، للمثل العليا التي كانت تبدو قريبة حتى للينين؟ كيف يمكن بناء الاشتراكية؟ كانت الصحافة الحزبية تفيض بمقالات المنظرين القدماء والجدد، بنصائحهم وتوجيهاتهم حول الطريق الذي يجب اتخاذه. كان كل شيء يحصل لأول مرة. وكثيراً ما كان يبدو أن شعاراً صحيحاً واحداً كاف كي تسير الأمور كما يجب.

أذكّر أن تروتسكي كتب في نهاية عام ١٩٢٤ في كيسلوفودسك عملاً تحت عنوان «دروس اكتوبر». حاول تروتسكي من جديد أن يقلل من دور قادة الثورة الآخرين لكي يكون لمطامحه في السلطة أساس «نظري». كتبت مجلة «بلشفيك» عام ١٩٢٤ في عددها رقم (١٤) عن تروتسكي أنه تحول من «مؤرخ» إلى مدعٍ عام في «دروس أكتوبر». لقد «أثبت» في كتابه ذلك أنه خلال الثورة «كانت اللجنة المركزية محقة كلما كانت تتفق مع تروتسكي، وكان لينين مخطئا كلما كان لا يتفق مع تروتسكي...» كتب تروتسكي أن الثورة كالفيضان، وإذا لم يركب الإنسان موجة الفيضان في اللحظة الحاسمة سيفقد فرصة الثورة كليا. كما كتب أنه هو، تروتسكي، يجيد الركوب على الموجة العليا... وأن الثورة «اندلعت» لأنه بالرغم من أغلبية «البلاشفة القدماء» لقد ركب لينين وتروتسكي تلك الموجة. تلك كانت رواية بطل الثورة الروسية.

يكرر تروتسكي فكرته بأن مصير الثورة في روسيا يعتمد بشكل كبير على «تتابع الثورات في أوروبا...»[٥]. في عمله «الثورة الدائمة» تحدث بشكل أكثر تحديدا أن الثورة لا يمكن أن تتم في دولة واحدة فقط وأن «بقاء الثورة البروليتارية في إطار قومي ليس سوى حل مؤقت وإن طال كما حصل في الإتحاد السوفييتي». كان تروتسكي يعتبر أن بناء الاشتراكية ممكن فقط في ظل «انتصار الثورة العالمية»، وكان يؤمن أن «ثورات أكتوبر» ستتوالى وأنه على الجيش الأحمر مساعدة الشعوب الأخرى في تحقيق تلك الإنجازات النوعية. كان ذلك انحرافاً يسارياً ولكنه لم يكن جريمة كما سيقال فيما بعد. لم تكن الرومانسية الثورية غريبة لتروتسكي كما كانت لستالين.

كما تابع تروتسكي في موضوع نظرية «الثورة الدائمة» كاتباً: «بالطبع، فإن روسيا لا تستطيع، بشكل مستقل، الوصول إلى الاشتراكية. ولكنها، بدخولها مرحلة التغيرات الاشتراكية، تستطيع دفع أوروبا نحو التطور الاشتراكي وأن تجر الدول التقدمية نحو الاشتراكية»(٦). هكذا كان رأي تروتسكي قبل عام ١٩١٧. تغير موقفه بعض الشيء بعد الثورة. لقد لخص موقفه في حوار خيالي بينه وبين ستالين:

ستالين: إذن، فأنت تنفي أن ثورتنا يمكن أن تؤدي للاشتراكية؟

تروتسكي: أنا لا أزال أعتقد أن ثورتنا يمكن، بل ويجب، أن تؤدي للاشتراكية إذا أخذت طابعاً عالمياً.

يفسر تروتسكي ذلك الاختلاف بالشكل التالي: «إن سر تناقضاتنا النظرية يكمن في أنكم تخلفتم لفترة طويلة عن العملية التاريخية، أما الآن فتحاولون اللحاق بها. وهنا أيضاً، بالمناسبة، يكمن سر أخطائكم الاقتصادية».

كان تروتسكي يعتبر أن فكرة بناء الاشتراكية في دولة واحدة لا يمكن أن تتطابق مع نظرية «الثورة الدائمة». فقط الثورة الصناعية على حساب الزراعة يمكنها أن توفر أساساً صناعياً للدولة، وتعطيها فرصة لبناء الاشتراكية، كما كتب بريوبروجينسكي دفاعاً عن تروتسكي. كانت معرفة ستالين بالاقتصاد سطحية جداً. لكنه لم يكن غافلاً عن وضع البلاد الصعب. والنقاشات التي تدور في الحزب منذ عقد لم تكن فقط صراعاً من أجل تحديد مستوى وطابع المجتمع الديمقراطي، بل وكان صراعاً من أجل إيجاد طرق للتطور الاقتصادي. ولو كان ستالين يتميز بنظرة اقتصادية لاستشف من مقالات لينين الأخيرة مفهوم الاشتراكية المبنية على أساس التصنيع وضم الأراضي في تعاونيات تطوعية والرفع من مستوى الجماهير الثقافي وتطوير العلاقات الاجتماعية وزرع الأسس الديمقراطية في المجتمع. لم يفهم ستالين أبداً كلمات لينين التنبؤية التي تفيد بأن السياسة الاقتصادية الجديدة تربط جميع الأمور في ربطة واحدة ـ إتصال المدينة والقرية، تحرير الاقتصاد والتجارة، همة رجل الأعمال ـ أجل، تنبأ لينين بأن روسيا السياسية الاقتصادية الجديدة يمكنها أن تصبح روسيا اشتراكية(٧)، ولكن ستالين لم يستوعب تلك الفكرة تماماً.

في السنوات الأولى كانت تثير اهتمام ستالين آراء بوخارين وبريوبروجينسكي وستروميلين وليونتيف وبرودني الاقتصادية، ولكنه لم يكن يفهم جوهر المصطلحات والقوانين والظواهر المعقدة. تأكد ذلك الرجل الذي لم يعمل أبداً في مصنع، ولم يستنشق يوماً رائحة الحقل المحروث في الربيع، ولم يتعلم «ألف باء» الاقتصاد، تأكد في نهاية النهايات أن الاشتراكية يجب أن يرافقها نقص في البضائع والذي لا يزال يرافقنا حتى الآن. والحقيقة أن ستالين حاول أن يتعلم شيئاً في الاقتصاد. فقد عثر في مكتبته على كتاب أ. يرمانسكي تحت عنوان «التنظيم العلمي للعمل ونظام تيلر»، ومن المعروف أن لينين كان قد أثنى على الكاتب على عرضه لنظام تيلر وخصوصاً أنه ناقش جوانبه الإيجابية والسلبية...(٨). أعتقد أن هذا ما جعل ستالين يقرأ ذلك الكتاب...

ولكن بعد الاطلاع على أعماله وملاحظاته وأقواله، والأهم من كل شيء ـ على أفعاله، نتأكد أن ثقافته الاقتصادية كانت أبسط من بسيطة. يجب أن تكون البلاد قوية، كلاً، بل جبارة، التصنيع الكامل أو لا، ثم انتقال الفلاحين إلى الاشتراكية. وديكتاتورية البروليتاريا ـ وكان ستالين يعترف بوجهها العنفي فقط ـ هي الطريقة والوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافه. ففي أحد اجتماعات اللجنة المركزية صرح ستالين بأنه «كلما كبرت أهدافنا كلما كبرت المصاعب في طريقنا». لقد حورت مجلة «بلشفيك» في عدديها التاسع والعاشر من عام ١٩٢٦ هذه الفكرة فأصبحت: «نحن نضع أمامنا أهدافاً أكبر فأكبر، والوصول إلى هذه الأهداف يقربنا أكثر فأكثر من الاشتراكية، لكن تضخم الأهداف يرافقه تضخم المصاعب». ما أشبه هذه المعادلة بتلك التي ستظهر لتحوم فوق البلاد: «الصراع الطبقي يحتد كلما تسارع الاقتراب من الاشتراكية!» في منتصف العشرينات كانت كيفية بناء الاشتراكية لا تزال غير واضحة بالنسبة لستالين، لكن المنهج كان واضحاً، دون شك: العنف، الأوامر، التعليمات، الإرشادات، والحرية؟ كلا، فالعنف أهم. أيتناقض ذلك مع الديكتاتورية؟

أدرك ستالين وهو يقرأ أعمالاً عديدة لشخصيات الحزب البارزة أن الفرق الشاسع بين آرائهم حول مستقبل الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي لا يعتمد فقط على مواقفهم الايديولوجية والنظرية المختلفة، بل وعلى الواقع الذي اتضح أنه أكثر تعقيداً مما كان يتصوره البلاشفة. فبوخارين لم يكذب عندما كتب في الـ«بلشفيك»:... كنا نعتقد أن الأمور ستسير هكذا: نستولي على السلطة، يصبح كل شيء في أيدينا، نعمّم الاقتصاد المنهاجي، وهذا أمر بسيط لدرجة التفاهة، نقلب الأمور رأساً على عقب، نجتاز بعض المصاعب وأخرى نؤجلها. أما الآن فأصبح من الواضح أن الأمور لن تسير هكذا»[٩].

كلا، فالأمور لا تسير كما كان متوقعاً أبداً... شعر ستالين وهو يتصفح المقالات والكلمات والأبحاث والتقارير أن رائحة الخطر تفوح من جهة تروتسكي في هذه «المعمعة». وكان مجرد ذكر ذلك الإسم يجعل علامات الكراهية تظهر على وجه ستالين وسرعات ما تتحول إلى غضب. قبل بضعة أيام أوصل أحدهم الخبر لستالين أن تروتسكي قال وهو يحدث أنصاره إن «بعض وجهاء الحزب الجدد لا يستطيعون أن يغفروا له (أي تروتسكي) ذلك الدور التاريخي الذي لعبه في أكتوبر». وبالطبع فإن «الوجهاء» ليسوا سوى ستالين. وكان تروتسكي ينعته بصفات أفظع وكان كل شيء يصل لآذان المنعوت.

بالرغم من أنّ العلاقة مع زينوفييف وكامينيف لم تسؤ ظاهرياً، إلا أن ستالين بدأ يشعر أن صلابته وتأثيره المتزايد لا يروقان «للثنائي». وتفاقم شعوره ذلك بعد المؤتمر الثالث عشر للحزب. ففي كلمته أمام طلبة الأمانة العامة انتقد ستالين كامينيف على تصريحه عن وجود ديكتاتورية حزبية. وأنهى ستالين كلمته تحت همهمة الجماهير الموافقة بأنه: أجل، توجد ديكتاتورية، ولكنها ليست ديكتاتورية الحزب، بل ديكتاتورية البروليتاريا. علينا، كي لا نظلم، الإشارة إلى أن بوخارين

كان يشارك كامينيف الرأي بوجود ديكتاتورية الحزب. فقد صرح في الاجتماع العام للجنة المركزية في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٤ قائلاً: «مهمتنا الآن أن نرى خطرين: الخطر الأول قد ينتج عن مَرْكزة نظامنا، والخطر الثاني هو خطر الديمقراطية السياسية التي قد تنتج إذاً زادت الديمقراطية عن حدها. أما المعارضة، فترى خطراً واحداً فقط ـ ناتجاً عن البيروقراطية. وهي لا ترى وراء الخطر البيروقراطي خطر الديمقراطية السياسية، وهذا خط منشفي. «فمن يؤيد ديكتاتورية البروليتاريا عليه أن يؤيد ديكتاتورية الحزب». أضاف راديك على ذلك: «نحن حزب ديكتاتوري في بلد برجوازي صغير»(١٠).

لكن ستالين لم ينتقد سوى كامينيف، فهو كان بغنى عن الاقتتال مع الجميع. والمهم هو تدريج الأمور وتتابعها. فسيأتي دور الجميع. ولكن انتقاد ستالين أطلق صاعقاً. ففي جلسة المكتب السياسي أدين انتقاد ستالين على أنه «غير رفاقي» ولا يمس «جوهر موقف المنتقد». وهنا أعلن ستالين فوراً استقالته، للمرة الثانية ولكنها ليست الأخيرة. ورفضت الاستقالة مرة أخرى... وممن؟ من كامينيف نفسه ومن زينوفييف. أدرك ستالين أن خصومه يفقدون الثقة بالنفس ـ فهم ما زالوا يهابون تروتسكي. كما تأكد مرة أخرى من عدم استقرارية تفكير «الثنائي». وماذا عن كتاب زينوفييف «اللينينية»...؟ فهو محاولة فعلية من كاتبه لتمويه، وتبرير استسلامه وكامينيف أثناء أكتوبر واختلافهما في الرأي مع لينين. وستالين وليس من الذين يغفرون، فسيأتي يوم يستغل فيه هذه الحقائق. عندما يوجه الضربة القاضية لتروتسكي سيأتي دور زينوفييف وكامينيف. لذلك يجب الاحتفاظ بالحقائق. وها هي تلك الحقائق كما حفظت في الوثائق:

« ـ يجب حماية موقفنا في «تأثير الدفاعوية الثورية الافسادي» وكذلك من انتقادات الرفيق لينين»؛

ـ أما «خطة الرفيق لينين العامة، فهي غير مقبولة بالنسبة لنا لأنها تعتبر الثورة البرجوازية الديمقراطية منتهية وتعتمد على انتقال هذه الثورة تدريجياً إلى ثورة اشتراكية»؛

ـ مقولات لينين النيسانية لا تذكر شيئاً عن السلام. فنصيحة لينين بـ ـ «التفسير للجماهير الواسعة العلاقة المترابطة بين رأس المال والحرب الامبريالية» ـ لا تفسر أي شيء على الاطلاق...(١١).

اتخذ ستالين قراراً منذئذ بالتفرغ لهذين «الثرثارين غير المبدئيين» عندما ينتهي من خصمه الأكبر تروتسكي. بالرغم من أنه هو نفسه قد حول فظاظته إلى فضيلة، فإنه كان يسأم أحياناً من حزم زينوفييف. ففي كلمته في الجلسة المسائية للاجتماع العام للجنة المركزية في ١٤ كانون الثاني (ينانير) ١٩٢٤ حول موضوع الانتقاد أخذ زينوفييف يعطي التقويمات في العديد من أعضاء اللجنة المركزية وكأنهم مرؤوسوه وهو قائدهم. أعلن زينوفييف بثقة: «بياتاكوف بلشفي، لكن بلشفيته لم تنضج بعد. أجل، إنها خضراء وغير ناضجة». وقبل ذلك بعدة ساعات

فقط كان قد صرح دون أدنى شك معلقاً على اقتراحات بياتاكوف الاقتصادية: «هذه ليست مجرد اقتراحات، بل برنامج بأكمله، وما يجعله مختلفاً عن أي برنامج جيد هو أنه برنامج سيىء، فقط لا غير». كما تحدث عن سابرونوف ناعتاً إياه بـ«الرجل الترابي، فهو يقف بقدميه الاثنتين على الأرض، ويمثل أي شيء سوى اللينينية». أما أوسينسكي فهو «ممثل انحراف أكثر ثقافة ولكن لا علاقة له بالبلشفية». كما لم يستطع زينوفييف تملك نفسه فيما يخص تروتسكي الذي أصابه رذاذ مما راق لستالين. وكان هجومه على تروتكسي غير مرتبط بكلامه السابق: «عندما كنا في كوبنهاغن لحضور المؤتمر أعطونا عدداً من «فورويرتس» نشرت فيه مقالة كاتبها مجهول جاء فيها أن لينين وجماعته مجرمون ونهابون. وكاتب هذه المقالة هو تروتسكي»(١٢).

كان ستالين يستمع ويفكر: يظن نفسه قائداً!! ذلك «المقمّل» الحشري الثرثار!! وبالطبع، فإن ستالين لم يبد أية ردة فعل على كلمة زينوفييف في ذلك الاجتماع، لكنه بعد عامين سيقلب موقف زينوفييف رأساً على عقب. ففي أيار (مايو) ١٩٢٦، على سبيل المثال، كان ستالين يتحقق من إحدى تصريحات زينوفييف المعتادة فبعث برسائل لموفودي الحزب في الكومنتيرن: مانويلسكي، بياتنيتسكي، لوزوفسكي، بوخارين، لومانيدزيه، وزينوفييف نفسه. ومن بين ما كتب جاء أنه «عثر على ثماني نمائم من صنع الرفيق زينوفييف وعلى تصريح له مثير للضحك». أعطى الأمين العام تقويماً قطعياً لكل ما ورد في كلام زينوفييف ـ اتحاد العمال العالمي، الانحراف اليساري المتطرف في الكومنتيرن، والخ... وكان تلخيصه لزينوفييف مميتاً:

«يتباهى الرفيق زينوفييف بأنه لا يحتاج للرفيقين ستالين أو مانويلسكي لكي يعلماه ضرورة الصراع مع الانحراف اليساري المتطرف متذرعاً بخبرته الأدبية ذات الـ١٧ عاماً. مما لا شك فيه أن الرفيق زينوفييف يعتبر نفسه رجلاً عظيماً، ولكن هل الحزب أيضاً يرى فيه رجلاً عظيماً؟ اسمحوا لي أن أشكك في ذلك.

منذ عام ١٨٩٨ وحتى ثورة شباط (فبراير) ونحن، المناضلين القدماء، نعمل في جميع أنحاء روسيا، لكننا لم نصادف يوماً الرفيق زينوفييف لا تحت الأرض ولا في السجون ولا في المنافي...

ولا بد أن مناضلينا القدماء يعرفون أن مجموعة كبيرة من أعضاء الحزب انتسبوا من قبل الرفيق زينوفييف بكثير وأنهم عملوا على بنائه دون صخب أو تفاخر. وما أهمية خبرة الرفيق زينوفييف الأدبية بالمقارنة مع ما قدمه مناضلونا القدماء خلال العمل عشرين عاماً تحت الأرض؟»(١٣).

ومنذ منتصف العشرينات سيدرك خصوم ستالين أن ذلك الرجل الوسط العظيم سياسي بارز: قاسٍ، خبيث، ماكر، قوي الإرادة. قريباً سيدرك ذلك جميع خصومه، وبعد بضع سنوات ـ قادة الأحزاب والدول الذين ستكون لهم علاقة به.

قد يبدو للقارىء أنني أعير اهتماماً أكبر من اللازم لصراعات ستالين الشخصية ولا أعير عملية الاختيار الاهتمام الكافي. ولكن للأسف، فالأول فعلاً أهم. يخطر على البال أحياناً أن مسائل الخيار التاريخي المهمة كثيراً ما تصبح ثانوية في ظل اندفاع مطامح القادة.

وبعد وفاة لينين تفاقم الصراع من أجل تحديد طرق بناء الاشتراكية، وخصوصاً في ظل الصراعات الشخصية والتنافس على السلطة. وكان ذلك الصراع بين ستالين وتروتسكي وزينوفييف بشلك أساسي. كان صراعهم حول نقاط سياسية واقتصادية محددة: الموقف من الفلاحين، طرق التصنيع، الحركة الشيوعية العالمية ـ نظرية وممارسة. في كثير من الأحيان كانت الاختلافات في وجهات النظر ذات طابع سطحي يمكن توحيدها في مقام مشترك. لكن المطامح الشخصية والمنافسة والعدوانية، وخاصة بين ستالين وتروتسكي، أضفت على ذلك الصراع طابعاً درامياً فصار ينظر إلى أية وجهة نظر مخالفة لآراء أو مواقف ستالين على أنها «طبقية ـ عدوانية»، «استسلامية»، «تحريفية»، «خيانية» والخ...

صحيح أن الأمين العام كان يدافع عن لينين باستمرار، لكن ذلك لا يعني أنه كان دائماً على حق. فإن المعارضة كانت تدافع عنه أيضاً. فالمهم كيف كانت تفسر ارشاداته التي لم تكن بحد ذاتها معصومة من الخطأ. لقد استمر المؤرخون السوفييت لفترة طويلة في الاعتقاد أن ستالين لم ينحرف عن الخط اللينيني، في العشرينات على الأقل. لكنهم أخطأوا الظن. فيكفي ذكر سياسته في مسألة القوميات، و«السياسة الاقتصادية الجديدة»، ووسائل الاصلاح الاشتراكي في القرية، وزرع النظام البيروقراطي في الحزب والدولة وهلم جرّاً. فقد كان انحرافه ملحوظاً منذ ذلك الوقت. فالكثير من أعماله لم تكن تتطابق مع مفهوم لينين للاشتراكية. يجب ألا ننسى أن ما كان يدافع عنه كان لا يستحق ذلك الدفاع.

أعتقد أنه من الخطأ أن نعتبر أن المعارضيين فقط كانوا على خطأ وأن الحزب وستالين كانوا دائماً على صواب. فالكثير من قرارات ستالين الخاطئة ثبتها الحزب وحفظها في أرشيفه. ولو لم يتخذ الحزب أية قرارات خاطئة لما كانت ظاهرة عبادة الفرد، ولما كان الاضطهاد الدموي، ولما استفرد أي شخص بالسلطة، ولما كانت سنوات الكساد الطويلة، ولما كنا الآن وبعد سبعين عاماً بحاجة ماسة للتجديد، لما كنا الآن بحاجة لرفع شعارات كـ«اشتراكية أكثر وديمقراطية أكثر!». فلم يولد ذلك الشخص ـ أو تلك المنظمة ـ الذي لا يخطىء أبداً في اتخاذ القرارات أو الخطوات. فالحياة هي توالي التناقضات والمشاحنات والانجازات. والواقع أغنى من الخطط التي كان ستالين مغرماً فيها. لذلك أصابع الاتهام ليست موجهة إلى ستالين فقط، فيما يخص اختيار طرق ووسائل بناء الاشتراكية، والانجازات والأخطاء التي واجهت البلاد في ذلك الطريق. فالجذور أبعد من ذلك بكثير. لكن هذا لا ينفي، بالطبع، أن ستالين أصبح يجسد النموذج الإداري ـ البيروقراطي للاشتراكية، ولا يعني أنه لم يكن نصير تلك الاشتراكية الأول.

وهنالك شيء مهم يجب ألا ننساه. فستالين لم يتوقف فوراً عند تصور معين لبناء المجتمع الجديد. وهو لم يكن يستوعب دائماً أو يبادل لينين الرأي، وخصوصاً فيما جاء في رسائل ومقالات لينين الأخيرة. كان ستالين يستند أحياناً لفكرة «الشيوعية العسكرية»، واضطر لفترة معينة تحمل «السياسة الاقتصادية الجديدة» لإدراكه أنه من الصعب على البلاد أن تحل الكثير من مشاكلها دون تلاحم الطبقة العاملة والفلاحين. وأخذ يتجه شيئاً فشيئاً نحو القيصرية والتفرد بالسلطة والديكتاتوزية، نحو اختياره التاريخي. لم يكن ستالين منظراً. كان يعتمد في استنتاجاته على الاستشهادات التي سرعان ما تنتسى. كان ستالين يميل داخلياً لطرق تروتسكي العنيفة. لقد كان أقرب حقيقة لتروتسكي منه إلى أي قائد بلشفي آخر في هذا المجال. لكن ذلك التشابه الداخلي الذي يميزه العناد كان دافعاً للتنافر والتوتر بين هذين القطبين الطموحين.

كان ستالين يستهزىء بزينوفييف وكامينيف اللذين يريدان الكتابة حول اللينينية! فلن يكتب أحد عن اللينينية سواه هو. وفعلاً، إنه سيكتب. لكن الجميع سيدركون من كتاباته أن مفهومه للاشتراكية يتناقض كلياً مع مفهوم لينين لها. أما حالياً فيجب توجيه الضربة القاتلة لتروتسكي. استعد ستالين استعداداً جيداً لتلك اللحظة الحاسمة وألقى كلمته الشهيرة في الاجتماع العام للجناح الشيوعي لاتحاد نقابات وعموم روسيا في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤. ألقى ستالين كلمته تحت عنوان «التروتسكية أم اللينينية؟» بعد تقرير كامينيف؟

كرَّس الأمين العام كلمته للانتقاد الذريع لتروتسكي حامياً تحت جناحيه مؤقتاً كامينيف وزينوفييف. مرَّ ستالين «بغلطتهم السوداء» في أكتوبر مرور الكرام ذاكراً أنها كانت صدفة ولم تستمر سوى بضعة أيام فقط. والسبب الوحيد لذلك هو أنهما لينينيان وبلشفيان حقيقيان. كذب ستالين على المؤتمر، لكنه لم يكذب على نفسه. فهما لم يكونا في نظره لا لينينيين ولا بلشفيين، لكنه كان لا يزال بحاجة إليهما للتخلص من تروتسكي ولتثبيت مركزه في الحزب. أخذ ستالين يرشق القاعة بالأسئلة:

ـ ما حاجة تروتسكي لمهاجمة الحزب من جديد في كتاباته؟ ما سر تلك المهاجمات الآن والحزب لا يريد الجدال، وأمور طارئة تتراكم وتحتاج إلى حلول، والحزب بحاجة لتكاتفنا من أجل إعادة بناء الاقتصاد وليس بحاجة لصراعات جديدة حول قضايا قديمة؟ لماذا يريد تروتسكي أن يجر الحزب للخلف، لنقاشات جديدة؟

ينظر ستالين بعد هذا الاندفاع من الأسئلة إلى القاعة ويجيب بصوته الناشف القاسي:

ـ سرّ كتاباته هذه في أنه يحاول مرة أخرى ـ أجل، مرة أخرى ـ أن يهيىء الظروف من أجل استبدال اللينينية بالتروتسكية. فهو بحاجة ماسة لنزع مجد الحزب وكوادره التي قامت بالانتفاضة كي ينتقل فيما بعد لنزع مجد اللينينية[١٤].

ليس كل ما قاله ستالين هراء. فتروتسكي كان يمجد لينين واللينينية أكثر من اللازم، ولكنه شكك أكثر من مرة في استنتاجات الأخير حول بناء الاشتراكية. فحسب نظرية تروتسكي لم يكن ممكناً بناء الاشتراكية في روسيا دون أي تأييد من الدول الأخرى، فقد اعتبر أن التصنيع ممكن فقط على حساب الفلاحين، وأن السياسة الاقتصادية الجديدة ـ بداية الاستسلام، وأن إنشاء التعاونيات الزراعية سابق لأوانه، وأن أكتوبر مجرد تواصل لثورة شباط (فبراير)، وأنه بدون تربية الشعب في «جيوش عمل» فهو لا يفهم «مزايا الاشتراكية»، وإن... ونظراً لأن زينوفييف وكامينيف تحديا تروتسكي ووقفا بجانب ستالين من أجل ترسيخه فإن حملة الأخير ضد تروتسكي، ومن ثم ضد حلفائه الجدد، قوّمت على أنها دفاع عن اللينينية. كانت طرق ستالين في التنافس لا تزال مقبولة. لكن دفاعاته كانت بشكل أساسي عن الاقتباسات وليس عن مضمونها. كانت أحاديثه تفتقد للجديد والبنّاء، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن آراء تروتسكي لم تكن جميعها خاطئة (فيما يخص الخطر البيروقراطي، على سبيل المثال). جميع خطابات ستالين في تلك الفترة عبارة عن اقتباسات فقط لا غير. قال ستالين بشكل لا يدع مجالاً للبس في نهاية كلمته في الاجتماع العام للجناح الشيوعي في اتحاد النقابات: «يتكلمون عن التنكيل في المعارضة وعن إمكانية حصول انشقاق. هذه تفاهات أيها الرفاق. فحزبنا قوي وجبار ولن يدع أي مجال للانشقاقات. أما بخصوص التنكيل، فأنا ضده حتى النخاع» (١٥).

رحم ستالين مؤقتاً زينوفييف وكامينيف من انتقاداته، بل وحضنهما تحت جناحيه من تهجمات تروتسكي. لكن مؤسسي المعارضة الجديدة لم يقبلوا غصن الزيتون الذي عرضه عليهم الأمين العام. ففي إحدى جلسات المكتب السياسي في بداية عام ١٩٢٥ صرح كامينيف، بتأييد من رفيق دربه، أن تخلف الاتحاد السوفييتي الاقتصادي والتقني وحصاره في حلقة من الدول الرأسمالية أصبحا عقبة لا يمكن تخطيها في طريق بناء الاشتراكية. ومن هنا يتضح أن زينوفييف وكامينيف أيدا فكرة تروتسكي التي أدانوه من أجلها إدانة مميتة قبل أشهر فقط. كان يجب على الحزب الرد على انتقاد سياسته ببرنامج شامل يتضمن الخطوات التالية في طريق بناء الاشتراكية. وعلنيا أن نشير بهذا الخصوص إلى أهمية المؤتمر الرابع عشر للحزب الذي عقد في نهاية شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٢٥. لم يقدم ستالين أي تقرير ولم يشارك في النقاشات. القضايا المحورية في ذلك المؤتمر كانت: إنشاء التعاونيات الزراعية .(تقرير ريكوف)، صناعة المعادن (دزيرجينسكي)، الضريبة الزراعية (تسوروب)، البناء التنظيمي (مولوتوف)، الشرعية الثورية (سولتس)، أهداف الكومنتيرن والحزب الشيوعي الروسي في ظل الاجتماع الموسع للجنة التنفيذية للكومنتيرن (زينوفييف). وترأس كامينيف المؤتمر بدافع التقليد. كما ترأس جلسة مجلس مفوضي الشعب والمكتب السياسي. كان كل ذلك لآخر مرة. فهو وزينوفييف لن يترأسا في حياتهما بعد ذلك أية جلسة على هذا المستوى الرفيع... أعتقد أن أهم ما ثبته المؤتمر هو إمكانية انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي حتى في ظل التطور البطيء للثورة البروليتارية العالمية. لكن انتصار الاشتراكية لا

يكون نهائياً إلا بعد إنشاء ضمانات عالمية بعدم عودة النظام الرأسمالي. هذا ما جاء في التقرير النهائي.

كان موضوع الشرعية الثورية من أهم النقاط التي طرحت في المؤتمر. ذكر سولتس ـ الذي كان وستالين في منفى توروخانسك ـ «إننا شعرنا بعد انتصار الثورة بحاجة أمس لتحسين اقتصادنا منه لتثبيت شرعية ثورية». أما الآن ـ أضاف سولتس بذكاء ـ «فعلى الحزبيين وكل من يعمل في السلطة السوفييتية أن يفهموا أن قوانيننا بكل أشكالها تساهم أيضاً في تثبيت وتركيز ذلك البناء الذي نريد بناءه وتثبيته، وإن إنتهاك هذه القوانين إنما يهدم ذلك البناء» (١٦). من المؤسف حقاً أن تلك الأفكار الصحيحة ستوضع على الرف بعد عقد.

بعد ذلك المؤتمر ببضعة أيام قام ستالين بألقاء كلمة في منظمة موسكو الحزبية كرس جزءاً كبيراً منها لمصير الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. رمى ستالين مرة أخرى بسمومه تجاه تروتسكي ذاكراً العديد من أعماله ومستهزئاً للمرة الألف من نظريته حول الثورة الدائمة. شرح ستالين بحماس وقناعة كبيرين للحزبيين النشطاء جوهر انتصار الاشتراكية الكامل والنهائي في الاتحاد السوفييتي. كما بدأ يلمّح لدوره ومركزه المميز في الحزب. فقد خلع قناع التواضع وأخذ يستشهد بأقوال نفسه. لخص ستالين مواقف الحزب وهيأه لكي يصبح صاحب الحق الوحيد في التصريح بالحقيقة.

جرب ستالين أفكاره حول طرق بناء الاشتراكية ليس فقط في اللجنة المركزية والصحف، بل وأمام العمال أيضاً. سجل مساعد ستالين توفستوخا إحدى تلك الكلمات أمام عمال «ورشة ستالين» التابعين «لسكة حديد أكتوبر» في الأول من آذار (مارس) ١٩٢٧.

نظر ستالين لمئات الوجوه الغريبة التي تنظر بفضول لوجه غريب أيضاً، وأخذ يحرك يده بتناسق مع سرعة حديثه قائلاً:

«نحن نتحول من دولة زراعية إلى دولة صناعية دون أية مساعدة من الخارج. كيف تم هذا التحول في الدول الأخرى؟

أنشأت بريطانيا صناعتها عن طريق نهب المستعمرات خلال قرنين. ومن المستحيل أن نمشي في خطاها.

ابتزت ألمانيا من فرنسا المهزومة خمسة مليارات. لكن هذا الطريق ـ طريق النهب من خلال الحروب ـ هو أيضاً لا يناسبنا. فسياستنا سياسة سلمية.

ويوجد طريق ثالث اتبعته حكومة روسيا القيصرية، وهو طريق الديون الخارجية والمعاهدات الجائرة على حساب العمال والفلاحين. ونحن لا نستطيع اتخاذ طريق كهذا.

ويوجد طريق خاص بنا ـ طريق مدخراتنا الشخصية. لن نستطيع عبور هذا

الطريق بدون أخطاء، لن يكون الطريق خالياً من الحفر. لكن البناء الذي نقوم ببنائه عظيم لدرجة أن هذه الأخطاء لن تكون مهمة في نهاية النهايات...»(١٧).

نشرت «رابوتشايا موسكفا» في اليوم التالي: «تصفيق حار. هتف رجل في لباس الجيش الخاكي من وراء الكواليس: «يعيش ستالين! تعيش اللجنة المركزية!» ملاحظات كثيرة لستالين. يفتل الأمين العام شاربه الأسود ويقرأ الملاحظات بجدية. حل السكون وبدأ الأمين العام، ستالين، الذي سميت الورشة باسمه، الحديث مع العمال...» وأشير هنا إلى ان لقاءات كهذه كانت نادراً ما تحصل. فقد كان ستالين يفضل إلقاء الكلمات في المؤتمرات، في الكرملين، في اجتماعات اللجنة المركزية. سيصبح «ظهوره» أمام الشعب أندر فأندر. فالقائد الغامض السري يبرر الأساطير أكثر من غيره. كانت الترتيبات للمؤتمر السادس عشر للحزب تتم في ظل الإنجازات الأولى في مجال الاقتصاد والثقافة. في عام ١٩٢٥ تجاوزت البلاد، على مستوى الانتاج الزراعي، ما قبل الحرب في بعض الدلائل. فالانتاج الزراعي الكلي زاد ١٢٪ عن انتاج ما قبل الحرب. كان ذلك شيئاً يستحق الاعتبار حقاً. «فالسياسة الاقتصادية الجديدة» ـ كتعاون المدينة والقرية ـ بدأت تعطي ثماراً. والانتاج الصناعي المسحوق خلال أكثر من خمس سنوات أصبح يكوّن ثلاثة أرباع إنتاج ما قبل الحرب. بدأت تظهر أول مشاريع بناء، محطات توليد الكهرباء بشكل خاص. ولكن، ألم يتنبأ الاقتصاديون الغربيون أن الانتاج لن يعود إلى مستوى ما قبل الحرب إلا بعد أكثر من ١٥ ـ ٢٠ عاماً؟! كما أنجز الكثير في مجال محو الأمية. توسعت شبكة المدارس، وخاصة في الجمهوريات. واتخذت خطوات كبيرة لإنشاء نظام تعليم عالٍ في البلاد. كما وصدرت قرارات تجبر الموظفين على المشاركة في النشاطات الثقافية والتنويرية. لم تعد الاكاديمية الروسية للعلوم «روسية» بل أصبحت أكاديمية عموم الاتحاد السوفييتي. وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت أعمال عملية ذات أهمية عالمية لكتّاب سوفييت: فيرنادسكي، فافيلوف، ويليامس، زيلينسكي، غوبكين، بوكروفسكي، يوفيه، فيرسمان وغيرهم من رواد العلم السوفييت. تم تحويل الجيش إلى حالة السلم بنجاح، وفي نفس الوقت استمرت الاصلاحات العسكرية. سَرَّعت عملية الاصلاح، في اجتماع اللجنة المركزية في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، من تنحية تروتسكي من منصب مفوض الشعب العسكري والبحري واستبداله بـ م.ف. فرونزيه.

علينا الإشارة هنا لحدث حصل أثناء ذلك الاجتماع. صدر عن زينوفييف وكامينيف تصرف لم يكن متوقعاً. اقترح كامينيف بديلاً لتروتسكي في منصب رئيس المجلس العسكري الثوري، ولم يكن ذلك البديل سوى... ستالين. يمكن تفسير هذا الموقف بطرق كثيرة. قد يكونا شعرا بجبروته الذي أفلت من الأيدي وقررا تعيينه في مركز «شرف» كي تخلو لهما الساحة ويعودا من جديد في المؤتمر التالي لـ«رسالة (لينين) للمؤتمر»، وقد يكونا أرادا قتل عصفورين بحجر واحد. ولكن للأسف، فقد قبل تروتسكي بدور «العصفور»، لكن ستالين لم يقبل. لم يخف الأمين العام اندهاشه ولا عدم سروره لذلك الاقتراح، وقد لاحظ ذلك العديد من أعضاء اللجنة المركزية أثناء الجلسة.

اتخذ القرار بدون تروتسكي الذي تحجج بالمرض. لم يكن ذلك أول أو آخر خطأ يرتكبه ذلك الثائر في اللحظات الحاسمة. فقد سهل على ستالين مهمته وساعده على «التفرد بأعدائه»... كان ذلك الاجتماع يعني الكثير بالنسبة لستالين. فقد ضعف موقف تروتسكي أكثر من قبل. كما لم يؤيد الاجتماع زينوفييف وكامينيف. نجح الأمين العام في اللعبة التي فشل فيها خصومه و«قتل عصفورين بحجر واحد»: لقد أضعف تروتسكي و«الثنائي القديم». يمكن القول إن «ثلاثي» ستالين وزينوفييف وكامينيف تفكك. لم يعد الأمين العام بحاجة له.

كانت البلاد تتجه نحو المؤتمر الرابع عشر للحزب الذي سيصبح مرحلة هامة في اختيار طرق التصنيع الاقتصادي. ولكن في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) كان يصعب على المرء تصديق ما تنشره الصحف حول المستقبل. كان نهر الدنيبر لا يزال يجري ولا «يعكر مزاجه» شيء ـ لم يكن السد موجوداً بعد. كانت العواصف الرملية لا تزال تهب حيث سيبنى طريق توركينيستان ـ سيبيريا. لم يكن مصنع ستالينغراد للتراكتورات موجوداً بعد. لم يكن أحد ليتصور أنه خلال خطة خمسية واحدة ستكون أفران ماغنيتكا للحديد الصلب شامخة على سفح جبال الأورال. من كان ليتوقع آنذاك أن زمن التحليق في الفضاء قريب جداً ـ لقد تم إطلاق أول صاروخ سوفييتي في بداية الثلاثينات...

أجل، كان الوضع يتحسن تدريجياً. أعطت السياسة الاقتصادية الجديدة فرصة تاريخية. فقد كانت النموذج المبدئي لاشتراكية حضارية قادرة على المحافظة على «محرك» السوق. ساعدت السياسة الجديدة على الرفع من مستوى الزراعة في البلاد. كما اقتربت الصناعة من مستوى ما قبل الحرب. أدرك ثاقبو النظر أن خطة تمديد الكهرباء إلى جميع أنحاء البلاد ستصل بالاقتصاد إلى مستوى النظام الجديد. لكن كل ذلك لم يكن سوى بداية طريق وعر.

كانت الشركات التجارية الصناعية تحدد أسعارها بنفسها، فأصبح على الفلاح أن يبيع ثلاثة أو أربعة أضعاف ما كان يبيعه قبل الحرب كي يشتري قطعة صابون أو غالون كاز. ازداد سخط الشعب، وكان ذلك من الأعراض الخطيرة. خاب الأمل في الدخل من امتيازات البترول. لم تمنح الدول الرأسمالية الديون التي كانت روسيا تنتظرها. لم يصل مستوى التجارة الخارجية إلى نصف ما كان عليه ما قبل الحرب. كان مليون ونصف من العاطلين عن العمل يتزاحمون أمام مكاتب العمل. كان نصف الراشدين لا يزالون أميين. فلا توجد إمكانية لشراء المكائن للمصانع. كانت مشاريع البناء قليلة جداً. لكن قرّاء الصحف شعروا أن البلاد على أبواب تغييرات عميقة. يبدو أن الدولة الفتية لم يكن لديها مجال كبير للاختيار. فكي لا تموت في هذا العالم المعقد الخطير كانت الدولة بحاجة ماسة لتسريع الأمور. ولكن كيف؟ وعلى حساب من؟ وفي ظل ذلك الوضع عقد المؤتمر الرابع عشر للحزب. أصبح ستالين ألمع شخصية في ذلك المؤتمر، فقد احتل التقرير السياسي الذي قدمه المكان الأساسي في جدول الأعمال. ثبت قرار المؤتمر الرابع عشر للحزب حول إمكانية بناء المجتمع الاشتراكي بناء كاملاً. وقد جاء في قرار المؤتمر أن «انتصار

الاشتراكية ممكن بالتأكيد في دولة واحدة»(١٨). أقر المؤتمر أن التصنيع هو المهمة الرئيسية خلال فترة انتقال المجتمع للاشتراكية. كان أعضاء المؤتمر يدركون أن ذلك المنهج يتطلب تضحيات كبيرة. ظهرت مشكلة السرعة، ما هي السرعة المطلوبة واللازمة؟ العديدون ـ ومنهم القادة ـ لم يكونوا يعرفون الجواب.

ومن جديد أصبحت قضية الصراع مع «المعارضة الجديدة» من النقاط الحيوية التي ناقشها المؤتمر. من المعروف أن المعارضة الرئيسية كانت من قبل وفد لينينغراد برئاسة زينوفييف الذي قدم أحد تقريري المعارضة. إلا أن كلمته كانت باهتة جداً، فحججه لم تكن دامغة وبراهينه لم تكن مقنعة. حذر زينوفييف وكامينيف وسوكولنيكوف بشدة من خطر البيروقراطية التي بدأت ـ في وجهة نظرهم ـ تقتحم الحزب، لكن الطابع الشخصي كان طاغياً على تهجماتهم، فلم تعط الانطباع اللازم على الموفدين. وكما ذكرنا من قبل، كانت هذه أول مرة يصرح فيها كامينيف علانية أنه توصل إلى القناعة أن الرفيق ستالين لا يستطيع أن يقوم بدور موحِّد مقر البلاشفة. لكن ما كاد كامينيف ينطق بهذه الكلمات حتى بدأت الهتافات في القاعة: «ستالين!!! ستالين!!!» وانقلب الميزان لصالح الأمين العام. أدرك ستالين أن الخط الذي اتخذه لحماية اللينينية يحوز على تأييد أكبر فأكبر من قبل الحزب. وهنا ـ في احتكاره لحماية اللينينية، بمفهومه الخاص لها ـ يكمن لغز شعبية ستالين، وكذلك في مستوى الثقافة السياسية المتدني لدى العديد من أعضاء الحزب... سمعة وهيبة ستالين التي كانت تتحسن وتكبر تدريجياً بشكل غير ملحوظ أصبحت بين ليلة وضحاها في مستوى الحزبيين الآخرين. كان ستالين منذ وفاة لينين يتحدث دائماً باسم القيادة الجماعية ويناضل من أجل تحقيق أكثر أهداف لينين وضوحاً بالنسبة للجماهير: إعادة بناء الاقتصاد، تطوير النظام التعاوني، تحريك التجارة، نشر محو الأمية... وأعتقد أن هذا لعب دوراً حاسماً في اكتسابه للشعبية.

لقد سبق وذكرنا أن ستالين لم «يتأرجح» تجاه أي فريق من المعارضين. لكن ذلك الانطباع موجود فقط لأنه كان يُلبس جميع خطواته وقراراته وانتقاداته واقتراحاته رداء اللينينية! فقد ارتكب أخطاء عديدة في حياته العملية منحازاً لفريق تارة ولفريق آخر تارة أخرى، لكنه كان أسرع من غيره في تصحيح مواقفه. لقد أجاد ستالين أكثر من غيره فن «مطابقة» خطه السياسي مع خط لينين. للتشديد، أكرر مرة أخرى أن هذا هو سر تأييد الحزب له. بالتأكيد إن ستالين كان يدافع عن الأفكار اللينينية في العديد من القضايا ـ ولكن ليس في جميعها. ولكن مع مرور الوقت أصبح واضحاً أن مفهومه لهذه الأفكار يزداد استبدادية يوماً بعد يوم، خاصة وأن تلك الأفكار نفسها جميعها صحيحة. وبما أن وفاة لينين تركت الحزب بدون قائد بارز فقد أصبح ستالين، «موحِّد المقر البلشفي»، رمز الإنجازات الاقتصادية الأولى، والخط التوحيدي للحزب، وإنعاش الزراعة بفضل فرض ضريبة عينية على الفلاحين. كان واضحاً بالنسبة لمعظم أعضاء المؤتمر أن زينوفييف وكامينيف وتروتسكي ـ الذي بقي خلال هذا المؤتمر في الظل ـ أنهم يهاجمون خط اللجنة

المركزية السياسي بشكل أساسي من أجل الوصول للسلطة إلا أن المعارضة هُزمت هزيمة نكراء في هذه المعركة.

حصلت تغييرات تنظيمية لتجسد المرحلة الجديدة للصراع داخل الحزب. فقد نحت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم روسيا زينوفييف من منصب رئيس اللجنة التنفيذية للكومنتيرن ومن ثم ألغي هذا المنصب كلياً باقتراح من الوفد السوفييتي. أصبح س.م. كيروف قائد المنظمة الحزبية في لينينغراد. نحي كامينيف من منصب نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب ورئيس مجلس العمل والدفاع. إلا أن كامينيف وزينوفييف لم يفصلا بعد من المكتب السياسي الذي انضمّ لعضويته ـ ولأول مرة ـ فوروشيلوف ومولوتوف، مما زاد من قوة موقف ستالين.

ومرة أخرى قام ستالين في كلمته الاختتامية «بتدمير» زينوفييف وكامينيف وسوكولنيكوف ولاشيفيتس ومن لفّ لفّهم. ركز ستالين في كلمته الاختتامية تلك على اعتماد الحزب خط بناء الاشتراكية وتعزيز وحدة صفوفه. لكنه لم يفلت من انتباه ذوي الملاحظة الدقيقة أن ستالين كان يستشهد بأقواله ومقالاته وملاحظاته الشخصية، وأنه كان يفعل ذلك دون أدنى خجل. وذوو الثقافة السياسية العالية ـ الذين كانوا، وللأسف الشديد، قلة في ذلك الوقت ـ لم يستطيعوا إلا أن يلاحظوا فظاظة ستالين في تحليله النقدي. فقد استهزأ ستالين من آراء كروبسكايا ناعتاً إياها بأنها «هراء في هراء». لن يترك الأمور عند هذا الحد، بل سيسخر منها بشيء من الديماغوجية والتجديف، قائلاً: «وهلا قلتم لي بماذا تمتاز الرفيقة كروبسكايا عن أي رفيق مسؤول آخر؟ أم هل تعتقدون أن مصالح بعض الرفاق الشخصية يمكن أن توضع فوق مصلحة ووحدة الحزب؟» وأنهى ستالين هجومه تحت نغمات التصفيق الحار، قائلاً: بالنسبة لنا، نحن البلاشفة، «الديمقراطية الشكلية هي لا شيء، ومصالح الحزب الحقيقية هي كل شيء». كما ونعت لاشيفيتس بـ«المكار» وكامينيف بـ«المضلّل» وزينوفييف بـ«الهيستيري» وسكولنيكوف بـ«المراوغ في الكلام» والخ... يبدو أن ستالين كان قد وصل إلى مرحلة أصبحت فيها حتى الديمقراطية الفعلية «لا شيء» بالنسبة له. وأما إهانته لكروبسكايا، وبالتالي لذكر القائد الراحل، فلم تكن مجرد عدم لباقة من جهته، بل وكانت انتقاماً دنيئاً لتلك الرسائل والمكالمات الهاتفية والحوارات التي جرت قبل وفاة لينين. لم يكن ستالين من المسامحين.

يبدو أن ستالين شعر أنه «تمادى» في انتقاداته فلجأ لأسلوب سوف يصبح من أساليبه المألوفة. ففي تحليله النقدي الفظ لمقالة زينوفييف الركيكة تحت عنوان «فلسفة المرحلة» ذكر ستالين أن فظاظته تظهر فقط تجاه من هو معادٍ وغريب وعزا ذلك لاستقامة طبعه. وأخذ ستالين تدريجياً يحول عيبه إلى فضيلة، وحتى إلى سمة ثورية. ولكن، للأسف الشديد، فمنذ ذلك الوقت لم يوجد من بين الشيوعيين أو المندوبين أو أعضاء اللجنة المركزية سوى كامينيف ليقدّر بهدوء شخصية ستالين حق التقدير ويفضح الدناءة في انتقاداته اللاذعة للآخرين، التي سيأتي يوم تصبح فيها كافية للحكم على البشر. وكما ينمو النهر الكبير من ينبوع صغير تخلق السمات اللاأخلاقية للإنسان من تصرف معين وردة فعل الآخرين عليه.

وبالطبع، لم يفلت تروتسكي من أنياب ستالين في تلك الكلمة التاريخية. شعر ستالين بالمزاج العام في المؤتمر فهاجم اقتراح كامينيف حول تحويل الأمانة العامة لجهاز تقني بسيط ذاكراً أنه ضد «بتر» أعضاء معينين من اللجنة المركزية. كما أظهر شهامته للقاعة المتعاطفة معه وأعلن أنه إذا أصر الرفاق فهو «مستعد لإخلاء منصبه دون أن ينبس بشفة»... كان ستالين يتحدث كسياسي محنك حاظياً مرة تلو الأخرى على تأييد أعضاء المؤتمر له، مظهراً نزاهة واهتماماً عاليين في مصالح الحزب. استطاع الأمين العام ـ وهو يستهزىء بالتجنحيين ـ أن يثبت رحابة صدره مستخدماً كلمات كـ«ليكون الله معهم». بالرغم من إن ستالين كان قد اتخذ قراراً بالقضاء على كامينيف وزينوفييف إلا أنه لجأ للحل السلمي: «نحن مع الوحدة، نحن ضد التصفية، وسياسة التصفية مقرفة بالنسبة لنا. الحزب يريد الوحدة وسيحرزها مع كامينيف وزينوفييف إذا هم أرادوا أو بدونهم إن لم يريدوا ذلك...»[١٩].

ومن الجدير بالذكر أن ستالين صاغ في كلمته الاختتامية عدداً من الأفكار التي لو نفذت لاستطاع الحزب تجنب العديد من المصائب التي سيعيشها. أعلن ستالين باستحسان واضح من المندوبين: «الاجتماع العام يقرر كل شيء عندنا، وهو الذي يدعو قادته للالتزام بالنظام عندما يبدأ هؤلاء يفقدون التوازن... وإذا أفرط أحدنا في شيء ما سوف يحده النظام، ـ وهذا ضروري ولازم. لا يسمح لأحد أن يكون قائداً بدون لجنة. من السخافة أن يحلم أحد بذلك بعد لينين، من السخافة أن يفتح هذا الموضوع.

العمل الجماعي، القيادة الجماعية، وحدة الحزب، الوحدة في أجهزة اللجنة المركزية تخضع فيها الأقلية لرأي الأكثرية ـ هذا ما نحتاجه اليوم»[٢٠].

بالطبع، فإن هذه الكلمات جميعها صحيحة. ولو طبقت أو ثبتت بقوانين ديمقراطية لاستطاعت البلاد تجنب التعسف في استعمال السلطة. ولكن، للأسف الشديد، إن هذه المقولات الصادقة لم تثبت في قوانين حول التداول الديمقراطي للقيادة، وحول مدة احتلال منصب الأمين العام وغيره من المناصب الرفيعة، وحول مسؤولية القادة أمام الجماهير، وحول... وحول... وحول... وأفكار لينين بخصوص تحسين الجهاز الحزبي وتعزيز الأسس الديمقراطية في المجتمع كانت تهدف إلى مثل تلك الإجراءات بالذات. كان المؤتمر الرابع عشر آخر مؤتمر يسوده جو النقد والنقد الذاتي. في المستقبل سينفرد ستالين بصلاحية الانتقاد، ومن يخرج عن تلك القاعدة يفعل ذلك بتعليمات من الأمين العام بنفسه. وإنعدام حرية الرأي في ظل الحزب الواحد كان لا بد وأن يؤدي للخمول والدوغمائية والبيروقراطية.

دخل هذا المؤتمر التاريخ لإقراره التوجه نحو الاشتراكية والتصنيع. لكن أسس الديمقراطية لم تجد أي اهتمام بها. بدأ صراع بين الديمقراطية ونقيضتها أدى إلى انتصار القائد ومأساة الشعب. قلة كانوا يدركون أن الشعب سيدفع حريته الشخصية ثمناً للعظمة. والتناقض هنا ليس سوى ظاهري، فهذا هو قانون الديكتاتورية.

مروّج اللينينية

كانت كلمات «نظرية»، «منظّر» تبعث الرعشة في قلب دجوغاشفيلي الفتي. كان ماررتوف يقول: «النظرية الصحيحة هي صديقة الحقيقة». أصبحت تلك العبارة مفهومة بالنسبة له الآن، لقد تعرف على نظرية وعاشر منظرين. وفي لندن عام ١٩٠٧، وعندما دخل إلى كنيسة «الأخوّة» حيث كان يعقد المؤتمر الخامس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، استغرب الجورجي الأورثوذكسي منظر الكنيسة ذات النسق الغرطي وجاءت إلى ذهنه إحدى أمثولات سليمان: «كي لا تهجرك الرحمة والحقيقة اربطهما حول عنقك واكتبهما على قلبك...». لقد كان في شبابه طالباً مجتهداً في مدرسة دينية ولم تنسه سنوات التجوال المواعظ الدينية. لم يكن بحاجة «للرحمة» ـ فهو لم يحب العاطفة أبداً. أما «الحقيقة» فتهمه. وتهيأ له أن المؤتمر لم يعرها اهتماماً كافياً. فتلك النقاشات الطويلة حول «التعامل مع الأحزاب البرجوازية» و«التضامن الطبقي» و«دور البروليتاريا في الثورة البرجوازية»، جميعها بدت له تجريدية وغير مرتبطة بالواقع الروسي.

وطرق الواقع المر باب المؤتمر. فجأة قطع الرئيس الجلسة وأعلن أن ما يوجد في خزنة الحزب لا يكفي لدفع أجرة قاعة المؤتمر وحجرات الفندق حيث يقيم الموفودون وشراء تذاكر العودة لهم. لكنه أضاف: إن أحد الليبراليين وافق على منح الحزب حوالة مالية قدرها ثلاثة آلاف جنيه استيرليني بشرط أن تكون الفائدة عالية وأن يوقع الحوالة جميع الموفودين... وهنا هاجت القاعة ـ الكنيسة بالضجيج الداعي لقبول العرض. سينتظر حامي الثورات ذلك أكثر من عشرة أعوام ليستعيد أمواله. والثورات ليست كاللوحات. لا ترسم حسب الطلب.

في إحدى الاستراحات ما بين الجلسات كان دجوغاشفيلي بالقرب من لينين وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي الذي يناقشون نظرية «الثورة الدائمة». وقرع جرس متابعة الجلسة وأنهى لينين الحديث مازحاً: ـ يبدو أن روزا تجيد اللغة الماركسية أكثر من اللغة الروسية ولذلك يوجد بيننا اختلاف في وجهات النظر... ولكن هذه مشكلة يمكن حلها!

كانت نظرية «الثورة الدائمة» شيئاً غامضاً بالنسبة لدجوغاشفيلي، لذلك لم يشارك في النقاش. أين الحقيقة هنا؟ وكم من الحقائق المماثلة على الثائر أن يعرف؟ هو الآن بحاجة ماسة لها بالرغم من أنه لا يفكر في «كتابتها على قلبه». كان دجوغاشفيلي، العضو المراقب في المؤتمر، قد نشر حوالى ٢٠ أو ٣٠ مقالة بسيطة، وأول أعماله النظرية المهمة ـ كما كان يعتبر ـ تحت عنوان «الفوضوية أم الاشتراكية؟». كان ستالين فخوراً بعمله هذا بالرغم من أن لا أحد من «أدباء» لندن سمع عنه.

هل كان لستالين آنذاك أن يعلم أنه خلال ثلاثين عاماً سيصبح عضواً فخرياً

في أكاديمية علوم دولة عظمى؟ هل كان له أن يتصور إن خيرة علماء العالم ـ أعضاء أكاديمية العلوم ـ سيقدمون له في عيد ميلاده الستين مجلداً من ثمان مائة صفحة من المدائح حيث ستظهر كلمات «العالم العبقري» و«المنظر العبقري» و«المفكر الأعظم» مرات لا تحصى؟! سيذكر هؤلاء العلماء ـ ميتين، فيشينسكي، غريكوف، توبتشيف، يوفيه، ليسينكو، أوبارين، أوبروتشيف، فينتير(*) وغيرهم ـ سيذكرون في مدائحهم مساهمة ستالين القيمة الضخمة في تطوير نظريات الشيوعية العلمية والفلسفة والاقتصاد السياسي، وأهمية تأثير مذهبه العلمي على العلوم بشكل عام.

«المفكر الأعظم وراية من رايات العلم». هذا ما جاء في المحضر رقم (٩) من الاجتماع العام لأكاديمية العلوم في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٩، بالرغم من أن ستالين كان لا يزال ـ وسيظل كذلك لسنوات طويلة بعد ـ مروّجاً دوغمائياً للماركسية ومفسراً بدائياً لأفكار لينين. ولكن حينما سيصبح عالماً فخرياً و«الشمعة التي تضيء طريق العلم في العالم»، سيكون خيرة رجال العلم مجردين من إرادتهم المنطقية. سيصبح تتويج الأمين العام بتاج العلم أحد التشوهات التي خلقها تأليه القائد.

يا لسخرية القدر! فإن العالم ب.ن. بوبيلوف الذي كتب عام ١٩٤٩ مقالاً تحت عنوان «ي.ف. ستالين ـ راية علم الماركسية اللينينية»، هو الذي ستكلفه اللجنة المركزية بعد عدة أعوام بتقديم يفضح جميع أعمال ستالين والذي سيستخدمه خروتشوف كحجر أساس في كلمته الشهيرة في المؤتمر العشرين للحزب... ولكن، دعونا نعود للعشرينات...

شعر ستالين وقد أصبح على قمة الهرم الحزبي أن إمكانياته التنظيمية وقبضته الحديدية لا تكفي، فعليه أن يبرز كمنظر، من جهة، كانت المرحلة الجديدة من النضال من أجل بناء مجتمع جديد تتطلب إيجاد حلول نظرية للعديد من القضايا العلمية. لقد كان عليهم بناء كل شيء من الصفر وفي جميع المجالات ـ اقتصادي

(*) م.ب. ميتين (١٩٠١ ـ ١٩٨٧): فيلسوف سوفييتي. انتقد الفلسفة البرجوازية الغربية. اعماله الرئيسية تدور حول المادية التاريخية والدياليكتيكية.

أ.ي. فيشينسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٤): المدعي العام لمحكمة الاتحاد السوفييتي العليا (١٩٣٣ ـ ٣٩). شارك في اتهام العديد من المعتقلين السياسيين زوراً في الثلاثينات.

ب.د. غريكوف (١٨٨٢ ـ ١٩٥٣): مؤرخ سوفييتي. اختص في تاريخ روسيا القديم.

أ.ف. توبتشيف (١٩٠٧ ـ ٦٢): عالم كيميائي سوفييتي. عضو في الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٣٢.

أ.ف. يوفيه (١٨٨٠ ـ ١٩٦٠): أحد مؤسسي المدرسة الروسية في الفيزياء.

ت.د. ليسينكو (١٨٩٨ ـ ١٩٧٦): عالم بيولوجي وزراعي سوفييتي حاز على تأييد الحكومة السوفييتية له. اعتمد في نظريته في علم الوراثة على اسس غير علمية الحقت ضرراً كبيراً بعلم الوراثة في الاتحاد السوفييتي.

أ.إ. أوبارين (١٨٩٤ ـ ١٩٨٠): عالم بيوكيميائي. صاحب نظرية مادية لظهور الحياة على الأرض.

ف.ا. أوبروتشيف (١٨٦٣ ـ ١٩٥٦): عالم جيولوجي وجغرافي سوفييتي.

أ.ف. فينتير (١٨٧٨ ـ ١٩٥٨): عالم طاقة سوفييتي. اسس عدداً من محطات توليد الكهرباء.

واجتماعي وثقافي. والنظرية اللينينية لبناء الاشتراكية فتحت أبواب المستقبل لكنها لم تضع حلولاً محددة للمشاكل العملية اليومية.

ومن جهة أخرى، أدرك ستالين أن قائد الحزب ـ وهو كان يريد أن يكون قائداً فعلياً، وليس شكلياً ـ يجب أن يكون في نظر الشعب منظراً ماركسياً. كما كان يدرك أن معظم مقالاته لم تترك أي أثر في المجتمع. فقد كان العديد منها مكرساً لنقطة معينة في قوس قزح أحداث مرحلية. فقد ضاعت مقالاته المملة بين فسيفساء الأفكار والشعارات والنداءات التي فجرتها الثورة. والحقيقة أن ستالين كان قد نشر عدة أعمال نظرية خلال فترة تثبيته في القيادة بعد لينين. لقد سبق وذكرنا أحدها: «الفوضوية أم الاشتراكية؟». سنشير لاقتباس منه كي يرى القارىء مستوى ذلك العمل النظري والفلسفي: «... تنهار البرجوازية تدريجياً، يوماً بعد يوم... ومهما كانت قوية وكبيرة اليوم، فإنها ستهزم في نهاية المطاف. لماذا؟ لأنها تتفتت كطبقة وتضعف وتصبح عبئاً في الحياة. ومن هنا ظهر قانون الدياليكتيك الذي يفيد بأن «كل ما هو صالح موجود»، أي أن كل ما ينمو من يوم إلى يوم هو منطقي، وكل ما يتفتت من يوم إلى يوم غير منطقي، ولذلك لا يمكنه تجنب الانهيار»[٢١]. أعتقد أن البدائية الخانقة والسذاجة واضحتان في تلك الاستنتاجات. ومع ذلك، فهي لم تمنع العالم (ميتين) من وصفها بـ«عرض نموذجي للجديد»...

وكذلك أعماله: «الماركسية والمسألة القومية» (١٩١٣)، و«انتفاضة اكتوبر والمسألة القومية» (١٩١٨)، و«حول استراتيجية وتكتيك الشيوعيين الروس» (١٩٢٣) وغيرها، فلم تحز على شهرة كبيرة. سيدرك ستالين عما قريب أنه غير قادر على كتابة عمل جذري في النظرية الماركسية. كان يزداد تأكيداً من أن عبقرية لينين طغت على الجميع، وأن أفكاره رفعت ستارة الكتابات لدرجة يتعسر على الغير الإمساك بطرفها. ومهما حاول ستالين تغيير مجال اهتماماته فقد كان دائماً يتعثر بأثر قائد الثورة الذي سبق ومر من نفس الطريق وخطى فيه خطوات أكبر. ولم يكن لفكر الأمين العام اللحاق بفكر القائد.

في ظل الصراع الداخلي في الحزب كان على ستالين ترويج أفكار واستنتاجات لينين بشكل واسع النطاق. لذلك خطر على ذهنه أن يقوم بسلسلة من المحاضرات حول أسس اللينينية في جامعة سفيردلوفسك، قرأها بعد وفاة لينين بقليل. قامت البرافدا بنشرها في نيسان (أبريل) وأيار (مايو) عام ١٩٢٤. على الأغلب إن تلك المحاضرات هي التي جعلت من ستالين منظراً معترفاً له نوعاً ما.

كان الجزء الأكبر من الشعب ـ أي الفلاحين ـ ذا مستوى ثقافي متدنٍ، ومستوى الطبقة العاملة والحزبيين لم يكن أعلى بكثير. فقد كانوا بحاجة لألف باء اللينينية. فقط بالتبسيط الكامل كانت ستصبح أفكار لينين مفهومة بالنسبة لهم. واتضح أن ستالين كان قادراً على حل تلك المشكلة. فقد كان تفكيره البدائي نموذجياً لمثل تلك المهمة. جملة قصيرة جداً، ولا يستخدم مصطلحات معقدة، ويفتقر للعمق. لكن ما هو دائم الوجود هو الوضوح... ثم الوضوح... ثم الوضوح... لقد

استقبلت محاضراته بعد النشر بشكل جيد. و«حول أسس اللينينية» كمرجع للاقتباسات، فإن هذين العملين عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات. وأعتقد أننا لو حذفنا الاقتباسات منها لما بقي سوى علامات الترقيم. لكن الطبعة تلو الطبعة كانت تصدر.

على هذين العملين تربت أجيال من الشعب الروسي. علينا الإشارة إلى أن ستالين غيّر العديد من أفكار لينين تغييراً جذرياً في أعماله. ففيما يخص مفهوم «ديكتاتورية البروليتاريا» ركز الأمين العام على ناحية العنف وجردها من جوانبها الديمقراطية. واليوم، على سبيل المثال، يصاب المرء بالقشعريرة عندما يقرأ عمل ستالين «حول سياسة تصفية الكولاك كطبقة»، وهو يعلم كيف طبقت تلك النظرية على أرض الواقع.

وظهرت الأعمال تلو الأعمال. لم يكن محررو الكتب ليتجرأوا على تغيير أو تصحيح أو تدقيق أي شيء. فعند قراءة الطبعة الحادية عشرة لمختارات ستالين تحت عنوان «قضايا اللينينية» والتي صدرت عام ١٩٤٥ نصاب بالارتباك. يناقش ستالين وينتقد ويذم بزينوفييف وتروتسكي وكامينيف وسورين وسلوتسكي وبوخارين وريكوف ورادیك وغيرهم، وكأنهم أحياء: «دعونا نستمع لراديك»، «يكرر تروتسكي منذ سنتين»، «يقصد كامينيف»، و«ماذا يقول زينوفييف؟»، «زينوفييف على علم بهذه الحقائق»، «يعيد بوخارين ويقول»... بالطبع إن ستالين كتب هذه المؤلفات عندما كان هؤلاء لا يزالون على قيد الحياة. لكن ذلك كان قبل سنوات عديدة وستالين كان لا يزال يناقش مع خصومه وهو الذي أمر بتصفيتهم الجسدية. والحجج التي يقدمها في نقاشاته مع الأموات لا قيمة علمية لها وعبارة عن تجديف فظيع. وبالرغم من أن الكتاب تملأه عبارات بالخط العريض كـ«يتحول التصفيق إلى عاصفة من الهتافات»، «عاصفة من التصفيق»، «يقف الجميع لتحية قائدهم الحبيب»، «هوراه!!»، وكل ذلك كان يحصل بالفعل، إلا أن القارىء لا يستطيع إلا أن يشعر أن ذلك الكتاب جزء من كابوس مفزع. فقط إنسان تخطى حدود الأخلاق الإنسانية يستطيع تصفية خصومه الفكريين ومن ثم يواصل التهكم على أرواحهم. ولذلك فحتى استنتاجاته الصحيحة، بالرغم من بدائيتها تبدو تجديفية.

وحين بدأ ستالين بتحضير تلك المحاضرات لم يكن قد أصبح أسيرا للدوغمائية الايديولوجية بعد. وقد طوّر وزرع تلك الدوغمائية في قلوب الجميع وفي قلبه لدرجة لم يكن ممكناً بعد أن يكتب عن أسلوب لينين كما فعل عام ١٩٢٤. فقد أكد في منتصف العشرينات ـ دون أن يحرف الحقيقة ـ إن الأسلوب اللينيني يجمع ما بين الثورية الروسية والجدية العملية (البراغماتية) الأمريكية. كتب الأمين العام: «إن الجدية الأمريكية في العمل قوة لا تقهر، لا تعترف بالعقبات، تجتاز بإصرارها جميع الحواجز ولا تستطيع أن تبدأ عملاً دون أن تنهيه...»[٢٢] أعتقد أن أحداً ما كان ليتجرأ في سنوات ستالين الأخيرة أن يكرر علانية كلمات القائد: «اتحاد الثورية الروسية والجدية العملية الأمريكية ـ هذا هو جوهر اللينينية في العمل الحزبي

والحكومي»[٢٣]، ولو تجرأ أحد على ذلك لأكل أصابعه ندماً. بالرغم من أن ستالين العشرينات لم يكن يحلق بالفكر ويفتقد لبعد النظر إلا أنه لم يكن قد أنجرّ كلياً للدوغمائية العدائية بعد.

حان الوقت لنتكلم عن فكر ستالين، كما سنعود لهذا الموضوع فيما بعد. لقد تكوّن فكره تحت تأثير الغذاء الديني الدوغمائي وممارسة العمل الثوري والإطلاع على بعض أعمال مؤسسي الاشتراكية العلمية. والفصل الرابع الشهير من كتابه عن تاريخ الحزب يثبت أنه لم يستوعب بعد الفرق بين النظرية والأسلوب أو بين الموضوعي والذاتي أو جوهر قوانين التطور الاجتماعي. فتأكيداته على أن كل ما في الطبيعة والمجتمع مبرمج من قبل الضرورة فيها شيء من الإيمان بالجبرية: «النظام الاشتراكي سيلي النظام الرأسمالي كما يلي النهار الليل». والنظرية الماركسية كالبوصلة على المركب، بدونها سيصل إلى الشاطىء، ولكن بها يصل أسرع. يسخر ستالين من الذين يستمعون لصوت العقل والأخلاق وينادي بالمادية المبتذلة المهووسة بالعنف. وهو يؤكد بالطبع أن «الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي مثال على تطابق العلاقات الانتاجية مع نوع القوى المنتجة...»[٢٤] وتعليلاته دائماً تبدو وكأنها تأكيدات أو أحكام.

وتاريخ الحزب كما كتبه عبارة عن سلسلة من انتصارات البعض وهزائم البعض الآخر ـ الجواسيس والمنافقين والأعداء والمجرمين. ورتب ستالين كل شيء كما في «مضجع بروكروستوس»: كل شيء في الحياة يجب أن يكون كما في النظرية، أي تلك التي يروجها هو. ومسلك كهذا، كما أكد ماركس وإنجلس، يمكن أن يؤدي بالأيديولوجية إلى الطريق الخاطىء. ولكن، لحسن الحظ إن مصير الفلسفة الماركسية ـ اللينينية في نهاية النهايات ليس في أيدي ستالين. ووفقاً لمنطق ستالين فإن كل ما يحدث قاعدة: نمو الأحزاب الشيوعية (أجل!)، وتصفية «الانحراف اليميني» (بلا شك!) و«خيانة» الأحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية (طبيعي!) والخ... فلم يبق مكان في ذلك الفصل للإبداع والخيال والوعي.

أصبح فكر ستالين رهين الرسوم التخطيطية. دعونا نحكم معاً: لقد قرر ستالين أن للدياليكتيك خصائص ثلاثاً ولتطور الخط المعارض مراحل أربع وللمادية خصائص ثلاث وللحزب الأحمر ميز ثلاث وللانتهازية جذور ثلاث وهكذا دواليك. تصنيف كهذا قد يكون مفيداً في قاعات الدراسة، لكن تجريد النظرية بهذه الطريقة وترتيبها في بضع خانات من الخصائص والمزايا والمراحل والفترات، إن ذلك كله يحد من علم الاجتماع ويجعل من العقيدة دوغما.

منذ فترة وأعمال ستالين تتميز بميلها للطقوس. يصعب على المرء تحديد وفرز ظلال أفكار ستالين وانتقالاتها وزلات لسانه وتناقضاته ومنجزاته الفكرية. آراؤه لا تدع مجالاً للبس: فهو صاحب القلم الذي يطور النظرية الماركسية ـ اللينينية، وكل عبارة من عباراته هي برنامج، وكل ما لا يتوافق مع مواقفه يدعو للشك ـ أو على الأرجح، للعدوانية. وما الذي جعل آراءه تبدو بدائية أورثوذكسية

«مستقيمة»؟ إنه التبسيط المشوه والحزم القطعي والتخطيط. يمكننا أن نؤكد أن ستالين كان مقتنعاً بعبقريته الفكرية القوية، إلا وهي التطبيق العملي للنظرية، وهذا ما كان يفتقده العديد من منظري الماركسية. كان ستالين يحاول ـ بشكل آلي في كثير من الأحيان ـ أن يجد تطبيقاً عملياً لكل صغيرة وكبيرة من آرائه النظرية. لكنني سأكرر مرة أخرى أن اتجاه الأمين العام العملي كان خالياً من الجدلية. الآلية والاوتوماتيكية والجبرية كانت تضفي على أعماله طابعاً كاريكاتورياً. ففي كلمته أمام المؤتمر الأول لحركة «الستاخانوفيين» لعموم روسيا (حركة جماهيرية تأسست عام ١٩٣٥ في مناجم الفحم السوفييتية. هدفها: الرفع من انتاجية العمل واستخدام التقنية. سميت على اسم العامل المبادر ستاخانوف.) حلل ستالين أسباب ظهور تلك الحركة، قائلاً: «من الصعب جدا، أيها الرفاق، أن يعيش الإنسان على الحرية فقط. كي يستمتع الإنسان بالحياة يجب أن تتوفر له الحرية بالإضافة للخيرات المادية. ومن مميزات ثورتنا أنها لم تمنح الشعب الحرية فقط، بل ووفرت له المادة واليسر والثقافة كذلك. ولهذا السبب صرنا نتمتع بالحياة، وعلى هذه الأرضية ظهرت حركة «الستاخانوفيين»[٢٥]. لا أعتقد أن هذا التعليل يحتاج لأي تعليق. لقد زرع التبسيط والبدائية في وعي الشعب الروسي. ونحن، على الأغلب، لم نستوعب بعد مدى خطورة نتائج ذلك التلويث لعقول البشر.

ترافقت العشرينات بطرقها لبناء الاشتراكية مع أعمال نظرية عديدة لقادة الحزب. كانت البرافدا و«بلشفيك» تنشران باستمرار مقالات تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وستالين وكالينين وياروسلافسكي وغيرهم ممن كتب حول مستقبل بناء الاشتراكية. ومن هؤلاء من أصدر كتباً عديدة. فتروتسكي، على سبيل المثال، أصدر واحداً وعشرين مجلداً من المختارات خلال العشر سنوات ما بعد الثورة. أما زينوفييف، فأعلنت البرافدا في ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤ أن دار نشر لينينغراد ستصدر مقالاته في اثنين وعشرين مجلداً. لقد قوّمت لجنة الإصدار آنذاك تلك المقالات على أنها «مرجع العامل». كما جاء في البرافدا خبر إصدار «أكتوبر. مختارات من مقالات ف.إ. لينين و ن.أ. بوخارين و ي.ف ستالين». ومن أكثر من طبع لهم في تلك الفترة كان بوخارين: «تناقضات الرأسمالية الحديثة»، «حول السياسة الاقتصادية الجديدة وواجباتنا» وغيرها من المقالات.

حاول ستالين ألا يتخلف عن الآخرين، لكن أغلب أعماله في العشرينات لم تكن تهدف لترويج اللينينية بقدر ما كانت تهدف للنزاع مع قادة المعارضة والأجنحة المختلفة. فهنا كان يرى نفسه كالسمكة في البحر. ويبدو أنه أصبح «منظراً» بفضل نزاعاته مع المعارضة وانتقاداته لرفاق الأمس. فلم يخطىء تروتسكي حينما أشار في كتابه «المدرسة الستالينية للتزوير» إلى أنه على خشبة الصراع مع التروتسكية تبلور فكر ستالين. كانت كلماته في المؤتمرات والاجتماعات وجلسات المكتب السياسي قاسية حازمة قطعية. لكن ستالين كان يسمح لنفسه من وقت لآخر أن يظهر «ضعفاً ليبرالياً». فقد قدم تقريراً في جلسة المكتب السياسي في ١١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٦ «حول إجراءات تخفيف النزاع داخل الحزب». واتضح إن تلك

الاجراءات التخفيفية تتكون من خمس نقاط يجب على قادة المعارضة القبول بها إذا أرادوا البقاء في اللجنة المركزية وإلا سيفصلون منها.

وفي النقاشات مع خصومه الفكريين حصل تغيير لستالين نحو الفصاحة واللذاعة ـ الموجهة لإهانة الأفراد إهانة شخصية، في كثير من الأحيان. كان ستالين يردد كلمات «ثرثار» و«واشي» و«مضلل» و«جاهل» بلا تحفظ. بل وكان الأمين العام يفخر بكونه فظاً ولكن «مستقيماً» في نضاله من أجل وحدة الحزب وطهارة اللينينية وضد التجنحية. وكما نذكر فإن ستالين تمادى في انتقاداته لكامينيف وزينوفييف وسوكولنيكوف في المؤتمر الرابع عشر للحزب. وكأن الفظاظة من إحدى سمات الأمناء العامين. قال ستالين دافعاً القاعة لتأييده والابتسام: «أجل أيها الرفاق، إنني رجل مستقيم وفظ، وأنا لا أنفي ذلك»[٢٦].

فعلاً، لقد كان ستالين يتمادى في استقامته وفظاظته. ففي رده على رسالة رجل القانون س. بوكروفسكي التي أبان فيها موقف ستالين من نظرية الثورة البروليتارية، نعته الأمين العام في البداية بـ«الوقح المعجب بنفسه»، ثم أنهى رده: «... أنت لا تستوعب أبداً ـ أجل، أبداً ـ مسألة تحول الثورة البرجوازية إلى ثورة بروليتارية... ونستنتج أن من يقلب الأمور رأساً على عقب بهذه البساطة يجب أن يملك وقاحة الجاهل وغرور بهلوان ذي قدرات محدودة...»[٢٧]. هكذا كان أسلوب ستالين اللغوي. وحتى براهينه الجادة في نزاعاته مع المعارضة فكثيراً ما كانت مليئة بالهجاء. فقد أعطى نفسه الحق في تقرير الحق من الباطل. لم يكن لمؤسسي الاشتراكية العلمية ليسمحوا لأنفسهم بذلك لأنهم كانوا يدركون أن ذلك سيؤدي إلى ما وصفه رابيندرانات تاغور بـ:

في وجه الأخطاء نغلق الباب
والحقيقة في حيرة من نفسها:
كيف أدخل أنا الآن؟

كلما زادت هيبة منصب الأمين العام وأهميته السياسية كلما لجأ ستالين لمقولاته كبراهين لصحة وجهة نظره. وأصبحت مقولاته حقائق «منزلة». ومع مرور الوقت لم يعد ستالين يلاحظ ذلك. ففي إحدى محاضراته في جامعة سفيرلوفسك تحت عنوان «قضايا اللينينية» يعطي ستالين تعريفاً لها يعتبره الأصح والأشمل، كما يستشهد بأقواله نفسه مرافقاً ذلك بتقويمات كـ: «كل ما قلته صحيح لأنه ينبع من اللينينية»، وهكذا دواليك. إن اعتزاز الأمين العام بآرائه الشخصية لمذهل حقاً. سيعتاد ستالين على الطلب من القراء العودة إلى كتبه ومقالاته كمراجع. ففي رده على بوكييف «حول إمكانية بناء الاشتراكية في البلاد» أنه لا يكتفي بإخفاء أن هذه الفكرة كانت فكرة لينين كلياً، بل ولا يخجل من إظهار نفسه كصاحبها. ولا يريد ستالين إجهاد نفسه بالبراهين فيطلب بكل صراحة في ملحق عمله من القارئ: «لو أخذتم العدد الثالث من «بلشفيك» وقرأتم مقالي، لأصبح الأمر سهلاً بالنسبة لكم». فيما يخص رده الخاص على بوكييف يردد ستالين فكرة معينة بإصرار: «الطبقة

العاملة والفلاحون قادرون على القضاء على الرأسماليين وبناء مجتمع اشتراكي في بلادنا»، و«لو لم نكن نريد القضاء على رأسماليينا... فنحن استولينا على السلطة عبثاً...« الخ... من الواضح أن ستالين كان يركز عام ١٩٢٦ على القضاء على مخلفات الطبقات الاستغلالية، ولكن ذلك لم يكن مهمته الأساسية. مع الوقت سيتحول ذلك إلى المفهوم الخاطىء أن الصراع الطبقي يتفاقم مع اقتراب الاشتراكية. وسيصبح القضاء على الطبقات من أهم مهام ستالين ـ إن لم نقل الأهم.

بالرغم من المستوى المتدني والبدائي لاستنتاجات ستالين النظرية إلا أنه كان يحب صياغة التعريفات العلمية. ومن تعريفاته الشهيرة ما يخص جوهر اللينينية ومفهوم الأمة والاستراتيجية والتكتيك السياسيين ومفهوم الانحراف وغيرها. من الممكن أن تكون هذه التعريفات قد لعبت دوراً مهماً في ترويج اللينينية. ولكن كون ستالين دوغمائي التفكير فإنه كان يحول تعاريفه لقوانين. فقد كان قادراً على بناء كلمة كاملة لإثبات عدم فهم عضو من أعضاء المعارضة لنقطة معينة.

ولكن أكثر الأمور سلبية في إبداع ستالين النظري كان انحرافه عن الأسس الإنسانية للاشتراكية وتأسيس «أشتراكية تضحية» إذا جاز التعبير. ومع الوقت سيصبح من السهل على الأمين العام اللجوء للتنكيل الجماعي واستعمال العنف كوسيلة أساسية لبناء الاشتراكية. وإن التحليل العميق لأفكاره وطرق وأساليب تطبيقها يؤدي بنا إلى الاستنتاج أن الأمين العام انحرف تدريجياً عن اللينينية. إن هذا قد يبدو متناقضاً ولكنه حقيقة: إن ستالين بقي بلشفياً ولكنه لم يصبح لينينياً في نهاية المطاف! وقد كان ذلك الرجل قائد الحزب! فالبرغم من وجود عدة أنواع من الاشتراكية ـ الطوباوية والبرجوازية الصغيرة والعسكرية والعلمية ـ إلا أن ستالين فضل أن يؤسس نوعاً جديداً. لقد كانت اشتراكيته بيروقراطية تحمل صفات الاشتراكية الدوغمائية والعسكرية. أي أنها كانت ستالينية. لكنه لم يستطع ـ بل لم يلحق ـ تشويه الاشتراكية وتدمير ما بناه الملايين. ونحن نعلم الآن أن المجتمع لا يكون إشتراكياً إذا كانت فيه الجماعة أهم من الفرد وحيث كل الأمور يخطط لها من الأعلى. فأساس الاشتراكية الحقيقية هو الإنسان، والمفهوم اللينيني للاشتراكية يتكون نظرياً من الديمقراطية والإنسانية والعدالة الاجتماعية. ومنهج كهذا يتعارض كلياً والعنف وإبعاد الشعب عن السلطة وفكرة القائد ـ شبه الإله. ولكن لا لينين ولا غيره استطاع بناء اشتراكية كهذه. كلام، كلام...

كي لا نظلم، علينا الإشارة إلى أن الأمين العام كان يكتب مقالاته وكلماته وتعليقاته بنفسه. فمساعدوه الذين عملوا معه في فترات مختلفة من حكمه، وشخصيات مختلفة من جهازه، يشهدون أنه بالرغم من انشغالاته الكثيرة فقد كان ستالين «يتعب على نفسه». لقد كان يطلب يومياً كتباً معينة، كما كان يستلم مقتطفات من مقالات مهمة ولوائح بما تم نشره في الصحافة الحزبية وموجز أخبار الصحف الأجنبية والرسائل الأكثر أهمية. ففي إحدى المرات جلس مطولاً على قراءة رسالة من برلين مرسلة من ف.ب. كريموف، «فيلا نينا»، فالديمار شتراسيه (شارع) ـ ١١، تسيليندورف. لقد كانت تلك الرسالة الغريبة حقاً من أحد «الغابرين»

الذين هربوا عام ١٩١٧ ولكن لا يزالون يراقبون ما يجري في روسيا بحماس وألم. كان ستالين يقرأ ويضع خطوطاً تحت الجمل الهامة: «اكتب لكم بما أنكم من أحد أبرز قادة روسيا اليوم. أنا مسالم وأممي، لكنني أكن لروسيا شعوراً بالحب لا أكنه لأي بلد آخر. ومن الممكن أنني أرى من هنا أشياء ليست واضحة تماماً لكم من الداخل بالرغم من سعة درايتكم. (وهنا سطّر الأمين العام باللون الأحمر مرتين ـ الكاتب)...

يجب أن تبقى السلطة في أيديكم يا قادة البرولتياريا مهما كان الثمن. وتذكروا أن «من ليس قادراً على ارتكاب الفظائع لا يمكنه أن يكون رجل دولة». وأهم شيء هو الجيش. فهو يجب ألا يحارب ولكنه يجب أن يكون موجوداً. يجب المبالغة في إعلام الناس عن وجوده. كلما زادت العروض العسكرية كلما كان ذلك أفضل... ومهما كان الثمن باهظاً يجب الاهتمام بازدياد عدد سكان روسيا وبتربيتهم الكاملة. فإن ذلك هو أخطر الأسلحة ضد العالم الرأسمالي. من الواضح اليوم أن روسيا تستطيع تغيير قانون التاريخ. قد تظل الكفة اليسارية هي الأثقل... يجب ألا يكون هناك كذب، ولكن يجب أن تكون هناك حقيقتان: يتم التكتم عن الحقيقة الكبرى لفترة معينة وبذلك يجبر الناس على الإيمان بالصغرى، وعندما يحين الوقت تتراجع الصغرى لصالح الكبرى... يجب عدم وضع الدين في الزاوية، إن ذلك يزيد من قوته. شجعوا الرأسمال الخاص. ما دامت السلطة الحكومية في أيديكم إن ذلك لا يشكل خطراً عليكم... يجب تشجيع الإبداع الروسي دون تحفظ. أعني الأدب وربما الباليه. يجب أن يتم نشر لآلىء روسية حديثة لامعة في جميع أنحاء العالم. إن ذلك يساعد في بعض الأحيان أكثر بكثير من الدعاية والتحريض الواسعين... لقد أنجزت الثورة الكثير حتى الآن. العالم بحاجة لنتائج واقعية على الأرض. يجب الوفاء بالوعود حول يسر حياة البروليتاريا. أما أنتم فحتى الآن تماطلون أكثر من النظام القيصري. توجد حالات تكون المماطلة فيها مجدية، ولكن بشكل عام إن سياسة المماطلة هذه تؤدي لانهيار...»[٢٩].

لم يعد ستالين يضع سطوراً وإشارات على الرسالة لأن كل سطر كان يبدو له ذكياً وموزوناً. بل جلس يتفحصها مطولاً ونظر مرة أخرى إلى الإمضاء العريض الكبير: «فل. (مختصر لِـ فلاديمير ـ المترجم) كريموف»، والملاحظة: «أرجو ألا تنشروا رسالتي هذه»، وضع ستالين الرسالة في الملف حيث كانت توضع الأوراق التي يعود لدراستها فيما بعد.

خلال النصف الثاني من العشرينات دعا ستالين أكثر من مرة أساتذة كباراً من الأكاديميتين الصناعية والشيوعية لإستشارتهم في مواضيع العلوم الاجتماعية. فقد كان يشعر بضعفه في مجال الفلسفة، كانت معلوماته التاريخية أقوى بكثير. أما علم الإقتصاد، فلم يكن تواقاً لدراسته. وفي الوقت ذاته فقد ساعدته خبرة العمل الطويلة فترة احتلاله لمنصب الأمين العام حيث كان عليه حل مشاكل كثيرة معقدة، ساعدته ليكوّن حساً رفيعاً وعقلاً عملياً قادراً على تقويم الوضع بسرعة وتحديد الحلقات الأهم في سلاسل الأحداث. كما كان لا بد لملاحظته القوية وذاكرته

الممتازة للوجوه والأسماء والحقائق وخبرته العالية في التعامل مع المثقفين من محيط لينين، كان لا بد لها أن تصنع لستالين شيئاً مميزاً. فبالرغم من أنه لم يكن منظراً إلا أنه كان يتفوق على العديد من رفاقه في منهجه البراغماتي للنظرية، في قدرته على إيجاد تطبيقات عملية لها على أكمل وجه.

لم يكد لينين يُتوفى حتى بدأ الكثيرون يشعرون بقبضة ستالين الحديدية. لم يكن الأمين العام ينسى شيئاً أو يغفر شيئاً. عند وضعه لهدف معين أو مهمة كان يباشر العمل لتحقيقهما بحذاقة وإصرار. كما كان يتبع هذا الخط في مؤلفاته. وبالطبع، كان يقوم ببعض التعديلات في مقالاته وكتيباته، لكنه بشكل عام كان يردد بإصرار ما سبق وأكده في أعمال أخرى. كان أسلوبه هذا يبهر المحيطين به، ومع الوقت أصبحت كلماته مقولات ثابتة. فعندما قال ستالين في إحدى المرات إن «اللينينية هي نظرية وتكتيك الثورة البروليتارية ونظرية وتكتيك ديكتاتورية البروليتاريا بشكل خاص»، أصبح ذلك التعريف قانوناً. ومما لا ريب فيه أن ذلك التعريف ساعد في فترة من الفترات ـ في فترة الصراع المصيري من أجل النظام الجديد ـ على تفسير جوهر وأهداف لينين. لكن هذه «المعادلة» بقيت على حالها وبليت بالرغم من أنها لم تكن بمستوى النظرية والممارسة اللينينية. وقصر الأفكار اللينينية على نظرية وتكتيك ديكتاتورية البروليتاريا كان حجر الأساس لكثير من العقبات في عملية بناء الإشتراكية.

لقد كان من الواضح أن اللينينية ليست نظاماً فلسفياً اقتصادياً اجتماعياً سياسياً لا يحق لأحد المساس به. لكن الانحراف عن مفهوم ستالين للينينية كان يعتبر كفراً انتهازياً ولا أريد أن أقول ما كانت نتائج ذلك الكفر.

لقد كان ستالين يجيد تبسيط النظرية الماركسية ـ اللينينية ـ أحياناً لدرجة البدائية. أعتقد أن ريمارك هو الذي قال إن الديكتاتور يتكون عندما يبدأ بالتبسيط. أكرر مرة أخرى أن ستالين هو صاحب «فضل» زرع الخططية في النظرية وفي تاريخ الحزب. من الممكن أن الضرورة هي التي حكمت على وجود هكذا تبسيط وسطحية لمفاهيم «ديكتاتورية البروليتاريا» و«الصراع الطبقي» و«الأسلوب الثوري» و«قوانين الديالكتيك الرئيسية»، فقد كان مستوى الثقافة لدى الشعب متدنياً جداً. ولكن قريباً، في نهاية العشرينات، سيصبح نشر أعمال جادة وعميقة من سابع المستحيلات. كان على الجميع دراسة ومدح التعليق على أعمال ستالين فقط لا غير. عاشت العلوم الاجتماعية فترة خمود وركود استمرت عدة عقود. وستالين هو أول من وفق بين الاستنتاجات النظرية والواقع الاجتماعي. على ضوء المفاهيم المبسطة ـ والخاطئة أحياناً ـ بدأت تنمو أفكار دوغمائية بسرعة رهيبة. والدوغمائية كالسفينة الجانحة: الأمواج تسبح والسفينة لا تتحرك من مكانها لكنها تحافظ على الشعور بالحركة. كان ستالين يتعامل مع النظرية بشكل براغماتي بحت معتقداً أن النظرية الحقيقية يجب أن تكون كالإسمنت في بلادها... وكالمتفجرة في الخارج...

سيصبح العديد من استنتاجاته سبب مصائب اجتماعية كثيرة. يخطر على

ذهني أحياناً أن الأفكار الجديدة الجميلة لها ألوان: إمّا البرتقالي أو الليلكي أو الأرجواني أو الأزرق الزمردي... هي كالشعاع تخترق الضباب والظلام لتعطي الحقيقة شكلاً. لكن يجب أن نجيد اكتشاف هذه الألوان. ففكر ستالين كان ذا لون رمادي تحول من داكن إلى أدكن مع مرور الوقت. دعونا نحكم معاً.

في ١٤ ـ ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٤ عقد اجتماع عام للجنة المركزية لمناقشة قضايا عدة. قدم زينوفييف تقريراً حول الوضع العالمي انتقد فيه فشل الحزب في ألمانيا حيث، حسب رأي العديدين، لم يتم استغلال فرصة الوضع الثوري الذي تكون. أما ستالين، فركز في كلمته على دور راديك الذي كان في ألمانيا في تلك الأحداث، قائلاً: «أنا ضد التنكيل براديك بسبب الأخطاء التي ارتكبها فيما يخص القضية الألمانية. وهو ارتكب عدداً كبيراً منها، سأذكر هنا سبعة منها». أجل، إن نشر أخطاء الغير على حبل طويل كان من أشغال ستالين المفضلة. وأنا لن أكرر هنا جميع أخطاء راديك، بل سأذكر «الرابع» منها وفقاً لترتيب ستالين. «يعتبر راديك ـ تابع الأمين العام ـ إن عدونا الأساسي في ألمانيا هو الفاشية، وأننا علينا التحالف مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين. أما استنتاجنا نحن، فهو أننا علينا الصراع حتى الموت مع الاشتراكية ـ الديمقراطية...»[٣١]. ولم يكن هذا مجرد خطأ نظري ساذج، فقصر نظر ستالين السياسي في تقويمه للفاشية سيدفع ثمنه غالياً الشيوعيون والقوى الديمقراطية جمعاء. ففهمه «الرمادي» ـ أو بالأصح الخاطىء ـ لمشكلة بهذه الأهمية يثبت عدم قدرته على التحليل العميق للعلاقات المعقدة.

وإليكم مثالاً آخر على ضحالته النظرية. في الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤ كان موضوع العمل في القرية على جدول الأعمال. قام مولوتوف بتقديم تقرير بهذا الصدد. كما ألقى زينوفييف كلمة طويلة. وهو، مثله مثل مولوتوف وستالين، ليس خبيراً في الأمور الزراعية. لكن، وبالرغم من ذلك فهو أيضاً استطاع تقويم الوضع العام بشكل جيد، قائلاً: «نحن لا نناقش الآن موضوع العمل في القرية فقط، بل والموقف من الفلاحين بشكل عام، أي أننا نناقش موضوعاً أشمل قد لا يلغى من جدول الأعمال لعدة سنوات لأنه يعتمد على سياستنا فيما يخص تثبيت الديكتاتورية في الوضع الراهن»[٣٢]. أما ستالين فسيحاول في كلمته إعطاء الاقتراحات السياسية والنظرية التي ليست سوى أجنّة أخطاء المستقبل الكبيرة. أول ما علينا عمله هو «كسب الفلاحين من جديد»، وثانياً علينا أن نرى أن «ميدان المعركة قد تغير»، وثالثاً «يجب إنشاء كوادر في القرية»[٣٣]. حصل ذلك عام ١٩٢٤، لكن كلمة ستالين كانت وكأنما خارجة من عام ١٩٢٩... يملؤها «ثقب النظر» في ترتيب وتعداد الأخطاء الجسيمة. هكذا كان ستالين مفسّر اللينينية ومبسطها.

لن أتطرق هنا لآراء ستالين النظرية في السنوات التي تلت تسلمه للحكم. لكنني سأذكر فقط أنه عندما حان وقت الاختيار والصراع من أجل ترويج الأفكار اللينينية بين الجماهير شعر ستالين ولأول مرة مدى تأثير المجتمع ليس على رجال العلم فقط بل والأدب والفن أيضاً.

الاضطراب الفكري

كتب الفيلسوف ي. تروبيتسكي، أحد أتباع ف. سولوفيوف، في عمله «الوحشان» أن روسيا يهددها قطبان: «وحش الرجعية الأسود ووحش الثورة الأحمر». وكان هذان «الوحشان» يتمثلان فعلياً في العديد من رجال الثقافة. فمنهم من كان يرفض حتى فكرة الثورة بشكل صريح (ز. غيبيوس، د. ميريجوفسكي، أ. بونين)، ومنهم من كان يتمادى في مدحها (د. بيدني، أ. جاروف، أ. أوتكين، م. سفيتلوف). لكن الأغلبية الساحقة لم تأخذ موقفاً محدداً في الحال.

كتب كيبلينغ كلمات جميلة مغزاها أن: الليل بدأت نهايته لكن الفجر لن يهدده قبل الأوان المحدد له... وفي روسيا كان القديم قد بدأت نهايته لكن لم يكن من المعقول أن يتوقع أن جميع الفنانين سيهللون لقدوم الفجر. كان الاستياء يزداد صخباً في شارع الأدب الرئيسي وفي الأزقة. ومن أكثر الأسئلة التي كان الفنانون المثقفون يطرحونها هي: ما مكان الثقافة في «المعبد الجديد»؟ كيف سيكون مدى حرية الإبداع؟ كيف ستكون العلاقة مع القيم الروحية القديمة؟ كان بعض الكتّاب جادّين في اعتبارهم أن لا مستقبل للأدب الروسي إلا في الماضي. أخاف إعصار الثورة العديد من أصحاب القلم الذين رأوا فيه خطراً ليس لهم فحسب بل وللثقافة بشكل عام. أريد هنا أن أعرض وجهة نظري الشخصية حول موقف المثقفين من الثورة، الاشتراكية، ذلك الجديد الذي ولد نتيجة لآلام روسيا القاسية.

رفض معظم المثقفين الثورة. لكن بالطبع، لم يصبح جميع الذين رفضوها أعداء لها. كلا، على الأغلب إن العديد من المثقفين كانوا ليرضوا بنتائج ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية، بتشكيل برلمان ما وغيره من صفات الحكم الليبرالي. واستمر ضياع واضطراب المثقفين الروس الفكري سنوات عدة، حصل بعدها انقسام جذري في صفوفهم. فمنهم من تقبل أفكار أكتوبر كلياً ومنهم من رفضها كلياً، فبعد تردد طويل بانت الانحيازات. من الجدير بالذكر هنا أن مختارات نشطاء من معسكر البيض صدرت في براغ عام ١٩٢١ تحت عنوان «تغير المراحل» دعت البيض للاستسلام. كتب فيها كلوتشنيكوف وبوتيوخين وبوبريتشيف ـ بوشكين وأوستريالوف. إن «سخرية القدر» شاءت أن يصبح البلاشفة «حفظة القضية الروسية الوطنية». وبالمناسبة، لقد ذكر ستالين في العديد من خطاباته في العشرينات كلمات أوستريالوف متطرقاً لفكرة «تغير المراحل» كرمز انهيار المعسكر المعادي. كان مؤلفو ذلك الكتاب يعتبرون البلشفية فكرة طوباوية لكنهم أدركوا أن التاريخ سينكل وبدأ ينكل بهم. دفع الحنين للوطن والميل للنزعة السلافية جزءاً من المثقفين الروس لتأييد روسيا الاشتراكية وتقبل الواقع الجديد متحملين الألم الناتج عن ذلك وطامسين غريزتهم الطبقية.

لكن أكرر مرة أخرى، أن الأغلبية الساحقة من المتنورين لم تتبنّ البلشفية. فقد جاء في مجلة «بوليتر ابوتنيك» في عام ١٩٢٢ مقال بعنوان «روسيا الهاربة»:

إن «ثورة أكتوبر العظيمة لديها جبناؤها... والجميع يعلم بأعمال روسيا الهاربة تلك البطولية وبمنهجها في الحياة وطريقتها في التفكير. إنها لا تتميز حتى بالجمال الخريفي الحزين الذي يمكن إحساسه لدى ممثلي الإقطاعية الغابرة خلال فترة الثورة الفرنسية الكبرى. فهنا تسود العفونة والخساسة المنحطة والمشاحنة والتزلف المكائدي الصغير والكبير الذي يدعي بصوت عالٍ أنه «صناعة السياسة»...»(٣٤)».

أصبحت زينايدا غيبيوس رمز التطرف في كراهية الثورة. في أعمالها «الكتاب الرمادي» و«المفكرة السوداء» رفضت ـ ليس بلا سبب ـ أفكار الثورة التي، حسب رأيها، دفنت الثقافة الروسية:

كل شيء بلا جدوى: الروح أصيبت بالعمى،
ونحن ستأكلنا الديدان
ولم يبق حتى رماد
من الحقيقة الروسية على الأرض.

لقد شبهت غيبيوس روسيا بـ«فتاة فارغة العين تقوم بسقي الحجارة الباردة». علقت غيبيوس بفخر على موقفها السياسي وزوجها ميريجكوفسكي، قائلة: «على الأغلب إننا الوحيدان اللذان لا يزالان يحافظان على بياض حرية المهجر». وكانا يريان أن وطنهما «يحتله المسيح الدجال».

وحتى تروتسكي الذي كان يتفهم اضطرابات المتنورين الفكرية تلك ويعتبرها حاصلة لا محالة، لم يحتمل «نق» غيبيوس ذلك وعلق عليه تعليقاً لاذعاً. فقد كتب «إن فنها الذي تسود فيه المسيحية الغامضة المتصوفة الشهوانية تغير منذ أن «داس الجندي الأحمر العتيق على جاربها الرقيق. بدأت عندها تولول بصوت ساحر مهووس باعتبار ممتلكاتها الشخصية مقدسة»(٣٥).

لم يكن ستالين من خبراء علم الجمال، وكان اطلاعه على هذه الأمور أضيق بكثير من اطلاع تروتسكي واسع الثقافة، فلم تكن التقاليد والنزعات المنحطة الرجعية لتثير اهتمامه. لا أعتقد أنه كان مطلعاً على أعمال غيبيوس أو فالمونت أو لوسكي أو أوسمورغين أو شميليوف أو غيرهم من الكتّاب الذين تركوا أثراً ما في الأدب والثقافة الروسية. فتفكيره تجريبي يفتقد للغنى العاطفي، وهو ينظر إلى الثقافة من منظار عملي بحت: «تساعد»، «لا تساعد»، «تضايق» «تؤذي» ـ تلك هي المفاهيم التي يفهمها والمقاييس التي يقيس بها. سيعبّر ستالين عن موقفه تجاه الأدب والفن بعد عقدين من الزمان في قانونه الشهير حول مجلتي «زفيزدا» و«لينينغراد». لقد ظل الأدب والفن بالنسبة له حتى النهاية يفرزان قطبين: «معنا» و«ضدنا».

كي لا نظلم، علينا الذكر أن موجة الهجرة بعد الثورة كانت كبيرة حقاً (٢ ـ ٢,٥ مليون شخص) تتكون بشكل أساسي من الأثرياء والمثقفين بما فيهم الأدباء

والفنانين (م.أ. ألدانوف، ك. بيلمونت، ب. بوبوريكين، أ. بونين، د. بوردليوك، ز. غيبيوس، أ. كوبرين، د. ميرجكوفسكي، أ. سيفيريانين، أ. تولستوي، ساشا تشورني، ف. ايفانوف، غ. ايفانوف، ف. خوداسيفيتش، أ. شميليوف، م. تسفيتاييفا، ف. نابوكوف ـ سيرين وغيرهم). ولم يكن جميع هؤلاء معادين لروسيا السوفييتية. ولم يكن مصيرهم واحداً. منهم من لقي حتفه على أسرّة ملاجىء باريس أو أحياء شانغهاي القذرة، ومنهم من عاد ليموت على أرض الوطن. منهم من استمر في الإبداع الأدبي في الخارج، ومنهم من لم يستطع التأقلم مع المجتمع الجديد وصمت للأبد، ومنهم من خرج عن القانون.

اختلف المثقفون في الآراء داخل روسيا. كذلك تكونت اتحادات ومنظمات كُتّابية مختلفة: «اتحاد الكُتّاب الفلاحين» و«اخوان سيرابيون» و«العبور» و«اتحاد فناني روسيا الثورة» و«الورشة» و«الجبهة اليسارية للفنون» وغيرهم. وداخل جدران الأندية الباردة كانت تدور نقاشات حادة حول الثقافة والأدب والسياسية البروليتارية وإمكانية الإستفادة من بعض قيم الثقافة البرجوازية. ولّدت عملية الإختمار الأدبي والإضطراب الفكري تلك مفاهيم متنازعاً عليها وأفكاراً خاطئة. ظهرت فرصة تاريخية فريدة من نوعها لتعزيز تعددية الآراء في مجال الأدب والفن ـ فلم تكن قد تكرست بعد أساليب الأمر التي تؤدي بالفنون والأدب للهلاك.

لم يكن ستالين يهتم بالآداب والفنون، لذلك لم ينتبه في بادىء الأمر «لخطورة» تلك الفسيفساء من المدارس الأدبية، خاصة وأن معظم الكتّاب كرّسوا مؤلفاتهم (بطرقهم الخاصة) للثورة والعالم الجديد والإنسان و«آفاق المستقبل». وحتى المدارس الطليعية بطائفيتها و«أساليبها الراديكالية» كانت تبدو ساذجة مسلية، لا أكثر. لم تكن اللجنة المركزية قد أصبحت جهازاً ديكتاتورياً بعد، لكنها ستصبح كذلك عما قريب. استطاعت تعددية الآراء الفنية تلك، الضرورية للإبداع كالهواء، أن تمنح التاريخ في فترة قصيرة عدداً كبيراً من الأعمال السينمائية والأدبية والفنية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الوطني الثقافي الروسي.

كانت العشرينات بشكل عام فترة تحرر وإبداع وتجديد فكري جعلت الفنانين والكتّاب والمسرحيين والسينمائيين يتحدثون كثيراً عن حرية الإبداع. ولدت الثورة لدى الكتّاب طموحاً لإدراك سر العظمة والخلود والإستمرار. كما كتبوا كثيراً ـ وبتطرف أحياناً ـ حول العبقرية والعباقرة. وبالمناسبة، فإذا كانت العبقرية هي أعلى درجة من درجات هرم الإبداع ـ وهي كذلك، كما نعلم ـ أليس من المنطق أن يطمح الكاتب للوصول إليها؟ ألم يُصِب الكاتب والفيلسوف الروسي العظيم ن. بيرديايف، الذي لا يزال لا يُقوَّم حق التقويم حتى في يومنا هذا، حين كتب أن «تأليه المقدسات يجب يحل محله تأليه العبقرية؟».

دفعت الثورة العديد من الكتّاب للنضوج الإبداعي. يبدو أن النقاشات المستمرة والتنافس بين المدارس الفنية (الأدبية) المختلفة خلقت جواً طبيعياً بنّاءاً. رداً على مجلة «في المنصب»، نشرت مجلة «بلشفيك» في عددين من أعداد عام ١٩٢٦ مقالاً

للكاتب ب. إيونوف حول الثقافة البروليتارية تحت عنوان «معمعة الـ«في المنصب»ية» ينتقد فيه أركان الـ«في منصب»ية» فاردين و أفيرباخ اللذين كان ينشران أعمالهما على صفحات تلك المجلة. أكدت مجلة «بلشفيك» أنه لا مكان في العالم «لفن نقي» لا علاقة له بالعواصف الإجتماعية والإضطرابات الإقتصادية والنزاعات الطبقية. ستنشر «بلشفيك» بعد فترة رد ليونيد أفيرباخ على ب. إيونوف مفاده أن الثورة الثقافية لا بد أن يرافقها نزاع طبقي: «سنرى من سيغلب الآخر - أستستطيع الجماهير تحطيم بناء الثقافة القديمة وانتقاء ما تحتاجه من طوبه، أم إن ذلك البناء سيكون أقوى ويصمد في وجه «الثقافة» البروليتارية؟»(٣٦). لمن المؤسف حقاً أن ذلك الجو الصحي ستعصره خلال بضع سنوات معصرة البيروقراطية والأحادية لتستخرج «زيوتاً» موحدة متجانسة من الكتب كالصحف اليومية؛ مات الجزء الأكبر منها وتوارى إلى عالم النسيان.

سيصدر قانون عما قريب يفيد بضرورة إدارة العمليات الثقافية إدارة حكومية. ومن أكثر المقالات تميزاً في هذا المجال ذلك الذي صدر في مجلة «بلشفيك» تحت عنوان «كوادر الأمر والثورة الثقافية» جاء فيه: إن مسألة «إنشاء كادر ثقافي «أمري» من أجل بناء الإشتراكية» هي مسألة سياسية(٣٧). وبالطبع، فعندما أنشيء ذلك الكادر الثقافي «الأمري» بدأت تنهار الكنائس وتختفي الإتحادات الفنية وتصمت الشخصيات الفريدة. هكذا كان مصير مجموعة «الشعراء الفلاحين» والتي كان س. يسينين أبرز وجه فيها. مصيرهم يبعث الحزن في القلوب. من المؤسف حقاً أنه كان لبوخارين يد في ذلك. يبدو أنه لم يكن قد تخلّص بعد من راديكالية أيامه الأولى. أخذت حرية الإبداع تتبرمج أكثر فأكثر، أي أنها أخذت تتقلص والفن البعيد عن الحرية والروحانية الإنسانية ليس سوى فن مزيف.

بالطبع، إن الجميع يشكك في ضرورة استبدال أساليب القيادة الفكرية السياسية بالأوامر. فهناك مجالات عدة حيث كانت السياسة تملي إرادتها وستظل تمليها، لكن هناك مجالات أخرى على السياسة فيها أن تستكفي بدور المتعاون فقط. وتوجد مجالات لا يستحسن فيها استعمال «الأدوات السياسية» لئلا تنتج عن ذلك أمور لم تكن في الحسبان.

كان ستالين يترقب عملية «التخمر» الأدبي عن كثب مدركاً أن الثورة الثقافية، التي أحدثت تغيراً جذرياً في الوعي الإجتماعي، سوف تزيد من اهتمام الجماهير بالقيم الثقافية بشكل عام، وبالأدب بشكل خاص. ففي منتصف العشرينات كانت الأمية قد تقلصت بشكل ملفت للنظر، وخصوصاً في الجمهوريات. في عام ١٩٢٥ - وبالمقارنة مع عام ١٩٢٢ - تضاعف عدد العاملين في جورجيا الذين يجيدون القراءة والكتابة خمس عشرة مرة، وفي قازاخستان - خمس مرات، وفي كرغيزيا - أربع مرات. كان الوضع في الجمهوريات الأخرى مشابهاً. أصبحت نوادي العمال (في المدينة) والأكواخ - المكتبات (في القرية) مراكز ثقافية حقيقية. تضاعف عدد نسخ المطبوعات الدورية ثلاث مرات بالمقارنة مع عام ١٩١٣. بدأت مشاريع ضخمة لتشييد المكتبات، كما أنشئت «ستوديوهات» سينمائية في كل من أوديسا وأريفان

(أريوان) وطشقند وباكو. ازداد عدد المطبوعات الأدبية.

ناقش المكتب السياسي مراراً ضرورة تأمين ظروف أفضل للرفع من مستوى الجماهير الثقافي، وتأثيرالفكر البلشفي على الثقافة بشكل عام. في حزيران (يونيو) عام ١٩٢٥ وافق المكتب السياسي على قرار «حول سياسة الحزب في مجال الأدب» أكد فيه على ضرورة الحفاظ على والإهتمام بالأدباء والفنانين القدماء الذين تقبلوا الثورة، كما شدد ـ باقتراح من ستالين ـ على أهمية مواصلة النضال ضد نزعات «تبديل المراحل». ومن أهم ما ورد في تلك الوثيقة أن «الحزب عليه منع جميع محاولات التدخل الإداري غير المختص والبدائي في الشؤون الأدبية»[٣٨].

وكما نرى، فإن اللجنة المركزية اتبعت في أول سنوات استلامها للحكم وصية لينين بأن «الإشتراكية الحقيقية بحاجة ماسة «للثقافة. فهنا لا تنفع الوقاحة أو الضغط، أو الجرأة، أو الحيوية، أو أية ميزة إنسانية مهما كانت جيدة»[٣٩]. لم يكونوا قد نسوا بعد ما قاله لهم لينين بأن الثقافة الجديدة لا يمكنها أن تولد في مكان فارغ، لكن، وللأسف الشديد، سيأتي يوم في الثلاثينات لن يذكر أحد فيه كلمات لينين هذه.

لم يكن الأمين العام مطلعاً إطلاعاً جيداً على الأدب الأوروبي الغربي الكلاسيكي، فلم يكن يثق بالغرب بشكل عام، ولا بديمقراطيته «المنحلة». لكن مساعدوه كانوا يرفعون له التقارير حول ما جد طبعه من كتب ومقالات لكتاب بروليتاريين. من الطبيعي أنه لم يكن بمقدوره قراءة كل ما يُطبع، لكن من ضمن الكتب التي حُفظت في مكتبته ـ التي سيتم تسريحها لتحتوي فقط على الكتب التي دوّن فيها ملاحظاته ـ توجد مجلدات وكتيبات ذات غُلُف رخيصة الثمن من طبعات تلك الفترة كتب فيها الأمين العام ملاحظاته بالخط الأحمر والأزرق وبالرصاص. وبالمناسبة، كان ستالين يستخدم أقلام الرصاص حمراء وزرقاء اللون في كتابة معظم قراراته وملاحظاته. أصبح العديد من زملائه (من بينهم فوروشيلوف)، رغبة أو رهبة، يقلدونه في ذلك. وبحكم الملاحظات المكتوبة بخط يده يمكننا أن نؤكد أن ستالين أطلع على «الإنتفاضة» و«تشابابيف» للكاتب الروسي د. فورمانوف، و«المجرى الحديدي» للكاتب سيرافيموفيتش، وعلى قصص ف. إيفانوف، و«الإسمنت» للكاتب ف. غلادكوف، وأعمال م. غوركي الذي كان الأمين العام يحبه كثيراً، وأشعار أ. بيزيمينسكي ود. بيدني وس. يسينين وغيرهم من مشاهير الأدب الروسي. كما قرأ قصة «للتخزين» للكاتب الروائي أ. نابوكوف، لكن يبدو أن الأمين العام لم يستجب، ولم يفهم قدرة ذلك الكاتب الموهوب على التوغل في أعماق النفس الإنسانية. لقد أثارت شخصية نابوكوف الباحثة «الشيطانية التي لا تعرف الراحة» غضب وضجر ستالين الذي أفضى بذلك ذات مرة لفادييف.

كان ستالين يحب المسرح والسينما، ولكن بطريقته الخاصة، كما يحب الإقطاعي مسرحه الذي يمثل فيه عبيده. كان الأمين العام خلال الثلاثينات والأربعينات من رواد مسرح «البولشوي»، كما كان يشاهد في الكرملين وفي مصيفه

ما يجدّ من أفلام باستمرار. ونظراً لانعزاليته، كانت تلك الأفلام السينمائية بشكل خاص، «نافذة تطل على العالم». لم يكن ستالين من محبي فن الرسم ولم يُخفِ أن ذوقه في هذا المجال ليس بالمستوى اللازم. لم يكن يناقش مواضيع الثقافة الفنية في دائرة المكتب السياسي فقط، حيث كان معظم أعضائه لا يقدرون الفن، بل كثيراً ما كان يفعل ذلك مع الأدباء أنفسهم: غوركي، بيدني، فادييف، وبالطبع، لوناتشارسكي.

لم يكن ستالين يلجأ في خطاباته للصور الأدبية بقدر ما كان يفعل ذلك لينين أو بوخارين أو تروتسكي أو غيرهم من القادة الحزبيين. فقد كان يستخدمها، كقاعدة عامة، في انتقاداته للغير للتشديد ليس إلا. كان رده في الجلسة الموحدة لرئاسة الكومنتيرن ولجنة المراقبة العالمية في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٧ على اليوغوسلافي فويوفيتش، أحد أعضاء اللجنة المركزية لتلك المنظمة الشيوعية العالمية، كان رده من الأمثلة النادرة لاحتوائه على صورة أدبية:

ـ لا يستحق نقد فويوفيتش الإجابة عليه... [ثم تابع]... خطرت على بالي كلمات الشاعر الألماني هاين الذي اضطر في إحدى المرات للإجابة على آوفنبيرغ ـ الذي كان ينتقده باستمرار ـ قائلاً: «أنا لا أعرف **كاتباً** يدعى آوفنبيرغ، أرجّح أنه مثل دارلنكور الذي أجهله هو أيضاً».

وتابع ستالين قائلاً:

ـ والبلاشفة الروس يمكنهم فيما يخص انتقادات فويوفيتش الإستشهاد بأقوال هاين: «نحن لا نعرف **بلشفياً** يدعى فويوفيتش، ونرجّح أنه مثل علي بابا الذي نجهله أيضاً»(٤٠).

لكن، أكرر مرة أخرى، إن الأمين العام كان نادراً ما يستشهد بالآداب الكلاسيكية في خطاباته مما يدل على ضعف معرفته بها. إلا أنه كان يسمح لنفسه تقويم الكتّاب وأعمالهم في كلماته ولا يدع أية فرصة تفلت منه لهذا الغرض. وتقويمات الأمين العام كانت قطعية لا تقبل المعارضة، كما تعودناها أن تكون. ففي رسالته لبيل ـ بيلوتسيركوفسكي استنكر ستالين بشكل لا يدع مجالاً للُبس قائد أوركسترا مسرح «البولشوي» د غولوفانوف لموقف الأخير ضد تجديد عروض المسرح على حساب الأعمال الكلاسيكية. نعت ستالين «الغولوفانوفية» بأنها «نزعة معادية للنظام السوفييتي»(٤١). وتقويم كهذا كان ليؤتي بالرؤوس في الثلاثينات. ولم يقتصر انتقاد ستالين على قائد الأوركسترا، بل تعداه ليصل لعمل الكاتب بولغاكوف «الهروب»، الذي اعتبره الأمين العام معادياً للنظام السوفييتي هو أيضاً، مضيفاً، والحقيقة تقال: تخفيفاً للحكم. «بالمناسبة، لم أكن لأعترض بأي شكل على إخراج «الهروب»، لو ان بولغاكوف أضاف للأحلام الثمانية حلماً أو حلمين يفسر فيهما الأسباب الإجتماعية للحرب الأهلية في الإتحاد السوفييتي، كي يفهم المشاهد إن سيرافيم والمثقف وجميع تلك الشخصيات «الشريفة» لم يُطردوا من روسيا بسبب نزوة من نزوات الحرب، ولكن لأنهم كانوا يدوسون على عنق الشعب».

تابع ستالين «فصفصة» أعمال بولغاكوف متسائلاً: «لماذا تُعرض مسرحيات بولغاكوف على خشبة المسرح بهذه الكثرة؟ لا بد أن السبب يكمن في قلة المسرحيات **التابعة لنا** الصالحة للعرض، ففي أوقات الجفاف حتى عمل كـ«أيام أسرة توربين» يطفيء العطش».

يقوِّم ستالين بعد ذلك مسرحية «أيام أسرة توربين»، قائلاً إنها «ليست بالسيئة كلياً لأنها تفيد أكثر مما تضر، ولا تنسوا أن الإنطباع الأساسي الذي يأخذه المتفرج (المشاهد) من تلك المسرحية لصالح البلاشفة ـ إن كان أناس مثل أسرة توربين قد اضطروا للتخلي عن سلاحهم والخضوع لإرادة الشعب معترفين بخسارة قضيتهم الفادحة، فمعنى ذلك أن البلاشفة لا يقهرون»[٤٢].

تثبت كلمات ستالين تلك أن الوقت فقط يعطي تقويماً دقيقاً للأعمال الأدبية والفنية. حكم الوجهاء قد يبدو خلال بضع سنوات مضحكاً ساذجاً سطحياً حتى وإن أخذنا بعين الإعتبار ظروف اللحظة التاريخية المحددة. وكم من المرات في تاريخ بلادنا حاول بعضهم إعطاء تقويمات «نهائية»! فهذا ما كان «يختص» به ستالين، القطعية تجري في دمه ـ واثق من نفسه وغير متردد، يحتقر حوارات الفنان الداخلية الفكرية.

كان ستالين يقسو حتى على من يحترمهم أو يتظاهر باحترامهم ـ على ديميان بيدني، على سبيل المثال، البلشفي منذ عام ١٩١٢ الذي أصبح شاعراً بروليتارياً معترفاً له في سنوات ما بعد الثورة. لقد لقيت أعماله، من أساطير وأغاني روسية شعبية وأشعار نقدية وقصص وحكايات، إعجاباً كبيراً لدى الجماهير نظراً لحيويتها وقضايا الساعة التي تناقشها. لكن لسوء حظ بيدني أنه في عدد من مؤلفاته («بيريرفا»، «قم من المدفئة»، «بدون رحمة») انتقد جمود بعض التقاليد الغريبة عن روسيا التي تتبع البلاد كشبح من الماضي. اعتبر قسم الدعاية التابع للجنة المركزية ذلك كلاماً معادياً للوطنية. استُدعي الشاعر للجنة المركزية «للدردشة». رفع بيدني لستالين رسالة يعترض فيها على نقد اللجنة المركزية له، فجاءه الرد القاسي السريع التالي من الأمين العام.

- لقد تذمرتم فجأة وبدأتم تصرخون عن حبل المشنقة.
- أتعتقدون أن اللجنة المركزية لا حق لها بانتقاد أخطائكم؟
- أم أنكم تعتبرون أنه يمكنكم عدم تنفيذ قرارات اللجنة المركزية؟
- أم أن شعركم أعلى من أن تنتقده اللجنة المركزية.
- ألا ترون أنكم قد أصبتم بمرض كريه اسمه «الغرور»؟

وبعد هذا الوابل من الأسئلة المدمرة استنتج ستالين أن النقد الموجود في أعمال بيدني ليس سوى إفتراء على البروليتاريا الروسية والشعب والإتحاد السوفييتي. «وهذا أهم من شكوى مثقف جبان يتلعثم من خوفه مدعياً أن أحدهم يريد «عزل» ديميان أو أن «لا أحد سينشر [أعماله] بعد الآن»[٤٣]. وهكذا دواليك.

هكذا إذن، بهذه البساطة والقسوة. ألم يحرر ستالين بنفسه قبل بضع سنوات فقط - في حزيران (يونيو) عام ١٩٢٥ - قرار اللجنة المركزية حول سياستها تجاه الآداب قائلاً فيه أنه يجب منع «لهجة الأمر فيما يخص الأدب» و«أي تدخل متصنع مغرور»[٤٤] فيه؟! لكن لم تكن العشرينات قد ولت بعد وإذا ستالين لا يتذكر تلك الكلمات الصائبة. أصبح «منهج الأوامر» هو السائد في الثقافة وأخذ الإختمار والإضطراب الفكري بالتلاشي كلما قست القبضة الإدارية.

ألم يشكر ستالين بيدني بنفسه قبل ثلاثة أو أربعة أعوام على أبيات الشعر «المخلصة للحزب» التي هجا فيها تروتسكي؟! لقد نُشرت تلك الأبيات في عدد «البرافدا» الصادر يوم ٧ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٢٦ تحت عنوان «كل شيء له نهاية». أعتقد أن تلك الأبيات تساعد القارىء على الدخول في الجو السياسي لتلك المرحلة التاريخية المعقدة.

تروتسكي! هيا انشر صورتك في «الأغانيوك»
وابسط الجميع برؤيتك!
تروتسكي على زلاجته القديمة يتبختر
وبريشه المدعوك يتفاخر
يقفز كالنعامة ذات الريش الأحمر
ومعه من أعضاء «جهازه» زُمَرْ
من جنرالات المعارضة
بأخلاقيات مستوردة
المركز لن يُنسى وإن قهرت الكوكبَ!
وأنت لا تملك من الجيوش
ولا حتى سرية عمال واحدة!
العمال غير مستعدين
أن يتبعوك هكذا
بأنفسهم مضحين
وللحزب ذابحين
لم يعد الحزب يحتمل
أن يكون هدفاً لكل سياسيٍ متلاعبٍ
حان القوت أخيراً
للحد من المهزلة!

استمتع الأمين العام جلياً بقراءة أبيات الشعر تلك واتصل بمولوتوف وأشخاص آخرين ليناقشها معهم، فاتضح أنها أحرزت إعجاب الجميع. قال ستالين معلقاً: «لن يقرأ خطاباتنا ضد تروتسكي جمهور كالذي سيقرأ تلك الأشعار». أعتقد أنه كان مصيباً في ذلك. لكن لم يكد الشاعر أن «ينحرف عن الطريق» - ولو قليلاً - ويعبر عن شعوره بالإهانة، حتى أصبح ستالين شخصاً مختلقاً تماماً - بارداً شريراً آمراً.

ولعلمهم بتأثير رأي ستالين في أعمالهم الأدبية على مصيرها العام كان صاحبو القلم من كتّاب وشعراء كثيراً ما يكتبون له طالبين منه أن يقوّمها. كان ستالين يتسامح معهم عادة مشيراً (بالطبع) «لنقاط ضعف» العمل. وفي بعض الأحيان كان يصل به التسامح إلى حد المديح. ففي رسالته لبيزيمينسكي كتب ستالين: «لقد قرأت «الطلقة» و«يوم من حياتنا» ولم أجد أية نزعة «برجوازية صغيرة» أو «عداء الحزب» في أي من هذين العملين. فيمكن اعتبارهما ـ وخصوصاً «الطلقة» ـ نموذجين للفن البروليتاري الثوري العصري»[٤٥].

تؤكد شهادات المقربين من ستالين أن الأمين العام كان يترقب حياة كبار رجال الثقافة من كتّاب وشعراء وعلماء السياسية مدركاً ـ وليس فقط بسبب هروب الكثيرين ـ أن عدداً منهم لم يتقبل الثورة. لقد «نصب أذنيه» منذ أن علم برسالة الكاتب الروسي القدير ف. كورولينكو للوناتشارسكي ـ التي نُشرت بعد وفاة الأول في باريس ـ يعبر فيها عن مخاوفه من أن العنف في روسيا ما بعد الثورة سيحد من نمو الوعي الإشتراكي[٤٦]. اعتبر ستالين تلك الرسالة مزيفة. كما أثار غضبه مقال ي. زامياتين الذي نُشر في مجلة «بيت الفنون»، وهي من مجلات بيتروغراد الصغيرة، تحت عنوان «أنا خائف». كتب ذلك الكاتب ـ الذي سيصبح في الثلاثينات من الغابرين ـ بانفعال غاضب ولكن بصدق: «يكون الأدب حقيقياً فقط عندما يقوم بكتابته ليس الموظفون المنفذون الأمينون، بل المجانين والنسّاك والكفرة والحالمون والمتمردون والشكاكون. أخشى أنه لن يكون لدينا أدب حقيقي أبداً ما دمنا ننظر للشعب الروسي على أنه طفل يجب الحفاظ على براءته. أخشى ألا يكون لدينا أدب حقيقي ما دمنا لم نشْفَ من مرض الكاثوليكية الجديدة التي تشبه القديمة في تخوفها من أي كفر»[٤٧]. سيكتب زامياتين لستالين فيما بعد أنه لا يستطيع ويرفض الإستمرار في العمل والكتابة «وراء القضبان». أما كتاب المُنظّر الماركسي الشهير أ. بوغدانوف فيعكس وجهة نظر عدد من الكتّاب الروس. أكد بوغدانوف أن الإبداع الحقيقي لا يكون ممكناً إلا عندما تُلغى لغة الإكراه بين الناس ويحمي النظام الإجتماعي الناس من الخرافات و«**الكليشيهات**»[٤٨]. من الواضح أن الكاتب يلمح أنه لا يجوز التعامل بديكتاتورية مع الإبداع الفني. كانت تلك الشعرة التي قصمت ظهر البعير. شعر ستالين أن بوغدانوف وأمثاله يدركون أن أسطورة الثورة ـ إذا ما تم ترديدها بتكرار دائم ـ لا تفرق كثيراً عن قصص الإنجيل المسلّم بها. ألن يؤمن الناس بدون أدنى تفكير أو انتقاد بالأساطير الكثيرة التي سترد في «تاريخ روسيا القصير» الذي سيكتبه ستالين؟ أجل، حان الوقت «لصد» هؤلاء المثقفين «ثاقبي النظر».

أخذ ستالين يخطط لأفضل طريق يستغل فيها الفنون ويوجهها للرفع من مستوى الشعب والجماهير كي تجد حلولاً للمشاكل التي تواجه البلاد. لكن مفهوم ستالين لذلك كان إدارياً بحتاً: اتخاذ القرارات، إبعاد غير المرغوب فيهم، تكثيف الرقابة. بالمناسبة، لقد كان يتفق وتروتسكي في ذلك، لكنه لم يكن ليجهر باتحاد الآراء المثمر! ـ إن الدولة التي تنتصر فيها البروليتاريا يجب أن تكون فيها «رقابة

صارمة»[٤٩]. سيعمل ستالين بتلك النصيحة و«سيساعد» الفنانين على اتخاذ القرارات الصحيحة! كيف؟ سيفكر في ذلك، لكن تأكدوا تماماً أن الرقابة السياسية لن تلعب الدور الأخير. لم يكن ستالين ليفهم أنه هنا أيضاً يجب أن يكون الخيار الأساسي للضمير الفكري، وهو من ضروريات الديمقراطية. وللأسف الشديد إن أموراً كهذه لم تكن تؤخذ بعين الإعتبار آنذاك.

قدم ستالين اقتراحاً غريباً وافق لينين عليه فتم إبعاد مائة وستين رجلاً من أبرز وجوه الثقافة الروسية من كتّاب وفلاسفة وشعراء ومؤرخين كان من بينهم ن.أ. بيرديايف، و ن.أ. لوسكي، و ف.أ. ستيبون، و ل.ب. كارسافين، و ي.إ. آيخنفالد، وم.أ. أوسورغين وغيرهم ممن كانوا يشكلون نواة الفكر الروسي. نشرت «البرافدا» في عددها الصادر في ٣١ آب (أغسطس) عام ١٩٢٢ مقالاً بعنوان يحمل معاني خفية خطيرة «الإنذار الأول» يؤكد ضرورة اتخاذ قرارات أكثر حزماً للنضال ضد العناصر المعادية للثورة في المجال الثقافي. لقد ترافقت فترة ولادة وتعزيز مبدأ الواقعية الإشتراكية باضطراب روحاني وصراع وسوء فهم من قبل عدد كبير من العاملين في ذلك المجال. فقد ركز العاملون في «الجبهة الأيديولوجية» على الأطر البراغماتية لذلك المبدأ، فبدلاً من أن يساعدوا كل فنان على حدة على تحديد مكانه قلباً وعقلاً في إعادة بناء الوطن بناءً إشتراكياً، ألزموا الجميع بقوالبه الجامدة.

كان الإبعاد إنذاراً مهماً، هذا مما لا شك فيه. لقد أوحى ستالين أنه ينوي استخدام الأساليب الديكتاتورية حتى في المجال الثقافي بدلاً من أن يحاول استقطاب العلماء والأدباء والفنانين لعملية بناء الإشتراكية بشكل ديمقراطي. ولم يكن التردد في استعمال السلطة والقوة عيباً من عيوب ستالين في يوم من الأيام. على الأغلب إن مكسيم غوركي كان الإنسان الوحيد الذي لم يكن ستالين يسمح لنفسه بالتمادي والتطاول عليه، كما كان يفعل مع غيره من الكتّاب. ففي نفس الفترة التي حطم فيها د. بيدني على نقده و«افترائه» كتب ستالين رسالة مختلفة (تماماً) كل الإختلاف لغوركي. فقد كان الأخير قد بعث برسالة للأمين العام من الخارج شكك فيها بضرورة التمادي في النقد والنقد الذاتي للأخطاء. فجاءه رد ستالين.

ـ نحن لا نستطيع التخلي عن النقد الذاتي. لا نستطيع ذلك بأي شكل من الأشكال. يا ألكسي مكسيموفيتش بدونه لا يمكننا تجنب جمود وفساد النظام ونمو البيروقراطية. بالطبع إن النقد الذاتي يفتح المجال للأعداء، أنت محق تماماً في ذلك، لكنه يفتح الأبواب لنا أيضاً، ويدفعنا للأمام[٥٠].

كان ستالين قادراً على التفوه بالأفكار الواعية البنّاءة أحياناً فيما يخص مسألة «دمقرطة» الحياة الإجتماعية بما في ذلك المجال الأدبي. لكن المشكلة الأساسية هي أن الممارسة الفعلية أخذت تنحرف تدريجياً عن مسار تلك الإستنتاجات والتقويمات الصحيحة.

كانت التقارير حول ما يكتبه المهاجرون الروس تُرفع «للقائد». وعندما

عرضوا رواية الجنرال الأبيض ب. كراسنوف «من النسر ذي الرأسين إلى الراية الحمراء» في أكثر من مجلد والتي صدرت في برلين عام ١٩٢٢، لم يأخذها ستالين في يديه معلقاً: «متى تمكن أن يكتبها، ذلك الوغد؟».

وبالطبع، لقد كان له يد في السماح لعدد من الكتّاب ـ من بينهم أ. كوبرين، و أ. تولستوي ـ بالعودة إلى الإتحاد السوفييتي في فترات مختلفة. أما عندما علم ستالين عام ١٩٣٣ أن بونين أصبح أول روسي ينال جائزة نوبل، علق قائلاً: «الآن لن يريد العودة أبداً... وعما تحدث في كلمته هناك؟» وعندما قرأ موجز تلك الكلمة التي ألقاها الكاتب العظيم في ستوكهولم بعد الحفل التي قال فيها إن «الشيء الرئيسي بالنسبة للفنان هو حرية الفكر والضمير» صمت ستالين مفكراً. لقد تفاجأ بذلك الكلام ولم يفهمه. من كان ليمنع بونين من أن يفكر وفقاً لما يمليه عليه ضميره في روسيا؟ أهل هو ـ ستالين ـ ضد حرية الفكر إذا كان لصالح ديكتاتورية البروليتاريا؟ وستالين، في الحقيقة، لم يعد يذكر بوضوح ما كتبه قلم بونين لكنه كان يعتقد ـ ولم يكن مخطئاً كثيراً في ذلك ـ «إن ذلك الكاتب الأرستقراطي كتب شيئاً ما حول سر الموت والعالم الإلهي». لم يأخذ بونين من وقت «القائد» بعد ذلك أكثر. لا، بل ان مساعدي ستالين سلموه ذات مرة رزمة من المجلات التي تصدر في الخارج كانت قد نشرت إحداها ـ «مذكرات معاصرة» ـ قصة حول الثورة الروسية بعنوان «الجنرال الأحمر» للكاتب إياه. لكن ستالين لم يكن متفرغاً لمثل تلك الأمور.

لم يكن لستالين أي اهتمام بالشعر تقريباً، بالرغم من أنه ـ كما سبق وذكرت ـ كان قد كتب حوالى ثلاثين قصيدة ساذجة بدائية في زمن شبابه. فالنضال الثوري لم يترك له الوقت الكافي للتعمق في فلسفة وموسيقى عالم الشعر ولا حتى للقراءة. والحقيقة تقال أن النضال جعله يحفظ في إحدى المرات ـ عندما كان لا يزال في تساريتسين ـ قصيدة لبوشكين استُخدمت أساساً لشيفرة أُرسلت بموجبها معلومات إلى موسكو حول عدد العربات المحملة بالخبز (القمح) وأرقامها المتجهة للمدينة.

على الأغلب إن التقارير لم تنس ف. خوداسيفيتش، وهو أيضاً من شعراء المهجر. كتبوا عنه أنه موهوب جداً و«قد يكون حتى أكثر من د. بيدني»، وحول كيف «تيبس عمله الإبداعي خارج الوطن». لكن فشل ف. خوداسيفيتش و ف. إيفانوف وإ. شميليوف و أ. ريميزوف وم. أوسورغين وب. موراتوف وغيرهم من الفارين لم يكن يهم ستالين. لم يكن لديه وقت يضيعه على مثل تلك التفاهات، فقد علم أن «الشعراء الكولاك» ن. كلوييف و س. كليتشكوف وب. فاسيلييف قد انحرفوا إلى طريق العربدة المعادي للثورة. لكن يبدو أن آفيرباخ أو أحد أعضاء قسم الدعاية والتحريض التابع للجنة المركزية تصدى لهم وعرّفهم مكانهم.

استذكر ستالين عدد «البرافدا» الصادر يوم ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) عام



مع الكاتب الروسي مكسيم غوركي

١٩٢٥ الذي نشر منعاة «ناروندنيك* الثورة» س يسينين.

«من المستبعد أن يكون الشعب الروسي قد قرأ وأحب في عصرنا هذا شاعراً أكثر من يسينين. أعتقد أن الأدب الروسي فقد شاعره الغنائي الحقيقي الوحيد. لم يفهم يسينين يوماً المدينة حق الفهم. فقد ظل حتى النهاية شاعر روسيا المهجورة الرومانسي. وفي موته شيء من الرمزية ـ لقد قتله حبل مربوط بالتدفئة المركزية، وهي من منجزات التمدن». لم يكن ستالين يفهم المنتحرين ـ فهُم كمن يتطوع للأسر. ومن الأصل، يجب أن يمسك المرء بزمام الأمور، لا أن تمسك هي به.

كانت مواقف الكتّاب والشعراء والمسرحيين والسينمائيين من كتاب ومخرجين المتواجدين في موسكو ولينينغراد وغيرها من المدن، كانت مواقفهم من ما يحدث في البلاد تهمه كثيراً. استاء من «السنة العارية» للكاتب ب. بيلنياك، و«جيش الخيالة» للكاتب إ. بابل، ومن مقالات بلاتونوف و ف. كين وأ. فيسيلوف وي. تينيانوف وف. خليبنيكوف. أما أعمال د. فورمانوف وك. فيدين وأ. تولستوي ول. ليونوف الواضحة البسيطة، فقد نالت إعجابه فوراً.

كي لا نظلم، علينا الإشارة إلى أنه استطاع تقدير عدد من أفلام د. فيرتوف ول. كوليشوف وس.آيزنشتاين وف. إيرملير. كانت زوجته ناديجدا إليلوييفا تشاهد المسرحيات مع عاملي مفوضية القوميات. ومن المسرحيات التي حظيت بالشعبية لدى الجماهير «أوليفر كرومويل» للوناتشارسكي و«الحب الربيعي» لترينيف و«القطار المصفح رقم ١٤ ـ٦٩» لإيفانوف و«فيرينيا» لسيفولّينا. لحسن الحظ أن المخرجين العظماء أمثال فلاديمير نميروفيتش ـ دانتشينكو وستانيسلافسكي اتجهوا في تلك الفترة نحو المسرحيات السوفييتية. الثورة على خشبة المسرح تدعم الثورة على مسرح الحياة، وهنا أيضاً نلعب الأدوار التي يحضرها لنا القدر.

كان اطلاع ستالين على ما يحدث في عالم الموسيقى والرسم أقل بكثير؛ ينظر باحتقار واستخفاف لجميع «نهفات الفن الصناعي» بمذاهبه الطليعية والبنائية والمستقبلية والتكعيبية. وأصحاب تلك «النهفات» التي لا يفهمها ـ ويعتقد أن لا أحد يفهمها ـ لم يكونوا بالنسبة له أصحاب مهنة حقيقية. وفيما بينهم كان الفنانون، من رسامين ونحاتين، وشعراء وكتّاب، يتابعون نقاشاتهم الحادة ليس حول تأييد الثورة أو عدم تأييدها، بل حول أشكال الفن وحرية التعبير و«نقطة انطلاق» الإبداع الجديد. وكالنجوم في السماء بدأت تظهر وتتلألأ اتحادات وجمعيات فنية جديدة اعتبر ستالين أنه يجب الحد من تلك «الفوضى»، وأن لوناتشارسكي قد «أفلت الحبل»، لكنه كان منهمكاً في الصراع مع المعارضة تلو الأخرى ولم يكن لديه وقت يضيعه.

الحزب بحاجة ماسة للوحدة، للخط البلشفي الموحد. والمؤتمر الأخير كان

(*) أحد أنصار الناروندنيتشيستفو (حركة اجتماعية سياسية بين مثقفي روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر). المترجم.

بالغ الأهمية في هذا المجال. أدرك ستالين أكثر فأكثر أنه بدون التصنيع وإنشاء التعاونيات الزراعية لن يستطيع الحزب توفير كل ما وعد به الشعب. عندما كان القيصر اللئيم والإقطاعيون والبرجوازية لا يزالون موجودين كان عبء النضال مبرّراً. أما الآن، فلا. أليست الذكرى العاشرة لانتفاضة أكتوبر قريبة جداً؟! أجل، لقد قضينا على الإستغلال، وأعطينا الفلاحين الأرض، ومنحنا العمال الحق في إدارة مصانعهم ـ إذاً، لماذا هذا العدد الكبير من المستائين؟! لماذا لا تمشي الأمور بالسرعة التي نريد؟! عسى المعارضة محقة في معارضتها؟!

جميعهم يتحدث عن البيروقراطية. واليوم نشرت «البرافدا» تقرير ليبيد حول «طرق تحسين جهاز الدولة ومكافحة البيروقراطية». كان كلامه لاذعاً: «ما هي نواقص جهاز دولتنا؟ سأعدد الرئيسية منها: الملاك (الكادر) يكاد ينفجر من كثرة الموظفين، ومؤهلات العاملين متدنية جداً ـ المقصود هنا هو مستوى القاعدة بشكل أساسي. الهيكلية ضخمة، والعمل غير مرتب، والبيروقراطية، واختيار الأخصائيين لا يكون صائباً دائماً ـ فهو لا يأخذ بعين الإعتبار مؤهلات هؤلاء الأخصائيين. وأخيراً، ضعف أو حتى انعدام مراقبة عمل الأجهزة العليا والمؤسسات» (٥٦). وحتى ماياكوفسكي لم يترك جهاز الدولة بسلام.

بدأت تنضج لدى ستالين فكرة ـ لكنه لا يعلم بعد كيف سينفذها ـ بتسريع عملية القضاء على كل هؤلاء المعارضين، الذين سئم منهم الجميع، بحجة ضرورة تسريع عملية الإنتقال للإشتراكية. وهنا سيستطيع الضغط بشكل أكبر على المثقفين وجرهم لطريق التصنيع والإصلاح الزراعي. بهذه الطريقة سيخفف ذلك الإضطراب الفكري الذي يعانون منه. لا يوجد مكان في المجتمع الطبقي لفن حر محايد. استنتج ستالين أنه يجب استقطاب الفنانين القدماء وفي نفس الوقت تربية جيل جديد من الأدباء البروليتاريين ـ الفلاحين السوفييت. لا مكان في الثقافة الجديدة للعناصر المعادية للثورة...

أصبح القلق الفكري، الذي يعيشه الفنانون ـ بالنسبة لستالين ـ كفراً معادياً للثورة. لكنه كفرٌ أقل خطورة من ذلك الذي يدعو الناس إليه تروتسكي. يبدو أن الصراع بين هذين الرجلين وصل ذروته.

قبل الإنتقال إلى تحليل مرحلة من الصراع مع تروتسكي داخل روسيا، أريد أن أذكر ملاحظة عامة. لقد تحدثنا الآن عن الثقافة والمثقفين وموقف ستالين منهم. ومن الصفات التي تميز بها في تلك الفترة هو عدم احترام الحريات بتاتاً ـ حرية الإبداع وحرية التعبير وحرية الإدراك. ليس ذلك بالصدفة. فستالين يعترف **بحرية السلطة** فقط. والتخلي عن حرية الروح لصالح القوة والجبروت مسألة طبيعية بالنسبة له. بإمكانه ـ دون أدنى تفكير ـ التضحية بحرية الملايين الشخصية. في الثلاثينات لن تعود كلمة «حرية» موجودة في قاموس الدولة. هو وحده يحق له أن يكون حراً ـ ومع ذلك فقد كان أسيراً للنظام الذي خلق. حتى رئيس الدولة الرمزي لا يتمتع بالحرية.

في بداية العشرينات التقى الفيلسوف الروسي المثالي ن. بيردياييف بكالينين كي يطلب منه إخلاء سبيل الكاتب م. أوسورغين الذي تم القبض عليه بخصوص «قضية لجنة مكافحة الجوع والمرض». وبعد أن استمع كالينين للفيلسوف ـ الذي يعرف أعماله كل العالم المتحضر ما عدا في وطنه ـ رد قائلاً: «لا تنفع وصية لوناتشارسكي بإخلاء السبيل في شيء، كما لن تنفع توصيتي وإمضائي، لكن لو كان الرفيق ستالين هو الذي يوصي لتغير الوضع تماماً». إذاً، منذ ذلك الحين وكالينين يعتبر ـ بل ويقول أيضاً! ـ إنه، وهو رئيس الدولة، «لا يتمتع بأية أهمية» بالمقارنة مع ستالين. وهذا يعني أن الحرية هُزمت، لا، بل انتصرت حرية سلطة الأمين العام.

يكتب ن. بيردياييف في كتابه «امبراطورية الروح وامبراطورية القيصر» إن القيصر يتميز دائماً بأنه يطالب لنفسه ليس فقط بما يحق له كقيصر، بل وبإخضاع الإنسان له كلياً. والدولة، التي تميل لخدمة القيصر، لا تهتم بالإنسان. الإنسان بالنسبة لها مجرد رقم في أوراق الإحصاء»(٥٢). الإضطراب الفكري الذي يعيشه المثقفون، احتجاجاتهم، صمت إبداعهم، كل ذلك كان نتيجة لانتهاك الحريات. «القيصر» والحرية لا يمكنهما التعايش. الإشتراكية المثلى تنفي عبادة الأصنام. أما الحكم الفردي المطلق، فعلى العكس، تفترضها، بل وتتطلبها.

لم يتعامل ستالين في يوم من الأيام مع الحرية كمقولة فلسفية. فهو نفعي براغماتي في تفكيره. وهو الذي علمنا ربط الآمال والأحلام بالمستقبل بشكل أساسي. أجل، فالإنسان يجب أن يفكر في الآفاق ـ في مستقبله شخصياً ومستقبل بلاده. لكن الحديث بشكل دائم عن التطور ومصائر الناس فقط في إطار «سعادة الأجيال القادمة»، إن ذلك لهو الحرية المزيفة بأم عينها، الإنسجام والكمال والنعيم والوفرة والإزدهار لا تكلف شيئاً عندما يجري الحديث عنها في صيغة المستقبل. يجب إيجاد صلة ربط بين الحاضر الواقعي والمستقبل. والمستقبل له معنى فقط عندما يكون متصلاً ومربوطاً بحياتنا. وعن هذا تحدث وكتب الكثير من الأدباء الذي لم يفهمهم ـ أو لم يرد أن يفهمهم ستالين. ستمر الأيام وسيكرس الأدباء والفنانون جميع أعمالهم لتمجيده هو ـ «القائد». لن يبقى من الحرية سوى الظل، ظلها، وسيكون طريق عودتها طويلاً وشاقاً. وكما كتب بايرون:

أنت من بين الملايين أصبحت سلطاناً،
واستلامك السيف باركه الناس أفواجاً أفواجا،
ولِديغون لست ابناً
أنت لِفيليب أشبه بأن تكون ولداً،
لكن الماجن مغتصب العرش
نسي أن العالم كبير وليس برميل(٥٣)

هزيمة «قائد لامع»

تروتسكي يحب السفر. يحب الإستجمام جيداً. ويهتم بصحته. وحتى في أكثر سنوات الحرب الأهلية مشقة كان يجد وقتاً للاستجمام في المصايف وصيد الحيوانات والسمك. بصحته يهتم فريق كامل من الأطباء. لم يخجل يوماً من عادات الأرستقراطي المرفه. قرر عام ١٩٢٦ السفر وزوجته إلى برلين بهدف طلب الإستشارة الطبية. حاول المكتب السياسي أن يثنيه عما عزم لكنه أصر ورحل. سافر على اسم أحد أعضاء مفوضية أوكرانيا التعليمية يدعى كوزمينكو. ودّع زينوفييف وكامينيف في المحطة واستقل القطار ومعه زوجته وناظر قطاره الشخصي أثناء الحرب، سير موكسي.

سبق وذكرنا أن تروتسكي لم يكن بالسياسي المحنك نظراً لمبالغته في تقدير حقيقة تأثيره وشعبيته. كما أنه ارتكب أخطاء فادحة خلال فترة صراعه مع ستالين (اتخذ أكثر القرارات سوءاً وضرراً بنفسه خلال فترة صراعه مع ستالين). فهو لم يحضر جنازة لينين، كما تخلف عن عدد من جلسات اللجنة المركزية والمكتب السياسي - وفي كل مرة لم يكن وراء تخلفه سوى الراحة والإستجمام ورحلات الصيد والعمل الأدبي. كان ستالين يستغل غياب تروتسكي لصالحه بمهارة.

سيكون لدى تروتسكي المتسع من الوقت للحديث عن حياته وماضيه. سيكتب في إحدى أعماله أنه أثناء زيارته لبرلين توصل للإستنتاج أنه لا مجال للحل الوسط مع ستالين. يجب على أحدهما التنازل. لكنه كان متأكداً أن من سيصبح على هامش الطريق هو ستالين. استذكر تروتسكي كيف بدأ زنيوفييف وكامينيف «يلتصقان» به معتقدين أنهم معاً سيستطيعون القضاء على الأمين العام. «كنت أعتقد أنه بإمكاننا منع بعث الديكتاتورية» - كتب تروتسكي بثقة بالنفس - كان يجب علينا أن نجعله ينفذ وصية لينين».

قد تكون هذه الأفكار قد بادرت فكر تروتسكي تحت أصوات محرك القطار أو أثناء نزهاته في شوارع برلين، لكن يبدو انه لم تخطر على باله آنذاك كلمات الشاعر - القسّ البريطاني الذي عاش في القرن السابع عشر جون دون: «لا تسأل أبداً لمن يقرع الناقوس - إنه يقرع لك أنت». أجل، لقد كان المستقبل يخبىء له ناقوساً رهيباً.

لم يكن ستالين يكتفي بالخطابات الجماهيرية للتنكيل بتروتسكي، فقد استخدم أساليب عديدة لهذا الغرض. وكما يشهد أحد عاملي الأمانة العامة أ.ب. بالاشوف، كان ستالين يجتمع ومناصريه قبل جلسات المكتب السياسي لمناقشة طرق الحد من تأثير تروتسكي. فقط تروتسكي وبيتيكوف وسوكولنيكوف لم يكن يدعوهم أحد لحضور هذه الإجتماعات التمهيدية. «كنا نعلم - أفضى لي ألكسي بافلوفيتش - أن ستالين يحضر طبقاً جديداً يسم به تروتسكي».

اكتشف ستالين ذات مرة أن برامج التوعية التي يتبعها الجنود لا تزال تذكر

تروتسكي «كقائد الجيش الأحمر». لم يدع ستالين الأمر ينتظر. احتفظ «الأرشيف» برسالته لفرونزيه في ١٠ كانون الأول(ديسمبر) عام ١٩٢٤ التي يقترح فيها إعادة النظر بهذه البرامج في أسرع وقت. ولم تمض عدة أيام إلا والبرامج معدلة تماماً. الحق فرونزيه رده بتقرير رئيس قسم الدعاية والتحريض التابع للتفويض السياسي للجيش الكسينسكي مؤكداً ان إسم «تروتسكي حُذف من برنامج التوعية كقائد الجيش الأحمر». كما كان لستالين يد في أنه منذ منتصف عام ١٩٢٤ لم يعد إسم تروتسكي يرد في الخطابات التي تلقى في المجمعات السكنية والمصانع، كما لم يعد يظهر في الصحف بشكل إيجابي. ولم يتوقف ستالين عند هذا الحد.

قام ستالين ـ في فترة ما بين المؤتمرين الرابع عشر والخامس عشر للحزب ـ، وبتأييد من الأغلبية في اللجنة المركزية، بعقد عدد من الجلسات الموحدة للجنة المركزية للحزب والكومنترن، ومن الإجتماعات العامة للجنة المركزية والمكتب السياسي، تمت خلالها مناقشة مواقف المعارضة واتُخذت القرارات اللازمة. صدرت قرارات بخصوص تروتسكي ومناصريه بالإنذار وأوقع فيهم العقاب الحزبي وتم فصلهم من الأجهزة الحزبية القيادية. إلا أن المعارضة لم تتخل عن خطها ـ إستمر النضال من أجل نهج حزبي «صحيح» والصراع من أجل السلطة. لكن ثغرات كبيرة بدأت بالظهور في معسكر العدو. بمبادرة من ستالين وتأييد من عدد من القياديين الحزبيين الآخرين فُصل زينوفييف من المكتب السياسي في تموز(يوليو) وتروتسكي ـ في تشرين الأول من عام ١٩٢٦. أما كامينيف، فقد ألغي ترشيحه للمكتب السياسي. اعتبر اجتماع اللجنة المركزية أنه أصبح من المستحيل استمرار زينوفييف في العمل في الكومنترن. كما تمت تنحية العديد من المعارضين من مناصبهم الحكومية والحزبية.

قدم ستالين في المؤتمر الحزبي الخامس عشر الذي عُقد في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٢٦ تقريراً «حول المعارضة والوضع الداخلي في الحزب» تناول بالنقد الذريع «الثلاثي المعارض» ومناصريه. كما عاد ستالين وتناول الموضوع ذاته في تقريره أمام الإجتماع السابع ـ الموسع ـ للجنة التنفيذية للكومنيترن الذي عقد في شهر كانون الأول(ديسمبر) من نفس العام. يتضح من مسودات هذين التقريرين أن ستالين عمل بدقة كبيرة على إثبات ذنب المتجنحين. فقد خصص أوراقاً مختلفة لجميع «آثام» المعارضة:

١) تروتسكي، زينوفييف، كامينيف: لاتوجد حقائق، بل فقط تلفيقات وافتراءات.

٢) فليفسِّر تروتسكي مع من كان قبل أكتوبر: مع المَنَاشِفة اليساريين أم المَنَاشِفة اليمينيين؟

٣) لماذا لم يكن تروتسكي في صفوف تسيميرفالد اليسارية؟

٤) هل يطارد ستالين مديفاني شبه المنشفي؟ إفتراء.

٥) اتهم كامينيف الحزب أثناء المؤتمر الرابع عشر للحزب بأنه ارتكب خطأ عندما «فتح النار على اليسار». من اليساري؟ كامينيف؟
٦) يؤكد تروتسكي أن مقولات أبريل اللينينية كانت مبادرة منه... يقارن الذبابة بالعملاق!
٧) برقية كامينيف لِميخائيل رومانوف.
٨) إصرار زينوفييف على القبول بظروف إمتيازات أوركارت الجائرة*.
٩) زينوفييف: «ديكتاتورية الحزب» وإلخ...

جمع ستالين بتأنٍ ودقة كل صغيرة وكبيرة من آثام المعارضة المعروفة له ـ وبالطبع، لم تكن المعارضة معصومة عن الخطأ ـ، وكان ـ أثناء خطاباته الطويلة المملة ـ يلقي في نار الصراع المزيد من الحقائق كي يزيد من اشتعالها. لقد استمر التقرير (بما فيه الخاتمة) الذي قدمه لاجتماع اللجنة التنفيذية للكومنترن تحت عنوان «مرة أخرى عن الإنحراف الإشتراكي ـ الديمقراطي في حزبنا» حوالى خمس ساعات! كانت الضربة القاضية للمعارضة موجودة في نقطة «اللينينية أم التروتسكية؟». وضع ستالين المعارضة ـ بتعديده لجميع مواقفها «المعادية للحزب» ـ في الزاوية وجعلها تأخذ موقف الدفاع الصم. لم يكن ستالين ينتقد فحسب بل كان «يوجه اللكمات» بكلماته تلك. وبالمناسبة، لم يلاحظ الأمين العام أنه ـ بقهره لأعدائه ـ يناقض كلام لينين. كانت كلمته في كثير من الأماكن سطحية ثانوية. خنقت أورثوذكسية الأمين العام فكرة تعددية الآراء نفسها. كان ستالين منذئذ يعتبر أن أي رأي لا يتطابق مع رأيه، وإن كان مخلصاً، أمر غير جائز.

أتيحت الفرصة للمعارضة كي تدافع عن نفسها. لكن دفاع زينوفييف وكامينيف وتروتسكي كان هزيلاً غير مقنع، فقد حاولوا إقناع أعضاء المؤتمر مطولاً أن يمنحوا كلاً منهم ساعة للدفاع عن نفسه. ثم تنازلوا فطلبوا نصف ساعة لكل واحد منهم، ثم ربع ساعة، ثم عشر دقائق... يشهد محضر الجلسة أنهم لم يستطيعوا نفي التهمة في التجنح الموجهة لهم إلا باستشهادات لمؤسسي الماركسية ولبعضهم البعض. وحتى تروتسكي، المشهور بفصاحته، لم يقدم أية براهين مقنعة «تبرر» نقده لسياسة الحزب. فقد أنهى كلمته المطولة المسهبة الباهتة بالتأكيد التالي: «نحن لا نقبل الآراء التي تُفرض علينا»، مما جعل المتكلم الذي تلاه ي. لارين يقول إن «الثورة ـ الطفلة أصبحت أكبر من عدد من آبائها». كما أضاف إن التقارير المطولة التي قدمها قادة المعارضة ليست سوى «جدل أدبي حول تفسيرات مختلفة لاقتباسات مختلفة من أعمال مختلفة»، وأن تروتسكي وزينوفييف وكامينيف «لم يتصرفوا كقادة سياسيين، بل كأدباء عديمي المسؤولية»(٥٤) وذكر متكلمون آخرون أن ذلك «الثلاثي» يريد إنجاز التصنيع فقط على حساب الفلاحين دون أي تفكير بما سينتج عن ذلك من عقبات.

(*) ليسلي أوركارت: من كبار رأسماليي انكلترا. حاول عام ١٩٢٣ أن يمنح الاتحاد السوفييتي امتيازات نفطية بشروط جائرة. رفض مجلس المفوضيات التوقيع على العقد.

لم تقتصر «المعارك» مع تروتسكي على جلسات اللجنة المركزية للحزب واللجنة المركزية للمراقبة والصحافة، بل تعدتها لتصل إلى الكومنتين أيضاً. فعندما طُرحت قضية الثورة الصينية في اجتماع اللجنة التنفيذية للكومنتين في أيار (مايو) عام ١٩٢٧ قرر ستالين ألا يدع الفرصة تفلت من يده فوجّه ضربة قوية لتروتسكي الذي كان عضواً في تلك اللجنة. إليكم فقرة من الكلمة التي ألقاها ستالين في الرابع والعشرين من شهر أيار (مايو) عام ١٩٢٧ أمام الإجتماع العاشر للجنة المركزية للكومنتيرن، والتي تم التكتم عليها كي لا تصل للقارىء العادي: «سأحاول قدر الإمكان إلغاء العنصر الشخصي من كلمتي، فتهجمات الرفيقين تروتسكي وزينوفييف الشخصية على أعضاء محددين من المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي ومن رئاسة اللجنة التنفيذية للكومنترن لا تستحق المناقشة. يبدو أن الرفيق تروتسكي يريد أن يظهر بمظهر البطل أثناء جلسات اللجنة المركزية، وأن يتحول النقاش حول مشاكل الأمن العسكري والثورة الصينية لنقاش حول مشاكل تروتسكي. وأعتقد أن الرفيق تروتسكي لا يستحق كل هذا الإهتمام (صوت من القاعة: «صحيح!»)، خصوصاً وإنه أشبه بالممثل منه بالبطل. ولا يجب الخلط بين الممثل والبطل أبداً. ولا حاجة للتأكيد أن بوخارين وستالين لا يريان أية إهانة في شتائم الرفيقين تروتسكي وزينوفييف ـ اللذين بيّن الإجتماع الموسع للجنة المركزية إنحرافهما الإشتراكي ـ الديمقراطي ـ الموجهة للبلاشفة دون سبب. بل على العكس، لكانت إهانة كبيرة بالنسبة لي لو أن شبه المناشفة أمثال الرفيقين تروتسكي وزينوفييف مدحوني بدلاً من أن يذموني»(٥٥).

وكلمة ستالين ـ بالرغم من سطحيتها ـ كانت مليئة بالحزم والحقد، ودمغت المعارضين بدمغة العار وحطمتهم كقادة فعليين. ونفذت اللجنة التنفيذية التي كانت تستعد لفصل تروتسكي من صفوفها قرارها ذلك في السابع والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) من ذلك العام. أصبح تروتسكي وحيداً في عزلته، لكنه لم يستسلم. فقد تابع نضاله الشجاع غير المجدي ليصبح بعد إبعاده من الإتحاد السوفييتي وحتى عام ١٩٤٠ الشخص الوحيد الذي لم يتوقف عن اتهام وفضح ودحض ستالين. لكن كلما سيزداد صوته الوحيد علواً وغضباً، كلما سيتبين أن تروتسكي لا يناضل من أجل الثورة ومُثُلها فقط، بل ومن أجل نفسه أيضاً. فهو لن يتقبل أبداً، وحتى آخر يوم من حياته، الهزيمة التي ألحقها به ـ وهو شبه «العبقري» ـ ذلك «القفقازي الخبيث (الماكر)». وعما قريب، سيصبح للماركسية والمثل الإشتراكية معنى بالنسبة لتروتسكي فقط في إطار إنقاذها من الستالينية. ومن جهة أخرى، فبالنسبة للأمين العام أصبح تروتسكي ـ وحتى مصرعه في المكسيك ـ رمز الشر والكراهية الشخصية الأكثر عمقاً في العالم. على الأغلب إن ستالين لم يشعر بهذا القدر من الكراهية سوى تجاه هتلر الذي «خدع» ستالين عام ١٩٣٩ ـ ٤١. أما الآن، فالمعركة مستمرة.

لكن المعارضة أبت أن تتوب. فقد رفعت في ربيع ١٩٢٧ مذكرة جديدة للجنة المركزية وقعها ثلاثة وثمانون من مؤيدي تروتسكي. وبعد جلسات عدة عقدتها

اللجنة المركزية واللجنة المركزية للرقابة تم فصل تروتسكي وزينوفييف من اللجنة المركزية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧، وفي الشهر التالي - من صفوف الحزب كلياً. كما كان كاينيف من بين أعضاء المعارضة الخمسة والسبعين الذين قرر المؤتمر الخامس عشر فصلهم من الحزب. والحقيقة تقال أن زينوفييف وكامينيف عادا وتابا - وحتى قاما بدحض مواقفهما السابقة علانية - مما جعل الحزب يقبل عودتهما الى صفوفه في المؤتمر السابع عشر.

أما تروتسكي، فلم يُفصل من الحزب فحسب، بل ونُحي من منصب يُعتبر ثانوياً لا يُمنح إلا للقادة المغضوب عليهم - ولكن ليس بالقدر الذي يجعلهم يُعاقبون عقاباً شديداً. فقد قام مجلس المفوضيات، بتكليف من الأمين العام، باتخاذ القرار التالي يوم ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر):

«١ - إعفاء الرفيق ليو دافيدوفيتش تروتسكي [هكذا جاء في القرار الأصلي - الكاتب] من مسؤوليات رئيس لجنة الإمتيازات المركزية (الرئيسية)...

رئيس مجلس مفوضي الشعب ومجلس العمل والدفاع **ريكوف**»[٥٦].

أصبح الرجل - الذي لم يفُقْهُ أحد سوى لينين فيما قدمه من أجل انتصار الثورة وبقائها أثناء الحرب الأهلية - من المطاردين. لكن الأسوأ كان لا يزال بانتظار «القائد اللامع».

وعكس ما كان يتوقعه تروتسكي، زادت النقاشات تلو الأخرى التي فرضها على الحزب أثناء معركته ضد ستالين من هيبة الأخير كالقائد الجديد للحزب. قد يبدو ذلك متناقضاً، لكن الحقيقة تقول إن أحداً لم يساعد ستالين على الوصول الى قمة الهرم الحزبي مثل تروتسكي. ولنتذكر أنه عندما كانت تُقرأ التقارير والكلمات، لم يكن أعضاء المؤتمر يحيون أحداً بالتصفيق والهتافات سوى ستالين - كما فعلوا عندما قرأ الكلمة الإختتامية للمؤتمر الخامس عشر.

ولا نستطيع هنا اتهام ستالين بـ«تجهيز السيناريو» أو «إخراج المسرحية» منذ البداية. فهو لم يصبح قائداً فعلياً للحزب في عيون الأغلبية إلا بالتدريج الممل. وقد عززت مواقف المعارضة المتزعزعة من مركزه. فكامينيف، على سبيل المثال، الذي اتكل كلياً في كلمته على الإستشهادات، حاول في الوقت ذاته التملق لستالين ناعتاً تقريره بأنه «شامل» ويحتوي على «استشهادات دقيقة «واستنتاجات صحيحة» وإلخ... سيستذكر تروتسكي أنّ «همّ زينوفييف وأصدقائه الوحيد أصبح الإستسلام في الوقت المناسب... كانوا يأملون أنهم إن لم يتباركوا فسيشترون الغفران بتخليهم عني بطريقة استعراضية»[٥٧].

أيقن الجميع أن وحدة تروتسكي مع خصومه لم تكن لتحصل لولا حاجتهم الماسة لتركيز قواهم ضد الأمين العام - وهذا ما أجاد ستالين إبرازه. فستالين - وهو الذي يزداد قناعة يوماً بعد يوم بتفوقه وبالدور الخاص الذي يجب أن يلعبه في الحزب فتحلق مطامحه من عالٍ الى أعلى - لم يكن ليدع فرصة ذهبية كهذه

تفلت من يده. لذلك قرر أن ينهي النزاع الفكري القائم بينه وبين تروتسكي بتحطيم الأخير سياسياً. وبهذا تشهد كلمته أمام اجتماع اللجنة المركزية للحزب والمراقبة الموحد في ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧ والذي ناقش جدول أعمال مؤتمر الحزب القادم (الخامس عشر). وكانت المعارضة التروتسكية من بين ما تقرر مناقشته في المؤتمر. لذلك قام البعض بالهتاف من أماكنهم في القاعة وبإرسال الرسائل القصيرة لهيئة الرئاسة تفيد بأن اللجنة المركزية تعمدت إخفاء «وصية» لينين وعدم تنفيذها. فلم يعد بإمكان ستالين الإستمرار في التكتم حول هذا الموضوع.

فاضت كلمته ـ التي استمرت لمدة ساعة ـ بالغضب والكراهية الواضحة تجاه تروتسكي. فقد عاد ستالين وذكر جميع «الآثام» التي ارتكبها القائد المنبوذ منذ عام ١٩٠٤. ولم تكن كلمته تلك ارتجالية، فقد كان ستالين يعتمد الأسلوب الدقيق في تحضير الكلمات الجماهيرية وخاصة الحزبية منها. وعندما أيقن أن الجبهة الإستراتيجية الأساسية التي يعتمد عليها تروتسكي في صراعه معه هي وصية لينين بما تتضمنه من تحذيرات من سيئاته قرر محاربته بنفس السلاح.

«تريد المعارضة «تعليل» فشلها بفظاظة ستالين وقطعية بوخارين وريكوف والخ... إنه لأسلوب رخيص حقاً(يا له من أسلوب رخيص حقاً)! هذا تخريف وليس تعليلاً... ففي فترة ما بين عام ١٩٠٤ وثورة شباط (فبراير) ١٩١٧ وتروتسكي يحوم حول المناشفة مستمراً في صراع مستميت ضد الحزب اللينيني. ولماذا؟ قد تكون فظاظة ستالين هي السبب؟ لكن ستالين لم يكن آنذاك أمين عام الحزب، كما إنه لن يكن في الخارج، بل كان يناضل تحت الأرض. أما الصراع بين تروتسكي ولينين، فكان في الخارج ـ فما علاقة فظاظة ستالين بالموضوع إذن؟»[٥٨]

شنَّ الأمين العام هجومه تحت راية الدفاع عن لينين، الذي كان تروتسكي قد لقبه في بداية القرن بـ «ماكسيميليان لينين» منوهاً بذلك لنزعات روبيسبيير الديكتاتورية. حطم الأمين العام تروتسكي حرفياً عندما أشار الى أن الأخير كان قد أهدى كتيباته الباكرة «مهماتنا السياسية» للمنشفي ب. أكسيلرود. قرأ ستالين بنشوة المنتصر الإهداء تحت همهمة القاعة: «لأستاذي العزيز بافل بوريسوفيتش أكسيلرود».

«إذن، ـ تابع ستالين منهياً كلامه ـ فاذهب من دون رجعة الى حيث أستاذك العزيز بافل بوريسوفيتش أكسيلرود! إذهب من دون رجعة! لكن أسرِع، يا تروتسكي يامحترم!، لأن أستاذك بافل بوريسوفيتش الهرم، قد يتوفى في القريب العاجل، وقد لا تلحق به»[٥٩].

كما استذكر ستالين بأسف شديد اجتماع تموز ـ آب (يوليو ـ اغسطس) ١٩٢٧ للجنة المركزية للحزب وللمراقبة حيث كان قد ثنى رفاقه عن فصل تروتسكي وزينوفييف من اللجنة المركزية. «من الممكن أنني كنت **طيباً** [التشديد من المؤلف] معهما أكثر مما يجب وإنني بذلك ارتكبت خطأ...» أجل، لقد كانت تلك

حادثة نادرة جداً! لقد حدث وأن أظهر ستالين طيبة قلب مع أحدهم! لقد حدث وأن استخدم ستالين كلمة «طيب»! يا لها من حادثة نادرة فعلاً! لكن ضعفه ذلك لم يستمر طويلاً (لم يكن سوى حادثة عابرة). أما الآن، فهو يدعو «لتأييد الرفاق الذين يطالبون بفصل تروتسكي وزينوفييف من اللجنة المركزية»[٦٠].

وفيما يخص «رسالة [لينين] للحزب»، فقد أعطى ستالين تفسيره الخاص لها، معلناً: «لقد ثبت ـ وأكثر من اللازم ـ أن لا أحد يخفي شيئاً، وأن «وصية» لينين كانت موجهة للمؤتمر الثالث عشر للحزب، وأنه تم إعلانها، أي «الوصية»، أمام المؤتمر، وأن المؤتمر اتخذ قراراً بالإجماع بعدم نشرها. وبالمناسبة، حصل ذلك لأن لينين نفسه لم يكن يريدها أن تنشر ولم يطالب بذلك»[٦١] أبداً. لقد قمت بدراسة آخر رسائل لينين ويمكنني أن أؤكد أن ستالين قام بتزوير حقائق تاريخية عندما ألقى كلمته تلك في تشرين الأول عام ١٩٢٧. أولاً: ليس واضحاً إن كان لينين قد وجه رسالته الأخيرة للمؤتمر الثاني عشر أو الثالث عشر. ثانياً: لم تُعلن «الوصية» أمام المؤتمر بشكل عام، بل لكل وفد على حدة. ثالثاً: لم يتخذ المؤتمر أي قرار ـ وخصوصاً بالإجماع ـ بعدم نشر «الرسالة». أما أن «لينين نفسه لم يكن يريد ذلك»، فذلك يبقى على ذمة ستالين وحده.

هذه المرة لم يتردد ستالين في اللجوء للتزوير الواضح وضوح الشمس وتجرأ أن يضرب على الوتر الحساس، فقد شعر بقوته المتزايدة وبالتأييد الكامل من قبل المشاركين في المؤتمر. استغل ستالين لصالحه إعلان تروتسكي الخاص بـ«وصية» لينين الذي نشرته مجلة «بلشفيك» في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٥ بإلحاح من المكتب السياسي ـ ومن ستالين خاصة. تنازل تروتسكي في حينها لستالين وكتب أن «لينين ـ بعد إصابته بالمرض ـ توجه مراراً لأجهزة الحزب العليا وللمؤتمر باقتراحات ورسائل والخ... ومما لا شك فيه أن جميع تلك الإقتراحات والرسائل كانت تُسلّم دائماً برسم المرسل إليه يُحاط بها أعضاء المؤتمر الثاني عشر والثالث عشر، وبالطبع، كان لها التأثير اللازم على قرارات الحزب... لم يترك لينين أية «وصية»، ثم إن نوع العلاقة التي كانت تربطه بالحزب وطابع الحزب نفسه لم يكونا ليسمحا بالتفكير بكتابة «وصية»... وكل هذه الأحاديث حول «وصية» سرية أو منقوضة ليست سوى أقاويل شريرة تهدف ـ أولاً وأخيراً ـ لتزوير مشيئة فلاديمير إليتش الحقيقية...»[٦٢].

كيف كان لتروتسكي آنذاك أن يعلم أن محاولته تلك للحدّ من الإشاعات الغربية التي تتهمه «بتهريب وثائق سرية للينين إلى الغرب» ستضعه في الزاوية أثناء صراعه مع ستالين؟ اتضح أن الناقوس إنما كان يقرع له. أصبح المشاركون في الاجتماع ينظرون لقائد المعارضة كسياسي متلاعب، ولم يدع ستالين الفرصة تفلت من يده للقضاء عليه.

وبعد أن أشار إلى ما كتبه تروتسكي في «بلشفيك» كشر ستالين عن أنيابه، قائلاً:

«إن من كتب ذلك هو تروتسكي ولا أحد غيره. فعلى أي أساس يدعي تروتسكي وزينوفييف وكامينيف اليوم، بطولة لسان، أن الحزب ولجنته المركزية «يخفيان» «وصية» لينين؟.

يقولون إن الرفيق لينين في «الوصية» تلك اقترح على المؤتمر استبدال الأمين العام ستالين برفيق آخر نظراً «لفظاظته». هذه حقيقة لا غبار عليها. أجل أيها الرفاق، إنني رجل فظ ـ مع الذين يشقّون الحزب بغدر وفظاظة. لم أخفِ ذلك يوماً ولا أخفيه الآن. قد يكون من واجبي التسامح بعض الشيء مع الانتهازيين الذين نحن بصددهم الآن، لكنني غير قادر على فعل ذلك. لقد قدمت استقالتي لهيئة رئاسة اللجنة المركزية في أول اجتماع لها بعد المؤتمر الثالث عشر. كما ناقش المؤتمر نفسه هذا الموضوع... وصوّت الجميع، بما فيهم تروتسكي وزينوفييف وكامينيف، بالإجماع لبقاء ستالين في منصبه. ما كان بإمكاني أن أفعل؟ أن أهرب من المنصب؟ ليس هذا من شيمتي، فأنا لم أهرب من أي منصب، وليس من حقي الهرب أصلاً لأن في ذلك تهرباً من المسؤولية... وبعد عام من ذلك قمت بتقديم الاستقالة مرة أخرى، لكنها رُفضت هي الأخرى. ماذا كان بإمكاني أن أفعل أكثر من ذلك؟»

وتابع ستالين كلامه، قائلاً: «من الجدير بالذكر أن «الوصية» لا تتضمن أية كلمة عن أخطاء ارتكبها ستالين. فهي تتحدث فقط عن فظاظته. لكن الفظاظة ليس ولا يمكن أن تكون عيباً في خط أو موقف ستالين السياسي»(٦٣).

شعر تروتسكي ـ ذلك الممثل الفصيح ـ أن قذائف ستالين المدمرة المنتصرة تعني نهايته السياسية. سيكتب تروتسكي في المكسيك أنه بعد كلمة ستالين إياها شعر بالمقصلة فوق رأسه. تروتسكي ـ كغيره من ثوار تلك الفترة ـ كان ملمّاً بأدق تفاصيل الثورة الفرنسية. ولا أظنه نسي كلمات روبيسبيير الأخيرة في المعاهدة: «لقد لقيت الجمهورية حتفها وحلّ زمن الأوغاد!!» وبالطبع، فقد رأى تروتسكي نفسه في ثبات روبيسبيير. لكن الفرق أن تروتسكي، عكس روبيسبيير، لم يكن باستطاعته الإعتماد على دهماء العاصمة. أصبح تروتسكي قائد جيش بلا جيش. لم يعد الحزب يؤيده. فهو لم يعد يقوى على الصراع. كل شيء انتهى.

لا بد أن الحوار الداخلي الذي عاشه المرشح للديكتاتورية وقيادة الحزب في تلك الليلة كان جارحاً: كيف فشل، هو ـ تروتسكي، معبود الجماهير، في تقدير قوة ذلك القفقازي الأشعث؟ ولسبب ما جاءت إلى ذهنه كلمات من خطاب ذلك الماكر زينوفييف الذي لا يدري كيف تورط معه في ذلك المؤتمر الحزبي الأخير.

أهو ذنبنا إن قرقع هيكلك العظمي
في براثننا الثقيلة؟

ما الداعي لكلمات الشاعر بلوك الآن؟ وما شأن زينوفييف في كل هذا، إذا كانوا يطاردونه هو، تروتسكي؟! لقد أضاع «المارشال تروتسكي» فرصته ـ هكذا كان يناديه مداعباً ل. كراسين في سنوات الحرب الأهلية، عندما كان لينين لا يزال

على قيد الحياة. من أين له أن يتوقع أن القزم الذي لم يكن أحد يعرفه في تلك السنين سيصبح مارداً ويدوس على رقبته أمام الجميع؟

بعد هزيمته السياسية سينكب تروتسكي بكل طاقاته على العمل الأدبي، وسيكتب في خريف ١٩٢٧ أثناء تحضيره لكتاب عن لينين: «الإرهاب الأحمر، كانتفاضة أكتوبر، هو جزء من الثورة. يستطيع الخصوم الطبقيون البحث عن المسؤول عن ذلك... [لكن] الثوار لا يستطيعون الفصل بين المسؤولية عن الإرهاب الأحمر والمسؤولية عن الثورة البروليتارية بشكل عام... يعود الفضل للينين لأنه، قبل غيره، أيقن حتمية القسوة الثورية... في تلك الظروف كان من الضروري أن يكون العدو واضحاً وأن يبقى الحزب على حذر ويقضي قضاءً مبرماً عليه. إن من علّم الحزب ذلك هو لينين...»(٦٤) إنها كلمات فظيعة لم يكن تروتسكي وحده الذي يؤمن بها. لولا أن ستالين كان يعلم من كاتبها، لأيدها تأييداً كلياً. وستالين هو الذي سينفذها، تنفيذاً دموياً... وأيضاً: ضد تروتسكي.

شهد اجتماع أكتوبر لعام ١٩٢٧ آخر خطاب لتروتسكي كأحد نشطاء الحزب السياسيين. كانت كلمته مشوشة لكن مليئة بالانفعال. فيما بعد، سيكتب تروتسكي أنه أراد لكن لم يستطع تحذير [هؤلاء] «العميان»، وأن «نصر ستالين لن يدوم طويلاً وستأتي هزيمته فجأة. الذين يحوزون النصر لساعة واحدة يعتمدون أكثر من اللازم على العنف. إنكم تفصلوننا، لكنكم لن تحولوا دون انتصارنا». خلال إلقاء الكلمة سيظل تروتسكي منحنياً على المنصة يقرأ ما أمامه بسرعة ـ يا له من زمن! أليس هو الذي كان يهزأ من ستالين وغيره من قادة الحزب ويقارنهم بالطلبة الغشاشين؟! كان تروتسكي يصرخ، محاولاً تحدي ضجيج القاعة التي لم تكن تصغي السمع إليه وتقاطعه بين الفينة والأخرى بالهتافات: «افتراء!»... «كذب!»... «ثرثار!»... وصرخ أحدهم من مكانه: «فليسقط التجنحي!»... وتروتسكي يسرع في القراءة، فهو يريد أن يقول كل ما كتبه: حول فتور الثورية في الحزب، واستبداد الجهاز الحاكم، وولادة «الجناح الحاكم» الذي يجر الحزب والبلاد لديكتاتورية جديدة... تضمنت كلمته حقائق كثيرة، لكنها لم تتضمن أية براهين مقنعة أو أفكار واضحة حول الإشتراكية. كانت الكراهية تجاه قيادة اللجنة المركزية والحقد تجاه ستالين واضحين فيها، لكنهما لم يلقيا أي صدى تقريباً لا عند المشاركين في الاجتماع ولا عند غيرهم من الشيوعيين الذين اطلعوا أثناء التحضير للمؤتمر الخامس عشر للحزب.

كانت مظاهرة التروتسكيين، التي حاول القائد تنظيمها بمناسبة الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر، تحدياً فُصل على أثره من الحزب. فقد كان المحيطون به قد قرروا أن ينفصل مؤيدوه عن باقي المتظاهرين ليشكلوا صفوفهم الخاصة. لكن هتافاتهم كانت من التعقيد بحيث أن المطلعين فقط كان بإمكانهم فهمها: «فليسقط الكولاك والبيروقراطي ومؤيد السياسة الاقتصادية الجديدة!»... «فلتسقط الإنتهازية!»... «نعم لتنفيذ وصية لينين!»... «نعم للحفاظ على وحدة البلاشفة!»... حاول بعضهم رفع صور تروتسكي وزينوفييف، لكن ستالين كان قد اتخذ

الإجراءات اللازمة لمنع ذلك. فقد بعثرت قوى الشرطة المتظاهرين التروتسكيين. أدرك تروتسكي في موسكو، وزينوفييف في لينينغراد (فقد سافر خصيصاً إلى هناك) أن أتباعهما صاروا يُعدون على الأصابع. لقد خسرا الرهان وارتد الحزب والطبقة العمالية عنهما كلياً. تروتسكي لا يزال يذكر المؤتمر الثاني للسوفييتات قبل عشر سنوات. لقد رشق القائد اللامع آنذاك مارتوف المسكين بالشتائم تحت التصفيق الحار والهتافات من القاعة، قائلاً: «إن مكانك في سلّة نفايات التاريخ؟» والآن، المتظاهرون المتجمهرون في «ساحة الثورة» في اتجاههم نحو «الساحة الحمراء» يطاردونه بكلمات مشابهة. ويرجمون سيارته بالحجارة. يحطمون زجاجها. أيقن تروتسكي عين اليقين: الآن سيزج به ستالين في مجارير التاريخ. في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فُصل تروتسكي من الحزب الشيوعي الروسي. وبعدها توالت الأحداث بسرعة رهيبة.

وبعد عشر سنوات من النجاح الحزبي الرهيب عاشه ذلك السياسي منذ عام ١٩١٧ انتهى كل شيء. وللمرة الأخيرة سيخاطب تروتسكي الجماهير ـ بحجة مصرع زميله أ.أ. يوفيه. المنشفي السابق يوفيه التحق بالحزب البلشفي ـ مع تروتسكي ـ عام ١٩١٧، ثم أصبح مرشحاً لعضوية اللجنة المركزية وعضواً في اللجنة التنفيذية المركزية لعموم الاتحاد السوفييتي، وعمل منذ عام ١٩١٨ في السلك الدبلوماسي. كان تروتسكياً متزمتاً وعضواً دائماً في المعارضة. كتب قبل انتحاره رسالة لتروتسكي تدور حول انزعاجه لرفض اللجنة المركزية طلبه بالعلاج في الخارج. لكن مضمونها السياسي كان أعمق بكثير. كتب يوفيه أن «رقابة المكتب السياسي» لا تفسح المجال للكتابة عن «ذوي الرتب العالية»، مؤكداً: «إنني لمقتنع تمام الاقتناع أن موتي سيكون موت مناضل يؤمن بصحة الطريق الذي اخترتم يا ليو دافيدوفيتش... ففي السياسة لقد كنتم دائماً على حق، والآن أكثر من أي وقت مضى... [وقد سمعت بأذني] لينين يعترف بأنه حتى في عام ١٩٠٥ أنتم الذين كنتم على حق، وليس هو. والإنسان لا يكذب قبل الموت، لذلك سأقولها لكم مرة أخرى... الصلابة القصوى والاستقامة الصارمة والرفض القاطع للحلول الوسط هي التي تضمن نجاح حقيقتكم...». أصبحت الرسالة تتداولها الأيدي، مولدة إشاعات كاذبة. لذلك صدر قرار من اللجنة المركزية بنشرها في مجلة «بلشفيك» (١٩٢٧. في العددين ٢٣ ـ ٢٤) على أن تُلحق بتعليق. وفعلاً، كتب ي. ياروسلافسكي مقالاً تحت عنوان «فلسفة السقوط» من ضمن ما جاء فيه أن يوفيه كان يقوم برحلات دورية للعلاج في الخارج على حساب الدولة. وجوهر الرسالة يكمن في أن فصل تروتسكي وزينوفييف من الحزب، حسب رأي يوفيه، قد يكون الدافع لاستيقاظ الحزب من السبات ومنعه من السقوط إلى هاوية الديكتاتورية.

حضر جنازة يوفيه عدد كبير من التروتسكيين الشباب، واستمعوا للكلمات التي ألقاها تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وزملاؤهم في المعارضة. لكن خطابات المعارضة المهزومة تلك لم يكن لها الوقع المطلوب (على المستمعين). لقد ولى عهدهم. اقتنع تروتسكي أنه فعلاً أصبح رئيساً بلا دولة، قائد جيش بلا جيش. كانت هذه آخر كلمة يلقيها تروتسكي في الإتحاد السوفييتي وآخر تجمهر علني للمعارضة.

كسرت الهزيمة تروتسكي، لكنها لم تحطمه كلياً. فتابع ستالين البحث عن طرق وأساليب تساعده على القضاء على خصمه اللدود. أسعده النصر كثيراً، لكنه شعر أن المعركة لم تنتهِ بعد. فقد أعطى في أكثر من اجتماع لأجهزة قيادية أوامر بـ«مراقبة التروتسكيين» و«مسح تأثيرهم» و«تحطيمهم سياسياً». بدأت الاعتقالات والابعادات. وتروتسكي، الذي كان مقتنعاً قبل ثلاثة أعوام بأنه سيصبح في نهاية المطاف قائد حزب البلاشفة، لم يصبح سوى قائد مهزوم منبوذ. لم تعد مؤلفاته تخفي الحقيقة المُرّة، ألا وهي أن صراعه تحول إلى مصارعة مع ستالين. لكن الأمين العام لم يعد هزيلاً. وتروتسكي فقد فرصته الأخيرة لاحتلال كرسي القيادة منذ وقت بعيد. لكن الوقت سيثبت أنه رجل سياسة شجاع لا يستسلم أبداً.

وبعد فصل تروتسكي من الحزب، حاول زينوفييف وكامينيف إقناعه بالتوبة وطلب الغفران. لكن علينا ألا ننسى أنه مهما قال وكتب الناس عنه، فإن تروتسكي كان يعيش الحاضر، لكنه ينظر إلى نفسه بعيون المستقبل دائماً. وكونه طموح ـ ومغرور بنفسه ـ فهو كثيراً ما كان يفكر بما سيذكره المؤرخون عنه.

تذوقت أسرتا تروتسكي طعم المرارة معه (شاركت أسرتا تروتسكي حياته في الحلوة والمُرّة). انفصل تروتسكي عن زوجته الأولى إليكساندرا سوكولوفسكايا عام ١٩٠٢ عندما كانت ابنتهما الصغرى لا تزال في شهرها الرابع. في البداية، كان يكتب لها من المهجر، لكن الزمن والأسرة الجديدة جعلا سوكولوفسكايا وابنتيها من «الغابرين»، على حد قول تروتسكي نفسه. لكن، في الحقيقة، بما أن سوكولوفسكايا وكذلك ابنتاه وزوجاهما كانوا تروتسكيين متزمتين، وبما أنه كان يعلم أن المؤرخين لن ينسوا زوجته الأولى، فسيكتب تروتسكي عام ١٩٢٩ في المجلد الأول من مذكراته: «لقد طلقتنا الحياة، لكنها أبقت على العلاقة الأيديولوجية والرفاقية بيننا». لقد ناب الابنتين جزء من نجاح الأب، ومن ثم، وبعد عدة سنوات، ستُضطهدان وتعاقبان. سيكون مصير أسرته الأولى مؤسفاً حقاً. سيجعلهم ستالين يدفعون الثمن غالياً جداً ليس فقط لاختلافهم معه في الرأي، بل ولكونهم من «عائلة أعداء» ـ هذا ما سيُطلق عليه في الثلاثينات: «عناصر خطرة لأصلها الاجتماعي». زينا ونينا ـ ابنتا تروتسكي ـ ستهجران مسرح الحياة بسرعة.

وناتاليا سيدوفا ـ زوجته الثانية ـ بدأت «كثائرة» أيضاً. في البداية، عاشت وتروتسكي في بطرسبورغ تحت كنية «فيكينتيييف»، ومنذ ذلك الحين رافقت زوجها في دربه (لم تفارقه أبداً)، مشاركة إياه العز والنجاح أثناء الثورة والحرب الأهلية والتشرد المستمر في الخارج. وسأشير هنا إلى أن والدي تروتسكي الثريين ـ وحتى عام ١٩١٧ ـ كانا يؤمنان له حياة أفضل بكثير من تلك التي كان يعيشها غيره من المهاجرين الروس.

أنجبت زوجته الثانية له صبيين. كان البكر، ليو، لا يفارق أباه أبداً، أصبح من نشطاء التروتسكية، وبعد إبعاد والده، توفي في باريس في سن مبكرة في ظروف غامضة. أما الإبن الأصغر، سيرغي، فقد رحل عن المنزل عندما كانت الأسرة لا تزال مستقرة في الكرملين، معلناً أن «السياسة تقرفه». فهو لم ينتسب أبداً حتى

للكومسومول وانهمك في العلوم. رفض سِيرغي الرحيل مع والده إلى المنفى، وبالطبع، لن ينقذه ذلك من الهلاك في المستقبل فقط لكونه ابن تروتسكي. ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧ نشرت الـ «برافدا» مقالاً تحت عنوان «محاولة ابن تروتسكي سيرغي سيدوف لتسميم العمال». أصبح سيرغي المنفي في كراسنويارسك «عدواً للشعب». وفي اجتماع لعمال ورشة الحدادة التابعة لمصنع صناعة السيارات حيث كان يعمل سيرغي، قال رئيس العمال: «لقد اندسّ للعمل مهندساً في مصنعنا ابن تروتسكي سيرغي سيدوف. حاول ذلك الخَلَف الصالح لأبيه الذي باع نفسه للفاشية تسميم مجموعة كبيرة من العمال بغاز المولّد (الدينامو)». كما تحدثوا أثناء الاجتماع عن زاكس قريب زينوفييف و«حماية» مدير المصنع سوبُوتين له٠٠٠ كان قدر هؤلاء الأشخاص محتوماً.

ومأساة تروتسكي، الذي سقط جميع أولاده في ناعورة دموية بسبب صراع والدهم مع ستالين، كونت للمبعد هالة شهيد في عيون الغرب. فقط ناتاليا سيدوفا نجت ولم تدفن زوجها فحسب، بل وستالين ـ «العدو الأبدي» لزوجها ـ كذلك، وعاشت لتشهد المؤتمر العشرين للحزب.

في بادىء الأمر، الأمين العام، هو أيضاً، «سجل للتاريخ» موقفاً مشرفاً من أقرباء تروتسكي. فقد أمر شخصياً «بعدم المساس بهم». لكن ذلك لم يمنع عنهم العذاب. فهزيمة الرئيس السابق للمجلس الثوري العسكري السياسية وإبعاده من الإتحاد السوفييتي سيكون لهما تأثير مأساوي شخصي عميق على العائلة بأكملها. لقد نجا عدد قليل من الذين تربطهم بتروتسكي قرابة عائلية بعيدة. وهم يعيشون الآن في موسكو. لقد التقيت بهم. وبالطبع، لا أحد منهم يحمل اسم تروتسكي، عائلته الحقيقية.

سيركز تروتسكي في مؤلفاته ـ حوالى خمسة عشر كتاباً في المنفى ـ وخاصة في آخر سنوات حياته، على مصيره الشخصي. فجميع مؤلفاته: ٠«تاريخ الثورة الروسية» (في ثلاثة مجلدات) و«ماذا بعد؟» و«وصية لينين السرية» و«أخلاقهم وأخلاقنا» و«حياتي» و«الكومنتيرن الثالث بعد لينين» وغيرها من الكتب والكتيبات، جميعها تشهد بأنانية مأساوية عالية جعلت الكاتب يعتبر نفسه نقطة ارتكاز العالم. لن يستطيع تروتسكي العيش بعد ذلك دون أن يكون موضوع حديث ونقاش العالم. ستصبح الشهرة والشعبية والأضواء الساطعة أحب إلى قلبه من الخبز. وزملاؤه ـ المناشفة ـ السابقون سيوجهون له مراراً كلاماً لاذعاً مهيناً. سيكتب د. دولين، على سبيل المثال، في «النشرة الاشتراكية» بعد إبعاد القائد المهزوم:

«يحاول تروتسكي جاهداً ألا يقع في هاوية النسيان، لا قدَّر الله. يقضي وقته يكتب ليلَ نهارَ كتباً كبيرة (سميكة) ومقالات صغيرة (قصيرة) ويوزع نشرات عائلية بجميع اللغات تدور حول غدر ستالين وخيانته للثورة الصينية وحب لينين العميق لتروتسكي. لكن عالمنا ناكر للجميل وكلما مر الوقت كلما قل حديثه عن تروتسكي ونسيه»(٦٥). سيقرأ تروتسكي هذه الكلمات في جزر الأمراء...

ناقش المكتب السياسي عدة مرات موضوع تروتسكي الذي لم يتوقف عن التحريض ضد الحزب، وبالتالي ضد الاتحاد السوفييتي. وتوصلوا في نهاية المطاف إلى ضرورة إبعاده من موسكو. اضطر قائد المعارضة، في بادىء الأمر، على مغادرة الكرملين. وكذلك زينوفييف وكامينيف ويوفيه وغيرهم من القادة السابقين. وكما سبق وذكرنا، لقد فضل يوفيه الانتحار. أما زينوفييف وكامينيف فقد قررا التماس العذر وطلب الغفران من المؤتمر، مؤكدين لتروتسكي: «حان الوقت، يا ليودافيدوفيتش، لتكون لدينا الشجاعة للاستسلام، لنكن شجعاناً ونستسلم». لقد هُزموا هزيمة نكراء في هذه المعركة، لكنهما حاولا التعلق بقطار التاريخ. بعد فترة، تقرر تسفير تروتسكي إلى ألما آتا (كازاخستان). ووفقاً لبعض المصادر، يبدو أن بوخارين كُلف بمرافقته (إلى هناك).

حاول مؤيّدو القائد المنقوم عليه تحويل سفره لعملية احتجاج. رفض تروتسكي الخروج والركوب في السيارة بنفسه. حملوه على الأيادي. وتكررت الآية عند الصعود للقطار. وطوال ذلك الوقت كان ابنه الأكبر يصرخ: «أيها الرفاق! انظروا كيف يحملون تروتسكي!» وزوجة القائد ـ سليطة اللسان والقلم ـ ستصف بدورها تلك اللحظات: «تجمع حشد من المتظاهرين في المحطة. كان الجميع ينتظر. كانوا يهتفون: «يعيش تروتسكي!» لكن تروتسكي لم يظهر. أين هو؟ حشد خفير يلتف حول العربة المخصصة لنا. وضع اصدقاؤنا الشباب صورة ل.د. على سقف العربة. واستقبلوه بـ«هوراه!» صاخبة. انطلق القطار. الدفعة الأولى، ثم الثانية... ثم اهتز وتوقف فجأة. فقد تعلق المتظاهرون بالعربات واعترضوا طريق القطار فاوقفوه. كانوا يطالبون برؤية تروتسكي. فقد سرت الإشاعات أن رجال المخابرات أدخلوا ل.د. إلى العربة بالسر ويمنعونه من استقبال المودعين. الاضطراب في المحطة لا يمكن وصفه. حصلت مشاحنات مع رجال الشرطة والمخابرات. أصيب أشخاص من الطرفين بجروح. ألقي القبض على الكثيرين»[٦٦].

تسلم ستالين ـ الموجود في حينها في سيبيريا ـ عدة برقيات بالشيفرة تعلمه بآخر تطورات عملية إبعاد تروتسكي التي كان يترقبها باهتمام وتوتر. كان ستالين يقرأ التقارير بصمت ثم يصرخ: «لا أريد أي تسامح! أية تنازلات! اقطعوا رأس مساعدي تروتسكي! بسرعة وبلا تهاون!» ومن ثم كان يحوم في مكتبه بعصبية، يقلب الأفكار في رأسه المتوتر.

وبعد سنوات عدة، سيأتي زملاء الأمين العام لزيارته في مصيفه. وحول المائدة سوف يناقشون آخر ما ورد من أعمال تروتسكي في الخارج. سيقول المضيف بغضب:

ـ لقد ارتكبنا خطأين آنذاك. كان يجب أن نبقيه في ألما آتا... ما كان يجب السماح له بالسفر إلى الخارج أبداً... ثم: كيف سمحنا له أن يأخذ معه هذا العدد الكبير من الأوراق؟

لكن الأمين العام لم يدرك خطأه ذلك إلا في الثلاثينات. بينما في العشرينات...

تابع تروتسكي نشاطه السياسي خلال فترة إقامته في ألما آتا. وفقاً لكلامه، كان يبعث بمئات الرسائل والبرقيات شهرياً لعناوين مختلفة لتبادل المعلومات واشعال نار المعارضة التي بدأت تنطفيء. يعترف تروتسكي في مذكراته بالرسائل السرية التي تم تبادلها مع مؤيديه. سيعلن ابنه الأكبر عدد تلك الرسائل: «بعثنا ٨٠٠ رسالة سياسية وحوالى ٥٥٠ برقية من ألما آتا في فترة ما بين نيسان (أبريل) ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٨. تسلمنا أكثر من ألف رسالة سياسية، طويلة وقصيرة، و٧٠٠ برقية...»[٦٧] كما تمّ تبادل رسائل مؤامراتية. حاول تروتسكي بعث المعارضة من جديد. فدور القائد المنقوم عليه' له امتيازاته. لم يغير الإبعاد من طريقة تفكير قائد المعارضة ولم يمنعه من محاولة إحداث اضطراب داخل الحزب. أصبح ستالين في عيون تروتسكي الثاقبة رمزاً مجسداً للديكتاتورية والشر وجميع مصائب العالم. علينا الإعتراف بأن القائد مكسور الجناح أصاب الهدف بتقويمه ذاك.

في كانون الثاني (ينـاير) ١٩٢٩، وبعد عام من النقاشات حول أفضل مكان لإبعـاد تـروتسكـي إليـه، وقـع اختيـار المكتـب السيـاسـي علـى القسطنطينيـة. سُفّـر تروتسكي وزوجته وابنه ليو إلى القسطنطينية مروراً بأوديسا. وعندما اقتربت السفينة من المرفأ التركي في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٢٩ قرر تروتسكي أن يجذب انتباه الرأي العام العالمي فكتب رسالة للرئيس التركي كمال باشا مفادها التالي:

«سيدي الكريم!

لدي الشرف أن أعلمكم وأنا لا أزال على أبواب القسطنطينية إنني لم آتِ إلى الحدود التركية بمشيئتي الخاصة وإنني لن أعبر حدودها إلا مرغماً.

١٩٢٩/٢/١٢ **ل.تروتسكي**[٦٨]

هكذا بدأت «الرحلة حول العالم» التي انتهت في المكسيك. وبدأ معها عقد من النضال النشيط ـ بل الأنشط في حياة تروتسكي ـ ضد ستالين، وبالتالي، راغباً أو راهباً، ضد الكيان الذي طالما ناضل تروتسكي من أجل إنشائه وحمايته.

ما هو سبب مأساة تروتسكي الشخصية؟ المصالح الشخصية. إن «لا بلشفية» تروتسكي، التي تحدث عنها لينين، لم تعد ذات أهمية في نهاية المطاف. ومكاسرة «القائدين اللامعين» هي التي اكتسبت الأهمية. فالفكر العميق وخلايا الدماغ النشيطة الفريدة والشخصية الطموحة إلى أبعد الحدود جعلت من تروتسكي عدواً جباراً للاشتراكية الستالينية. لكن الغضب والكراهية الشخصية تجاه ستالين كثيراً ما كانا يشوهان الرؤية الواقعية للعالم ويبقيان تروتسكي أسيراً لأوهامه الطوباوية حول الثورة الشيوعية العالمية.

ما كاد تروتسكي يصل إلى القسطنطينية على متن سفينة «إليتش» حتى سلم الصحافة التركية اليمينية مجموعة من المقالات بعنوان «ماذا حصل وكيف»، احتوت إحداها على فكرة طالما حاول تروتسكي تمويهها ـ أما الآن لم تعد هنالك حاجة لذلك ـ تعتبر نظرية بناء الاشتراكية في دولة واحدة تخريفاً رجعياً، «أبشع وأكبر

مكيدة ضد الأممية الثورية». ولهذه «النظرية» أساس إداري وليس علمي [٦٩]. عندما سيقرأ ستالين هذه الكلمات خلال أسبوعين في بريده الصباحي سيقول: «وأخيراً بان ذلك النذل على حقيقته».

عندما وجد تروتسكي نفسه في الخارج، حاول المحافظة على صيته كثائر وتابع نشر المقالات حول أكتوبر ولينين والاشتراكية في روسيا. وهدفه الرئيسي كان: نغز ستالين في المكان الأكثر إيلاماً وإبراز نفسه كالشخص الذي اختاره لينين ليكون خليفته لولا غدر ستالين له ولوصية لينين. لا يمكننا أن ننفي أن تروتسكي، قبل غيره، فهم ستالين من الداخل وتصدى له. لكن تروتسكي كان يعتبر أن صراعه مع ستالين يمنحه الحق في إهانة شعب بأكمله. فقد سمح لنفسه في المجلد العشرين من مؤلفاته بالاستهزاء من الشعب الروسي. ففي رأيه، «جميع رجال الدولة الروس لم يكونوا أكثر من مقلدين من الدرجة الثالثة لدوق إليا أو ميتيرنيخ أو بيسمارك». أما فيا يخص العلوم والفلسفة وعلم الاجتماع، «فإن ما قدمته روسيا للعالم هو صفر على اليسار...». أعتقد أن تلك الأفكار الشوفينية المعادية للسلافية (يلمح المؤلف إلى أن تروتسكي كان من أصل يهودي) إنما تساعدنا على التعمق في شخصية ذلك الرجل السياسية الذي قرر عن سبق إصرار أن التاريخ لم يحضر له سوى الأدوار البطولية. كان تروتسكي يكرر أثناء وجوده في الخارج أنه رجل فُتح له الكوكب دون تأشيرة دخول. كان لا يزال يحاول لعب دور «العبقري الثاني»، ويردد باستمرار: «لقد أحضروا لينين من ألمانيا إلى الثورة في عربة مشمعة. وأنا أجبروني على ركوب سفينة «إليتش» وأحضروني إلى القسطنطينية. لذلك لا أعتبر إبعادي كلمة التاريخ الأخيرة». كان المسكين يأمل في العودة. لكن مشيئة القدر كانت مختلفة. بقي واحد من «القادة اللامعين» خارج السياج.

حياة الأمين العام «الخاصة»

وهل يمكن أن تكون لرجل يعيش على مرأى جميع المواطنين «حياة خاصة»؟ لكن ستالين لم يكن «على مرأى الجميع». فحتى نهاية العشرينات، نادراً ما كانت تذكره الصحف. والحقيقة أن لجان المحافظات كانت تتسلم شهرياً الإرشادات والتعليمات والأوامر الموقعة من قبله. لكنه لم يكن معصوماً عن الخطأ بعد. كان يمكن عدم الموافقة على آرائه، بل وانتقاده علانية كذلك. نشرت مجلة «بلشفيك» في عدديها الحادي عشر والثاني عشر من عام ١٩٢٥، على سبيل المثال، مقالاً لِـ م. سيميتش يعبر فيه عن اعتراضه على موقف ستالين من القضية القومية. وفي بداية عام ١٩٢٦ نشرت المجلة ذاتها في عددها الرابع تعليقاً لِـ ف. سورين يعارض فيه موقف الأمين العام فيما يخص العلاقة بين الحزب والطبقة. ورد ستالين ـ الذي جاء في العدد ذاته ـ كان عبارة عن اعتذار فعلي لِسورين. ولم يكن أحد يرى في ذلك أي شيء من الغرابة. فإن قوة الإستمرار التي تدفع المجتمع منذ أكتوبر لم تكن بالضعيفة، ونبتات الديمقراطية الثي زرعها بها لنين لم تكن قد ديست بعد. وستالين كان يبدو لمن يعرفه ولمن لا يعرفه إنساناً عادياً. وشخص عادي كهذا يجب أن

تكون له حياة شخصية عادية، أي التي يعيشها خارج أوقات العمل. وهذه الخصائص ليست هي التي تحدد شخصيته السياسية، لكنها تساعدنا على فهم طبيعته.

لقد تمكنت من مقابلة العديد من الأشخاص الذين عرفوا ستالين ورأوا تصرفاته «داخل البيت»، إذا جاز التعبير، أي أطباءه ورجال الحرس وعاملي الأمانة العامة وبعض الكتّاب وقادة الجيش وغيرهم ممن عرفوه عن كثب. لن أتردد في القول إنه باستثناء بعض الحالات النادرة كانت حياة الأمين العام «الخاصة» هي عمل في عمل. لم يكن ستالين يعرف أية أيام عطلة، لم يكن برنامجه يختلف من يوم الى يوم: من اثنين لجمعة لأحد. ولم يختلف الوضع إلا في نهاية حياته، قهره العمر وأسره العمل والمجد الآلهي. لم يعد يسافر الى موسكو أو يذهب الى الكرملين. استقر في مصيفه. وهنا كانت تعقد الجلسات النادرة للمكتب السياسي وهنا كان يستقبل الوزراء وقادة الجيش والوفود الأجنبية، وهنا كان يخرج ليتنزه قليلاً في الحديقة ليستنشق الهواء النقي.

في السنوات العصيبة التي تلت الثورة تولدت لدى ستالين عادة العمل دون أيام عطلة. أمام عيني الآن رسالة للينين من الرفيقين روفيو وغيولينغ يطلبان فيها مقابلة القائد بخصوص قضية كاريليا، حولها مجلس مفوضي الشعب لمفوض القوميات. جاء قرار ستالين قصيراً محدداً: «المقابلة ممكنة يوم الأحد في الساعة ٢/ ٣١ في مفوضية القوميات. ستالين. ٤ شباط (فبراير) ١٩٢٢». يحتوي «أرشيف» ستالين على الكثير من الرسائل والأوامر والتسجيلات الهاتفية المشابهة التي تثبت أن مفهوم «يوم العطلة» لم يكن موجوداً في قاموس ذلك الرجل. في الحقيقة، كان ستالين يمضي يوم ـ وليلة ـ الأحد على طاولة الطعام في بعض الأحيان. لكنه وضيوفه من أعضاء المكتب السياسي كانوا يأكلون ويشربون بكثرة وفي الوقت ذاته يناقشون ـ بطريقة قد تبدو ودية حرة ـ المشاكل والعقبات التي تواجهها البلاد وكيفية التغلب عليها.

في العشرينات كان القادة يعيشون بتواضع. في الفترة الأولى كان ستالين يعيش في شقة صغيرة وُضعت تحت تصرفه بقرار من لينين. فقد احتفظ «الأرشيف» برسالة قصيرة وجهها أ.ف. لوناتشارسكي في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ للينين يقترح فيها منح ستالين شقة مريحة أكثر. وبعد الإطلاع عليها وجه لينين بدوره رسالة لرئيس الحرس أ.ي. بيلينكي:

«الرفيق بيلينكي. هذا شيء جديد بالنسبة لي. الا يمكن إيجاد حل أفضل؟ لينين. يرجى الرد»[٧٠].

كما وجه لينين رسالة قصيرة لسكرتير اللجنة التنفيذية المركزية لعموم الإتحاد السوفييتي أ.س. ينوكيدزيه يطلب فيها التسريع في عملية تأمين سكن لمفوض القوميات إ.ف. ستالين والتبليغ بالتنفيذ هاتفياً. وسرعان ما تأمنت تلك

الشقة الصغيرة - سكن الخدم سابقاً - في الكرملين. كان الأثاث في منتهى البساطة، مجرد بقايا من الأثاث القديم، والأرض الخشبية مهترئة. والنوافذ صغيرة. شهدت تلك الشقة فترة نادرة في حياتها، فساكنها يغادرها في الصباح الباكر ويعود بعد منتصف الليل.

في بداية العشرينات انتقل ستالين للعيش في مصيف زوبالوفو، ومن ثم - في الثلاثينات - إلى كونتسيفو. وبأوامر من ستالين نفسه كان المصيف يرمم ويعاد ترتيبه باستمرار. وفي آخر سنوات حياته قام العمال ببناء بيت خشبي صغير حيث انتقل ستالين مفضلاً إياه على المبنى الأساسي القريب منه. وخبرني أ.ن. شيليبين - من مشاهير رجال الدولة والحزب سابقاً - أنه «عند جرد جميع ممتلكات الأمين العام بعد وفاته اتضح أن ذلك ليس بالعمل الصعب. اتضح أنه لا يملك أية أشياء ثمينة باستثناء بيانو الحكومة. فهو لا يمتلك حتى أية لوحة «أصلية». والأثاث ليس باهظ الثمن. أرائك مغطاة بالشراشف. ولا شيء من «الأنتيكا». وعلى الجدران: صور للوحات داخل أطر خشبية بسيطة. تتصدر الصالون صورة فوتوغرافية مكبرة للينين وستالين أُخذت في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢. في بيت م.إ. - أوليانوفا في غوركي. (وبالمناسبة، تلك هي الصورة التي يعتبرها الكثيرون اليوم مزيفة بعد المونتاج. - الكاتب).

على الأرض توجد سجادتان. البطانية التي كان يستعملها ستالين عسكرية. باستثناء بزة المارشال لم يُعثر على ملابس سوى بدلتين مدنيتين بسيطتين (واحدة منها من قماش الشراع) وكفوف مرقعة ومعطف فرو فلاحي... في الحقيقة، وكما سبق وذكرت، فإن حياة الناسك التي كان يعيشها ستالين لم تكن سوى ظاهرية استعراضية. «القائد» كان يملك عدة بيوت للتصييف في أحواز موسكو وفي الجنوب بطاقم خدم كبير وحراسة مشددة. هنا كانت جميع نزواته تنفذ فوراً وبلا إبطاء. لكن ستالين كان يفعل المستحيل كي يخفي هذه الحقيقة ويؤكد على تواضع مسكنه وحياته.

وكلمات أخرى عن غرفة مكتبه في المصيف. وراء المكتب الضخم يوجد مقعد دوّار. يقول الخدم إن ستالين كان يلف مقعده، عندما يرهقه العمل - نحو النافذة ويبقى محدقاً في الحديقة لوقت طويل. لم يكن ستالين يحب الأحراش الكثيفة. ويقول حارس ستالين الشخصي أ.ت. ريبين أنه في بداية الربيع كان الأمين العام يأمر ويشير إلى الأشجار التي يجب قطعها. وهناك صورة فوتوغرافية لا تزال موجودة حتى الآن: يقف ستالين مقوس الظهر ممسكاً بيد ابنته - وظهره لعدسة الكاميرا - وأحد «الخدم» يقوم بقطع الأشجار وفقاً لأوامر «سيده» الذي يشير له بإصبعه على الأشجار المحكوم عليها بالإعدام... وستالين - كما نعلم - لم يكن يحب «قطع» الأشجار فقط....

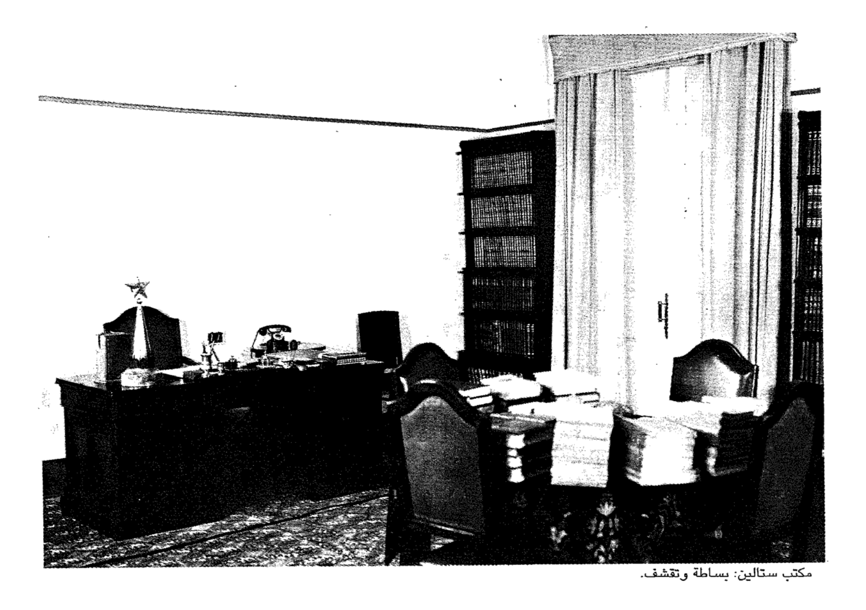
لم يكن الأمين العام يحب الأشياء المستوردة. وقد حول كراهيته تجاه كل ما هو أجنبي و«أوروبي» لجزء من حياته. خلال سنوات طويلة كان يشدد على

«بساطته البروليتارية» بالرغم من أن نمط حياته كلها يثبت أنه لا علاقة لمفاهيم الإنسان السياسية والأخلاقية بموقفه من ظروف الحياة والقيم والأشياء. فالأمور أعقد من ذلك بكثير. المسألة ـ وبكل بساطة ـ أن ستالين كان يجيد تحديد الأولويات. والأولوية في حياته كانت للسلطة كهدف ووسيلة وقيمة دائمة. و«الإطار» الحياتي المعيشي لتلك السلطة لم يكن يهمه كثيراً. لكن ذلك لم يمنعه من الانتقال عام ١٩٣٨ إلى سكن أفضل في جناح رائع من الكرملين بناه كازاكوف في القرن الثامن عشر وكان مخصصاً لأعضاء مجلس الشيوخ سابقاً. كانت الشقة تحتل الطابق الثاني بأكمله تقريباً. توجد هنا غرف للضيوف. وللحرس. وللحفلات الرسمية. وفي الطابق العلوي: غرف العمل. نوافذ ومناظر خلابة، سقوف عالية، سلالم لولبية. لكن ستالين لم يستقر في هذه الشقة، كما لم يستقر في مصيفه البعيد، فضل العيش في مصيفه القريب.

بمناسبة عيد ميلاد ستالين قدم له بيريا مصيفاً على ضفاف بحيرة اصطناعية في ضواحي موسكو، وأقنع «القائد» بالذهاب إلى هناك. استسلم «القائد» الذي تقدم به العمر، وذهب. وصلوا. كان البيت الجميل غارقاً بين شجر الصنوبر والشيح. علق ستالين بارتياب: «أي نوع من مصيدة فئران هي هذه»؟ تجول في الحجرات دون أن يخلع معطفه، ثم دار حول البيت ونظر إلى مرافقيه وجلس في السيارة. ولم يعد لزيارة ذلك المنزل أبداً. فكلما تقدم العمر بالإنسان كلما استصعب تغيير عاداته. فهي كالخيط الخفي تقود الإنسان في طريقه لتتحول إلى جزء لا يتجزأ من عالمه الشخصي الغامض.

لم يكن نمط حياة الأمين العام صحياً. فمنذ العشرينات بدأ يفضل العمل ليلاً. وكان يفرط في التدخين. وقبل وفاته بعام ـ أو أقل بقليل ـ امتنع عن التدخين وكان فخوراً بذلك. كان ستالين يحب شرب القليل من النبيذ الجورجي الناشف قبل تناول الطعام. لم يكن يحب المشي. فهو كان يفتقد، على حد قوله، «لعادات الأرستقراطيين» الذي يقضون الساعات الطويلة في صيد الحيوانات والأسماك. وأذكر هنا كلمات أ.إ. غيرتسين في رسالته لـ ن.ب. أوغاريف حول هدف الإنسان في الحياة. كان غيرتسين يرى ذلك الهدف في تكوين شخصية متعددة الألوان «تجيد التمتع بجميع أوجه الحياة». أما ستالين، فكان يتمتع «بوجه واحد للحياة فقط. العمل ثم العمل ثم المشاكل التي تزداد تعقيداً وضخامة يوماً بعد يوم جعلته أسير منصبه.

يتذكر الناس الذين عرفوا الأمين العام أنه في اللحظات النادرة التي كان يقضيها في الحديقة كان يقوم ـ منحني الظهر ـ بدورة أو اثنتين حول الطريق المعبد ثم يقف أمام حوض زهور أو شجيرة ليلك. هو كمن يفكر في أعجوبة الطبيعة الدائمة، لكنه في الواقع، يفكر في أعجوبته الشخصية. وكل إنسان ـ بطريقته الخاصة ـ يربط بين ما يراه ويسمعه ويفكر فيه وحياته بجميع أحداثها. وكثيرون يُلهَمون بالأفكار حول الحياة والضمير والنفس وهم ينظرون إلى هاوية السماء والسحب أو عيون النار الساحرة، أو وهم يستمعون للبحر يتنفس. وعندما يكون في



مكتب ستالين: بساطة وتقشف.

سوتشي يحب ستالين الوقوف على الشاطىء والاستماع لخشخشة حصى البحر أثناء شهيق الأمواج. البحر يشمخ أمامه كالوحش الخيالي الضخم الذي لا يعرف العذاب أو الفرح، الذي لا يمزقه الماضي ولا يتولع شوقاً لمعرفة المستقبل... ينظر إلى عربدة شجيرة الليلق مبتسماً ويقارن التنظيم في الطبيعة الخالدة بأعماله: «بهرج باطل...»

لقد أطلعت للتو علَى ملف يحتوي على أوراق من فوروشيلوف. ويا له من خليط من أعمال يجب القيام بها: فهو يطلب الإذن بإعفاء سائقي التراكتورات ومكائن الحصاد من الجيش، ويقدم اقتراحاً ببناء مبنى جديد لقيادة الجيش، ويُعلم بخطاب بيلسودسكي، ويقدم موجزاً بما ورد في صحيفة تشيكية برجوازية، ويرفع تقريراً حول رسالة قائد فيلق الخيالة السادس والعشرين عن سوء التفاهم الذي حصل مع قائد الجيش غوستينتسيف، وحول رسالة الرفيق إلين عن ضرورة وأهمية صناعة المناطيد وعن المشاريع العسكرية التي يتم بناؤها وإلخ... وكم من البرقيات أملى اليوم! وهو يتذكر الأخيرة حرفياً:

«محافظة ريزان. قرية بروسياني بولياني. سكرتير منطقة ساسوفسكي.

استلمنا رسالة من المدرّسة شيرينسكايا. يرجى حماية استاذة المدرسة التترية من تهجمات قائد لجنة كادومسك إيفانوف الذي اقتحم شقتها بحجة تأميم ممتلكات الأب وطالب بتسليمه خزانة لا يريدها أحد ومنعها من العمل بهدوء ودفعها للتفكير بالانتحار.

أرجو أن تتدخلوا فوراً وأن تحموا شيرينسكايا من أية اعتداءات أخرى وأن تبلغوا اللجنة المركزية عن النتائج فور التنفيذ.

أمين عام اللجنة المركزية

ي. ستالين»

وراء كل ورقة وكل برقية وكل إخبار يوجد مصير، مصائر. وكم من القضايا والملفات ستعالج في الغد؟! وهكذا كل يوم...

مع الوقت سيتولى المساعدون والنائبون وعاملو الجهاز جميع هذه الأمور. لكن حتى آخر أيامه كان ستالين يحب أن يتولى بنفسه حل القضايا البسيطة المتعلقة بمصائر أفراد، وخاصة بتعييناتهم ونزواتهم «التحررية» و«اختلافهم» في الرأي وتمردهم.

وكلما ازداد وزن ستالين السياسي والحزبي كلما حاول الجميع الإتكال عليه في كل صغيرة وكبيرة... أفلا يستطيع المفوض حل مسألة سائقي التراكتورات وإعفائهم من الخدمة العسكرية بنفسه! ومسألة إنشاء مبنى جديد في العاصمة؟! أفلا يستطيع سكرتير ما تولى أمور المدرّسة شيرينسكايا؟! لكن في مكان ما من عقل

ستالين كانت تنضج فكرةٌ:... أنهم لا يستطيعون العيش بدوني... إنني على كل شيء قدير!... أم أن هذا قدر جميع القادة الكبار؟!.

كان ستالين يعلم داخلياً أن المركزية الكاملة المعقدة المتوجة بالطقوس البيروقراطية تجعله أسير ذلك النظام الإداري، بل و«تفرمل» العمل وتقتله. إذن، لمَ كل هذه المفوضيات، وأين ليونتها؟ وماذا تفعل جميع هذه «المكاتب» الدوائر الاتحادية؟ أجل، كان يعلم، لكنه لم يكن يريد تغيير الحال. فالسلطة الفردية لا تبقى فردية إذا ما «قُسمت». وبالتدريج أصبح ستالين مركز كل شيء. وعلى قراره ـ وإلى حد ما، قرار المحيطين به ـ صار يعتمد مصير الاقتراحات: هل ستجري في نهر التنفيذ أم سيعترضها سد الرفض؟!.

وهو يعيش الحاضر، كان ستالين يسترجع الماضي أحياناً ويتطلع إلى ما وراء أفق المستقبل أحياناً أخرى كما في رسالة سينيكا لِلوتسيليو: «ما يعذبنا نحن هو الماضي والمستقبل. فمن سماتنا الجيدة ما يضر بنا. الذاكرة، مثلاً، تعود بنا إلى عذاب وخوف الماضي، أما التنبؤ، فيتوقعُ لنا عذاب المستقبل. ولا أحد يكون حزيناً لأسباب الحاضر فقط»[٧٢]. هل كان ستالين يفكر في ذلك يا ترى؟ لا أعتقد. فهو لم يكن يقرأ أعمال سينيكا. ولم تكن مكتبته تحتوي على أية أعمال للمفكرين القدماء. قضايا اليوم كانت تمسك بالأمين العام في قبضتها. والمستقبل، برأي ستالين، لا يجب التنبؤ به بل صنعه، وذلك وفقاً لقرارات آخر مؤتمر أو اجتماع.

والشيء الوحيد الذي كان يضحي بالعمل من أجله هو السينما والمسرح. فقد اعتاد منذ العشرينات مشاهدة شريط سينمائي أو اثنين في الأسبوع، بعد منتصف الليل عادة. فلم يكن الأمين العام يدع أي فيلم يروج في دور السينما يفوته. كان جميعها يعرض في قاعة السينما في الكرملين، وفيما بعد، في مصيف ستالين. وفي إحدى لقاءاته مع قادة مكتب المراقبة والتحريض قال ستالين: «السينما ليست سوى خدعة، لكن الحياة تملي علينا قوانينها». ومن سائر وظائف السينما ـ بل والفن بشكل عام ـ لم يعترف ستالين إلا بالوظيفة التربوية.

منذ العشرينات وزوجته تعلمه الاستمتاع بالمسرح. لقد رافقها أحياناً قليلة لمسارح العاصمة. أما بعد وفاتها فقد دخل المسرح حياته فعلاً، وبالتحديد مسرح الـ«بولشوي». أعتقد أنه حضر معظم ما عرض على خشبته مرات عديدة. حدثني أ.ت. ريبين، أحد رجال حرسه الشخصي، أنه، ليلة إصابته بالنزيف المخي، شاهد «بحيرة البجع» ـ للمرة العشرين أو الثلاثين. عادة، كان يذهب للمسرح لوحده. يدخل عند إطفاء النور في القاعة. يجلس في الشرفة، في الخلف. وبعد انتهاء العروض الأولى يبعث بالشكر للفنانين. وحتى يحضر «البروفات» الأخيرة قبل العروض. يبدو أن تربيته الدينية لم تؤثر فقط على حبه للقوانين النظرية بل وعلى إحساسه بضرورة الموسيقى. أعتقد أن الموسيقى والمسرح كانا «الاستطراد العاطفي» الوحيد في حياة مكرسة لتعزيز السلطة الشخصية والتفردية في حل معظم القضايا. وتلك المشاركة في اتخاذ جميع القرارات من كبيرة وصغيرة ساعدت على بناء وتعزيز

الأسس البيروقراطية التي يرفضها في خطاباته بحكم قوة العادة، بينما يزرعها ويعتني بها على أرض الواقع.

عندما نقول «الحياة الخاصة» دائماً نعني بها العائلة. عندما تقرر نقل العاصمة من بيتروغراد إلى موسكو انتقل والدا ناديجدا مع صهرهما (ستالين) إلى المقر الجديد حيث أقاما معه في شقة الكرملين الصغيرة لفترة طويلة. وناديجدا إليلوييفا، كما سبق وذكرنا، كانت تصغر زوجها باثنين وعشرين عاماً. في الواقع، لقد انتقلت فوراً من حياة التلميذة لحياة زوجة أحد قادة حزب. وتثبت الوثائق وأقوال شهود عيان، بمن فيهم ابنتها سفيتلانا، أن أليلوييفا كانت امرأة مخلصة كاملة. تابعت دراستها وانتسبت للحزب وأصبحت عضواً في مفوضية القوميات. وحدث أن قامت بدور السكرتيرة المناوبة في مقر لينين في غوركي.

سرعان ما تأقلمت ناديجدا مع جو الاجتماعات والمظاهرات والنضال والرحيل الدائم الذي يعيشه زوجها. وعند الإطلاع على «أرشيف» ستالين يتضح أن العديد من الرسائل والبرقيات والأوامر والإرشادات مكتوبة ليس بخط يد مساعدي ستالين وعاملي الأمانة العامة (نازاريتيان، توفستوخا، ميخليس، دفينسكي)، بل وكذلك بخط يد ناديجدا إليلوييفا. كانت عينا تلميذة البارحة الواسعتان تتابعان بلهفة العالم الذي يعيش زوجها من أجله: مؤتمرات، إجتماعات، مكالمات هاتفية لا تنتهي أبداً، لقاءات ليلية، نقاشات، جبال من الوثائق. رأت أن زوجها يعيش من أجل القضية. وفقط من أجلها. لم تدرك في بادىء الأمر صغر الموقع الذي ستحتله هي في حياته. أليست الحياة الزوجية السعيدة جسراً يربط شخصاً بآخر ويساعدهما على العشرة والاختلاط؟! لكن ستالين لم يكن لديه وقت للعشرة والاختلاط. وعندما تواجهه زوجته باتهامات كـ: «العائلة لا تهمك، ولا الأولاد و...»، يقاطعها ستالين بفظاظة، ويشتمها أحياناً. ملأت إليلوييفا فراغها وأشبعت حاجتها في الاختلاط بالعمل والدراسة واللقاءات مع نساء زملاء زوجها: بولينا سيميونوفنا جيمتشوجينا (زوجة مولوتوف)، دورا مويسييفنا خازان (زوجة أندرييف)، ماريا ماركوفنا كاغانوفيتش، إسفير إساييفنا غورفيتش (زوجة بوخارين الثانية).

في العشرينات رزق ستالين وأليلوييفا بطفلين: فاسيلي أولاً ـ عام ١٩٢١، وبعده بأربع سنوات ـ سفيتلانا (ولد فاسيلي عام ١٩٢١ وتلته سفيتلانا بعد أربع سنوات). ثم جاء للعيش معهم ياكوف، ابن ستالين من زوجته الأولى يكاتيرينا سفانيدزيه. كان ياكوف يصغر زوجة أبيه بسبع سنوات فقط. أحبت ناديجدا الفتى الذي لم يفسده حنان الأب وأحسنت معاملته. وبما أن أليلوييفا امرأة عاملة كانت المربية تهتم بشؤون الأطفال. كانت الشقة ـ أو مصيف زوبالوفو ـ تعج دائماً بالضيوف والأقارب. إضافة لوالدي ناديجدا كان أخواها، فيودور وبافل، وأختها آنّا وأنسباؤها يأتون للزيارة باستمرار. لم يكن ستالين يتواجد أثناء تلك الزيارات الصاخبة إلا نادراً. وفي الثلاثينات، بعد وفاة ناديجدا، سيشح هذا النبع من الأقرباء وينشف كلياً. لكنه لن «يشح» بإرادته الشخصية. فقط والدا ناديجدا سيموتان ميتة طبيعية؛ أما الباقون فسيموتون ميتة «أعداء الشعب». حاول بافل، شقيق ناديجدا،



والدة ستالين. كانت تتمنى لو أصبح ابنها قسيسا





زوجة ستالين الأولى كاتيرينا سفانيدزيه



ستالين يحمل ابنته سفيتلانا.

مراراً أن يقنع الأمين العام بخطأ العديد من الاعتقالات والتنكيلات، بما فيها المتعلقة بأقربائه. لكن، هل هنالك داعٍ للذكر أن ذلك لم يجدِ شيئاً؟! دعونا من ذلك الآن، فهو سيحصل في الثلاثينات ونحن ما زلنا في العشرينات...

لم يستطع ستالين ـ ويبدو أنه لم يرد ـ تربية أطفاله بنفسه. فهو نادراً ما يراهم: في أيام الآحاد أحياناً، عندما يأتون بهم إلى المصيف، أو في الجنوب ـ في سوتشي أو ليفادي أو موخالاتكا ـ حيث سافر ستالين أكثر من مرة قبل الحرب للاستجمام. وليست هذه المرة الأولى في التاريخ عندما تتسبب شهرة الآباء بالضرر للأبناء. لم يكن أطفال ستالين يعرفون الكثير عن والدهم. فهو لا وقت لديه يضيعه عليهم. تقول سفيتلانا أن شقيقها فاسيلي أفشى لها ذات يوم «بسر عظيم» وأخبرها ببراءة: «أتعلمين؟ إن أبانا كان جورجياً أيام الشباب». كم هو طفولي ودقيق وصف الإبن لأبيه الذي خلع جلده ولبس جلداً روسياً...

أكثر من قاسى من أبناء ستالين هو ياكوف. كانت علاقته بوالده سيئة. يعتبره أبوه ضعيف الشخصية، وكما سيتضح، لقد أخطأ الأمين العام التقويم. لم يرضَ ستالين أبداً باختيار ياكوف لزوجته الأولى، ولا الثانية، يوليا إيساكوفنا ميلتسير، اللتين أنعمتاه بحفيدين. تذكر سفيتلانا أليلوييفا أن اليأس من المعاملة الباردة التي يتلقاها من والده دفعت بياكوف لمحاولة الانتحار. لحسن الحظ أن الرصاصة لم تقتله، لكنه بقي مريضاً لفترة طويلة. وعندما رأى ستالين ابنه بعد محاولته الفاشلة اليائسة تلك لم يلقَ شيئاً يقوله له سوى:

ـ هيه! لم تحسن التصويب!

فجعت قساوة ستالين الثلجية الجميع، وخاصة ناديجدا سيرغييفنا. لكنه كان من الصعب على الطاغية السياسي أن يصبح شخصاً مختلفاً في المنزل. في العمل، أثناء اللقاءات مع قادة الدولة والمقابلات مع الوفود وخلال الاجتماعات والنقاشات مع رجال الثقافة، الأمر يختلف؛ فهو يستطيع تبديل الوجوه بسرعة. لقد لقبت ستالين في أحد كتبي «ممثلاً عظيماً»، لكنني سرعان ما استدركت: ألا أكون قد ظلمت وأهنت بذلك إحدى مهن العالم الأكثر قدماً وروعة؟ أفلا تعطينا قدرة ستالين على تغيير وجوهه بسرعة وعن سبق إصرار الحق لنسميه «منافقاً عظيماً»؟ أجل، هو كذلك فعلاً، لكن أمام الناس، أما في المنزل، فلا. هنا يكون على طبيعته.

بموافقة من والده، درس ياكوف في موسكو في المعهد العالي لهندسة سكك الحديد، ثم عمل مهندساً في محطة توليد الكهرباء بمصنع «ستالين» ـ ماذا يشعر يا ترى من يعمل بمصنع يحمل اسم أبيه؟ ـ قرر ياكوف الالتحاق بالجيش بعد التخرج. وبأمر من مساعدي والده انتسب دجوغاشفيلي الأصغر للقسم المسائي من الأكاديمية العسكرية التابعة لقيادة الجيش وقُبل في السنة الرابعة فوراً.

عند اطلاعي على ملف الملازم الأول ي.إ. دجوغاشفيلي الشخصي رأيت ـ للمرة الألف في حياتي ـ الأسئلة التي يتحتم على كل ضابط الإجابة عليها كلما أراد



سفيتلانا والكسي مع الوالد ستالين.



زوجة ستالين الثانية
ناديجدا أليلوييفا.

كتابة استمارة ما. هنالك عشرات منها لكنني سأذكر اثنين أو ثلاثة منها كي يسهل على القارىء فهم جو تلك المرحلة التاريخية:

ـ هل كنت عضواً في إحدى المنظمات التروتسكية اليمينية أو القومية ـ الشوفينية أو أية منظمات أخرى مضادة للثورة، متى وأين؟

ـ هل انحرفت يوماً ما عن خط الحزب العام، أو ترددت؟ وإن ترددت، فبأي خصوص وكم دام ترددك هذا؟

ـ هل خدمت في الجيش الأبيض أو في إحدى جيوش التدخل الأجنبي أو في صفوف الميليشيات القومية المعادية للاتحاد السوفييتي (أوتشريديلوف، بيتلوروف، موسافات، الدشناك، مناشفة جورجيا، عصابات ماخنو أو أنطونوف أو غيرهم)، متى، وأين، وما هي رتبتك، وكيف التحقت بهم، ومتى، وفي أية وحدة خدمت، ومدة خدمتك؟...

ويا له من زمن عجيب، كل شيء فيه مقلوب رأساً على عقب... يدققون (يماحكون) بكل صغيرة وكبيرة، والخطأ الصغير يمكنه أن يكون الأول والأخير...

لكن ياكوف لم يكن يماحكه أحد. بالرغم من أنه في تلك الفترة لم يكن الجميع يتاجر بضميره. فضباط الأكاديمية إيفانوف وكوبريا وتيموفييف وشيريميتوف ونوفيكوف (أسماؤهم الأولى غير موجودة في الملف)، على سبيل المثال، كتبوا شهادات تقويم لابن ستالين يعتبرون فيها أنه يستحق «درجة ناجح في التربية السياسية. منضبط، لكن لا يزال غير متمكن من القوانين العسكرية بخصوص العلاقة مع المسؤولين. تغيب عن الدروس العملية. معرفته بتدريب المشاة التكتيكي قليلة. لديه ديون أكاديمية كثيرة. نجح في الامتحانات الحكومية بدرجة جيد وجيد جداً». وكتبوا هذا في شهادة ابن «القائد» القدير (القهار)!! وبالرغم من أن مسؤولي دجوغاشفيلي المباشرين أوصوا بمنحه رتبة نقيب وتعيينه قائد كتيبة، إلا أن قائد الكلية شيريميتوف لم يشاركهم الرأي: «إنني موافقٌ على الشهادة، لكنني أعتبر أن منحه رتبة نقيب ممكن فقط بعد عام من الخدمة قائداً لبطارية».

لكن جميعهم متفقون على نقطة واحدة: ياكوف رجل خلوق مخلص خجول وكأن كراهية والده «لذعته». كان دجوغاشفيلي قلقاً بسبب تدني مستواه الأكاديمي عندما «قفز» عن عدة سنوات، ولم يكن يشعر بالثقة في «ثوب» القائد. ألا يكون ذلك قد لعب دوراً حاسماً في تلك اللحظة المميتة على الجبهة؟!

دفعت أيام الحرب الأولى بـ ياكوف إلى الجبهة. تشهد الوثائق أنه حارب بشجاعة وأدى واجبه الوطني على أكمل وجه حتى النهاية. وقعت وحدته تحت الحصار، ثم الأسر. احتفظ «الأرشيف» الألماني بصورة فوتوغرافية قيّمة تحاصر فيها مجموعة من ضباط هيتلر النقيب دجوغاشفيلي متفحصة ابن ستالين الأكبر بفضولية واضحة. وأروع ما في الصورة تعبير وجه ياكوف، ووقفته بحد ذاتها، وهو مقبض اليدين، يتحدى نظرات أعدائه بحقد وكراهية. حاول الفاشيون استغلال

أسر ياكوف في التحريض والدعاية المضادة، لكن الشعب السوفييتي اعتبر صوره، في المناشير التي كان العدو يوزعها مزيفة.

لم يقلق ستالين على حياة ابنه بقدر ما خاف من أن تُحطم نفسيته في المعتقل وأن يضطر للتعاون مع الألمان. تذكر دولوريس إيباروري في مذكراتها التي نشرت في برشلونا عام ١٩٨٥ حدثاً يعرفه القلائل، ولم أستطع برهنته أو تكذيبه. تكتب أيبارّوري أن مجموعة خاصة قامت عام ١٩٤٢ بعملية إنزال وراء خط الجبهة هدفها تحرير ياكوف دجوغاشفيلي من الأسر في زاكسنخاوزن. كان من ضمن المجموعة شاب إسباني اسمه خوسيه بارّو مويسو يحمل وثيقة ضابط من «الفرقة الزرقاء» الموالية لفرانكو. لكن المحاولة باءت بالفشل واستشهدت المجموعة[٧٣].

لكن ياكوف كان أقوى مما توقع والده. لقد خاف دجوغاشفيلي الأصغر، مثل والده، أن يحطمه التعذيب الجسدي والنفسي وبالمواد الكيميائية ويصبح خائناً في عيون والده والشعب. الموت أرحم من مجرد التفكير في هذا الموضوع. إلا أن الجحيم الذي عاشه ياشا في معتقلات هاميلبورغ ولوبيك وزاكسنخاوزن لم يجعل منه خائناً. لكن قواه كانت على وشك النفاد. في الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٤٣ اندفع ياكوف دجوغاشفيلي نحو الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر، فأطلق عليه الحارس الرصاص.

أخطأ ستالين في تقويمه لابنه ـ وليس لابنه فقط. تُحدث سفيتلانا أن والدها ذكر ذات يوم مرور الكرام بعد النصر في معركة ستالينغراد:

ـ لقد عرض الألمان تبادل ياشا بواحد منهم... أويظنونني سأفاصلهم كالتجار! كلا، فالحرب حرب!

قصة ابن «القائد» الثاني حزينة هي الأخرى. لم يجعل منه والده رجلاً قوياً صلباً ذكياً. ومن رباه فعلياً بعد وفاة والدته هو فلاسيك رئيس حرس والده. لكن جو التملق والتسامح أفرز شخصية جامحة ضعيفة بدون إرادة. وفي الحقيقة، لقد كان فاسيلي يوسيفوفيتش ستالين محارباً جيداً. لكن ليس بالدرجة التي تجعله يبدأ الحرب نقيباً ويصبح فريقاً عام ١٩٤٧، فملفه الشخصي في غاية «الفصاحة» ويشهد على تعسفية محيط ستالين ودراية الأمين العام بها وموافقته عليها. سأذكر بضع حقائق فقط حول ترقيات فاسيلي من ملفه الفارغ تقريباً:

ـ وهو لا يزال في العشرين من العمر مُنح ف.ي. ستالين رتبة عقيد رأساً (قرار قم ١١٩٢. الصادر في ١٩ شباط (فبراير) عام ١٩٤٢).

ـ في الرابع والعشرين من العمر أصبح لواءاً في سلاح الطيران (قرار مجلس الاتحاد السوفييتي لمفوضي الشعب الصادر في ٢ آذار (مارس) ١٩٤٦)، وبعد عام، فريقاً.

ـ في ١٩٤١، وهو لا يزال «غراً» وطياراً متوسط المستوى، عُين رئيساً لدائرة التفتيش بسلاح الطيران.

ـ في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ عُين قائداً للفوج الثاني والثلاثين لحرس طيران القتال (المطاردة)، وخلال عام قائد فرقة طيران القتال الثالثة، وفي شباط (فبراير) ١٩٤٥ قائد الفرقة ٢٨٦. وفي عام ١٩٤٦ أصبح ف.ي. ستالين قائد فيلق، ثم نائب القائد ثم القائد العام لسلاح الطيران.

يا له من تحليق سحري، لا علاقة له بالكفاءة العملية والأخلاقية! وكما يشير مسؤولوه في الملف، لقد قام فاسيلي، أثناء الحرب، بسبع وعشرين رحلة وأسقط طائرة واحدة للعدو من طراز ف.ف. ـ١٩٠، ومُنح وسام الراية الحمراء مرتين ووسام ألكسندر نيفسكي ووسام سوفوروف من الدرجة الثانية وميداليات عديدة.

إليكم ما كتبه الفريق ي.م. بيليتسكي والجنرال ن.ف. بابيفين العاملان في سلاح الطيران في شهادة ف.ي. ستالين:

«حاد الطباع وسريع الغضب. لا يتمالك أعصابه: حصل أن رفع يده على مرؤوسيه... تصدر عنه تصرفات في حياته الخاصة لا تليق بمنصبه كقائد فرقة. تصرف بشكل غير لائق في أكثر من حفل للطيارين، كان فظاً مع عدد من الضباط. كان سلوكه طائشاً في إحدى المرات حيث استقل تراكتوراً من المطار واتجه به نحو مدينة شاولاي وتصادم وتعارك مع أعضاء نقطة الشرطة. وضعه الصحي ضعيف، خاصة الجهاز الهضمي. سريع التهيج. مما أدى إلى تغيبه عن تدريبات الطيران في الفترة الأخيرة، وبالتالي، إلى ضعفه في بعض النقاط... جميع هذه العيوب تقلل بشكل واضح من هيبته كمسؤول ولا تتطابق مع منصبه كقائد فرقة».

شهاداته اللاحقة شبيهة، وجميعها تنتهي بالاستنتاج التالي: «يحبذ إرساله للدراسة في الأكاديمية». فقد كانت تلك الطريقة الوحيدة، برأي الجنرالين الشهيرين (المارشالين لاحقاً) لتخليص المرؤوسين من «الأمير الفاجر».

أغرق المتملقون ابن ستالين بالرتب والخيرات كي يصلوا إلى أهداف خاصة. والمسكين أدمن على الكحول دون أن يلحظ أحد ذلك. يمكننا أن نتصور الأسى الذي جلبه ذلك الرجل المنحدر تدريجياً نحو السفالة لزوجاته الكثيرات (أربع على الأقل!). وهو لم يكن إنساناً محبوباً بشكل عام. وحياته الفاسقة ـ والبائسة! ـ تنفع مثالاً للحقيقة المعروفة: التعسف في استعمال السلطة يفسد الجميع بمن فيهم أطفالنا. هناك أمثلة عديدة على ذلك في التاريخ. فالقياصرة يصبحون طغاة ويتركون من ورائهم ذرية نحيلة الجسد والروح، ذرية تموت أخلاقها بينما يعيش ويزدهر الديكتاتور بانعدام أخلاقه.

بعد التقارير التي كُتبت حول فجوره نُحي ف.ي. ستالين من منصب قائد سلاح الطيران للعاصمة وبدأ ينحدر إلى الهاوية. ليس صدفة أنه بعد وفاة «القائد» بواحد وعشرين يوماً فقط أمر وزير الدفاع السوفييتي (قرار رقم ٠٧٢٦) بفصل الفريق ف.ي. ستالين، البالغ الثانية والثلاثين منَ العمر، من الجيش ومنعه من ارتداء بزة الجيش... لم يعد أحد يهتم به. توفي الطيار الحربي السابق شاباً بعد أن أكل جسمه الكحول.

حدثني أ.ن. شيليبين عن حيل فاسيلي: «ألقي القبض على ف. ستالين بعد وفاة والده، فقد تذكروا لسبب ما آثامه وأعماله التعسفية السابقة والخ... (لكن ابنة ف.ي. ستالين ناديجدا تؤكد أنه لم يكن هنالك أي تحقيق أو محكمة. حكموا عليه بثماني سنوات والانتهاء منه. كانون يريدون التخلص منه لأنه كان يردد في كل مكان أن أباه مات مسموماً ـ الكاتب). طلب مني خروتشوف الذهاب لزيارة فاسيلي الذي كان قد نُقل من سجن «فلاديمير» إلى سجن «ليفورتوفو» العسكري. كان السجين يصنع شيئاً ما على إحدى المكائن («نظرية التربية بالعمل!»). أحضروه إلى جانبي، فركع بسرعة و«تبكبك»: «سامحني، سامحني، ولن أخيب أملكم مرة أخرى...» أخبرت خروتشوف عن اللقاء، فصمت قليلاً ثم قال:

ـ تعالوا به إلي.

وفي اليوم التالي جاءوا به لخروتشوف. وعاود فاسيلي الركوع والبكاء والحلفان. حضنه خروتشوف وبكى هو الآخر، ثم تحدث مطولاً عن الوالد. بعد هذا اللقاء تقرر إطلاق سراح فاسيلي قبل الموعد. كتبوا القرار وأطلقوا سراحه. أصروا على كتابة عائلته الأصلية ـ فاسيلييف ـ في وثيقة إخلاء السبيل. (هكذا كان يوقع القائد العام في بعض الأحيان أثناء الحرب. ـ الكاتب.) بالرغم من ضعفه المعهود رفض فاسيلي ستالين فعل ذلك. وعاد إلى المنزل. قال لابنته ناديجدا أنه يحلم أن يصبح «مدير بركة سباحة»... لكن مع الوقت «رجعت حليمة لعادتها القديمة». وبعد إطلاق سراحه بشهر وقع فاسيلي في حادث سيارة بسبب الثمل. عندما علم خروتشوف تلفظ بشتائم كثيرة، ثم تساءل:

ـ ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ إذا سجناه سوف يموت، وإذا لم نفعل يموت أيضاً.

قرروا إبعاده. وقع الإختيار على قازان. رحل فاسيلي إلى «المنفى» مع زوجته «الدورية». عاش معها في «ستوديو». كان فاسيلي قد أصبح بعد تعرفه على السجن والأمراض و«الأصدقاء» عديمي الرحمة السابقين معاقاً كلياً. وكان لديه المتسع من الوقت لتأمل حياته القصيرة بصعودها وهبوطها. وسيعلم فاسيلي في قازان بنقل جثمان والده من الضريح في الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٩٦١.

حياة ابن «القائد» هي مُصغر لعقم الستالينية الأخلاقي. توفي فاسيلي في ١٩ آذار (مارس) ١٩٦٢. وعلى قبره لن يكتبوا «ستالين» كما كان يدعى في حياته، ولا «فاسيلييف» كما أرادوه أن يكون، بل «دجوغاشفيلي الوحيد». ترك الراحل سبعة أطفال ثلاثة منهم بالتبني.

الديكتاتور، الذي تكفي كلمة واحدة منه كي تبنى قناة أو يشيد قصر بسرعة قياسية وتنتقل مئات الآلاف من البشر من الحرية إلى ما وراء الأسلاك الشائكة، تكتفت يداه وخرس لسانه عندما وجب عليه لعب دور الأب. والمذنب الرئيسي في مأساة الإبن الأصغر هو «القائد» نفسه. والإتهام ذاته سيوجهه له المؤرخون بخصوص مصير ابنته سفيتلانا. فهو لم يستطع تربيتها على الوطنية وحب الوطن. وتفاصيل حياتها يعرفها الكثيرون.

يبدو أنه بينما كانت لا تزال في المدرسة كان ستالين يحبها أكثر من ابنيه، وكثيراً ما يكتب لها رسائل حنونة ـ يصعب التصديق أن ستالين يمكنه أن يكون حنوناً! ـ كهذه:

«سلام لسيدتي سيتانكا!

استلمت رسائلك جميعها. شكراً لك! لم أجاوب لأنني كنت مشغولاً جداً. كيف تمضين وقتك، وكيف لغتك الإنجليزية، وهل صحتك بخير؟ أنا بخير و«مبسوط» كالعادة. أملّ بدونك، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟! أتحمل.

قبلاتي لسيدتي الحبيبة.

٢٢تموز (يوليو) ١٩٣٩».

وضعت الحرب بين الأب وابنته حاجزاً، أبدياً، كما اتضح. اختفى الحنان وساءت العلاقة. لم تعد سفيتلانا طفلة، وكأي شابة في عمرها، تعرفت على أول رجل في حياتها. وصديقها هذا، الصحفي والمخرج السينمائي أ.ي. كابلر، دخل السجن وحكم عليه بخمس سنوات، ثم بخمسٍ غيرها. كتب ألكسي ياكوفليفيتش كابلر من المعسكر:

«عزيزي يوسف فيسّاريونوفيتش:

لقد حُكم علي بتهمة التفوه بأقاويل معادية للاتحاد السوفييتي. لم أعترف بها ولن أفعل. لقد مُنحت وسام لينين وحزت على جائزة ستالين من الدرجة الأولى. كما شاركت في إخراج «هي تدافع عن الوطن» و«كوتوفسكي» و«يوم الحرب». أعترف فقط بأنني كنت قليل الحياء «الحشمة». اسمحوا لي بالتوجه إلى الجبهة، أتوسل إليكم ألا ترفضوا.

٢٧ كانون الثاني (يناير). **أ.كابلر».**

أمر ستالين بيريا بتقديم تقرير له عن كابلر، فرفع له ما يلي: «كابلر لديه أخت تقيم في فرنسا. قام بمقابلة المراسلين الأمريكيين شابيرو وباركر. لم يعترف بأنه مذنب، لكن معلومات جهاز المخابرات تفضحه...

آذار (مارس) ١٩٤٤[٧٤].

ونحن نذكر أن ستالين كان يصدق «أوراقاً» كهذه.

زيجة سفيتلانا الثالثة كانت غير موفقة، مثل الأولى والثانية. كان زوجها الثالث هندياً، توفي في موسكو عام ١٩٦٦. بسبب الدفن سافرت سفيتلانا مع جثمان زوجها، لكنها لم تبقَ في الهند ولم تعد إلى الوطن. سافرت إلى الغرب حيث وقعت في أيدي أناس استغلوا اسم والدها لمصالحهم الخاصة. لكن يبدو أنها لم تعترض على ذلك. فقد فعلت ما فعلته عن قصد ووعي. كانت آنذاك في الأربعين من العمر وقد حازت على شهادة الدكتوراه في الآداب. كتبت في أحد كتبها، «عام واحدة فقط»: «لم أكن متأكدة أبداً من صحة مواقفي كما أنا متأكدة الآن. لقد

ساورني طوال حياتي شعور بعدم الثقة بالنفس وبإمكانياتي وقدراتي. كنت دائماً أفضل أن أعتبر أن كل ما أفعله خطأ وغير صحيح. عرقلت القيود الداخلية والخجل علاقاتي مع الناس والجمهور. كنت غالباً ما أريد الإنفراد وحدي وإقفال الباب خلفي بقوة. وكل هذا القلق النفسي هو نتيجة حياة طويلة تحت الضغوطات، نتيجة التربية في جو عائلي غير طبيعي، نتيجة العيش في مجتمع تسود فيه العبودية ولا يتكلم»(٧٥).

أمضت سفيتلانا حياتها في الخارج، باستثناء إجازة صغيرة. لا أعتقد أنها فكرت يوماً بأن والدها القاسي عديم الرحمة صاحب «الكنية» الحديدية ـ التي اخترعها لنفسه ليشدد على سمته الرئيسية ـ بأنه لم يقتنع أبداً بالهجرة ـ ولا حتى في السنوات العصيبة المليئة بالاعتقالات. لكن ابنة الوالد «الحديدي» أكدت مرة أخرى الحقيقة الثابتة أن الشخصية والقناعات لا تورث، بل تكتسب.

عندما اتخذت هيئة رئاسة السوفييت الأعلى قراراً في ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤ بإعادة الجنسية السوفييتية لِـ س.ي. أليلوييفا وتجنيس ابنتها أ.ف. بيترز بدا وكأن «الأبنة الضالة» عادت إلى حضن الوطن. لا سيما بعد أن أعلنت في مؤتمر صحفي إثر وصولها: «عندما وجدت نفسي في ذلك العالم المسمى بالـ«حر» لم أشعر بالحرية ولو ليوم واحد. فقد وقعت في أيدي التجار والمحامين والسياسيين والناشرين الذين حولوا اسم والدي واسمي وحياتي لسلعة مثيرة للضجة...»

لكن سفيتلانا إليلوييفا لم تستطع التأقلم مع الحياة في الوطن. فهي تريد العيش حيث تشعر بالحرية. بقيت ابنة ستالين، لكنها لم تستطع تقبل الستالينية.

من السهل علينا اليوم القول أن الوقت لم يكن كافياً للعناية بالأطفال. لكن هذا لا يبرر شيئاً. من الممكن أن أولاد «القائد» كانوا لينموا مختلفين لو أن ناديجدا سيرغييفنا أليلوييفا بقيت على قيد الحياة. تشهد المعلومات التي جمعتها أن ستالين كان السبب غير المباشر ـ أغير مباشر فعلاً؟ ـ في موتها. انتحرت ناديجدا في ليلة التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٣٢. والسبب المباشر لخطوتها اليائسة تلك كان جدلاً لم يلحظه أحد من المشاركين في الحفلة الصغيرة التي حضرها كل من مولوتوف وفوروشيلوف وزوجتيهما وغيرهم من المقربين للأمين عالم. طفح كيل الزوجة الرقيقة من آخر فظاظة ارتكبها ستالين. أوت أليلوييفا إلى غرفتها وأطلقت على نفسها الرصاص. جاءت كارولينا فاسيلييفنا تيل، قهرمانة العائلة، في الصباح لتوقظ أليلوييفا فوجدتها صريعة ومسدس الـ«فالتير» على الأرض. نادوا ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف. طغت الكآبة على الذكرى الخامسة عشرة للثورة.

في الصباح صعق ستالين عندما علم بما حدث. لكنه في هذه المرة أيضاً تصرف بعدم أخلاقيته المعتادة: فلم ير في نفسه الدافع الذي جعل إليلوييفا تتصرف كما فعلت، بل اعتبر تصرفها ذلك خيانة تجاهه. يبدو أنه لم يفكر مجرد تفكير في أن نشافته وبرادته وانعدام الحنان والاهتمام جرحت زوجته جرحاً بليغاً

جعلها تقدم في لحظة من اليأس والكآبة العميقين على خطة كهذه. اكتفى ستالين بتوديع زوجته في الحفلة التأبينية ولم يذهب إلى المقبرة.

وسرعان ما حاول المحيطون به «تدبير» عروس جديدة له؛ ووقع خيارهم على قريبة أحد رجال «القائد» المقربين. بدا وكأن الأمور حسمت، لكن لأسباب يعرفها الأرمل وحده لم يتم عقد القران. وبعد تلك الحادثة، كانت لستالين علاقات بنساء من الدائرة الأرستقراطية. لكنه أمضى سنواته الأخيرة وحيداً. كانت القهرمانة فالنتينا فاسيلييفنا إيستومينا، واحدة من خدمه الكثرين، تقوم بالعناية الكاملة به وترافقه في رحلاته إلى شواطىء البحر الأسود. وعندما توفي ستالين أجهشت إيستومينا بالبكاء على صدر «القائد» الراحل بوجود أعضاء المكتب السياسي. يبدو أنه كان أقرب لها بكثير منه لزملائه.

في آخر أيام حياته أبدى ستالين بعض إشارات الاحترام تجاه ذكرى زوجته الراحلة. ظهرت صورها في غرفة الطعام وفي مكتبه في المصيف وكذلك في شقته في الكرملين. هل من الممكن أن يكون ضميره قد استيقظ من سُباته العميق؟ عندما يقترب الإنسان من الخط الذي يفصل بين الحياة والموت غالباً ما يحاول «قفل حساباته»، وغالباً ما ينتصر الضمير. اعتبر هيغل الضمير «عملية التحديد الداخلي للخير». لكننا نعرف اليوم أن ستالين لم يكن يعرف لا الخير ولا الضمير. وكتب سينيكي في رسالته إياها لِلوتسيليوس: «الإنسان هو شيء مقدس بالنسبة للإنسان الآخر». أمن الممكن أن شخصاً ما وللحظة ما كان مقدساً بالنسبة لستالين؟ أهي زوجته الثانية؟ يصعب تصديق ذلك...

مما لا شك فيه أن ناديجدا إليلوييفا أحبت ستالين وبذلت قصارى جهدها لمساعدته في منصبه العصيب. اهتمت بزوجها وحاولت، كما كان شائعاً آنذاك، ألا تترك عملها وأن تتابع دراستها في أكاديمية الصناعة وأن تربي الأطفال. يشهد أقرباؤها أنها في سنواتها الأخيرة كانت تعاني من جرح داخلي عميق. قد يكون ستالين أحبها، بطريقته الخاصة. لكن العمل والخطط ونشوة السلطة لم تترك في قلبه مكاناً لا للزوجة ولا للأولاد ولا للأقارب. واحتل الحديد مكان المشاعر. وستالين يعتبر ذلك طبيعياً. فهو يستطيع العيش أسابيع بأكملها دون أن يلاحظ أحداً من الأقرباء، دون أن يستفسر عن صحتهم وأوضاعهم. وكما سبق وذكرت، فهو لم يرَ ولم يحاول أبداً أن يتعرف على العديد من أحفاده. فناديجدا وألكسندر، طفلاً فاسيلي من زوجته الأولى، اللذان عانيا كثيراً من سلالتهم «النبيلة»، لم يتشرفا بمعرفة الرجل الذي كتب فيه الأدباء الأساطير: «ستالين يفكر فينا». من الأسهل طبعاً «التفكير» في الجميع منه في أشخاص وأحفاد معينين.

عندما ألقي القبض على ألكسندر سيميونوفيتش سفينيدزيه، شقيق زوجته الأولى، وصديقه الحميم، لم يفكر ستالين مجرد تفكير: كيف يمكن لإنسان يعرفه طيلة حياته، منذ الصغر، أن يكون «عدواً»؟ فمنظومة «القائد» الأخلاقية تخترقها شقوق، لا، بل أغوار. وتصرفاته وعلاقاته مع المحيطين به والأقرباء تعطينا الحق

في التأكيد أن قلبه لم يعرف الخير أو الشفقة أو التسامح أو الإنسانية أو التوبة أو التكفير عن الذنوب... فمأساة ابنه الأكبر تهمه فقط لخوفه على سمعته الشخصية، وابنه الثاني مجرد عبء على ظهره. وهو لم يجد أكثر من الشتائم ليقنع ابنه ويعدله عن الإنهيار. وابنته أصبحت بعيدة وغريبة بعد زيجاتها المتتالية غير الموفقة. وهو لا يشعر شيئاً تجاه أحفاده. ولم يعطف حتى على والدته بقليل من الحنان. ذلك الرجل غير كل الرجال، ومهما توغلنا في نفسه فنحن لن نجد شيئاً يدل على أنه يعرف معنى الأحاسيس الإنسانية. ذلك هو الإطار الأخلاقي لحياته التي لا يمكن فهمها إلا على ضوء معرفتنا بتجربته الاجتماعية والنفسية.

قد تكون هذه الصفحات الأخلاقية من حياة الأمين العام السياسية ليست الأهم لكنه من الرمزي جداً أن ستالين نفسه كان يحتقر الأخلاق و«الأخلاقية». فقد كان بفضل السياسة. وهنا بالذات يكمن حل لغز شخصية ذلك الرجل المعقدة. منذ زمن بعيد بدأ يحتقر القيم الأخلاقية الإنسانية. احتقر الرحمة والشفقة والرأفة. كان يهتم بسمات القوة فقط. وبخله الروحاني، الذي تحول لصلابة ثم لقساوة، قتل زوجته وشوه حياة أولاده. من المخيف فعلاً أنه في السياسة أيضاً لم يترك أي مجال للقيم الأخلاقية الإنسانية. فقمة النبل بالنسبة له هي عندما يكتب شخص تقريراً بزميله «عدو الشعب». تُحدث غالينا، إبنة مساعد ستالين الأقرب بوسكريبيشيف، أنه عندما ألقى بيريا القبض على والدتها برونيسلافا سولومونوفنا، بمواقفة الأمين العام، كان الرد الأخير الدائم على جميع طلبات والدها بنجدة الأم: «هذا لا يعتمد علي. أنا لا أستطيع فعل شيء. كل شيء في يد مفوضية الشؤون الداخلية». كانت متهمة بالتهمة الإعتيادية، التجسس. أمضت المرأة المسكينة، أم الطفلين، ثلاث سنوات في السجن ثم أعدمت رمياً بالرصاص. أثناء ذلك، كان والد هذين الطفلين يقضي أربع عشرة أو ست عشرة ساعة الى جوار ستالين. يسلم الوثائق ويكتب التقارير ويستدعي الناس وينفذ أوامر «القائد»... تقول غالينا: «وحتى بيريا الذي أمر بإلقاء القبض على أمي لم تنقطع زياراته الى بيتنا، مثله مثل العديد من الشخصيات المشهورة: شابوشنيكوف، روكوسوفسكي، كوزنيتسوف، خروليف، ميريتسكوف. كان ستالين يعرف والدتي معرفة شخصية، وبالطبع كان يعلم أن تهمة التجسس لا أساس لها ـ سوى أن خالي سافر لشراء معدات طبية من الخارج، وبالطبع، فقد أعدم هو الآخر».

خطرت على بالي ذات مرة أثناء دراسة أحداث مماثلة أن ستالين كان يسجن أسر وأقارب مساعديه ليختبر وفاءهم وإخلاصهم له. وكالينين ومولوتوف وكاغانوفيتش وبوسكريبيشيف وعديدون غيرهم لم تظهر على وجوههم أية علامات توحي بالمصيبة التي حلت على عائلتهم. على الأغلب أن ستالين كان يراقب تصرفاتهم عن كثب ويزهو لإذعانهم. يا لها من أعمال عديمة الإنسانية فظيعة في قساوتها! ها هي حياة ستالين المتطرفة في انعدامها للأخلاق والتي تنفع قصة لفيلم رعب! لم يكن وجه «المنافق الأعظم» الذي لعب أدواراً كثيرة مختلفة في حياته يخفي أية قداسة أو نبل أو شرف. وبوسكريبيشيف المسكين صدق ستالين عندما قال له

الأخير بتواضع إنه لا يستطيع فعل شيء وإن الأمر في يد مفوضية الشؤون الداخلية. لكن بماذا كان يتحجج بيريا يا ترى؟ ألم يستمر في زيارة بوسكريبيشيف في منزله؟ لقد كان يقول الشيء ذاته... يا له من كذب ونفاق وظلم! والأهم من كله ـ وهذا ضمن مجال الأخلاق أيضاً! ـ إنه لم يحاول أحد أن يعارض ستالين معارضة فعلية. وهذا بالرغم من أن الضمير لا يفقد فرصته أبداً! وحتى عندما تكون الظروف في غاية الصعوبة...

لقد تعودنا أن ننظر للقيم الإنسانية والأخلاقية على أنها مفاهيم ومواعظ أخلاقية برجوازية صغيرة. لكن الأخلاق ظهرت قبل الوعي السياسي والقانوني وحتى الديني! لقد ظهرت الأخلاق عندما شعر الإنسان لأول مرة بضرورة الإختلاط، وبدونها لا يصبح الإنسان إنساناً. لاحظ بيرتولت بريخت ثاقب النظر، ذات مرة إنه «كي يشعر الإنسان بإنسانيته يجب أن يسمع أحدهم يناديه إنساناً...» وحياة الإنسان «الخاصة» تساعدنا على فهمه على حقيقته. وحياة ستالين «الخاصة» مكتوبة بالخط الأسود العريض. من يعلم، قد تكون جذور تلك التشوهات والجرائم التي سترتكب بإسم ستالين في الثلاثينات تنبثق من هنا؟ قد أكون مخطئاً. على كل حال، سيصلح الوقت أخطائي، فهو أفضل منقح للسِيَر، خاصة وإنني أحاول رسم «مسودة» لا أكثر.

كان لستالين «شخصية قوية» تهدف دائماً وأبداً للعظمة والسلطة بلا حدود. لكن ن. بيريا كان محقاً حين كتب أن «النظام لا يكون إرهابياً لمجرد أعماله على أرض الواقع من اعتقالات وتعذيب وإعدامات، بل، وبشكل أساسي، للضغط النفسي الذي يسببه...»[٧٦]. والستالينية قدست العنف ولم تهتم بما فيه الكفاية بالأسس الأخلاقية. والقوة دون أية قيم أخلاقية كالأحجار الكريمة المزيفة. وحياة الإنسان الشخصية هي مرآة قيمه الأخلاقية. وقيم «القائد» الأخلاقية مصنوعة من «الحجر» الطبقي. فوجود الأخلاق في الثورة وبناء العالم الجديد يعتبره نزعة برجوازية.

من المخيف حقاً أن ستالين لم يشك يوماً في صحة «أخلاقه». فقد وضع ذات يوم خطاً تحت جملة أعجبته في أحد أعمال م.أ. باكونين: «لا تضيعوا وقتكم في الشك في أنفسكم لأن هذا أسوأ ما اخترعه الإنسان». ماذا يمكننا القول بهذا الصدد؟ باكونين كان بإمكانه ألا يشك في نفسه، فهو لم يكن أميناً عاماً لحزب عظيم!

المراجع

الفصل الثالث: الاختيار والصراع

١ ـ نابليون. مختارات. موسكو، ١٩٤١. ص، ٦٢.
٢ ـ قرارات الحزب الشيوعي السوفييتي. الطبعة السابعة. موسكو، ١٩٥٣. الجزء ١. ص، ٥١١.
٣ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٤٨٧٠.
٤ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية اللينينة. ف ١٧. أوب ٢. د ١١٢.
٥ ـ ل.د. تروتسكي. دروس اكتوبر. موسكو، ١٩٢٥. ص، ٤٩.
٦ ـ ل. تروتسكي. الثورة الدائمة. برلين، ١٩٣٠. ص، ١٦.
٧ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٠٩.
٨ ـ المصدر السابق. ص، ٢٠٦.
٩ ـ الـ «بلشفيك»، ١٩٢٥. العدد الثامن. ص، ٧.
١٠ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية اللينينية. ف ٢. أوب ٢. د ١٠٣.
١١ ـ كامينيف وزينوفييف في عام ١٩١٧. حقائق ووثائق. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٧. ص، ٧ ـ ١٠.
١٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ١٧. أوب ٢. د ١٠٩. ل ١٢.
١٣ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ١.
١٤ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات.المجلد ٦. ص، ٣٢٧.
١٥ ـ المصدر السابق. ص، ٣٥٧.
١٦ ـ المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٥. ص، ٢٤٨، ٢٥٣.
١٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٢٨١٦. ل ٣ ـ ٥.
١٨ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٧. ص، ٣٦٥، ٣٨٣.
١٩ ـ المصدر السابق. ص، ٣٩٠.
٢٠ ـ المصدر السابق. ص، ٣٩٠ ـ ٣٩١.
٢١ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١. ص، ٢٩٩.
٢٢ ـ ي.ف. ستالين. الملجد ٦. ص، ١٨٧ ـ ١٨٨.
٢٣ ـ المصدر السابق. ص، ١٨٨.
٢٤ ـ المصدر السابق. ص، ١٨٧ ـ ١٨٨.
٢٥ ـ ي.ف. ستالين. مسائل اللينينية. الطبعة ١١. موسكو، ١٩٥٢. ص، ٥٣٧.
٢٦ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٧. ص، ٣٧٥.
٢٧ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٩. ص، ٣١٥، ٣٢١.
٢٨ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ٨. ص، ٩٥، ٩٦، ٩٨.
٢٩ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٩١٨، ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٨٠. ل ٢٠ ـ ٢٤.
٣٠ ـ ي.ف. ستالين. مسائل اللينينية. ص، ٢.
٣١ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية، د ١٥٤. ل ٥٤.
٣٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. د ١٥٤. ل ٥٤.
٣٣ ـ المصدر السابق.
٣٤ ـ «الكادر السياسي». ١٩٢٢. العدد ٣. ص، ٣٨ ـ ٣٩.
٣٥ ـ ل.د. تروتسكي. الأدب والثورة. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٤. ص، ٢٦.
٣٦ ـ الـ «بلشفيك»، ١٩٢٦. العدد ٧ ـ ٨. ص، ١٠٧ ـ ١٠٨.
٣٧ ـ الـ «بلشفيك»، ١٩٢٨. العدد ٩. ص، ٦.
٣٨ ـ حول الصحافة الحزبية والسوفييتية. موسكو، ١٩٥٤. ص، ٣٤٧.

٣٩ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٩١.
٤٠ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٠. ص، ١٥٣ ـ ١٥٤.
٤١ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. الملجد ١١. ص، ٣٢٧ ـ ٣٢٨.
٤٢ ـ المصدر السابق. ص، ٣٢٨.
٤٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ٢٣، ٢٧.
٤٤ ـ حول الصحافة الحزبية والسوفييتية. ص، ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
٤٥ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ٢٠٠.
٤٦ ـ ف.غ. كورولينكو. رسائل إلى لوناتشارسكي. باريس، ١٩٢٢. ص، ٦١ ـ ٦٢.
٤٧ ـ بيت الفن. بتروغراد، ١٩٢٠. العدد ١. ص، ٦٥.
٤٨ ـ أ.أ. بوغدانوف. حول الثقافة البروليتارية. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٥. ص، ١٢.
٤٩ ـ ل.د. تروتسكي. الأدب والثورة. موسكو، ١٩٢٤. ص، ١٣.
٥٠ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ١٧٣، ١٧٧.
٥١ ـ الـ «برافدا». ٢٦/١٠/١٩٢٦.
٥٢ ـ ن. بيردیایف. عالم الروح وعالم القيصر. باريس، ١٩٥١. ص، ٦٧.
٥٣ ـ ج. بايرون. مختارات. موسكو، ١٩٨٤. ص، ٨٨ ـ ٨٩.
٥٤ ـ المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (بلشفيك). تقرير بالاختزال. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٧. ص، ٥٣٥، ٥٣٦.
٥٥ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣. أوب ١. د ٢٨٢٧.
٥٦ ـ الأرشيف المركزي الحكومي لثورة اكتوبر. ف ٥٤٤٦. أوب ٢. د ٣٣. ل ١٩.
٥٧ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ٢٨٥.
٥٨ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٠. ص، ١٩٣.
٥٩ ـ المصدر السابق. ص، ٢٠٤، ٢٠٥.
٦٠ ـ المصدر السابق. ص، ١٩١.
٦١ ـ المصدر السابق. ص، ١٧٣.
٦٢ ـ الـ «بلشفيك». ١٩٢٥. العدد ١٦. ص، ١٧٥ ـ ١٧٧.
٦٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٠. ص، ٦٨.
٦٤ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣٢٥. أوب ١. د ٣٦٥. ل ٦٥.
٦٥ ـ النشرة الاشتراكية. ١٩٢١. العدد ٨ (٢٤٥). ص، ٨.
٦٦ ـ ل. تروتسكي. حياتي. المجلد ٢. ص، ٢٨٦.
٦٧ ـ المصدر السابق. ص، ٣٠٥.
٦٨ ـ ل. تروتسكي. ماذا حدث وكيف ـ ست مقالات للصحافة البرجوازية العالمية. باريس، ١٩٢٩. ص، ٩.
٦٩ ـ المصدر السابق. ص، ٦٠.
٧٠ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٥٤. ص، ٥١٨.
٧١ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٢٩٠٨.
٧٢ ـ سينيكا. رسائل لـ لوتسيليوس. موسكو، ١٩٨٦. ص، ٤٠.
٧٣ ـ Memorias de dolores Ibarruri. Barcelona, 1985, p. 530-531.
٧٤ ـ الأرشيف المركزي الحكومي لثورة اكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ١. د ٢١٨١.
٧٥ ـ ي. آليلوييفا. عام واحد فقط. برينستون، ١٩٦٨. ص، ١٥٨.
٧٦ ـ ن. بيردیایف. الجدلية الوجودية للإلهي والبشري. باريس، ١٩٥٢. ص، ١٣٢.

ديكتاتور أم ديكتاتورية

المملكة المقدسة هي فهم
ديكتاتوري للعالم،
يفرض الاستقامة على الناس،
ويرفض الكفرة.
ن.بيردياييف

الآلهة لا يعرفون معنى العمر، من يستطيع اليوم تحديد عمر زيوس أو أفروديت أو أرتيميد أو ثيميد؟ على الأغلب، لا أحد، فالآلهة خالدون في نظر البشر. لكن، أيعقل هذا؟ فهو يعني أن الوقت «مجمّد». أم أن هذا ما يجعلهم آلهة؟ ألأنهم أعلى من الوقت؟ قسم الإنسان الوقت من أجل راحته الشخصية لقرون وعقود وأعوام وأشهر وأيام وساعات ودقائق وثوان... لكنه، أي الوقت، يجري غير مكترثٍ لهذه الحواجز سريعة الزوال، فهي لا تؤثر عليه بشيء. فهو كان يجري بالطريقة ذاتها قبل أن يظهر الإنسان على الأرض وسيستمر في «جريانه» هذا إلى الأبد. لكن، في الحقيقة، قد يخيَّل للإنسان أحياناً أنه يسيطر على الوقت، أن السلطة أقوى من الزمن. يرتكب الإنسان هذا الخطأ عادة للحظات عابرة في الأيام المميزة وأثناء الاحتفال بالذكرى السنوية وباليوبيل.

في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٩ احتفل ستالين بعيده الخمسين. كلا، لم يبدأ عهد التمجيد والتأليه بعد. لم يبدأ زمن المجلدات بآلاف الصفحات المليئة بـ هاليلويا! وهوراه! بعد. لم يبدأ زمن افتتاح وإنهاء الكلمات والمقالات باسمه بعد. لم يبدأ زمن آلاف رسائل التهنئة الموجهة له بعد.

وقد جاء هذا اليوبيل في الوقت المناسب: فقد ركز جميع الأضواء على الرجل الذي قضى على معارضة «اليوم»، أو على «الانحراف» كما كانوا يسمونها. لاحظ ثاقبو النظر منذ ذلك الوقت أن ستالين، قبيل يوبيله، ازداد ثقة بالنفس وتسلطاً وتعسفية.

فلنذكر كيف كان عندما انتسب للحزب: باهتاً، منفذاً (وليس آمراً)، ذا قدرة على انتظار ساعته، لا يرحم نفسه (ولا الآخرين طبعاً)، يقوم بما يكلفه به لينين والحزب. أما اليوم، في عيده الخمسين، فقد شعر، وهو يستقبل المهنئين من أعضاء

المكتب السياسي ومفوضي الشعب ورؤساء المنظمات الاجتماعية والمؤسسات الحكومية، بشكل ملموس أن تلك السنوات الاثنتي عشرة التي تلت الثورة علمته (أو كما كان يروق له أن يقول: «أكسبته خبرة في») السيطرة على الزمن. كلا، ليس هذا أهم ما في الموضوع، بل، كما كتب هيربيرت ويلز، في أنه بدأ يشعر ويعرف متى يسرّع الأحداث ومتى ينهال على المعارضة بالضربة القاضية وكيف يستخدم عامل الوقت في سباق التصنيع وإنشاء التعاونيات الزراعية. فقد بدا له أنه «همز» حصان الوقت.

أراد مولوتوف وكاغانوفيتش الاحتفال بفخامة أكبر بيوبيل «القائد» المعترف له من قبل الجميع تقريباً. لكن، ماالذي جعل ستالين يرفض ذلك؟ ليس التواضع طبعاً. المسألة، بكل بساطة، أن ذاكرة ستالين كانت لا تزال تحتفظ بذكرى عيد ميلاد لينين الخمسين (إنه لم ينس بعد ذكرى عيد ميلاد لينين الخمسين). فقد وجد نفسه أكثر من مرة يسترجع كلمات لينين (ورأيه) فيه (أي ستالين) وهو على وشك اتخاذ قرار حاسم ومبدئي. والاختيار المبدئي حقاً يتطلب منا أن نضع أنفسنا مكان الذين تعتمد حياتهم علينا. لينين كان يجيد وضع نفسه عقلياً مكان الآخرين، والعديد من زملائه كانوا يجيدون ذلك أيضاً. لكن ستالين لم يكن من بينهم. يصعب علينا حتى تصور ستالين وهو يضع نفسه لنقل مكان ضحيته. فتفكيره المجرد من الخيال لا يسمح بمثل هذا الجنون. لكن ستالين كان يجيد التحفظ. ولينين هو الذي جعله يتحفظ قبيل يوبيله الخمسين. مؤقتاً.

لنعد إلى يوبيل لينين (لنرافق ذاكرة ستالين في رحلتها إلى يوبيل لينين). احتفل الحزب بعيد ميلاده في المقر الحزبي في موسكو. في الواقع، لم يحضر لينين نفسه الحفل. افتتح ميسنيكوف الحفل. وقرأ كامينيف كلمة باهتة مطولة أكد فيها أن فلاديمير إليتش «لا يحتاج لمن يمدحه، وأن البروليتاريا لم تعتد تمجيد قادتها ورفاقها الأفاضل بالخطب والقصائد»؛ كما وتطرق للحرب التي «جعلت الجماهير تشب» وقال إنه يمكن تسمية لينين قائد أركان جيش البروليتاريا الذي سينتصر على العالم القديم... وألقى غوركي كلمة كرر فيها، لسبب ما، كلمات تروتسكي حول افتقار التاريخ الروسي للشخصيات اللامعة... وبحماس وفصاحة معهودين هنّأ لوناتشارسكي القائد بطريقته الخاصة مؤشراً بيديه إلى «رياح القمة التي تهب» حول لينين. وقرأ الشاعر البروليتاري ألكساندروفسكي أشعاراً. وتكلم أولمينسكي عن ديمقراطية لينين العالية، قائلاً: «من أهم سمات إليتش هي ديمقراطيته. لينين ديمقراطي بطبعه، بالغريزة». أزعجت تلك الكلمات قائد المستقبل: نار الحرب لم تنطفىء بعد ويتكلمون عن الديمقراطية وكأنها مهمة بالنسبة للثائر. أيعقل هذا؟! وهنا سمع ميسنيكوف يدعوه هو، ستالين، لقراءة كلمة. لقد حضّر مطولاً لتلك الكلمة، فقد كان يريد أن يقول شيئاً مميزاً، وفجأة قرر أن يتكلم في يوم عيد ميلاد لينين عن... مقدرة لينين على الاعتراف بأخطائه! قال ستالين: كان قد أيد فكرة المشاركة في انتخابات «دوما» فيتيسبك، لكنه اعترف علانية بخطأه فيما بعد. وكذلك عام ١٩١٧، ـ تابع ستالين قراءة كلمته بصوت منخفض ـ أخطأ لينين في موقفه من البرلمان المؤقت، ثم اعترف بذلك علانية أيضاً. وأنهى كلمته قائلاً: «لقد اعترف الرفيق لينين

مراراً بعيوبه فيما يخص المسائل فائقة الأهمية. وهذا التواضع لطالما سحرنا. وهذا أيها الرفاق هو كل ما أردت أن أقوله لكم». صفقت له القاعة بفتور على كلمته التي استمرت خمس دقائق طويلة، ولم يفهم أحد الدافع لكلمات مفوض القوميات تلك التي لا علاقة لها بمناسبة الحفل. وهنا دخل لينين.

كانت كلمته قصيرة حيوية يصعب نسيانها. «في البداية، عليّ، بالطبع، أن أشكركم لسببين، أولاً للتهاني التي وجهتموها لي اليوم، وثانياً لأنكم أنقذتموني منها». ثم قال إن اليوبيل لا يجوز الاحتفال به هكذا، وبدأ يتكلم عن الوضع داخل الحزب. أشار إلى أن منجزات الثورة وانتصاراتها جعلت الحزب يهمل بعض المهام التي عليه القيام بها في المجالات المختلفة. «...هناك عمل ضخم علينا القيام به، وسيتطلب ذلك منا مجهوداً أكبر بكثير مما كان يتطلبه منا الماضي. ـ ثم قال ـ اسمحوا لي أن أنهي كلمتي هذه متمنياً ألا ندع حزبنا يصبح حزباً «بطرانا»[١].

لماذا قرر ستالين في تلك الليلة الحديث عن «أخطاء» لينين؟ لم يكن يعرف الجواب آنذاك. أليثبت أن مفوض القوميات ليس حيواناً مروضاً؟ أم أنه كان يعلم أن لينين لا يخاف من الحقيقة أياً كانت؟ على أية حال، لا يمكننا سوى التخمين. وبالمناسبة، كان ستالين نفسه يشعر بالحرج كلما جاء الحديث حول كلمته تلك. وعندما طلب منه نائب مدير «الأرشيف» المركزي للحزب ف. أدوراتسكي أن يسمح له بنشر كلمته في عيد ميلاد لينين ضمن مختارات من المقالات تحت عوان «حول لينين»، رد عليه ستالين بالرفض في رسالة فصيحة:

«الرفيق أدوراتسكي:

ان تلك الكلمة صحيحة بالشكل العام، بالرغم من أنها تحتاج لبعض التنقيح. لكنني لا أحبذ نشرها، فالحديث عن أخطاء إليتش أمر مكروه.

«ي.س.»[٢]

لكن، فيما بعد، سينشر كلمته تلك «بعد التنقيح» في مجموعة مختاراته. فسرعان ما سيزول «تواضعه» وشعوره بالحرج المزيف، وسرعان ما سينام ضميره «الصاحي». في عام ١٩٢٥ وافق على اقتراح ف.مولوتوف متخذاً أول خطوة في طريق تخليد اسمه. وسيوقع كالينين ويونيكيدزيه، رئيس وأمين عام اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتي، قرار هيئة رئاسة اللجنة الذي يفيد بالتالي:

«استبدال اسم مدينة تساريتسين بـ ستالينغراد، ومحافظة تساريتسين بمحافظة ستالينغراد، وقضاء تساريتسين بقضاء ستالينغراد، ومحطة قطارات تساريتسين بمحطة ستالينغراد»[٣].

حصل ذلك في العاشر من نيسان (ابريل) عام ١٩٢٥، أي بعد وفاة لينين بعام ونيف. وكان ذلك من أول اختبارات الضمير، ولم ينجح ستالين فيه. فهو، بالمناسبة، لم يشعر بأي حرج من قبوله «المتواضع» بذلك الاستبدال الكبير لأسماء تلك المواقع الجغرافية.

سوف تنشر الصحف عام ١٩٢٧ «تحية موقعة من ي. ستالين لصحيفة ستالينغراد «بوربا (النضال)». وسرعان ما سيصبح ذلك عرفاً. لقد فكرت أكثر من مرة: ما هو شعور الإنسان، يا ترى، عندما يتصفح ـ عدد جريدة البرافدا الصادر في ٣ آذار (مارس) ١٩٢٧، مثلاً ـ حيث يوجد ملخص كلمته التي ألقاها أمام اجتماع ورشات سكك الحديد التي تحمل اسمه؟ أنا لا أزال على قيد الحياة لكن محافظات ومدن وأحياء ومؤسسات وحدائق وصحف وسفن وأندية ثقافية أصبحت تحمل اسمي منذ الآن. أليس في ذلك محاولة للخلود؟ إنه وهم السيطرة على الزمن! أنا لا أزال حياً لكنني خالد منذ الآن! ستالين يعلم أن التاريخ سيذكره. ألم يكن يعلم أن الخلود لا يعني الأزلية؟

هكذا كان الرجل الذي وضعته الظروف على رأس دولة فلاحية كبرى.

مصير الفلاحين

لم يبالغ هيربيرت ويلز عندما كتب في عمل صحفي ـ أدبي أن روسيا تعيش «في الظلام». فقد أخذ «انطباعاً بالانهيار التام الذي لا يمكن تصليحه» والسهوب الشاسعة بلا حدود بآلاف القرى المنتشرة عليها تنام في سبات مظلم عميق، كما كانت تفعل منذ مئة أو مئتين أو ثلاث مئة عام...

جميعنا تقريباً تعود جذورنا إلى القرية. وعندما تطل علينا ذكريات الطفولة بابتسامتها المشرقة غالباً ما نسترجع رائحة الثلج وهو يذوب، ونرى الدغناش ذا الحوصلة الحمراء على سور الحديقة، ونلمس الجليد على سطح النهر المظلم، ونشعر بخط جبال سايان الرفيع الممتد جنوباً، ونسمع صرير الزلاجات في شوارع القرية... وتعود إلينا وجوه ماتت منذ زمن بعيد...

من منّا يعرف أسلافه أبعد من جده وجدته؟ من منّا يعرف اسم جد جده أو جدة جدته؟ لا أحد تقريباً. أتخيل أحياناً أجدادي جميعهم حول مائدة عائلية واحدة. الأيقونات القديمة تذكر وجوههم: الرجال ملتحون، يرتدون قمصاناً من الخيش، أيديهم خشنة تحكي حكايات شغيلين أبديين. النساء عيونهن طيبة نظراتهن خاضعة مذعنة، يفقدن شبابهن في الأربعين، كثيراً ما ينجبن في الحقل أطفالاً شعرهم أشقر ـ لا ينجو بعد الولادة منهم سوى النصف. لا بد أن ينضم للمائدة كهل أو كهلان حازا على وسام «غيورغي» لشجاعتهما أثناء الحرب ضد الأتراك أو اليابانيين أو الألمان. الأخلاق البدائية التي ترتكز على الدين المسيحي والعمل والأسرة والوطن تحكم هؤلاء البشر الأميين. قد تضم المائدة شخصاً «يفك الخط» ويقرأ الصحف والمجلات. رجال، نساء فلاحون... لم يبق منهم اليوم سوى ما حفظناه عنهم في ذاكرتنا وتصرفاتنا: المثابرة في العمل، الحرص وحسن التدبير، الثقة بالغير، الاستعداد لمساعدة كل زميل وقريب.

هكذا كان عالم الأغلبية الساحقة من شعبنا في بداية الثلاثينات. وهذا هو العالم الذي سينقلب رأساً على عقب إثر ثورة كبرى، ثورة جاءت قراراً من الأعلى.

في الحقيقة، بدأ احتضار القرية منذ أواسط عام ١٩١٨، عندما شنت لجان «الفقر» هجومها على «الكولاك» وأراضي الكنيسة والإقطاعيين. فقدَ الكولاك أكثر من نصف أراضيهم، وتم توزيع المكائن والمواشي المصادرة على الفقراء ومتوسطي الحال. تقلصت فئة «الكولاك» وأصبحت القرية «متوسطة الحال». ثم جاءت «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي بعثت روح الأمل في القرية، وأعطت لكل من يدفع الضريبة الثابتة حق التصرف التجاري بمحصوله. وقبل وفاة لينين، في أواخر عام ١٩٢٣، صدّرت روسيا السوفييتية حوالى ١٣٠ مليون بود (أكثر من ٢ مليون طن) من القمح. آنذاك، كان مجرد التفكير في استيراد القمح يبدو تخريفاً جنونياً... أما تصديره، فكان مسألة طبيعية مقبولة فكراً وعملاً.

في فترة ما بعد الحرب ارتفع منتوج البلاد من الحبوب، لكنه لم يصل إلى المستوى الذي كان عليه قبل الحرب. والسبب يعود للأسعار المتدنية التي تفرضها الحكومة على الفلاحين مقابل محاصيلهم من الحبوب، وللنقص في البضائع والمواد التي تحتاجها القرية. فالتعاونيات الصناعية التي أُنشئت في القرية كانت لا تزال في بداية الطريق. وأتت «السياسة الاقتصادية الجديدة» لنجدة الفلاحين الفقراء ومتوسطي الحال، كما أنها لم تنس الكولاك ودفعتهم خطوة إلى الأمام. فهم لم يكونوا يشكلون خطراً على دولة ديكتاتورية البروليتاريا. وعلينا الإشارة هنا إلى المفهوم الخاطىء للاشتراكية الذي يدعي أنها مرادف للفقر وضد الثراء. فالماركسية ضد الثروة التي تُبنى على حساب استغلال عمل الآخرين. والجزء الأكبر من الكولاك أصبحوا أثرياء بمجهودهم الخاص («من عرق جبينهم»).

تنبّأ لينين أن القرية ستكون أكبر عقبة أثناء بناء الاشتراكية؛ لكنه كان يؤمن في القدرة الدعائية للكهرباء والتراكتورات والكتب! كان يعتبر أن السياسة الاقتصادية الجديدة تستطيع جذب الفلاحين وإقناعهم بإنشاء تعاونيات، لكن ذلك «يتطلب مرحلة تاريخية كاملة. نستطيع عبور تلك المرحلة التاريخية خلال عقد أو عقدين»[٥]. يعبر لينين في أحد آخر أعماله عن فكرة ذات أهمية ودلالات كبيرة: «يحق لنا الآن التأكيد أن نمو التعاونيات مرادف... لنمو الاشتراكية... [ولو كان مجتمعنا الآن يعيش]... في ظروف يعتمد فيها كلياً على التعاونيات، لكنّا نقف بثبات على أرض اشتراكية»[٦]. لكن، بالطبع، خطة لينين لإنشاء التعاونيات الزراعية لم تكن كاملة، فهي لم تحتو على تفاصيل المراحل وطرق تحقيقها. فما كان له أن يفعل كل ذلك عام ١٩٢٣

فسح انخفاض الضرائب المجال أمام الفقراء ومتوسطي الحال من الفلاحين للرفع من محاصيلهم (القمح بشكل أساسي). ارتفعت الإمكانية الشرائية لدى الفلاحين بشكل عام. لكن، في الوقت نفسه، كانت البلاد تشهد نقصاً في عدد من البضائع الأخرى، مما دفع الفلاحين للمماطلة في بيع المحصول. فما نفع النقود الورقية ما دامت المكائن وغيرها من حاجاتهم إمّا مفقودة وإمّا معروضة بأثمان باهظة؟! بدأت تظهر صعوبات في تموين المدن. في بداية عام ١٩٢٧ لاحت أزمة الخبز. خبأ الكولاك، وحتى الفلاحون متوسطو الحال، مخزونهم من القمح في انتظار أسعار أفضل وتوفر مستلزماتهم في الأسواق.

حاولت المعارضة استغلال توتر العلاقات بين الفلاحين والحكومة لمصالحها الشخصية. فقد اتهم كامينيف أثناء المؤتمر الخامس عشر للحزب القيادة بعدم فهم حقيقة العناصر الرأسمالية في القرية ودعا لاستخدام العنف ضد الكولاك. لم تكن هذه المرة الأولى التي تدعو فيها المعارضة إلى مصادرة مليونين ـ ثلاثة ملايين طن من القمح من محصول الكولاك ومتوسطي الحال من الفلاحين، وهي الكمية التي يحتاجها السوق ليلبي حاجيات الشعب (وهو الفرق بين العرض والطلب على الخبز). لكن، ولحسن الحظ، رفض المكتب السياسي ذلك الحل أثناء جلسته التمهيدية لمؤتمر الحزب. وهكذا، صرح ستالين في كلمته أمام المؤتمر بشكل لا يدعو للبس: «يعتقد بعض رفاقنا أن القضاء على الكولاك عبر القنوات الإدارية، من خلال دائرة التموين الغذائي، أمر ممكن وضروري. لكنهم مخطئون. الأمر ليس مجرد قرار وختم ونقطة. أجل، أن هذا الأسلوب هو الأسهل، لكنه ليس فعالاً. يجب القضاء على الكولاك عبر خطوات اقتصادية، ومن خلال الشرعية السوفييتية. والشرعية السوفييتية ليست مجرد كلمات فارغة»[٧]. أليست تلك كلمة حق؟ هل من يعترض عليها اليوم؟ ومن نطق بها ليس سوى «بطلنا» ستالين!! كيف؟

الجواب يكمن في أن كلام ستالين كثيراً ما كان يتناقض مع أعماله. وليس هذا الجواب الوحيد. فإن ستالين لم يكن ملماً بأوضاع القرية والمسألة الزراعية. فهو لم يزر المناطق الزراعية سوى مرة واحدة في حياته. (كان ذلك عام ١٩٢٨، أثناء رحلته إلى سيبيريا بخصوص تخزين محصول القمح). سيظهر ستالين جهله الزراعي من خلال اتخاذ عدد من القرارات الفردية الخاطئة ذات نتائج وخيمة.

شهد المؤتمر الخامس عشر ـ الذي أقر إنشاء التعاونيات الزراعية ـ عدداً من الاقتراحات المعقولة لحل مشكلة نقص الخبز. فقد صرح أ.أ. ميكويان، على سبيل المثال، أن بعض البضائع تتركز في المدينة ولا يرى أهل القرى منها شيئاً، بالرغم من الطلب المرتفع عليها. و «حل مشكلة نقص الخبز يتطلب قرارات جذرية، أي يجب توفير البضائع اللازمة للقرية، حتى وإن أدى ذلك إلى فقدانها المؤقت من الأسواق في المدن. فبهذه الطريقة نحصل على القمح من الفلاحين. وفي حال عدم اتخاذ مثل ذلك القرار، ستواجهنا مصاعب كبيرة سوف تؤثر على الاقتصاد ككل»[٨].

يبدو أن الحزب قرر اللجوء إلى الخطوات الاقتصادية، وليس فقط السياسية، لحل مشاكل القرية اليومية وتوطيد وحدة الطبقة العاملة والفلاحين. أليست تلك خطة لينين لإنشاء التعاونيات؟! ألم يهدف لبناء مجتمع «تعاونيات متحضرة»، لأنها توحد بين مصالح الفرد والمجتمع؟! أليس هذا الهدف أصعب ما في الإصلاحات الإشتراكية؟! المهم: ألاّ تتم الإصلاحات عن طريق الأوامر والعنف، بل أن تتم وفقاً للقوانين الاقتصادية وبمساعدتها.

قدم ف.م. مولوتوف، سكرتير اللجنة المركزية للحزب البلشفي لشؤون القرية، تقريراً تضمن استنتاجات صحيحة بشكل عام. ومن ضمن ما قاله أن «تطور الاقتصاد الفردي نحو الإشتراكية سوف يكون بطيئاً وطويلاً. ليس من السهل التحول من الاقتصاد الفردي إلى الاقتصاد التعاوني». كما أكد أن ذلك التحول يجب أن يتم

دون عنف: «كل من يقترح علينا اليوم سياسة المصادرة لارغام ١٠٪ من الفلاحين ـ أي ليس فقط من الكولاك، بل ومن جزء من الفلاحين متوسطي الحال ـ على التخلي عن ١٥٠ ـ ٢٠٠ مليون يود (مليونين ـ ثلاثة ملايين طن تقريباً) من القمح، كل من يفعل ذلك... هو عدو العمال والفلاحين مهما كانت نواياه...» وهنا هتف ستالين:

ـ صحيح!

علق الأمين العام أكثر من مرة بشكل مماثل أثناء ما تبقى من كلمة مولوتوف[٩].

بدا وكأن المؤتمر اقتنع بفكرة خط الطرق الاقتصادية لانشاء التعاونيات ومبدأ الإرادة الحرة. ففي القرار الذي اتخذه بخصوص تقرير مولوتوف جاء، وبشكل واضح، أن «خطة لينين لإنشاء التعاونيات صحيحة تماما،... [لأنها تؤكد أنّ]... الصناعة الاشتراكية سوف تساعد الاقتصاد الزراعي... [الذي يعتمد على المزارع الصغيرة]... للاتجاه نحو الاشتراكية عبر التعانيات...»[١٠]. بل أكثر من ذلك، فقد ندد المؤتمر بمحاولات تحقيق تلك الأهداف باستخدام القوة. لذلك عندما قرر ستالين ومولوتوف(!) استخدام القوة لإنشاء التعاونيات و «الكولخوزات» وقع قرارهما وقع الصاعقة على الحزب. بدأ ستالين بعد المؤتمر الخامس عشر بقليل يصرح عن ضرورة تسريع عملية التصنيع وإنشاء التعاونيات الزراعية. راقه مقال س.غ. ستروميلين الذي عبر فيه عن ضرورة إنشاء اقتصاد «إرشادي»: ليست دراسة الاقتصاد هدفنا، بل هدفنا تغييره. نحن لا تحكمنا أية قوانين، ولا توجد قلاع لا يستطيع البلاشفة اقتحامها. ومسألة الوقت نتحكم فيها نحن...[١١] استشهد ستالين مراراً بكلمات ذلك العامل. فقد عبر ستروميلين عن نوايا الأمين العام.

بدأ ستالين يغير مسار عملية بناء الاشتراكية. وذلك التغيير يعني التخلي عن «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي وضع أسسها لينين، أي عن الوصول إلى الاشتراكية من خلال سياسة اقتصاد السوق. وقّع ستالين في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧ ـ بعد المؤتمر الخامس عشر مباشرة ـ وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ تعليمات تأمر بشد القبضة على الكولاك وبدء عملية إنشاء «الكولخوزات». قد تكون أزمة الخبز وراء هكذا تعليمات، لكن تلك المحاولة لحل أزمة التموين عن طريق فرض نوع جديد من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية كانت انحرافاً جذرياً عن خطة لينين.

اعتقد أن الانقلاب الاجتماعي الذي قرر ستالين فرضه على القرية كان لا بد وأن يبهر معظم أعضاء الحزب وأن يكفل له تأييدهم. فإن الجماهير الشيوعية لا تزال تحت تأثير الثورة، ولم يهدأ غليانها الراديكالي اليساري بعد. جميعهم يريدون حل مشاكل ترسخت منذ قرون بضربة واحدة.

ستالين رجل حريص بشكل عام، ألا أنه، وبعد تفكير وتردد طويلين رمى بنفسه وبالدولة «في البحر»: قرر توحيد ملايين المزارع الصغيرة وإنشاء تعاونيات

زراعية في جميع أقطار البلاد، وذلك بالرغم من علمه يجهل الفلاحين، وبالرغم من علمه بأنهم لم ينضجوا بعد لمثل تلك المرحلة. وهنا يظهر ستالين الطوباوي ـ الدوغمائي في فهمه للمسألة الزراعية، فهو يريد أن يحول المزارع لِـ «برغي» في الآلة الزراعية. لتحقيق ذلك الهدف يجب أن يعزل الفلاح عن وسائل الإنتاج وتسويق المحصول. بقرار من ستالين تغير وضع الفلاحين الاجتماعي، انتهى عهد المنتج الحر وبدأ عهد العامل ـ العبْد. أصبح اللامعقول معقولاً، بل وطبيعياً. أيد اجتماع اللجنة المركزية عام ١٩٢٨ ستالين. أيد الحزب استخدام العنف وسيلة من وسائل النظام الجديد...

استبدلت القوانين الاقتصادية بقوانين تعسفية قضت تدريجياً على «السياسة الاقتصادية الجديدة» ودافِع الفلاحين المادي ومبادرتهم ونشاطهم في العمل. أيد عدد من اليساريين المنقوم عليهم، أنصار تروتسكي سابقاً، الإجراءات الحازمة التي اتخذها ستالين بحق الفلاحين: بياتاكوف، كريستينسكي، انطونوف ـ اوفسيينكو، رادك، بريوبروجينسكي... جميعهم أدلوا بتصريحات أدت إلى استرجاعهم إلى صفوف الحزب. (تسلم بياتاكوف منصب مدير بنك الدولة ثم أصبح نائب مفوض الشعب للصناعات الثقيلة. إلا أن ذلك لم يمنعه ورفاقه من تذوق طعم المرارة عام ١٩٣٧. لم يكن ستالين لينسى أو يغفر لهم أو لغيرهم «أخطاء» الأمس).

وأثناء رحلته إلى سيبيريا في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ أكد ستالين في لقاءاته مع نشطاء الحزب والمؤسسات على ضرورة الضغط على الكولاك. وكانت رحلته أشبه بجولة قائد جيش يتفقد قواعده. حال وصوله إلى موقع، كان ستالين يستدعي أعضاء الحزب والعمال، ويستمع قليلاً إلى أقوالهم ثم ينطق بالاستنتاج الوحيد الذي يعرفه:

ـ تعملون بشكل سيء! تضيعون الوقت وتغضون النظر عن الكولاك. عليكم أن تنتبهوا، قد يوجد من بينكم جواسيس للكولاك! نحن لا يمكننا تحمل هذه الفوضى كثيراً.

وكانت تتلو تلك التأنيبات اقتراحات وإرشادات واضحة وملموسة:

راقبوا مزارع الكولاك. مخازنهم ومعابرهم مليئة بالحبوب... بعضهم يختزن الحبوب في الخيام نظراً لقلة المخازن. وكل مزرعة تحتوي على ٥٠ ـ ٦٠ ألف بود (٨٠٠ ـ ١٠٠٠ طن) من الفائض...

وكان ستالين ينهي كلامه بطريقة واحدة لا يغيرها أبداً:

اقترح:

(أ) أن يطالب الكولاك بتسليم كل ما لديهم من فائض الحبوب بأسعار الدولة.

(ب) وفي حال رفض الكولاك الالتزام بالقانون، تتم محاكمتهم وفقاً للمادة رقم (٦٠) من القانون الجنائي لجمهورية روسيا ويصادر فائض الحبوب لصالح الدولة على أن يتم توزيع ٢٥٪ من الحبوب المصادرة على الفقراء من الفلاحين...

كما ويجب توحيد المزارع الغربية ذات المحصول القليل تحت تعاونيات زراعية جماعية، في «كولخوزات»...[١٢]

انتشر أسلوب الأمر والضغط هذا انتشاراً واسعاً ولقي تشجيعاً كبيراً من قبل المسؤولين. أما الشعار الذي رفعه إداريون اندفاعيون: «نعم للسرعة الجنونية في إنشاء الكولخوزات!»، فقد أيده ستالين وقام بتحليل أسسه النظرية والسياسية في مقالته تحت عنوان «عام الانعطاف الحاسم العظيم». وفعلاً، بدأ المزارعون يتقبلون فكرة التعاونيات ـ لكن ليس بالضرورة «الكولخوز»، فهو ليس سوى نوع من أنواعها ـ لكن ستالين اعتبر ذلك تعبيراً جماعياً عن استعداد متوسطي الحال من المزارعين لانشاء «الكولخوزات»، وأخذ يعطي إرشادات ويصدر أوامر جديدة...

بعد احتفاله بعيد ميلاده الخمسين بأسبوع، ألقى ستالين خطبته الشهيرة أمام مؤتمر المزارعين الماركسيين. أعلن ستالين لأول مرة ـ قبل أن تقر ذلك اللجنة المركزية ـ أن الاتحاد السوفييتي «انتقل من مرحلة سياسة الحد من النزعات الاستغلالية لدى الكولاك إلى مرحلة سياسة القضاء على الكولاك كطبقة»[١٣]. كان ذلك قراراً مشؤوماً قاتلاً مسَّ مصائر الملايين من البشر.

يرمز عام ١٩٣٧ في وعي كل سوفييتي لذروة العنف وانعدام القانون في الاتحاد السوفييتي. لقد أصبح ذلك العام نقطة ارتكاز أعمال أدبية عديدة وتسلطت عليه الأضواء، نظراً لكثرة المثقفين الذين عانوا خلاله. لكن نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات لم تكن أقل دموية، بل أن «القبضة الحديدية» قضت آنذاك على عدد أكبر من الناس كان من بينهم أعداء فعليون ليسوا بالقلائل، ولكن كذلك الأبرياء أكثر بكثير: فلاحون متوسطو الحال، ومزارعون جموحون، اعتبرتهم الدولة وأسرهم «كولاك». بدأ المؤرخون اليوم بتحليل ظروف تلك المرحلة التاريخية. قد يكون توحيد المزارع الصغيرة تحت تعاونيات كان ضرورة تاريخية حتمية. لكن، هل كان ضرورياً ذلك العنف في تلك المرحلة التاريخية الحاسمة؟ بكل ثقة نستطيع الإجابة: كلا، لم يكن ذلك ضرورياً. كان يجب أن تتم هذه العملية بإرادة المزارع نفسه!

لتسهيل عملية القضاء على الكولاك أمر ستالين بإصدار لائحة تحدد من هو الكولاك. اتضح من خلالها أن الكولاك هو كل من يزيد مدخول كل فرد من عائلته عن ٣٠٠ روبل في السنة (بشرط ألاّ يقل مدخول الأسرة ككل عن ١٥٠٠ روبل)، أو يمارس نوعاً من أنواع التجارة، أو يؤجر مواشيه أو مكائنه أو مكان سكن أو عمل، أو يملك طاحونة أو معصرة زيت، وإلخ... وإحدى هذه النقاط كافية للتنكيل بالإنسان. وكما نرى، فإن هذا التحديد للطبقة ليس كافياً، فالطبقة لا تحدد وفقاً لما تملكه فقط، بل ولوضعها الاجتماعي كذلك. وعلى أرض الواقع أتاح ذلك التعريف «المائع» المجال الواسع للتنكيل بعناصر اجتماعية مختلفة.

عاش العنف عصره الذهبي. أصبح القرن العشرون أسوأ فترة في حياة الفلاح الروسي. تم القضاء على الفلاحين الأكثر نشاطاً واجتهاداً وفهماً. وبالطبع، فقد كان من بين هؤلاء عدد كبير لا يثق بالسلطة الجديدة. لكن ستالين ومساعدوه وضعوهم

جميعاً في كفة أعداء الاشتراكية الذين يجب التخلص منهم.

قامت لجنة مختصة بتقديم مشروع قرار للجنة المركزية في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ تحت عنوان «حول إنشاء التعاونيات الزراعية وإجراءات الدولة للمساعدة في بناء الكولخوزات». حذف ستالين بخط يده موعد انتهاء الفترة الذي اقترحته اللجنة المختصة، واقترح إنهاء البناء في نصف تلك الفترة دون أي دراسة علمية ودون أن يأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل الإيجابية والسلبية. همه ومطلبه الوحيد: أسرع ثم أسرع ثم أسرع! بدأت التقارير والمعلومات والبرقيات «تطير» إلى مراكز الحزب في المحافظات. عُيِّن عدد هائل من المفوضين كاملي الصلاحية. بعضهم يَعِدُ: «تراكتورات، كاز، ملح، كبريت، صابون ـ ستحصلون على كل ذلك إذا أسرعتم للالتحاق بالكولخوز!». البعض الآخر أكثر حزماً ويهدد: «كل من لا يريد الالتحاق بالكولخوز هو عدو للسلطة السوفييتية!» خوف، مشاحنات، تنكيل، اغتيال حزبيين ونشطاء الكولخوزات، رسائل شكوى تصل إلى موسكو، رجال يدافعون عن العدالة ويبحثون عن الحقيقة... ذلك هو الوجه الخارجي لتلك الأحداث المأساوية التي عاشها الفلاحون. ضاعت تلك الحاجة الموضوعية لإنشاء التعاونيات، والتي بدأت تظهر بأشكالها المختلفة، وبناءً على مبدأ التطوع والإرادة الحرة. لا، لم تضع، بل داسها نظام كامل من الإجراءات الإدارية والسياسية والقانونية. مات التطوع وماتت الإرادة الحرة.

أصبح التعسف أمراً اعتيادياً. دخلت مصطلحات جديدة إلى اللغة الروسية ترمز إلى دخول البلاد في عهد جديد. ظهر مصطلح «نزع ملكية الكولاك» (raskulachivaniye) الذي أدى إلى التنكيل بملايين الفلاحين (وليس فقط الكولاك منهم). تفيد بعض المصادر أنه في بداية عملية بناء الكولخوزات كانت نسبة الكولاك بين الفلاحين ككل لا تتعدى حوالى ٩٠٠ ألف شخص. لا اعتقد أننا سنستطيع يوماً ما تحديد عدد الذين نالتهم عاصفة التنكيل ونزع الملكية. فبعد مصادرة جميع ممتلكاتهم من أراضي ومساكن ووسائل إنتاج تم إبعاد مئات الآلاف من العائلات (بأكملها). تفيد بعض الإحصاءات بأنه خلال عام ١٩٢٩ تم نفي ١٥٠ ألف عائلة من الكولاك إلى سيبيريا وشمال البلاد (المناطق الشمالية الباردة)، وفي عام ١٩٣٠ تم نفي ٢٤٠ ألف عائلة، وعام ١٩٣١ ما يزيد عن ٢٨٥ ألف عائلة. لكن، ألم تبدأ عملية نزع الملكية عام١٩٢٨، ألم تستمر بعد عام ١٩٣١؟ الاحصائيات لم تأخذ هؤلاء المساكين في الحسبان... تدل إحصائياتي بعد الدراسة أن عدد الذين عانوا من جراء عملية نزع الملكية (في مجال الزراعة) لا يقل عن ٨,٥ ـ ٩ ملايين شخص بين رجل وامرأة وعجوز وطفل، والجزء الأكبر منهم اقتلع من أرضه حيث ترك قبر أجداده وبيته ولحافه... كثيرون أعدموا رمياً بالرصاص لأنهم رفضوا الاستسلام وحاولوا مقاومة النازعين؛ كثيرون لقوا حتفهم في طريقهم إلى سيبيريا أو الشمال. سحق دولاب الحماس والجشع متوسطي الحال من الفلاحين. بناءً على إحصائياتي، جرفت ناعورة نزع الملكية ٦ ـ ٨٪ من المزارع في الإتحاد السوفييتي.

بالطبع، لقد قاوم مئات الآلاف من الكولاك تلك العملية بشراسة. لكننا نعتقد

أنه كان يجب استخدام أساليب إدارية موزونة ضد أولئك الكولاك الذين يحاربون النظام السوفييتي بشكل علني، إذ أن معظم مزارع الكولاك كانت ستشارك في عملية تعميم وسائل الإنتاج (تجميع الأراضي) وإنشاء التعاونيات لو تم ذلك على أساس توزيع الواجبات والضرائب حسب الإمكانيات والمدخول. لكن أحداً لم يحاول استقطابهم، بل إن ذلك الرفض الذي واجهه الكولاك وضعهم أمام حلين: أما أن يقاوموا، وأما أن يستسلموا لمصيرهم - أي نزع الملكية والمنفى. أدت السرعة والتعسفية في اتخاذ القرارات التي مأساة حلت بملايين من البشر.

وبخصوص مسألة الكولاك ونزع الملكية نقتبس هنا قطعة من مذكرات تشرتشل حول لقائه مع ستالين في ١٤ آب (أغسطس) ١٩٤٢ نعتقد أنها سوف تثير اهتمام القارىء. انتهت المحادثات بين القائدين ودعا ستالين رئيس وزراء بريطانيا للعشاء في شقته بالكرملين. شارك ستالين وتشرتشل سهرتهما مولوتوف وأحد المترجمين. كتب تشرتشل في مذكراته فيما بعد:

- هل تقع أعباء الحرب الحالية على أكتافكم شخصياً كما كان الحال أثناء (فترة) إنشاء الكولخوزات؟

أثار هذا الموضوع حماس ستالين فوراً وقال:
- كانت سياسة تعميم الاقتصاد الزراعي معركة ضارية.
- توقعت أنها كانت مرحلة صعبة بالنسبة لكم. فأنتم لم تكونوا أمام مجرد عشرات الآلاف من الارستقراطيين أو كبار الإقطاعيين، بل أمام الملايين من المزارعين الصغار...

رفع ستالين يده مؤكداً: عشرة ملايين... [بالتحديد]... كان ذلك مريباً واستمر لمدة أربع سنوات. كان لا بد لروسيا أن تستخدم التراكتورات كي تتجنب المجاعات الدورية. اضطررنا إلى ذلك. أيدنا عدد كبير من الفلاحين. أما البعض، الذين عاندوا، فقد منحناهم أراضي في شمال البلاد ليزرعوها بأنفسهم. لكن الأغلبية لم تكن لديها شعبية في صفوف المأجورين وقضى عليها الأخيرون بأنفسهم...(١٤).

لقد حاولت قدر الإمكان الحفاظ على مصطلحات تشرشل - «ارستقراطيون»، «اقطاعيون»، «شعبية» إلخ... من المعروف أن الرقم ١٠ مليون انتقل برشاقة الغزال من مذكرات تشرشل إلى الصحف. إحصائياتي تشير إلى أعداد أقل بعض الشيء لكنها، بكل تأكيد لا تقلل من مقاييس تلك المأساة الرهيبة، من مقاييس أول حملة إرهاب دموي جماعي يقوم بها ستالين في وطنه وعلى شعبه.

كانت فترة إنشاء الكولخوزات انعطافاً جذرياً حاسماً في حياة الفلاحين ذا نتائج اجتماعية جسيمة. ضاعت الفرصة التاريخية لبناء الاشتراكية وفق «السياسة الاقتصادية الجديدة»، على نمط الإرادة الحرة وقوانين السوق. اتخذ النظام أسلوب الأمر والضغط والعنف منهجاً له، مبتعداً أكثر فأكثر عن المثال الذي وضعه لينين.

لكن عملية إنشاء الكولخوزات لم تتوقف. كانت عشرات الآلاف من الأصوات تتجه نحو الكرملين في رسائل شكوى وأسى وألم واستغراب وخوف وكراهية. ومع

ذلك لم تتوقف طاحونة الظلم عن تحطيم المصائر البشرية. وأخيراً، في ٢ آذار (مارس) ١٩٣٠، جاء رد ستالين على مقاومة الفلاحين الاجتماعية وصرخة الألم التي استمرت عامين وكان لا بد وأن يسمعها الأمين العام. جاء رده الشهير في مقال نشرته الـ «برافدا» تحت عنوان «دوران رأس سببه النجاح». جاء رده استهزاء من الذين ماتوا، تحية للعنف الاجتماعي: «لقد تم توحيد ٥٠٪ من المزارع في الاتحاد السوفييتي تحت كولخوزات قبل ٢٠ شباط (فبراير) من هذا العام. هذه حقيقة! وهذا يعني أن إنجازاتنا تفوق الخطة الخمسية لإنشاء الكولخوزات بأكثر من الضعف».

نسبة مئوية، أرقام، خطط، تنفيذ الخطط قبل الموعد... ألم يخطر على بال ستالين أن وراء هذه الأرقام حياة ومصائر بشر؟! لماذا لم يشر إلى إحصائيات أخرى: حول عدد الذين نُفُوا وانتزعت ممتلكاتهم ودمرت حياتهم ولقوا حتفهم...؟ أليس من المعتاد أن يقولوا إن التغيرات الجذرية الكبيرة لا بد أن ترافقها التضحيات، المصاعب، الأخطاء؟ وعملية تعميم الاقتصاد الزراعي غيرت حياة حوالى أربعة أخماس الشعب السوفييتي! من أعطى ستالين حق انتزاع حرية الاختيار من الرجل البسيط، ومن أعطاه حق الاختيار نيابة عنه؟! ألم يحذر لينين: «إياكم وأسلوب الأمر!»؟! هل نسي ستالين كلماته الشخصية وتأكيداته: «يجب القضاء على الكولاك بالطرق الاقتصادية ووفقاً للشرعية السوفييتية!»؟ باختصار، صار ستالين يهمل ويتناسى أي قرار أو استنتاج أو قانون لا يتوافق وخططه المرحلية.

يؤكد ستالين في مقاله الشهير ـ وكأنما وصل إلى هذا الاستنتاج بعد إجراء استفتاءٍ عام في البلاد ـ أن «تعاونية الفلاحة المشتركة» و «الكومونة» لا تلبيان حاجة الإصلاحات الزراعية في القرية. فقط «الكولخوز» يفعل ذلك! قرر «المزارع» ستالين ـ الذي لن يزور القرية بعد اليوم ـ أن هذا هو الشكل المقبول الوحيد للتعاونيات الزراعية. في المستقبل، سيصرح خروتشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب أن ستالين «درس الزراعة من الأفلام السينمائية». بالطبع، لم يكن الأمر كذلك تماماً، لكن، أليس من الصعب تصور قائد لا يخطىء أبداً في تقويم أي موضوع كان دون الخروج من مكتبه؟ وأسوأ ما في الموضوع أن ستالين لم يكن يعترف أبداً بأخطائه. ويتضح من مقاله أن المذنبين في «تعسفية المسؤولين» و «دوران الرأس بسبب النجاح» و «الانحراف» هم موظفو المحافظات والمناطق والتعاونيات الزراعية! أما هو، ستالين، فبريء براءة المولود الجديد! وماذا عن إرشاداته وتعليماته المباشرة، وعن الأرقام والتواريخ التي يحددها، وعن السباق في إنجاز الخطط الخمسية إلخ...؟ لكن هذه التفاصيل تبقى وراء الكواليس كالمعتاد.

بعد نشر «دوران رأس سببه النجاح» غرق ستالين مرة أخرى في موجة جديدة من رسائل الفلاحين، اضطرته إلى توضيح موقف الحزب تجاه مسألة تعميم الاقتصاد الزراعي مرة أخرى. كانت تفسيراته تشهِّر أحياناً بفكرة إعادة بناء الاقتصاد الزراعي عن طريق إنشاء التعاونيات تدريجياً. كتب الأمين العام رداً على رسائل الفلاحين:

«يعتقد البعض أن مقالي «دوزان رأس سببه النجاح» مجرد مبادرة شخصية

من ستالين. هذا هراء، بالطبع. إنه أتى نتيجة لتحريات عميقة قامت بها اللجنة المركزية».

ثم يتابع:

«من الصعب إيقاف أناس يركضون بسرعة جنونية أو توجيه أناس يندفعون كالسهم نحو الهاوية إلى الطريق الصحيح...»(١٥).

مما يجدر بالذكر أن ستالين يفضل استخدام المصطلحات العسكرية عند الحديث عن المسائل الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية: «تحريات»، «جبهة»، «هجوم»، «انسحاب»، «إعادة تجميع القوى»، «تغلغل إلى خلف العدو»، وضع تحت الاحتياط»، «القضاء على (سحق) عدو»... وبالطبع، لم ينس ستالين «سحق الكولاك كطبقة». وفي الوقت ذاته يعترف ستالين بلغة أدبية مزوقة أن الجماهير «تندفع كالسهم نحو الهاوية». جاء إعلان ستالين في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ في مؤتمر المزارعين ـ الماركسيين تلخيصاً لفهمه لجوهر وأساليب الإصلاح الزراعي: كي تلحق قريتنا ذات المزارع الصغيرة مدينتنا الاشتراكية علينا «أن نغرس مزارع اشتراكية كبيرة في القرية تكون على شكل سوفخوزات وكولخوزات (الكولخوز: مزرعة تعاونية اشتراكية، سوفخوز: مزرعة حكومية ـ المترجم)...»(١٦). على أرض الواقع، كان ذلك الإعلان أمراً بالقضاء على شريحة اجتماعية بأكملها دون أدنى نقاش مسبق مع أعضاء اللجنة المركزية. وبالمناسبة، ستكتب مجلة «بلشفيك» بعد عشر سنوات تعليقاً حول كلمة ستالين «الزراعية»:

«قدم الحزب البلشفي بقيادة الرفيق ستالين مثالاً مدهشاً لحل المسألة الزراعية... أصبح تعميم الاقتصاد الزراعي الشامل وسحق الكولاك كطبقة رمزاً لانتصار برنامج ستالين لإصلاح الاقتصاد الزراعي وبنائه اشتراكياً. لقد عرض الرفيق ستالين ذلك البرنامج الكفاحي في كلمته أمام مؤتمر المزارعين ـ الماركسيين التي أصبحت وثيقة نظرية بالغة الأهمية...»(١٧).

أصدرت اللجنة المركزية، بإلحاح من ستالين، قراراً في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ «حول إجراءات سحق مزارع الكولاك في مناطق التعميم الشامل للاقتصاد الزراعي». أدى ذلك القرار إلى تصعيد التوتر في القرية، إذ أنه أغلق أبواب الكولخوزات أمام الكولاك الذين أصبح وضعهم مأساوياً يائساً. اتخذت اجراءات في منتهى القسوة تجاه الكولاك: مصادرة كاملة لجميع ممتلكاتهم وأبعاد عائلاتهم إلى مناطق نائية. ليس مدهشاً أن مقاومة الكولاك ازدادت حيث كانت تصل أحياناً إلى قطع الطرق والانتفاضات المسلحة.

ترافق «غرس» المزارع التعاونية الاشتراكية مع الترهيب والخوف والقمع والتنكيل والوعود. ألم يضع اكتوبر أسساً متينة لتحقيق خطة لينين الاقتصادية؟! ألم توزع الأراضي على الفلاحين؟! ألم يصبح الفلاح حليفاً للعامل يتمتع بنفس الحقوق؟! ألم ينته عهد استغلالهما؟! أليست السلطة السوفييتية سلطته هو، الفلاح، أيضاً؟! لجأ

ستالين إلى أساليب تروتسكي التي تدعو للعنف والضغط، بل وبالغ الأمين العام في تطبيقها. كانت الخسائر جسيمة. سرعان ما انهارت زراعة الحبوب، تلتها تربية المواشي. قل عدد المواشي في مناطق عديدة مرتين أو ثلاث مرات عام ١٩٣٣ بالمقارنة مع عام ١٩٢٨. وكي لا يفسحوا مجالاً لتمليح اللحوم سحب الملح جزئياً من الأسواق. قلت مساحة المراعي. مئات الألوف من العائلات اقتلعت من أرضها ورميت على حافة الطريق. والأهم من ذلك كله أن الفلاح انكسرت همته: أصبحت إنتاجية العمل في الكولخوزات أقل مما كانت عليه في المزارع الفردية الصغيرة...

لم يكن ستالين غافلاً عمّا يجري في القرية، فالتقارير تصله بشكل منتظم، يقرأها، يفهمها، يستوعب ما فيها من معلومات، أما العواطف فلا يراها ولا يشعر بها. أوتار عواطفه بعيدة في الأعماق لا يحركها شيء. وهو يؤمن أن ما يفعله هو الصحيح.

ذات مرّة، في إحدى تلك اللحظات النادرة، كاد ستالين يشكك في صحة موقفه. لكنه تذكر كلمات الثائر باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦ صاحب نظرية الفوضوية ـ المترجم) الذي يكن له الأمين العام إعجاباً داخلياً: «الإرادة على كل شيء قديرة ولا تعرف المستحيل». وستالين يعلم أن الصحفيين والكتّاب والشعراء كثيراً ما يرمزون بكنيته للصلابة والإرادة القوية والقبضة الحديدية. وفعلاً، ستالين يعتبر قوة الإرادة أهم من أية سمات عقلية أخرى في الإنسان. والهدف السامي يبرر جميع الوسائل. وهو متأكد تماماً أن الفلاحين، بكل بساطة، لا يفهمون ما يعرضه عليهم وما يعدهم به. الأمين العام لا يدرك أن البرنامج الذي يحاول فرضه ليس «كابوس خير» بالنسبة للفلاحين. وهو يعتبر كل من يقاومه ليس فقط مخبولاً، بل وأعمى سياسياً، لا يرى مزايا «الغرس» الإجباري في القرية. الأمين العام لا يهمه أن من سيداس تحت الأقدام، سوى رجل بسيط في رداء بسيط وحذاء خفيف يربطه «حبل سُرّي» بأرضه هو. كلا، بل الفلاح مجرد وسيلة للوصول إلى أهداف سامية. والهدف أهم من كل شيء.

خلال تلك الفترة، وخاصة منذ بداية عام ١٩٢٨ (رحلة ستالين إلى سيبيريا استمرت ثلاثة أسابيع، من ١٢/١٤ إلى ٢/٦)، شهد المكتب السياسي معركة صماء. في بادئ الأمر عارض بوخارين ومعه ريكوف وتومسكي منهج ستالين بحذر، ثم تحول الحذر إلى إلحاح وإصرار. ولم تكن تلك زمرة «يمينيين» كما سيطلق عليهم. بل كانوا مجموعة من القادة ذات آراء ووجهات نظر أكثر اعتدالاً وتريثاً فيما يخص المسألة الزراعية. كما أنهم لم ينفعلوا كما فعل ستالين أثناء ما سمي بـ «قضية شاختينسكي»، حيث وضع الأمين العام المسألة «على المكشوف» وقرر استبدال ومراقبة الخبراء الذين ورثتهم البلاد عن النظام القديم.

بدأ ستالين وبوخارين يتراشقان بالانتقادات دون ذكر أسماء. وفي ٢٨ أيار (مايو) ١٩٢٨ ألقى ستالين كلمة في معهد الاساتذية الحمراء، حيث كان قد اختير بوخارين عضواً في المجمع العلمي ليصبح أول قائد حزبي ينال هذا اللقب، وحيث

كان يتمتع بشعبية كبيرة. وهنا بالذات أراد ستالين هز موقف بوخارين والتشكيك فيه مصوراً إياه «نصير الكولاك» في المسألة الزراعية بشكل عام، ومشكلة الحبوب بشكل خاص. أثناء كلمته المطولة، والتي حضّر لها باهتمام كبير، وجه ستالين عدة انتقادات مموهة لبوخارين، لكن لم يبق أحد في القاعة ألا وفهم من المقصود فيها:

ـ هناك أشخاص يرون حل المشكلة في العودة إلى الوراء والاعتماد على مزارع الكولاك، في تطويرها ونشرها... هؤلاء الأشخاص يعتقدون أن السلطة السوفييتية يمكنها الارتكاز على طبقتين متناقضتين في الوقت، هما طبقة الكولاك وطبقة العمال...

ويتابع ستالين حديثه:

ـ يعتبر البعض أن حركة إنشاء الكولخوزات تتعارض وحركة إنشاء التعاونيات، معتقدين، على ما يبدو، أن الكولخوز شيء والتعاونية شيء آخر. من الواضح أنهم مخطئون. يتمادى البعض ليؤكد أن الكولخوزات تتعارض وخطة لينين لإنشاء التعاونيات. لا حاجة لنا هنا للتأكيد أن هذا الاعتقاد لا علاقة له بالحقيقة[١٨].

بوخارين، أكثر من أي شخص كان، يفهم لماذا يريد ستالين إنشاء الكولخوزات بأسرع وقت ممكن: المزارعون في الكولخوزات يفرطون بالحبوب أكثر من غيرهم (من الأسهل إجبار مزارعي الكولخوزات التخلي عن القمح)! ولم يخطىء ستالين في توقعاته. ففي عام ١٩٢٨ (بداية حركة تعميم الاقتصاد الزارعي) كان إنتاج الحبوب الإجمالي ٤,٥ مليار بود (البود ـ وحدة وزن زنتها ١٦,٣٨ كلغ) اشترت منها الدولة ٦٨٠ مليون بود، وفي عام ١٩٣٢ كان الإنتاج ٤,٣ مليار بود اشترت منها الدولة ١,٣ مليار بود! أي أن الإنتاج لم يتغير تقريباً لكن الدولة استطاعت مضاعفة نسبة الحبوب التي استلمتها من الفلاحين. لكن، ألم يكن الثمن باهظاً؟!

كسحت موجة من الجوع شمال القوقاز وأوكرانيا وضفاف الفولغا ومناطق أخرى لم يعرف عدد ضحاياها بعد. لكن من الواضح أن تلك الموجة راح ضحيتها عدد هائل من البشر، قد لا يكون أقل من عدد ضحايا عملية نزع الملكية من الكولاك. هذا هو ثمن ثورة الأمين العام الزراعية!

تلك المجاعة، لم يكن سببها الجفاف فقط، بل وكذلك الفوضى التي تعمّ الاقتصاد الزراعي أثناء حملة التعميم، وكذلك البيع الجبري للمحصول، وأخيراً وليس آخراً، الفوضى التي تعمّ اقتصاد البلاد بشكل عام: المدن يزداد عدد سكانها ٢ ـ ٢,٥ مليون نسمة سنوياً، تكثر الأفواه التي يجب إشباعها. نظراً لانخفاض أسعار المنتوجات الزراعية لم يستطع الفلاحون توفير الخبز للبلاد. فمنذ البداية اختفت المنفعة المادية وتلاشى نشاطهم. كما أن الدولة لم تتوقف عن تصدير (استيراد؟) القمح. ولاستيراد المكائن والأدوات اللازمة لحركة التصنيع تحتاج الدولة إلى عملة صعبة. وستالين يلح ويستعجل. وبالطبع تعليماته يجب أن تنفذ. في بعض المناطق، في أوكرانيا على سبيل المثال، أجبر الفلاحون على بيع محصول القمح بأكمله بالرغم من المجاعة التي تعيشها المنطقة. دفع الفلاحون ثمن التصنيع غالياً.

فالتصنيع لا يتألف من جهد الطبقة العاملة الشاق فقط، بل ومن تضحيات الفلاحين التي لا تحصى.

دفع الجوع الشعب لسرقة القمح، فصدر قانون ـ بمبادرة من ستالين ـ لحماية الملكية الاشتراكية، أضاف ستالين إلى نصه شخصياً أن «...كل من يعتدي على الملكية يجب أن ينظر إليه كعدو للشعب...»[١٩] سرقة ممتلكات الكولخوز عقابها الإعدام أو عشر سنوات في معسكرات الأشغال الشاقة. «قانون التعذيب»، كما أطلق عليه في القرية، قتل آلاف الجياع، وقبيل عام ١٩٣٣ تم الحكم على ما يزيد عن خمسين ألف شخص.

بناءً على تعليمات ستالين تكتمت الصحف عن المجاعة التي اجتاحت البلاد بالرغم من أن الجوع طرق أبواب ٢٥ ـ ٣٠ مليون شخص. كانت أوكرانيا ومنطقة نهر الفولغا هي الأسوأ حالاً. فالمحصول ليس جيداً والدولة لا تتنازل عن حقها في كمية الحبوب. والأكثر من ذلك، فالدولة تطالب الكولخوزات الفتية، التي لم تستقر بعد، بتسليم القمح بكميات أكبر من تلك المتفق عليها في الخطة. عدم التنفيذ يعني التخاذل والتخريب المقصود لسياسة الحزب في القرية.

كانت مقاومة الفلاحين سلبية في أغلب الأحيان ولها أشكال مختلفة. فبعضهم لا يتواجد في مكان عمله. والبعض الآخر لا ينفذ خطة الدولة. أما تعليق الصحف على تلك المخالفات، فمثير للضحك. كتبت إحدى الصحف أنها «تلقت معلومات من منطقة شمال القوقاز تفيد بأن نزعات الكولاك لوحظت في بعض الكولخوزات والسوفخوزات. ففي كولخوز خوتونسكي أمرت الإدارة بطحن كمية من القمح وتوزيعها على الفلاحين بالرغم من أن كمية المحصول تقل عن الخطة بألف سنتنار (وحدة وزن تساوي مئة كيلوغرام ـ المترجم)».

في شباط (فبراير) ١٩٣٣ ألقى ستالين كلمة أمام المؤتمر الأول لعاملي الكولخوزات الطليعيين لعموم روسيا، لم يتطرق فيها لمأساة المجاعة مكتفياً بذكر «المصاعب والحرمان» في القرية. لقد حدد الأمين العام مهمة الفلاحين وعاملي الكولخوز بشكل واضح: «المطلوب منكم هو شيء واحد فقط ـ أن تعملوا بإخلاص، وأن توزعوا إيراد الكولخوز لكل حسب عمله، وأن تحافظوا على ممتلكات الكولخوز، وأن تحافظوا على التراكتوزرات والآلات وتهتموا بالأحصنة، وأن تقوموا بمهام دولتكم، دولة العمال والفلاحين، وأن تعززوا قوة الكولخوز وتطردوا منه المتسللين من الكولاك وأنصارهم»[٢٠]. أما عن مساعدة الجياع، فلم ينبس ببنت شفة.

تعززت الاشتراكية في الريف عن طريق العنف. تلك هي أساليب ستالين. الدولة تقوى على حساب حرية الشعب. في الحقيقة إنها بحاجة ماسة للقمح كي تستورد المكائن، وتسد حاجات المدن التي تكبر يوماً بعد يوم، وتؤسس ميزانية تستطيع الاعتماد عليها. لكنها لم تكن بحاجة لاستخدام وسائل بهذه الدرجة من القسوة والوحشية! قضت وسائل «الأمر والنهي» على الوسائل الاقتصادية نهائياً. لم

يهلك الكولاك فقط، بل كذلك الفرد بشكل عام. أعلن ستالين في اجتماع اللجنة المركزية عام ١٩٣٤:

- «يجب علينا خلق وضع تكون فيه حياة الفرد، أي المزارع الفردي، أسوأ من حياة عامل الكولخوز، وتكون فرصه أقل... يجب علينا زيادة الضغط من خلال الضرائب...»[٢١].

لكن الضغط لم يزدْدْ على «الفرد» فقط، إنما شمل الكولخوز كذلك، إذ لم يعد هؤلاء أسياد أراضيهم وتحولوا إلى شريحة مجردة من كل الحقوق... فقد الفلاحون حقهم في تقرير مصيرهم وظهر فلاح جديد لا علاقة له بالأرض ولا بمحصولها. سوف يتحول الاضطراب والذهول إلى لا مبالاة (لكن ذلك سيأتي فيما بعد). وهذا ما كان يخشاه بوخارين.

لنعد إلى كلمة ستالين في معهد الأساتذية الحمراء حيث انتقد فيها بوخارين علانية لأول مرة مشوهاً صورته بنعته «نصير الكولاك».

ومن جهته، كان بوخارين ينتقد بشدة الأساليب الإدارية «الأمرية» في الاقتصاد دون تحديد أسماء. كان منظر المكتب السياسي الأول يكرر باستمرار: لا يمكن لعملية التصنيع أن تتم بنجاح ما دام الاقتصاد الزراعي متخلفاً، ولا يجوز الضغط والتسريع في عملية إنشاء الكولخوزات بأي شكل من الأشكال. في بداية عام ١٩٢٨ لم تكن نتيجة المعركة واضحة بعد. ستالين يؤيده مولوتوف وفوروشيلوف، وبوخارين يؤيده ريكوف وتومسكي. أما كويبيتشيف وكالينين وميكويان وورودزوتاك فكانوا يتمسكون بخط الوسط ويحاولون إيجاد حل وسط بين قائدي المكتب السياسي المتنافرين. كان مصير المعركة يعتمد على تلك «النواة المترددة»، أينتصر ستالين أم بوخارين؟ وكالعادة، كان ستالين الأقوى والأخبث في معارك ما وراء الكواليس. ورفضت اللجنة المركزية ولجنة المراقبة للحزب مراراً في اجتماعاتها في نيسان (ابريل) وتموز (يوليو) وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٢٨، رفضت منهج بوخارين لحل مشكلة القرية.

ستالين لم يحاول مجرد تسريع عملية الإصلاح فقط، بل هدم كل ما هو قديم. لا بد أنه كان يدرك أن المنهج الذي اتخذه لتعميم الاقتصاد الزراعي يتطابق جوهرياً ومبادىء «الشيوعية العسكرية» (سياسة اقتصادية مارستها الحكومة السوفييتية أثناء الحرب الأهلية ١٩١٨ - ١٩٢٠، اعتمدت على تعميم جميع وسائل الإنتاج الزراعية والصناعية، أجبر المزارعون أثناءها على تسليم محاصيلهم بأكملها للدولة - المترجم). غارَ نظام الضرائب الثابتة وقانون العرض والطلب وحل مكانهما مبدأ «الأتاوة الإجبارية». ولن ينتهي ذلك قريباً، سيظل الحال هكذا لعشرات السنين.

أما خطة بوخارين التي رفضها الحزب فتعتمد على الإصلاح الزراعي طويل المدى، حيث تثبت التعاونيات الزراعية الكبيرة جدارتها فتحل محل المزارع الفردية الصغيرة. نحن لا نتفق معه في كل النقاط، وخصوصاً في تحديده للمدة اللازمة لإنجاز الإصلاح الزراعي. فالتاريخ لا يضع في أيدي البلاد الوقت الكافي لترتيب

أمورها بهدوء. لكننا ندرك أن نضال بوخارين ضد الظلم الذي ارتكبته الدولة ضد الملايين من شعبها، كان ضرورياً من الناحية الأخلاقية والسياسية.

لكن ستالين رفض خطة بوخارين. ويا ليته لم يفعل! أكرر أنه كان من الممكن، بكل تأكيد، تجنب ذلك الإرهاب والتنكيل الذي تجاوز بمقاييسه ونتائجه ومأساويته أحداث عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨. والعنف بمختلف أنواعه جريمة بطبيعة الحال، لكننا نرى أهمية عملية «سحق الكولاك كطبقة» في أنها منحت ستالين الثقة في النفس وفتحت أمامه أبواب الديكتاتورية بجميع إمكانياتها، فلم يعد يتردد في سحق كل من يعترض أو اعترض يوماً ما طريقه.

ونحن نتفق وبوخارين على نقاط عديدة في خطته، وخاصة في مبدأ إنشاء التعاونيات الزراعية على أسس الطوعية مع إبقاء حق اختيار نوع الملكية للفلاحين.

وكلمة أخيرة: نتائج «ثورة» ستالين الزراعية لم تمت بعد بالرغم من مختلف أنواع الإصلاحات والقوانين الزراعية التي تلت عهده وكان هدفها إسقاط برامجه وخططه. وبينما كان الاقتصاد الزراعي يحتضر، كان ستالين يتفاخر في مختلف الاجتماعات بالانجازات التي حققها الاتحاد السوفييتي في مجال الزراعة. وكم من المناقشات والاجتماعات والمؤتمرات نُظمت لدراسة وتحسين أوضاع «الكولخوزات»! لكن الوضع استمر في الانهيار. اللجنة المركزية هي التي تقرر كل شيء. أصبح الفلاح مجرد أجير في مزرعة، ولم يعد أحد يذكر أن الكولخوز تعاونية والفلاح هو مالكها وهو الذي يقرر مصيره بنفسه. كان الفلاحون أول ضحية بشّع فيها «القيصر» ستالين، فقد تلقوا ضربة قاضية لم يستطيعوا النهوض من أثرها حتى الآن.

هكذا ماتت «السياسة الاقتصادية الجديدة». وهكذا مات الاعتدال (الخط المعتدل) في قيادة المكتب السياسي. وهكذا ماتت القيادة الجماعية للحزب. وهكذا ولد القائد الواحد: القيصر ستالين.

مات حماس الاشتراكية الذي خلقته الثورة. وإلى يومنا هذا يوجه أعداء الاشتراكية الضربات إلينا بتسليط الأضواء على اقتصادنا الزراعي. وهل يمكننا الرد؟ ألم يخلق ستالين جواً مثالياً لكل من يريد التشهير بالاشتراكية؟ يكتب روبرت كونكويست، على سبيل المثال، على غلاف كتابه (تحت عنوان) «محصول البأس»: «وجه ستالين في فترة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ ضربة مزدوجة سحق من خلالها الكولاك وأجرى عملية تعميم الاقتصاد الزراعي بالقوة»[٢٢].

أثناء الثورة الفرنسية العظمى، وعندما كان معظم قادتها لا يزالون ثملين من نشوة النصر، شعر سان جوست بقدوم الزلزال (شم رائحة العاصفة تقترب) وكانت كلماته: «الثورة تمسمرت في أرضها...» وكذلك الثورة الروسية، «تمسمرت» في الحقول والمزارع تحت «مطرقة» نظام الأوامر والإدارة الذي أسسه ستالين.

منذ نهاية عام ١٩٢٨ بدأت مرحلة جديدة في حياة ستالين. لم تعد المرحلة مرحلة سحق جميع منافسي ستالين فحسب، بل كذلك مرحلة ما اعتدنا تسميته

«عبادة الفرد». ومن جملة العمليات التي برزت في تلك المرحلة (كانت) عملية الخلاص من بوخارين.

قضية بوخارين

اعتقد أنه لا يمكن رسم صورة كاملة عن حياة ستالين السياسية دون تسليط الضوء على المحيطين به من الاتباع الخاضعين بشكل مطلق إلى المؤيدين والمعارضين. من أجل كشف أحد أوجه شخصية ستالين سأتحدث عن قضية بوخارين التي دارت أحداثها في العشرينات. نهاية هذا الرجل المأساوية ستأتي فيما بعد.

على مدى فترة طويلة كانت علاقة صداقة حميمة تربط بين ستالين وبوخارين. في عام ١٩٢٧ ـ وبإلحاح من جوزيف ستالين انتقل بوخارين للعيش في الكرملين. وبعد وفاة زوجة الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي بدّل بوخارين شقته بشقة ستالين. فسر ستالين كمحاولة من جانبه لنسيان اليوم المشؤوم الذي توفيت فيه زوجته ناديجدا سيرغييفنا.

نيكولا ايفانوفيتش بوخارين إنسان ذو طبع رقيق. وحافظ بكل إخلاص على صداقته وسلامة نواياه تجاه ستالين. وكان ستالين يتحدث معه دون تكلف مخاطباً إياه «نيكولاي»، بينما كان الأخير يناديه «كوبا». ما بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨ كان ستالين يولي الانتباه لآراء بوخارين. وكم مرة أعلن ستالين أن «لينين ثمَّن عالياً العقلية النظرية لدى بوخارين» وأن الحزب يعتز بهذه العبقرية الفطرية. بالنسبة لبوخارين فإن صداقته مع ستالين كانت روحية، بل مقدسة. لم يستطع التخلي عنها بتلك السهولة، على عكس ما فعله ستالين في نيسان (ابريل) ١٩٢٩ أثناء الاجتماع العام للجنة المركزية ولجنة المراقبة المركزية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفييتي.

بدأ ستالين خطابه في الاجتماع بتحديد علاقته مع بوخارين:

ـ أيها الرفاق! لا أريد أن أتطرق لمواضيع شخصية (مع العلم أنه تطرق لها! ـ الكاتب) مع أن هذه الأمور الشخصية لعبت دوراً فاعلاً لحد ما في كلمات الرفاق من مجموعة بوخارين. ولا أريد التحدث عن هذا لأنه من توافه الأمور التي لا يجب التوقف عندها. لقد تحدث بوخارين عن المراسلة الشخصية بيننا. فهو قرأ بعض الرسائل التي يمكن من خلالها الفهم أن بوخارين وأنا، وقد كنّا بالأمس القريب صديقين تربطنا علاقات شخصية، **أصبحنا الآن نختلف من حيث وجهات النظر السياسية** (إبراز الجملة من الكاتب)... اعتقد أن كل هذا التذمر والعويل لا يساوي فلساً واحداً. لسنا في حلقة عائلية أو جمعية تعاونية لأصدقاء تربطهم علاقات شخصية، بل في حزب سياسي للطبقة العاملة(٢٣).

حاول ستالين، من خلال إعادة صياغة كلمات ماركس بحق دانتون إقناع المكتب السياسي واللجنة المركزية بأن بوخارين الذي يحتل قمة الهرم القيادي كان

قائداً من الدرجة العاشرة. للوهلة الأولى يبدو كل شيء على ما يرام: القضايا العليا تعلو على أي مصالح وعلاقات شخصية. ولكن هذا كله منفر لدرجة لا تطاق، إنه يصل إلى القبح. التذكير بالصداقة لا يساوي فلساً واحداً. لسنا في «جمعية لاصدقاء حميمين». لا شك أن المثالي البسيط بوخارين قد تلقى درساً في المكيافلية. إذن، فصداقته مع ستالين وآراؤه ـ في نهاية المطاف ـ لا تعني أي شيء لستالين.

لكن، ألم يكن الوضع مختلفاً من قبل؟!

فقد حدثني بالاشوف، الذي كان يعمل في سكرتارية ستالين، أن الأمين العام عند تسلمه اللوائح التي تحتوي نتائج التصويت من قبل أعضاء المكتب السياسي يسأل على الفور:

ـ هل بوخارين «مع»؟

لقد كان رأي بوخارين ذا أهمية كبيرة لستالين، استعان به في تحديد وجهة نظره الشخصية تجاه موضوع معين.

أي رجل كان بوخارين؟ ولماذا الذين حافظوا من رفاق لينين على مناصبهم الحزبية لم ينسوا ذكرى بوخارين الخالدة المشوبة بطعم الحزن والأسى؟ ولماذا سماه لينين «حبيب الحزب»؟ وستالين قضى على هذه الشخصية الرائعة!

ولد بوخارين في موسكو عام ١٨٨٨ في عائلة مدرس، خدم حتى وصل لدرجة موظف من الدرجة السابعة. أن حياة بوخارين تؤكد مرة أخرى أن معظم قادة ثورة اكتوبر لم يخرجوا من صفوف الطبقة الكادحة. لهذا يوجد سبب موضوعي؛ القائد يجب أن يكون ملماً بمنجزات الأدب العالمي. والاستفادة منها وإغنائها عن طريق منهج يعتمد على الأبحاث العلمية في التطبيق الاجتماعي وهذا لم يكن يستطيع القيام به أحد إلاّ أبناء الطبقة الميسورة.

في عام ١٩٠٦ أصبح بوخارين عضوا في الحزب. عن فترة شباب هذا المنظّر بقيت عند صديقه إيليا إيرينبورغ ذكريات ممتعة. إن بوخارين، طالب القسم الاقتصادي بكلية الحقوق، كان يمارس الدعاية بين العمال والطلبة. لقد كان بالإمكان رؤيته بقامته القصيرة النحيلة ولحيته قليلة الشعر وشعره الأشقر المائل للاحمرار وجبهته الطويلة، ليس فقط في الاجتماعات الطلابيةْ في جامعة موسكو، بل وأثناء النشاطات التي كانت تجري في منطقة زاموسكفاريتسكايا في موسكو. بعد اعتقاله في عام ١٩١٠ تمكن من الفرار من أونيغي، مدينة صغيرة في شمال روسيا. بعد ذلك غادر إلى الخارج ولم يعد إلى روسيا إلا بعد الثورة. لقد عادت عليه حياته في الخارج لمدة ست سنوات بالفائدة. فهناك تعرف على لينين الذي كان يكن لبوخارين شعوراً طيباً وحباً كبيراً. ولكن هذا لم يمنعه من النقاش معه بقسوة. لقد كان هذا المنظر المبتدىء يقضي معظم وقته في المكتبات. وبسرعة تعلم الألمانية والفرنسية والانكليزية. هنا جهز مخطوطات لعملين كبيرين في المجال النظري هما «الاقتصاد السياسي لأصحاب الدخل الثابت» و«الاقتصاد العالمي والامبريالية». أثناء وصفه للدولة الواقعة تحت سيطرة الطاغية يستخدم بوخارين التشبيه الغني الذي أتى به

من جاك لندن. فقد تنبأ أن مثل هذا الطاغية سيدوس بـ «عَقِبِهِ الحديدية» على وجوه الناس. لقد كان هذا شكلاً مجرداً، بل وتحذيراً من الاستفراد بالسلطة والقوى العسكرية القمعية التي لا تعرف المحرمات.

في نيويورك تعرف بوخارين على تروتسكي. وبغض النظر عن الاختلافات في وجهات النظر السياسية والنظرية بين الرجلين، فإن علاقة شخصية قوية تكونت بينهما على مدار عشر سنوات. وفي نيويورك تلقى بوخارين خبر اندلاع ثورة شباط (فبراير). وكان الطريق إلى روسيا طويلاً. فقد اعتقل في اليابان، ثم وقع رهن الاعتقال في مدينة فلاديفوستوك في شرق روسيا. ولم يستطع الوصول إلى موسكو إلا في أيار (مايو) عام ١٩١٧. بعدها عمل كمحرر في صحيفة الـ «برافدا»، وظل في هذا المنصب حوالى اثني عشر عاماً. ولم ينقطع عن العمل إلا مرة واحدة ولفترة قصيرة. كونه محرراً لصحيفة الحزب الرئيسية، شارك بوخارين بشكل فعال في وضع سياسة الحزب والدعاية. لم يكن بوخارين متصنعاً أو ماكراً، ولم يكن يجيد «اللعبة الدبلوماسية». ففي عام ١٩١٨، في أسبوع الصراع من أجل توقيع معاهدة الصلح مع المانيا، كان بوخارين في الواقع قائداً للمعارضين لهذه الاتفاقية. فلمدة شهرين ترأس بوخارين مجموعات مختلفة لليساريين الذين هاجموا اتفاقية بريست ودعوا إلى الحرب الثورية ضد المانيا. لم تكن هذه المشاعر الشيوعية اليسارية المشتعلة عابرة. فأثناء الحرب الأهلية كان بوخارين من أصحاب أكثر التيارات اليسارية تشدداً. إن بوخارين كان واحداً من منظري «الشيوعية العسكرية».

في كتابه تحت عنوان «اقتصاد المرحلة الانتقالية» انشغل بالدفاع عن «الشيوعية العسكرية» من الوجهة النظرية والعملية. لقد سمى بوخارين عناصر الإجبار والقوانين المهيمنة على الاقتصاد بـ «نفقات الثورة». هذه النفقات، من حيث الجوهر، تعتبر قانوناً ثورياً. حسب رأي بوخارين، فإن الثورة البروليتارية في البداية تحطم النظام الاقتصادي، ولكن تعيد بناءه بقفزات سريعة. بغض النظر عما إذا كان بوخارين أراد أو لم يرد هذا، فهو يعد من آباء «الشيوعية العسكرية». وكان رأيه حول نظرية «الشيوعية العسكرية» واضحاً في كتابه ذي الشهرة الواسعة تحت عنوان «أبجدية الشيوعية» الذي ساعد في كتابته المنظر الشاب والموهوب بريوبروجينسكي. ومن الجدير بالذكر أن ستالين ثمّن بشكل عال هذه التعاليم الموجهة للشيوعيين. في هذه «الابجدية»، وكما في أي موسوعة، دونت أهم الأوضاع الخاصة بالثورة، والصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتاريا، ودور الطبقة العاملة، وبرنامج الشيوعيين وإلخ... لقد كان نجاح «الابجدية» منقطع النظير وأعيد طبعها عشرين مرة ووزعت خارج الاتحاد السوفييتي. بفضل هذا الكتاب، الذي نوقشت فيه مشاكل الحركة الثورية من وجهة نظر يسارية متطرفة، أصبح بوخارين مشهوراً في أوساط الحزب والدولة أسوة بتروتسكي وزينوفييف وكامينيف. في الغرب، وبعد هذا الكتاب، نظروا إلى بوخارين ولمدة طويلة كـ «عراف الماركسية التقليدية».

وقد كان لهذه النظرة ما يبررها. فعلى سبيل المثال، كتب بوخارين في مجموعة من مقالاته النظرية تحت عنوان «الهجوم»، والتي صدرت عام ١٩٢٤ يقول:

«إن التحول العالمي الهائل الذي سيحدث يحمل في طياته حروباً دفاعية وهجومية من جانب البروليتاريا المظفرة، دفاعية من أجل الصمود أمام الهجمات الامبريالية، وهجومية لدحر البرجوازية. إن الثورة العالمية ستنتشر من دولة لأخرى. ولن تتمكن من إيقافها «أية عصبة أمم» أو غيرها من التفاهات التي تتشدق بها عصابات الاشتراكيين الخونة...»(٢٤).

لقد طرح بوخارين نفسه في الثورة، والحرب الأهلية، كثوري راديكالي أو رومانطيقي مستعد للقيام بخطوات حاسمة إذا ما تطلب الأمر ذلك. فهل لنا أن نلومه على ذلك؟ لا اعتقد. فالمرحلة كانت مختلفة آنذاك. وكم من أفكار ظلت في الخيال قبل أن تصبح شيئاً لقيادة الناس ويعتبروه جزءاً من حياتهم. هنا يجب التوقف عند هذه النقطة، لأن الإملاء التاريخي للأحداث فرض قيادات حزبية وحكومية ضعيفة بدائية وجاهلة في المواضيع الاقتصادية (ستالين خير مثال على ذلك). وكان يكفي هذه القيادات أن تجيد سن القوانين والمراسم وأحياناً مجرد التوقيع ورفع شعارات جوفاء مثل «الاقتصاد يجب أن يكون مقتصداً» ووضع خطط وتأجيلها، والتحكم بمصير ملايين البشر.

وكانت «قائمة الخدمة» التي وضعها ستالين وجماعته تنص على التالي: «... إن قناعة القائد العقائدية بصحة هذه الخطة الاقتصادية أو تلك والرغبة الحقيقية في بعثها للحياة لا تكفي، فمن الضروري أن تكون هناك سعة اطلاع عند أعضاء جهاز الدولة. بالإضافة إلى شيء آخر سام: إذا لم تكن العبقرية فهي الموهبة. إن هذا ضروري...» ولو تصفحنا اليوم الأعمال الكثيرة لبوخارين، والتي كانت ممنوعة ومحرمة على المواطنين السوفييت طيلة خمسين عاماً، سنشعر كيف كان يسعى هذا الرجل إلى تكوين تقدمي جديد، وأنه كان إنساناً عالماً واثقاً من نفسه.

وإذا كان تروتسكي قد رأى في «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي طرحها لينين أولى معالم انحطاط البلشفية، فإن بوخارين، وعلى العكس، اجتلى الفرصة التاريخية لتوحيد الانجازات الجديدة التي جاءت بها الاشتراكية للمجتمع والاقتصاد مع المقدرات التي تكونت نتيجة المنظومة الاقتصادية القديمة المنبوذة والتي كانت تعتمد على الاستثمارات الخاصة... وهذا ما اعتبره أحد قادة الثورة تخلياً عن المبادىء الشيوعية. لكن قائداً آخر، وأكثر منه معرفة في المجال الاقتصادي والاجتماعي، أكد أن هذا يعتبر «دافعاً إضافياً في عملية النهوض الاجتماعي». في نيسان (ابريل) عام ١٩٢٥، وأثناء إلقائه خطاباً في اجتماع لنشطاء المنظمة الحزبية صرح بوخارين: «إن المسألة الآن تتلخص في أن نمو البرجوازية الصغيرة والمدخرات المأجورة عند الأشخاص سيؤدي إلى تقوية اقتصادنا... وكلما عملت مصانعنا بكامل طاقتها الإنتاجية، كلما كان الإنتاج أكبر. وهذا يعني أن المدينة ستقود القرية، والطبقة ستقود، بمرونة وبنفس الوقت بثبات، الفلاحين نحو الاشتراكية»(٢٥).

في أحد الأيام في بداية عام ١٩٢٥ دار حديث جاد بين ستالين وبوخارين حول الاقتصاد. جوهر هذا الحديث كان حول شكوك ستالين تجاه «السياسة

الاقتصادية الجيدة» ودفاع بوخارين عنها. وقد ذكر بوخارين في مذكراته هذا الحديث. ستالين كان طوال الوقت متمسكاً بفكرة أن وضع الرهان على هذه السياسة سيؤدي إلى «قتل العناصر الاشتراكية وإحياء الرأسمالية». إن الأمين العام لم يكن يفهم أساس عمل القوانين الاقتصادية، وكان يؤمن بفكرة «الهجوم البروليتاري» و «إرشادات الحزب» و «الخطة الموضوعة» و «تحجيم المستغلين الكبار» وإلخ... لكن كان هذا الحديث طويلاً. وعندما أحس بوخارين أن ستالين لم يفهم هذه السياسة وأنه ينظر إليها كتهديد لمنجزات الثورة، قرر أن ينشر في الصحف وجهة نظره حول هذه السياسة. وظهرت في الـ «بلشفيك» مقالة عميقة لم تفقد مضمونها الحيوي حتى يومنا هذا تحت عنوان «حول السياسة الاقتصادية الجديدة ومهماتنا»، أستخدمُ فيها مقتطفات من خطابه في اجتماع منظمة موسكو الحزبية:

«... إن مغزى السياسة الاقتصادية الجديدة ـ التي أسماها لينين في كتيبه عن الضريبة العينية سياسة اقتصادية صائبة ـ يتلخص في أن مجموعة كاملة من العوامل الاقتصادية، التي لم تستطع في السابق أن تتفاعل لأنها كانت معزولة عن بعضها البعض نتيجة لسياسة «الشيوعية العسكرية»، أصبحت تملك إمكانية تحقيق هذا التفاعل الذي سيؤدي بدوره إلى النمو الاقتصادي. إن «السياسة الاقتصادية الجديدة» تعني تخفيف الضغط وإعطاء حرية أكبر لدورة رأس المال لأن هذا أقل خطراً بالنسبة لبلادنا. كما تعني أيضاً تحجيم التأثير السلبي للإدارة والتنافس الاقتصادي بشكل أكبر، ونمو الاقتصاد بشكل أكبر. إن التنافس مع البائع لا يتم بإغلاق حانوته، بل السعي لصنع بضاعة أفضل من بضاعته وبيعها بسعر أرخص من سعره»(٢٦).

لم تكن هنالك أية خطوط تحت هذه السطور، مع أن ستالين علّم المقالة بملاحظاته الكثيرة. لقد كان من الصعب على الأمين العام أن يفهم كيف يمكن إعطاء الحرية للقطاع الخاص. ألن يؤدي ذلك إلى تحطيم الديكتاتورية؟ إن ضيق وبساطة تفكير ستالين دفعه في النهاية لاختيار نظام القيادة البيروقراطي في توجيه الاقتصاد الوطني مع الرفض في نفس الوقت للإمكانيات الهائلة التي كانت ستنتجها «السياسة الاقتصادية الجديدة». لقد أنصت ستالين لبوخارين وقرأ له عندما كان نادراً ما يعارضه. ولكن في قرارة نفسه كان ينمو إحساس بالسخط من «الاستسلام الاقتصادي» لهذا المنظر. لم يتوقف بوخارين ـ وحتى آخر أيامه ـ عن القول أن ما يعتقده مبني على أساس أعمال لينين، خصوصاً الأخيرة منها، والمقالات الخمس الأخيرة لـ «الوصية» التاريخية.

بعد وفاة لينين انتقل بوخارين من مرشح إلى عضو في المكتب السياسي. لقد عرفه الناس كمنظر جديد للماركسية ويمتلك روحاً انسانية مرهفة. وكان متصلاً بالجماهير. وفي هذه المسألة كان مختلفاً جذرياً عن ستالين. لقد .وقف بوخارين لمدة طويلة بعيداً عن صراع الجماعات والمعارضة، ولذلك أطلق عليه زينوفييف بعد محاولاته الفاشلة لضمه لفرقته في الصراع ضد ستالين بـ «ساعي السلام»، وكان هذا للتعبير عن احتقاره لحياد بوخارين. إن بوخارين الذي ظل حتى عام ١٩٢٨

يتعامل بوفاء مع الجميع، حاول أن يبقى فوق أي صراع بين الجماعات. فقد كان الأهم بالنسبة له تحديد اتجاهات جديدة في النمو الاجتماعي والاقتصادي للبلاد وإيجاد طرق لإعادة بنائها بشكل عميق. وهنا أضطر للوقوف ضد ما يسمى بـ «قانون بريوبرجينسكي» والمفروض على قيادة الحزب. جوهر هذا القانون هو: أن عملية التصنيع الهائلة في بلد مثل روسيا ممكنة فقط على قاعدة اعتصار الموارد من الفلاحين. لقد كان بوخارين مقتنعاً بأنه «لا يجب على المدينة أن تنهب القرية»، وأن التعاون السياسي والاقتصادي قادران على تسريع نمو الصناعة والزراعة. وبكلمات أخرى فإن هذا المنظر لـ «السياسة الاقتصادية الجديدة» وعى لعلاقة أكثر انسجاماً بين المدينة والقرية مع الميل إلى ضخ الموارد من الفلاحين. وبكلمات أخرى فإن بوخارين كان مدركاً أن الصناعة يجب أن تنمو بسرعة أكبر، ولكن عملية ضخ الموارد من الفلاحين يجب أن تكون إلى حد معقول. في إحدى مقالاته يقول بشكل واضح: «إن الرفاق مع ضخ الموارد بشكل فوق المعقول، ومع الضغط القوي على الفلاحين وهو من الناحية الاقتصادية غير عقلاني ولا يمكن القبول به من الناحية السياسية. إن وجهة نظرنا لا تعني أننا نرفض هذا الضخ، ولكننا نحسب الأمور بوعي. إن الأمور التي تحسب وتدرس هي التي تكون موفية بالغرض من الناحية الاقتصادية والسياسية»(٢٧). إن هذه الاستنتاجات لم تلق في البدء معارضة من قبل ستالين.

حتى حالة كتلك التي صاغها بوخارين عام ١٩٢٥ لم تخلق أي شكوك عند الأمين العام:

«قد يظهر بعض غريبي الأطوار ويقترحون القيام بقتل «البرجوازيين الفلاحين»، وقد يأتون بأدلة تبرهن أن ما يقومون به يتماشى مع الخط الطبقي ويمكن تحقيقه. ولكن هنا تكمن المصيبة: فهذا سيكون غباء شديداً، ولا يجب فعله على الإطلاق، ولن نحصل على شيء من وراء هذا مطلقاً، بينما سنخسر كثيراً جداً. نحن نفضل السماح للفلاح البرجوازي بالعمل في مزرعته، ولكن في المقابل نأخذ منه أكثر بكثير مما نأخذ من الفلاح متوسط الدخل»(٢٨).

لقد رأى بوخارين في عملية جمع الفلاحين على أساس تعاوني ـ وهذا يجب أخذه بالاعتبار ـ إمكانية تحديد تأثير الفلاح البرجوازي، ولكن ليس من الناحية الإدارية، بل الاقتصادية. من حيث الجوهر فإن هذا كان تجسيداً لمخطط لينين حول قيام التعاونيات الزراعية ولكن دون إكراه، أو مصادرة، أو ضغط، أو تهديد.

ولكن منذ عام ١٩٢٨ وما بعده تغيرت نظرة ستالين تجاه أفكار بوخارين التي اعتبرها ليس تراجعاً في اللينينية فحسب، بل ومخططات عدوانية تدميرية ذات نزعة يمينية، وارتداءً انتهازياً للعناصر المعادية للاشتراكية.

حاول بوخارين أن يبرهن بأنه في روسيا السوفييتية لم يعد يوجد قوى سياسية منظمة وكبيرة تشكل خطراً كبيراً للدولة الاشتراكية، وإن العنف تجاه الفلاحين سيؤدي إلى نتائج خطيرة. نبه بوخارين لذلك مسبقاً ولا نستطيع إلا أن

نوافق على ما قاله. فقد أثبت التاريخ صحة كلامه، ولكن بوخارين نسي شيئين: أولاً، أن القيام بإنشاء التعاونيات بشكل بطيء كان سيضع وجود الاشتراكية في وضع حرج لعشرات السنين. ثانياً، التصنيع كان يتطلب موارد ضخمة، وكان الريف هو المصدر الوحيد لهذه الموارد. إن الحل الأفضل كان في الوسط.

وفيما يتعلق بالجانب الإنساني لأفكار بوخارين فإنها تدعو لاحترام حاملها وروحانيته الأخلاقية العالية. والفهم الدقيق للجانب الخلاق في المبدأ اللينيني حول ديكتاتورية البروليتاريا.

في الأعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ كان ستالين وبوخارين من أكثر القياديين تأثيراً في الحزب. وساعد بوخارين ستالين بقوة في صراعه ضد تروتسكي وزينوفييف وكامينيف، مع أنه حاول أن يبقي علاقات مخلصة معهم. ونتيجة لإخراج تروتسكي وزينوفييف وكامينيف من المكتب السياسي ازداد دور بوخارين وستالين في حل المسائل الاستراتيجية الراهنة. وعندما هاجم المعارضون بوخارين كان ستالين يجيب بحدة:

ـ أتريدون دم بوخارين؟! لن نعطيكم دمه، فلتعلموا هذا.

إن ما يثير الانتباه هنا ليس فقط حقيقة حماية بوخارين، بل واستعمال الاستعارة «الدموية». في ذلك الوقت كان هذا يبدو مجرد حدث عرضي... وفي المكتب السياسي كان هذان العضوان البارزان يكملان بعضهما البعض. ستالين كان يحل جميع المسائل التنظيمية والسياسية، بينما كان بوخارين يقوم بتحضير ووضع المبادىء النظرية لسياسة الحزب.

ولن نضخم الأمور إذا قلنا إن ستالين وحتى ١٩٢٨ كان يعتمد بشكل كبير على بوخارين في حل المسائل الاقتصادية وحتى أنه كان يهتدي بأفكاره. وفي هذه الحقيقة أود أن أوضح إحدى صفات ستالين المعروفة وهي اقتباس مبادىء وتعاليم قادة آخرين ومن ثم نسبها لشخصه. إننا نعلم أن ستالين قد اقتبس عن تروتسكي العديد من شعاراته القيادية التوجيهية. وقد أغنى معرفته للمشاكل الزراعية نوعاً ما بالاستعانة بأفكار بوخارين. ولكن كيف يمكن تفسير ابتعاد ستالين عن بوخارين منذ عام ١٩٢٨؟ ولماذا اعتبر آراء بوخارين يمينية مع أنه إلى ذلك الحين كان يؤمن بها؟ ولماذا تحولت علاقة الصداقة الشخصية بينهما إلى نفور تام؟

اعتقد أنه يوجد لذلك عدة أسباب، الرئيسي منها يكمن في ازدياد شعبية بوخارين بين صفوف الشعب والحزب كمنظر وسياسي، بالاضافة لكونه قائداً من الطراز الأول. ولم تكن شخصية بوخارين أقل أهمية من شخصية ستالين نفسه. لقد أقلقت ستالين مقالة بوخارين عن لينين التي جاء فيها: «بعد غياب لينين لا يوجد لدينا شخصية بارزة وحيدة للقيادة. الآن يوجد لدينا قيادة جماعية. لا يوجد لدينا شخص يستطيع أن يقول أنه خالٍ من الذنوب ويستطيع بشكل مطلق أن يفسر التعاليم اللينينية. كل شخص منا يحاول ذلك لكن من يدعي أنه قام بذلك بشكل تام فإنه يعطي دوراً كبيراً جداً لشخصه». في هذه الكلمات أحس ستالين بتهجم عليه

شخصياً: فهو ـ وأثناء إلقاء محاضرات عن أسس اللينينية في جامعة سفيردلوفسك ـ تحدث بصفته مفسراً لجميع التعاليم اللينينية... أليس هذا واضحاً؟ ثم كيف أنه لا يوجد شخصية واحدة للقيادة؟ وماذا عن هيبة الأمين العام؟ لقد أقلق ستالين ظهور عدد من أتباع نهج بوخارين (أستروف، سليبكوف، ماريتسكي، تسيتلين، غولدنبيرغ، زايتسيف، بيتروفسكي وغيرهم) الذين بدأوا يعلنون أنفسهم في الصحافة ومعاهد الدراسات العليا والاطر الحزبية. على سبيل المثال، سليبكوف وأستروف أصبحا محررين لصحيفة «بلشفيك»، ماريتسكي وتسيتلين عملا في صحيفة الـ «برافدا»، غولدينبيرغ ـ في صحيفة «لينينغرادسكايا برافدا»، زايتسيف ـ في لجنة المراقبة المركزية وإلخ... لقد أزعج ستالين ازدياد تأثير بوخارين السياسي والنظري على عملية «الأدلجة» داخل الحزب والبلاد.

أما السبب الآخر فيكمن في شخصية ستالين الإدارية. إن عملية إنشاء الكولخوزات تعتبر ثورة حقيقية، إنها ثورة دموية من الأعلى بدأت بشكل أفضل مما توقع بوخارين. إن المعلومات والنشرات والتقارير من المناطق، بالإضافة لمعلومات الجهاز التابع لستالين كانت تقنعه بأنه من الممكن إعادة النظر بشكل جذري بالمخططات التمهيدية للمزارع التعاونية. والأهم من ذلك أن هذا التغيير برأي ستالين، وعد بحل مشكلة الحبوب بسرعة. لكن الأزمة تفاقمت أكثر. وكان ستالين يقول في دائرة المقربين إليه:

ـ إذا لم نقم بتغيير حاسم في القرية لن يكون هناك قمح.

وكان كل من مولوتوف وكاغانوفيتش يهز رأسه موافقاً بحماس. وبدأت عند ستالين شيئاً فشيئاً وبثبات تتبلور فكرة تقليص الفترة الزمنية المعطاة لعملية إعادة بناء الاقتصاد الزراعي بمقدار النصف أو أكثر. وعندما أدى هذا الضغط إلى ظهور مقاومة صامتة ولكن عريضة من جانب الفلاحين، وبالتحديد الكولاك، اضطر ستالين لاتخاذ قرار عبقري بمحو طبقة الكولاك وبطرق إدارية وسياسية بحتة.

النقاشات حول ذلك الموضوع اتخذت طابعاً ساخناً. لقد أيد مولوتوف وفوروشيلوف ستالين. أما بوخارين فأيده ريكوف وتومسكي وهما أيضاً كانا يؤيدان عملية إدارة الفلاحين الأغنياء والجماعية في العمل ولكن من غير قمع. لقد آمنوا في نهاية المطاف بجدوى وسائل الضغط الاقتصادي. وتردد كالينين ورودزوتاك وميكويان وكويبيشيف. من يعلم؟ لو كانوا ملمين أفضل بالوضع لوقفوا إلى جانب بوخارين ولكان تغير الكثير. فبوخارين لم يكن ضد التصنيع وإنشاء التعاونيات، ولكنه كان ضد استخدام العنف لحل تلك المهام التاريخية. إن هذا ليس بالشيء البسيط: لقد دار الحديث حول الإنسان، وفي نهاية الأمر، برأي بوخارين، أية عملية تغيير يجب أن تتم في صالح الإنسان والاشتراكية وليس العكس! أما أعضاء المكتب السياسي الآخرون، فلم يكونوا ممتلكين لحاسة الوعي الأخلاقي التي عند بوخارين والذي على أساسه كان يمكن اتخاذ قرار إيجابي. وكما قال قيصر روما أثر إحدى المعارك مع مدينة بومبي: «لانتصر العدو اليوم لو كان هنالك من يسمح

له بذلك»[٢٩]. حتى تروتسكي الذي كان ينظر إلى المعركة من داخل المكتب السياسي عن بعد قال لمعاونيه: «من الممكن أن اليمينيين سيتمكنون من اصطياد ستالين»، قاصداً بذلك أن منصب رئيس الحكومة وقيادة النقابات والمنظرين تحت إمرتهم. لقد كانت هناك فرصة رغم أنه على الأرجح كان السعي لتحقيق الأماني إلى واقع، إلا أن عدم الثبات في ميزان القوى لم يستمر طويلاً. وقد تراءى للكثيرين أن خط بوخارين السياسي سينتصر. لكن ستالين كان قادراً في ذلك الوقت على فرض راية والوصول إلى أهدافه.

ريكوف، الذي خلف لينين في منصب رئيس مجلس الشعب، وتومسكي، الذي خلفه في منصب مسؤول النقابات السوفييتية، لم يريا في ستالين القائد الحقيقي ولم يؤيدا بوخارين من منطلق شخصي ولكن لأسباب سياسية. باءت جميع محاولات ستالين بالتأثير عليهما بالفشل. اعتقد أن بياتاكوف كان محقاً عندما سماهما بـ «جماعة «السياسة الاقتصادية الجديدة» بقناعة». لكن المشكلة أن صراعهما مع ستالين كان يدور خلف الجدران، ضمن دائرة ضيقة جداً. كان وارداً أن يُنعت بوخارين بالتجنح، لكنه، ورغم قناعته العميقة بخطأ أسلوب ستالين، لم يستطع أن يستقطب حوله الجماهير. حاول أن يلجأ للحوار الهادئ مع ستالين، لكن الأخير ما كان ليقبل إلا بالاستسلام الكامل. تساءل بوخارين: «أفكر أحياناً، هل أملك الحق بالصمت؟ أليس ذلك نقصاً بالشجاعة؟»[٣٠]. كان يحترم ستالين، ثم صار يزدريه؛ لكنه حتى النهاية لم يفقد الأمل بعودة ستالين إلى رشده...

ساءت العلاقة بينهما بشكل حاد بعد أن نشرت الـ «برافدا» في ١٩٢٨/٩/٣٠ مقالة بوخارين «ملاحظات اقتصادية». أكد فيها بوخارين العنيد (لقد سماه لينين ذات مرة «شمعياً»، وقد حاول بوخارين مراراً أن يقنع ستالين بأن السلحفاة صلبة جداً لأنها رخوة جداً...) مرة أخرى ضرورة وإمكانية تطوير الصناعة والزراعة بدون أزمات. واعتبر كل الطرق الأخرى ـ لحل المشاكل الاقتصادية ـ «مغامرة». «يجب علينا أن نفعّل كل العوامل الاقتصادية ـ كتب بوخارين ـ وهذا يفترض توليفة معقدة جداً من المبادرات الشخصية والجماعية والجماهيرية والاجتماعية والحكومية. لقد ركزنا كل شيء في المركز **أكثر من اللازم**».

أدان المكتب السياسي موقف بوخارين ذلك؛ فشن ستالين هجومه الحاسم. لم يتوصل المكتب السياسي في كل نقاشاته لحل وسط. العديد من الاجتماعات لم تسجّل محاضرها؛ واكتفوا بتسجيل القرارات. اتضح أن ستالين ينتصر. بدأ ريكوف يتراجع. وتردد تومسكي. طالب ستالين أن «يمتنع بوخارين عن عرقلة عملية تأميم الاقتصاد الزراعي». في أحد النقاشات نعت بوخارين ستالين بـ «طاغية شرقي ضحل». لم يرد ستالين، لكنه قرر في نفسه: «لم أعد بحاجة له».

ازدادت العلاقة سوءاً. وهنا ارتكب بوخارين خطأ فادحاً. حضر في ١٩٢٨/٧/١١ لزيارة كامينيف في شقته محاولاً إقامة علاقة غير شرعية مع المعارضة السابقة التي كان قد ساعد بنفسه ستالين على سحقها. زار بوخارين

كامينيف مرتين بعد ذلك. على الأرجح لن نعرف أبداً عن ما تحدثا في تلك اللقاءات، فقد كانت انفرادية. أكد تروتسكي أن كامينيف كتب له برسائله أن بوخارين كان غاضباً ومحبطاً. كان يكرر باستمرار أن «الثورة تموت»، وأن «ستالين مغامر، ومن أسوأ المغامرين»، وأنه لم يعد يؤمن بإمكانية تغيير أي شيء في الوضع. وقد وزع مؤيدو تروتسكي محتويات ذلك الحديث ضمن منشور سري في ١٩٢٩/١/٢٠. لكن لا أحد يستطيع أن يؤكد صحة تلك المعطيات.

علم ستالين ـ بالطبع ـ بتلك الزيارات التي ستكون من أهم «الأدلة» ضد بوخارين في الاجتماع العام للجنة المركزية لعام ١٩٢٩. ثبتت على بوخارين تهمة «التجنح». وهنا حاول بوخارين أن يتجه للرأي العام. نشرت الـ «برافدا»، بذكرى وفاة لينين، في ١٩٢٩/١/٢٤، مقالة لبوخارين بعنوان «وصية لينين السياسية» تستند إلى خطاب بوخارين بتلك المناسبة. أكد بها على خطة لينين لبناء الاشتراكية، وضرورة الالتزام بـ «السياسة الاقتصادية الجديدة»، وأهمية الأسلوب الديمقراطي باتخاذ القرارات. واستشهد بلينين بأن «الطريق نحو التصنيع ورفع نوعية العمل وإنشاء التعاونيات الزراعية لا يجوز أن يكون على أساس العنف». وفي هذه «المعادلة» يكمن جوهر موقف بوخارين.

وأهم ما في المقالة هو عنوانها الذي يذكّر الشيوعيين القدماء بأن «وصية» لينين تفترض تنحية ستالين من منصب الأمين العام... كانت مقالته القشة التي قصمت ظهر البعير.

وعبّر بوخارين بمرارة ونظر ثاقب: «السياسة لا تنفي الضمير كما يعتقد البعض». وبوخارين لم يتخل عن ضميره حتى النهاية. يا لها من شجاعة! ويا له من استعداد للتضحية بالنفس والمستقبل! قلائل من كان عندهم مثل هذه الشجاعة في زمن بوخارين، وقلائل بعده أيضاً. الضمير هو مقياس الأخلاق والمواطنية عند الإنسان. سواءً كنت شاباً أو عجوزاً، جندياً أو جنرالاً، عاملاً أو مديراً ـ الجميع سواسية: الضمير لا يعرف الحدود ولا الرتب.

ونحن نتحدث عن بوخارين، علينا ألا ننسى أنه إنسان، وكغيره من الناس له أخطاؤه ونقاط ضعفه. فهو، كالآخرين، لم ينتبه لستالين إلا بعد فوات الأوان. اعتبر الأمين العام أن شعار بوخارين «صيروا أغنياء!» يعبر عن جوهر تفكير صاحبه الكولاكي. وأن طرحه «جذب» الكولاك إلى الاشتراكية هو طرح عدواني بحت. ويتذكر ستالين وهو يبحث في ذاكرته وأوراقه «خطيئة» أخرى لبوخارين: في أحد الاجتماعات العامة للجنة المركزية عام ١٩٢٤، وأثناء نقاش مشاكل الريف، اقترح بوخارين ـ مفاجئاً الجميع ـ «استعمار» الريف! طبعاً كان بوخارين يقصد إرسال ٣٠ ألف عامل من المدينة ليعملوا في الريف. أدرك الجميع في حينها ـ بمن فيهم ستالين طبعاً ـ أن خطيئة بوخارين في استعمال اصطلاح «استعمار» غير موفق، أما جوهر الاقتراح، فهو مساعدة الريف بخبرات عمال المدينة. لكن ستالين كان يجيد اصطياد التفاهات وتحويلها إلى «قضايا سياسية».

كانت الضربة القاصمة لـ «الانحراف البوخاريني» في الاجتماعين العامين للجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية في نيسان (ابريل) وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩. وجه ستالين ضربته الحاسمة لبوخارين كمنظِّر: «أنه كمنظِّر ليس ماركسياً تماماً؛ المنظر يحتاج لدروس...»[٣٢]. وانتقى ستالين من أقوال لينين عبارته بأنه في بوخارين «... يوجد شيء من السكولاستية». وأشار ستالين أنه ليس من المستغرب أن «المنظر السكولاستي» يأخذ «دروساً من تروتسكي... وحاول في الماضي أن يشكل تكتلاً تروتسكياً ضد اللينينيين!»[٣٢]. وكان ستالين بذلك يلمح للقاءات بوخارين بكامينيف.

كان خطاب ستالين مليئاً بمثل هذه التهجمات والاتهامات التي شملت أيضاً كلاً من ريكوف وتومسكي. كانت حصيلة تلك الاجتماعات تنحية بوخارين وريكوف من منصبيهما مع احتفاظهما بعضويتهما في المكتب السياسي. وُزع قرار اللجنة المركزية ذاك على المنظمات الحزبية المحلية، وتحدثت عنهما وسائل الأعلام؛ وبدأ اضطهاد «اليمينيين» في جميع أنحاء البلاد.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩، اعتمد الحزب تأميم الاقتصاد الزراعي في فترة قصيرة. كتب ستالين: «يأتي الفلاحون إلى الكولخوزات، ليس ضمن مجموعات صغيرة كما كان في السابق، بل كقرى ومناطق ومقاطعات كاملة»[٣٣]. كان بوخارين ما زال يرفض أن «يندم»، فطرد من المكتب السياسي في ١٩٢٩/١١/١٧. وبعد أسبوع أعلن بوخارين وريكوف وتومسكي ندمهم في رسالة قصيرة للجنة المركزية: «نعتبر أنه من واجبنا أن نعترف أنه في هذا الموضوع كان الحزب ولجنته المركزية على حق. اتضح لنا أن آراءنا خاطئة. معترفين باخطائنا، سوف نناضل بحزم ضد كل الانحرافات عن الخط العام للحزب، وخاصة ضد الانحراف اليميني». تضايق ستالين من رسالتهم لأنهم لم يشيروا إلى أنه هو على حق. لكن لا يهم. بوخارين انتهى!

قلائل في ذلك الوقت من رأى في هزيمة بوخارين هزيمة الخط المعتدل في الحزب، وهزيمة «السياسة الاقتصادية الجديدة». أما أعداء الحزب، فكانت رؤياهم أعمق. نشرت «الأخبار الاشتراكية» في عددها الثامن عام ١٩٣١ (وهي النشرة التي أسسها مارتوف في الخارج) مقالة تحلل نتائج «السياسة الاقتصادية الجديدة». جاء فيها أن ستالين يفعل المستحيل كي «يقتل حلم عودة السياسة الاقتصادية الجديدة، وحلم التطور». الأمين العام ـ كما جاء في المقالة» ـ حاول مراراً أن يتخلص من الشيوعيين اليمينيين. ولاسباب داخلية مختلفة لم يقض نهائياً ـ حتى الآن ـ على ريكوف وتومسكي وبوخارين. لم تنته بعد عملية إزاحتهم كلياً من الجهاز ومن الحزب. مؤيدو «السياسة الاقتصادية الجديدة» الذين يتعاطفون مع مطالب الفلاحين (رغم أنهم غير قادرين نفسياً على دحر الديكتاتورية) نُحوا من مناصبهم لكنهم لم يعلَنوا أعداءً للشعب بعد. وهذا لن يدوم طويلاً»[٣٤].

أثناء محاكمة زينوفييف وكامينيف والـ ١٤ الآخرين، ستحول قضية بوخارين إلى المحكمة (فقد «أشار» المتهمون أثناء التحقيق إلى بوخارين وريكوف). سيكتشف

بوخارين، بعد عودته من آسيا الوسطى ـ حيث كان يقضي إجازته ـ أن فيشينسكي بدأ التحقيق في قضيته. استُفزَّ «محبوب الحزب» السابق وجلس فوراً ليكتب رسالة لستالين. لم أستطع أن أجد تلك الرسالة، لكنني وجدت رسالتيه المماثلتين لـ فوروشيلوف، وهما تساعدان على فهم «دراما» بوخارين التي تتحول إلى مأساة.

«عزيزي بيفريموفيتش [فوروشيلوف]:

أنت على الأغلب استلمت رسالتي لأعضاء المكتب السياسي وفيشينسكي. لقد كتبتها الليلة وبعثتها لأمانة سر الرفيق ستالين طالباً إرسالها إلى الجهات المعنية. دحضت بها اتهامات كامينيف الوحشية القذرة. (اكتب لك وأنا في ذهول: هل ما يجري واقع أم خيال؟ هل هو علم أو سراب أو مستشفى مجانين أو هلوسة؟ كلا، إنه الواقع). أريد أن أسألك: هل تصدقون جميعاً كل هذا؟ هل تصدقونه بحق؟... إنني اعتقد ـ بما أنني لم أُجنّ بعد ـ أنه من الحماقة، من حيث سمعتنا في الخارج، أن نوسع مساحة الأعداء (وهذا يعني أن ننفذ رغبات ذلك السافل كامينيف؛ فهذا ما يريده ـ ألا يكون وحيداً). لكنني لن أتحدث عن ذلك كي لا تظنوا أنني أطالب بالرحمة تحت مبرر سمعتنا في الخارج.

أنا أريد الحقيقة، إنها إلى جانبي. لقد أخطأت كثيراً في حياتي بحق الحزب، وعانيت كثيراً لهذا السبب. لكنني أعلن مرة أخرى أنني دافعت في السنوات الأخيرة بقناعة تامة عن سياسة الحزب وقيادة كوبا (أحد القاب ستالين ـ المترجم)، وإن لم أتملق له. قد يكون ما أكتبه لك سخيفاً، ولكن لا تغضب. قد تكون رسالتي لك في وقت لا تريد أن تستلم مني رسالة ـ الله يعلم. كل شيء ممكن. لكنني أؤكد لك «على كل حال»: **ضميرك يجب أن يكون مرتاحاً تماماً.** لقد كنت دائماً طيباً معي وأنا لم أخن ثقتك بي: أنا فعلاً غير مذنب، عاجلاً أم آجلاً سيتضح ذلك، مهما حاولوا أن يوسخوا سمعتي... أنصحك بقراءة رواية رولان عن الثورة الفرنسية.

أعذرني لهذه الرسالة غير المنظمة. في رأسي آلاف الأفكار تجمح كالأحصنة المجنونة، وليس لدي كوابح قوية.

احتضنك (فأنا نظيف).

١٩٣٦/١١/١
نيكولاي بوخارين».

بعد قراءة الرسالة، قرر فوروشيلوف الرد عليها وإرسالها والرد لستالين وللقادة الآخرين ليبرِّىء نفسه من أي اتهام مستقبلي. وكان لرد فوروشيلوف روحية تلك الأيام:

«الرفيق بوخارين.

أعيد لك رسالتك التي سمحت لنفسك بها بالتهجم الخسيس على قيادة الحزب. إن كنت تريد من خلالها إقناعي ببراءتك الكاملة، فقد أقنعتني بشيء واحد: أن ابتعد

عنك قدر الإمكان مهما كانت نتيجة التحقيق في قضيتك. وإن لم تتخل كتابياً عن نعوتك الحقيرة تجاه قيادة الحزب، سأعتبرك نذلاً أيضاً.

١٩٣٦/١١/٣
ك.فوروشيلوف».

يمكننا أن نتصور ذهول وخيبة أمل بوخارين، ولكنه كان يدرك ـ في الأعماق ـ أن المقصلة الستالينية تحوم حول عنقه منذ فترة طويلة. ربما تذكر كلمات روبسبيير قبيل نهايته: «يصل الإنسان إلى الطغيان بمساعدة المحتالين. إلى أين يصل من يناضل ضدهم؟ إلى القبر والخلود!» هل ناضل بوخارين؟ دعونا نحكم معاً: وجد بوخارين في نفسه قوة تكفيه ليرد على «مفوض الشعب الستاليني».

«الرفيق فوروشيلوف.
استلمت رسالتك الرهيبة.
رسالتي انتهت بـ «أحتضنك».
رسالتك انتهت بـ «نذل».
ماذا أكتب بعد ذلك؟

كل إنسان عنده، أو بالأصح يجب أن يكون عنده، كبرياؤه الخاص. لكنني أريد أن أصحح سوء الفهم السياسي. رسالتي لك كانت ذات طابع **شخصي** (وأنا الآن نادم على ذلك) وفي ظروف نفسية صعبة. لقد كتبت ببساطة لشخصية هامة؛ فقد كدت أجن من مجرد تصور أن أحداً قد يصدق أنني مذنب.

كتبت في رسالتي السابقة: «إذا كنتم متأكدين أنني غير مخلص ولا تعتقلونني تكونون جبناء...» أتعتقد حقاً أنني قصدت نعت القيادة بالجبن؟ أبداً! إنما قصدت أنني متأكد أن القيادة ليست جبانة ولذلك لا يمكن أن يصدقوا أنني غير مخلص. ألا يتضح ذلك برسالتي؟!

وإن كانت رسالتي مشوشة إلى درجة أنها فهمت كتهجم، فأنا ـ ليس خوفاً، بل قناعة ـ اسحب كلماتي ثلاث مرات خطياً. مع تأكدي أنني لم أقصد الإهانة أبداً.

إنني اعتبر قيادة الحزب رائعة. لقد كتبت لك في الرسالة أنه «يحصل في التاريخ أحياناً أن يرتكب أناس رائعون وساسة ممتازون هفوات شخصية»... ألم أكتب لك ذلك؟ وهذا هو موقفي الحقيقي من القيادة. لقد قلت ذلك منذ زمن طويل ولن أتوقف عن تكراره. اعتبر أنه من حقي أن اعتقد أنني أثبت ذلك من خلال نشاطي في السنوات الأخيرة.

على كل حال، أطلب أن تصححوا سوء الفهم ذاك. اعتذر كثيراً عن الرسالة السابقة، ولن أتعبكم بعد الآن برسائل أخرى. أنا في حالة توتر عصبي. وهذا ما

دفعني لكتابة الرسالة. ربما على انتظار نتيجة التحقيق بهدوء، فأنا متأكد من أنه سيثبت براءتي. فهذه هي الحقيقة. وداعاً.

١٩٣٦/٩/٣

بوخارين»(٣٥)

قال بوخارين «الوداع». لكن ستالين خفف قبضته من جديد. في ١٩٣٦/٩/١٠ نشرت الـ «برافدا» أن النيابة العامة للاتحاد السوفييتي تغلق القضية لعدم وجود دلائل. لكن ذلك كان «استراحة المحارب» فقط. قرر ستالين أن يقضي على بياتاكوف أولاً. وفي شباط (فبراير) سيأتي دور بوخارين... سيضع الاجتماع العام للجنة المركزية في شباط (فبراير) ـ آذار (مارس) ١٩٣٧ الأسس النظرية لبداية حملة التنكيل...

ترك ستالين مكاناً خاصاً لبوخارين على منصة المنكّل بهم. شعر «القائد» أنه يستطيع اتخاذ القرارات السياسية الهامة دون مساعدة أحد. هل كان يعرف أنه بذلك يناقض مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا حول دور القادة في الثورات؟

حول الديكتاتورية والديمقراطية

في مكتبة ستالين توجد الأعمال الكاملة للينين. نجد فيها ملاحظات صاحب المكتبة الكثيرة، خاصة في المواضيع المتعلقة بديكتاتورية البروليتاريا (وليس في مواضيع الديمقراطية). ولكن الديكتاتورية والديمقراطية هما وجهان لعملة واحدة ـ إن كنا نتحدث عن ديكتاتورية البروليتاريا.

وضع لينين عام ١٩١٧، وهو في الخارج، ملاحظات عديدة في دفتره (الذي سيُعرف فيما بعد بـ «الدفتر الأزرق») تحت بند «الماركسية والدولة». على أساس تلك الملاحظات سيكتب لينين، خلال بضعة أسابيع، عمله الشهير «الدولة والثورة». لقد قرأت ذلك العمل عدة مرات، وأعرت اهتماماً كبيراً لما كتبه حول الفترة الانتقالية وديكتاتورية البروليتاريا. واستشهد لينين في هذا المجال بـ «البيان الشيوعي».

الديكتاتورية والديمقراطية مفهومان نسبيان؛ ففي كل دولة تكون حكومتها عبارة عن ديكتاتورية الطبقة السائدة. كتب لينين أن ديكتاتورية البروليتاريا «توحد العنف ضد البرجوازية، أي ضد أقلية الشعب، وتطور بشكل كامل الديمقراطية، أي مشاركة كل الجماهير بشكل فعال ومتساو في كل **الأمور الحكومية**...» لم يعر الأمين العام أي اهتمام لموقف لينين من الديمقراطية.

في ديكتاتورية البروليتاريا التي تولدت في اكتوبر ١٩١٧ كان المكان الأساسي للعنف. وكان ذلك مفهوماً: هناك صراع على السلطة. كان لينين يعتبر أن الديمقراطية هي الوظيفة الأهم لديكتاتورية البروليتاريا، وإن لم يسعفه الوقت لتثبيت ذلك عملياً. لكن ستالين لم ير في ديكتاتورية البروليتاريا إلا وجهها العنفي.

شعر الناس في بداية العقد الثالث أنه قد تحققت كلمات لينين: «ليس لنا ينتمي

الجهاز، بل نحن له»[٣٦]. تولدت ديكتاتورية **البيروقراطية**. البيروقراطية الجماعية. والبيروقراطية بدورها خلقت تدريجياً نخبة، هيراركية كاملة. كل شيء يقرر في المكاتب. الاجتماعات والجلسات والمؤتمرات «تؤيد» و«تتبنى» فقط. يشهد أرشيف ستالين أن الديمقراطية ـ بالنسبة له ـ هي مجرد **حرية التأييد** (التأييد فقط!) لقرارات الحزب. وبما أن الأمين العام هو ـ حسب رأيه ـ مجسد الحزب، فالديمقراطية الحقيقية تتلخص بالموافقة والتأييد لاستنتاجاته وقراراته ونواياه هو.

توجد، بالطبع، مجالات لم يخطىء فيها ستالين (حول إمكانية بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي). لكنه في نهاية المطاف استطاع أن يطرح كل أخطائه (حول المسألة القومية، ومفهوم الصراع الطبقي، وأساليب تأميم الاقتصاد الزراعي، والمبالغة في دور الجهاز) وكأنها تفسير صحيح للينينية. ونلحظ ذلك في كل نقاشاته وطروحاته. وكان يعتبر كل من فسر اللينينية ـ غيره ـ مشعوذاً. علينا ألا ننسى أن اللينينية ساعدته في بناء دولة توتاليتارية.

في الاجتماع العام للجنة المركزية واللجنة المركزية للرقابة في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ كرس ستالين جزءاً خاصاً في تقريره لمهام ونتائج الصراع مع «بقايا الطبقات المعادية». رغم أنها كانت مجرد «بقايا»، فقد اقترح ستالين أن يكون الصراع معها «غير مهادن أو متسامح». ولم يشر، ولو بكلمة واحدة، إلى اجتذابهم وإعادة تربيتهم. فقد ركز ستالين على انتشار تلك «البقايا» في جميع مجالات الحياة في بلدنا؛ وقد اندس بعضهم في صفوف الحزب»... وما هو شعورهم تجاهنا؟ ـ تابع ستالين ـ طبعاً يشعرون بالكراهية تجاه السلطة السوفييتية، والعداء للأشكال الجدية في الاقتصاد والثقافة... وهم يخربون كل ما يستطيعون بهدوء ودهاء. يحرقون المخازن ويحطمون المكائن. ويخربون الكولخوزات والسوفخوزات، وحيث يوجد مختصون وصلت بهم إلى حد حقن المواشي بالطاعون...»[٣٧].

أثار هذا الخطاب الرعب في صدور الناس تحت شعار انتشار المخربين والأعداء في كل المجالات. وصدقوا استنتاج ستالين: «يلزمنا الآن ديكتاتورية بروليتارية قوية وصلبة كي نسحق آخر بقايا الطبقات المحتضرة ونحطم خططهم اللصوصية»[٣٨]. وكانت خطاباته المشابهة كثيرة. هكذا أعد الناس تدريجياً لمرحلة الإرهاب.

لهذا، ليس من الصعب علينا أن نفهم: لماذا شدد ستالين على كلمات لينين في مجلس بتروغراد في ١٩١٧/١١/١٧. «...الإرهاب، الذي لجأ إليه الثوار الفرنسيون الذين بعثوا بأناس غير مسلحين إلى المقصلة، لا نلجأ إليه نحن، وآمل أننا لن نلجأ إليه أبداً»[٣٩]. ستالين لم يكن مستعداً لفهم ديكتاتورية البروليتاريا بهذه الطريقة. على العكس يعتبر العنف عاملاً أساسياً في بناء الاشتراكية. «التنكيل ـ أعلن ستالين أمام المؤتمر السادس عشر في صيف ١٩٣٩ ـ هو عامل ضروري من عوامل الهجوم»[٤٠].

الدولة كانت في حالة هجوم فعلي، فقد كانت تتحول من دولة زراعية إلى

دولة صناعية. وكانت حملة محو الأمية سريعة وفي أوجها. وتعممت الثقافة. وفي نفس الوقت كانوا «يسحقون الكولاك كطبقة».

كان لا بد من أن يؤدي تجاهل الديمقراطية إلى تحويل الناس إلى منفذين عميان، «براغي» آلة الدولة الضخمة. ربما لم يكن هناك من يذكّر الأمين العام بأن «الاشتراكية غير ممكنة ـ كما علّم لينين ـ بدون ديمقراطية بفهميها: ١) لا يجوز للبروليتاريا أن تقوم بثورة اشتراكية إن لم تستعد لها من خلال النضال من أجل الديمقراطية. ٢) لا يجوز للاشتراكية المنتصرة أن تحافظ عنوة على انتصارها...»(٤١). لينين، في اليوم التالي مباشرة بعد اكتوبر، لفظ كلمات كانت حيوية آنذاك ـ في ١٩١٧، ولم تقل حيويتها في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات، ولا تزال هامة جداً حتى يومنا هذا: «يجب علينا أن نمنح الجماهير الحرية التامة في الابداع»(٤٢). لكن في الحقيقة، لينين نفسه لم يحاول أبداً أن ينفذ هذا الشعار بشكل كامل.

ستالين فكر كثيراً في الديمقراطية والديكتاتورية. لم يساوره شك أبداً (ألم يكتب عن ذلك المنظرون؟!) بأن الديكتاتورية لها الأولوية على الديمقراطية. يفكر وينظر من خلف ستائر نافذة مكتبه في الكرملين: «على الفلاحين أن يروا في كل عامل قائداً لهم!». تذكر اقتراحه في العام المنصرم، ١٩٣٠: «وقف ترفيع العاملين في كل أجهزة الإدارة لفترة العامين القادمين (ما عدا عمال الإنتاج والنقابات)». لكنه شعر بعد ستة أشهر بردة الفعل خارج الاتحاد السوفييتي. فقد كتب أحدهم (شبارتس)، أحد المناشفة، في «أخبار الاشتراكية» مقالة بعنوان «الطبقة العاملة والديكتاتورية». جاء في تلك المقالة أنه بفضل ستالين برزت «ظاهرة إزاحة العمال من جهاز الإدارة وتحويلهم إلى عمال مستعبدين، تُستخدم طاقاتهم إلى أقصى الحدود، وتُستغل ديكتاتوريتهم الاجتماعية»(٤٣). حافرو قبر الثورة! أنهم يبتدعون المصطلحات. لو لم يقض عليهم في ذلك الزمن البعيد، لما كان هو الآن في الكرملين، ولكانت البلاد مليئة بابناء شباط (فبراير) البرجوازيين.

ما كان ليفهم لماذا يهاجم الاشتراكيون الديمقراطيون وتروتسكي الجهاز الحزبي والديكتاتورية بهذه الحدة؟! أليس واضحاً أنه أداة السلطة الأساسية؟ الأمين العام يقتنع أكثر فأكثر: الجهاز ـ هو أداة الديكتاتورية. وبدون الديكتاتورية لا مكان للحديث عن الاشتراكية، الديمقراطية... لكننا نعلم اليوم أن ستالين لم يعزز ديكتاتورية البروليتاريا بقدر ما عزز ديكتاتورية **البيروقراطية**.

ستالين يعتبر أن «الخاص لا شيء أمام العام». وهذا ما أقنع الناس تدريجياً بأننا جميعاً أصحاب الملكية العامة؛ وما يمتلكه الجميع لا يمتلكه أحد. ضاع الإحساس بالملكية. وكانت تكافأ الاختراعات بآلاف الروبلات مع أنها تدر أرباحاً بالملايين، وذلك لأنهم يعتبرون الآلاف كثيرة جداً بالنسبة للشخص الواحد. وهكذا تكوّن عامل جديد ينظر بهدوء وبلا انفعال للمخالفات والانحرافات وحتى للسرقات؛ فمنطقه في الحياة: «هل ستفقر الدولة من مثل تلك السرقات؟!». و «الديمقراطية» الستالينية أبقت العمال والشعب في هذه الحالة. تحركهم، بشكل أساسي، عنوة،

بالأساليب الإدارية البيروقراطية، بالخوف، وببقية أساليب ذلك النظام الذي خلقه «المتفرد».

ستالين لم يتحدث ضد الديمقراطية. لم يفعل لأنه يفهمها على طريقته، طريقة الطغاة. الديمقراطية كتعبير عن حكم الشعب الاشتراكي ـ بالنسبة له ـ تُحتمل فقط بقدر ما تعزز ديكتاتوريته. في حديثه مع ويلز، وضع ستالين السلطة في المركز «كفاعل للاصلاحات»، فاعل القانونية الجديدة، النظام الجديد. ولم يتفوه بكلمة واحدة عن حكم الشعب. ولا بكلمة!

مع الوقت أصبحت «التضحية»، بالنسبة لستالين، من أهم خاصيات الاشتراكية. مع نهاية العشرينات لم يكن هناك أي نقص في القوى العاملة الرخيصة والتي لا حقوق لها والتي (مصيرها محتوم). أيد ستالين جميع المبادرات لاستخدام المعتقلين في العمل. سأستبق الأحداث لأشير إلى أن بيريا، في رسائله لستالين، أكد مراراً أن مشاريع البناء التابعة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية كثيرة لدرجة أنه ينقصها «أيدي عاملة»(٤٤). فهم ستالين إشارة بيريا!!

في ١٩٣٨/٨/٢٥ ناقشت هيئة رئاسة السوفييت الأعلى مسألة إطلاق سراح المعتقلين قبل الأوان مكافأة على عملهم النشط. اعترض ستالين:

ـ ألا يمكننا أن نبقيهم في المعتقلات؟ فإن أطلقنا سراحهم سيعودون إلى بيوتهم ويعاودون نشاطهم المعادي. في المعتقل الجو مختلف؛ هناك يصعب الفساد(٤٥)...

تعليمات «القائد» واضحة. اتُخذ قرار «حول معتقلات مفوضية الشعب للشؤون الداخلية»، يفيد بأن «المعتقل في معتقلات مفوضية الشعب لشؤون الداخلية يجب أن يقضي كامل المدة التي حكم بها». ها هي الديمقراطية الستالينية!

انتشرت الدوغمائية في العلوم الاجتماعية، في الايديولوجيا، في الدعاية. وأصبح «القائد»، نظراً لغياب حكم الشعب، مسيحاً اسطورياً. ويجدر هنا ذكر موقف ستالين من تمجيد شخصه. سأورد هنا مقتطفات من حديثه مع إميل لوفيك في ١٩٣١/١٢/١٣:

لودفيك. في الخارج يعرف الجميع أن الاتحاد السوفييتي بلد يجب أن يقرر به كل شيء جماعياً، ومن ناحية أخرى يعرفون أن كل شيء يقرر انفرادياً. من هو الذي يقرر؟

ستالين. القرارات الانفرادية دائماً، تكون قرارات أحادية النظرة. في كل مجموعة، يوجد أناس يجب أخذ رأيهم بعين الاعتبار... ولا يتحمل عمالنا ـ تحت أية ظروف ـ أن تكون السلطة في يد شخص واحد.

وهنا سأل لودفيك ستالين حول موقفه من أساليب اليسوعيين (مدبري المكائد ـ المترجم). فأجابه:

ستالين. أسلوبهم الأساسي هو المطاردة، التجسس، التسرب إلى النفوس، السخرية ـ ما هو الإيجابي في ذلك؟

لودفيك. لقد خاطرتم وكنتم في خطر، لوحقتم. شاركتم في معارك. عدد من أصدقائكم لقوا حتفهم. أنتم بقيتم على قيد الحياة... هل تؤمنون بالقدر؟

ستالين. كلا، لا أؤمن... فهذا تطير وهراء وخرافة من بقايا الأساطير... كان يمكن أن يكون شخص آخر في مكاني، وكان يجب أن يجلس أحد هنا... أنني لا أؤمن بالغموض(٤٦).

كما نرى، ستالين كان يجيد الإجابة؛ لكن هذا لا يعني أبداً أن إجاباته تعكس قناعاته. وأحد منابع المصائب الإنسانية، بما فيها تلك المتعلقة بعبادة الفرد، لم يكن في **ثنائية** (انفصام) الشخصية. الكلام شيء والعمل شيء آخر. أصبح ذلك قانوناً ستالينياً: تدان القادوية وتعزز، تُنتقد اليسوعية وتمارَس، تُمجد القيادة الجماعية وتمارس القيادة الفردية.

في بداية الثلاثينات ازدادت هواجس ستالين بأن أحداً يريد اغتياله. ألا تفيد جميع التقارير بذلك! كتب له أورليخ منذ فترة قصيرة:

«إلى سكرتير اللجنة المركزية الرفيق ستالين.

في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) من هذا العام، أصدرت الهيئة العسكرية للمحكمة العليا للاتحاد السوفييتي حكماً في قضية مجموعة من الجواسيس والإرهابيين الذين كانوا يعدون لعمل إرهابي في الساحة الحمراء في ١٩٣٥/١١/٧ بتكليف من المانيا. حكم بالإعدام فريمان وشور وبيفزنير وليفينسكي...»(٤٧).

لم يتابع ستالين القراءة، وفكر: «إنهم يريدون اصطيادي». لكنه سيقتلهم من الجذور، أجل من الجذور.

ستالين يحب دراسة الخرائط؛ وهو يستعرض خريطة بلده الشاسع يحس بأهميته. ذات مرة، وهو ينظر إلى الخريطة، اتصل فجأة بفوروشيلوف وسأله: هل تدرَّس الجغرافيا في الجيش الأحمر؟ هل يعرف جنودنا خريطة بلادهم بشكل جيد؟ فالتعامل مع خريطة الوطن ـ أكد ستالين ـ يربّي الفخر به والإخلاص لقضيتنا، لفكرتنا... لم يكن لدى فوروشيلوف جواب جاهز، فميَّع المسألة ووعد بالاهتمام بالموضوع. وفي اليوم التالي حضر له التفويض السياسي تقريراً بذلك. فكتب لستالين:

«الرفيق ستالين.

بناءً على سؤالكم حول تدريس الجغرافيا في الجيش الأحمر، أعلمكم أن الجنود الحمر يدرسون جميعهم الجغرافيا كمادة إلزامية وفقاً لبرنامج خاص. والجغرافيا تدرس أيضاً في دروس التعبئة السياسية ضمن البرنامج التربوي العام، وتعطي أهمية خاصة لدراسة الخرائط. وفي هذا العام أرسل التفويض السياسي

للوحدات، إضافة لما كان لديها، ٢٢٠ ألف خريطة جغرافية، و ١٠ آلاف أطلس جغرافي، و ٨ آلاف خريطة في لغات القوميات، و ١٠ آلاف كرة أرضية.

١٩٣٥/٦/٢٨

فوروشيلوف»(٤٨)

نظر ستالين بعزة إلي الرسالة، ودون أن ينهض عن أريكته، نظر إلى الخريطة. رغم أن الحائط كان بعيداً، إلا أنه ميز على الخريطة مكان ستالينغراد، ستالينو، ستالينسك، ستالين أباد... في نهاية العشرينات لم تخل منطقة من معلم باسم ستالين: مدينة، قرية، كولخوز، معهد، مصنع، مؤسسة... وقد نال بعض المسؤولين الآخرين شيء من هذا التشريف.

تخلّى الناس عن إله السماء وخلقوا إلهاً أرضياً. من أكثر من ساهم ببناء هذا الإله الأرضي هم الثلاثي: مولوتوف، فوروشيلوف وكاغانوفيتش. لكنهم لم يكونوا الوحيدين؛ حتى الذين نكل بهم، كان لهم قبل التنكيل، دور بذلك. راديك (نكل به عام ١٩٣٧) كتب عام ١٩٣٤ كتيباً عن ستالين بعنوان «نحات المجتمع الاشتراكي» على شكل محاضرات في تاريخ انتصار الاشتراكية. وقد كان حلم راديك أن هذا الكتيب سيقرأ عام ١٩٦٧ بمناسبة الذكرى الخمسين لانتصار ثورة اكتوبر. في عام ١٩٦٧! يا للهول! كان راديك يأمل أن ستالين، وهو الذي يحتل منصب الأمين العام منذ ١٩٢٢، سيبقى أميناً عاماً حتى ١٩٦٧: «...ستالين، الذي كان في حياة لينين من أبرز قادة الحزب، أصبح قائده المعترف له والمحبوب...»(٤٩).

زرعوا في عقول الناس أن للثورة قائدين ـ لينين وستالين. ففي مقدمة أعمال لينين كتب إدواردسكي أن أعمال لينين يجب أن تدرس مع أعمال ستالين، الخ، وقبل أن يصل التمجيد أوجه بدأت محاولته لكتابة سيرة ستالين. هنالك رسالة في أرشيف الأمين العام من ياروسلافسكي:

«سيرغو اتصل بي اليوم قبل سفره بأنه تكلم (هكذا في النص ـ المؤلف) معكم بخصوص فكرة بتأليف كتاب «ستالين...»».

جاء رد ستالين على الرسالة نفسها، كالمعتاد:

«للرفيق ياروسلافسكي. أنا ضد. اعتقد أنه لم يحن بعد وقت السِّير.

١٩٣١/٨/١

ي.ستالين»(٥٠)

قد لا يكون وقت السِّير قد حان، ولكنه حان وقت رسائل التمجيد. نشرت الـ «برافدا» رسالة إحدى الكومونات السيبيرية المؤرخة في ١٩٣١/٤/٧:

«...نحن مع خط الحزب العام بقيادة اللجنة المركزية البلشفية واللينينيّ الأفضل ـ الرفيق ستالين! نحن مع تحقيق الخطة الخمسية في أربع سنوات، ومع سحق الكولاك بإنشاء التعاونيات الزراعية في كل مكان...

كليموف، توكماكوف».

وصارت الكولخوزات والمصانع والمعاهد والمؤسسات... تبعث برسائل مماثلة بعد كل اجتماع لها، وفي كل مناسبة. صارت الحياة الاجتماعية تستند على قانونين:

١ ـ قائد الحزب والشعب رجل حكيم جداً. قدرته العقلية تمكنه من الإجابة على أسئلة الحياة في الماضي والحاضر والمستقبل. ستالين هو لينين اليوم.

٢ ـ قائد الحزب والشعب هو مجسد الخير الكامل والاهتمام بكل إنسان. أنه ينفي الشر والجهل والمروق والقسوة. إنه رجل بشارب يبتسم ويحمل طفلة صغيرة في يدها علم أحمر صغير...

وهو يقرأ عن الثورة الفرنسية، توقف ستالين عند محاولة روبسبيير أن يخلق في وعي الناس «المخلوق الأعلى»، ويقصد المواطنية والشعور بالشرف والواجب. فكر ستالين: يا له من أحمق! كان يجب أن يعزز سلطته الشخصية، لا أن يوهم الناس بأشباح ومفاهيم أخلاقية.

العديد من الناس كان ولا يزال يتساءل: كيف وُلدت ظاهرة عبادة الفرد؟ وتتجه أصابع الاتهام عادة إلى فوروشيلوف ومولوتوف وكاغانوفيتش... لكنني اعتقد أنه لو لم يبدأوا هم بذلك لبدأه غيرهم. في تلك الظروف كان لا مناص من ذلك. سر عبادة الفرد لا يكمن في الشخصيات، بل في جوهر النظام بعد وفاة لينين ـ خاصة أنه لم يكن هنالك تجربة أو تراث للدولة الاشتراكية. يضاف إلى ذلك أنه في حالة خطر العدوان الخارجي من الطبيعي أن تقل الديمقراطية. وقد استطاع ستالين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أن يجعل الناس تماهي (تطابق) بينه وبين الاشتراكية. وبالمناسبة، الجميع في الحزب، نظراً لتراث روسيا القيصرية، كانوا يعتقدون أنه بعد لينين يجب أن يأتي شخص مهم و «قائد».

وستالين ـ كما كررنا ذلك من قبل أيضاً ـ استطاع أن يحول الحزب إلى أداة طيعة لسلطته الشخصية. والحزب، الذي كان من المفترض أن يضطلع بالمهام السياسية والايديولوجية للمجتمع، تنطع لكل الأعمال الإدارية، وحل محل الأجهزة والمؤسسات الحكومية؛ فأصبحت السوفييتات لا دور لها. حتى الكومنتيرن (الأممية الشيوعية) فقدت استقلالها وأصبحت مؤسسة من مؤسسات الحزب تروّج لعبادة ستالين. وكذلك قادة الدول البرجوازية فضلوا التعامل مع ستالين على التعامل مع مؤسسات الحزب والدولة.

هكذا نرى أن كل شيء في تلك الفترة، أو تقريباً كل شيء (ما عدا الضمير)، كان لصالح قيصرية ستالين. وهنا لا ننسى العوامل الذاتية المتوفرة فيه: تأكيده الدائم على إخلاصه للينين، تواضعه الاستعراضي، منشؤه. والأهم من كل ذلك، وجوهر المأساة، أن الغالبية من الناس كانت تعتقد أن النهج الستاليني هو الاشتراكية. قلائل في ذلك الوقت من كان يعتقد أن السلطة **المطلقة** فساد **مطلق**.

ليس المهم هنا أن نبحث عن من الذي بدأ ظاهرة عبادة الفرد، ولكن المهم أن نشير أن الناس بدأت بالتملق، ولم يفكروا بحكم الشعب كأساس للاشتراكية يميزها

عن غيرها من الأنظمة. ويمكننا أن نلخص عبادة الفرد بأنها العلاقة المشوهة بين الشعب والسلطة، بين المجتمع والقائد.

كما نرى، فقد بدأت تظهر في شخصية ستالين، الذي تعززت سلطته في الحزب والدولة، ميزات عديدة، نربطها نحن اليوم بمصائب المستقبل. تنبأ لينين بأنه «توجد تفاهات يكون لها دور حاسم». في غضون ذلك كانت البلاد تعيش حالة انتعاش جديدة. فلقد تخلصت في بداية الثلاثينات من الجوع ومن حالة الضياع والمعاناة التي كان يعيشها ملايين الفلاحين. وكانت تتحقق أكثر فأكثر الإنجازات الصناعية والاجتماعية والروحية. وأصبح المؤتمر السابع عشر مرحلة ذات أهمية خاصة في حياة البلاد وحياة ستالين.

«مؤتمر المنتصر»؟

الفترة ما بين العقدين الثاني والثالث من قرننا الحالي كانت صعبة جداً لستالين. بدا وكأن سحق «اليمينيين» في الحزب يعد بحياة اهدأ. نمت هيبة وسلطة الأمين العام. جدّ المعارضون السابقون ـ بمن فيهم بوخارين ـ بإيجاد المبررات والطرق للتعبير عن إخلاصهم لستالين، وعن «موافقتهم التامة على الخط العام للحزب». حاول كامينيف وزينوفيف مراراً إعادة العلاقة «الطيبة» مع ستالين، فزاراه عدة مرات في بيته الريفي بهدف «الصلح».

لم يهتم ستالين بمصالحة زملاء الماضي. انصب اهتمامه في تلك الفترة على الثورة في الاقتصاد الزراعي والقفزة الصناعية، وتعزيز زمرته ونفوذه. حان وقت الدورة العادية لمؤتمر الحزب ـ المؤتمر السابع عشر.

وصفت الصحف الستالينية المؤتمر، الذي انعقد في كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٣٤، بـ«مؤتمر المنتصرين». ستالين نفسه نعت ـ في تقرير اللجنة المركزية ـ انجازات الحزب والبلاد بـ«العظيمة وغير العادية». لقد اطلعت على مسودة ذلك التقرير حيث كان ستالين يركز على الانجازات في كل المجالات معبّراً أن الضحايا التي قدمها الشعب لا بد وأن يكون لها ثمار. وحاول أن يوحي للشعب أن قيادته مثمرة وقادرة ومنتصرة.

ركز ستالين بشكل خاص على أن المنتوجات الصناعية تضاعفت خلال الثلاث سنوات ونصف، بعد المؤتمر السادس عشر، كما خاض في تفاصيل إنشاء الصناعات الجديدة. واحتوى التقرير ـ أكثر من أية مرة سابقة ـ على عدد كبير من الإحصائيات والأرقام في هذا المجال. كان لدى ستالين ما يقوله للحزب.

نحن نعتبر اليوم أن فترة الثلاثينات شهدت أوج الحماس. فرغم قلة الرفاه كان الناس مندفعين للعمل والإنتاج ويعتبرون أنفسهم ليسوا مسؤولين عن مصيرهم فقط، بل وعن مصير البروليتاريا العالمية. كانت وسائل الإعلام وفي مقدمتها الـ «برافدا» تغطي هذا الحماس والإنجاز. وكان ستالين يقرأ الـ «برافدا» بأكملها مؤشراً بقلمه

على ما يعتبره هاماً أو جديراً بالاهتمام. كانت قراءته تلك تملؤه بشعور أنه «السيد الأوحد».

عندما ننظر إلى تلك الفترة نحس بمدى سذاجة الملايين الذين بنوا لنا الأساس الذي نقف عليه اليوم، سذاجتهم بإيمانهم الأعمى باضلولة ستالين. ولكن لا يمكننا إلا أن ننبهر بحماسهم وشعورهم بامتلاكهم المستقبل. يجب علينا ألا ننسى ـ لا الآن ولا في القرن المقبل ـ هؤلاء المبدعين، الذين كان «القائد» يسميهم «الجماهير» وأحياناً ينعتهم بـ «البراغي».

زار ستالين منطقة البحر الأبيض. وبعد زيارته باسبوعين، نشر مجلس مفوضي الشعب قراراً بحفر قناة بين البحر الأبيض وبحر البلطيق باسم ستالين. كما نشر قرار اللجنة التنفيذية المركزية بمنح أوسمة لكل من سيثبت جدارة بمشروع القناة تلك. ومُنح وسام لينين لثمانية أشخاص معظمهم من مسؤولي الأمن[٥١].

سيقول كيروف في المؤتمر السابع عشر:

ـ بناء قناة في تلك المنطقة، وبهذه السرعة، هو عمل بطولي حقاً. وهنا لا يجوز أن نهضم حق مسؤولي جهاز الأمن الذي قاد هذا العمل وحقق معجزة[٥٢].

والحقيقة أن ليس جهاز الأمن هو من حق المعجزة، بل مئات الآلاف من المعتقلين الذين على ظهورهم ستقام مشاريع عديدة أخرى. وفكرة استخدام المعتقلين كأيدي عاملة ليست «انجازاً» ستالينيا حديثاً؛ اذكّر بأن تروتسكي نصح في منتصف العشرينات: «الاشخاص المعادون للدولة يجب أن يرسلوا بشكل جماعي إلى مشاريع بناء الدولة البروليتارية». كما نرى فإن نصيحة أحد «القادة البارزين» لم ينسها «القائد» الآخر.

لكن ما كان لـ «القائد» أن يتكلم بنفس الطريقة عن الاقتصاد الزراعي. اعترف الأمين العام بأن تطوير الزراعة يجري «بشكل ابطأ بكثير من الصناعة» وإن «هذه الفترة بالنسبة للاقتصاد الزراعي لم تكن فترة نهوض سريع وتطور هام بقدر ما كانت فترة وضع أساس لمثل هكذا نهوض وتطور في المستقبل»[٥٣]. وأشار الأمين العام للوضع السيء في قطاع المواشي. ومنذئذ، لمْ تعرف بلادنا أي تحسن في قطاع المواشي!!

في السنوات العشر بعد وفاة لينين انشغل ستالين باستئصال المعارضة، أبقي له ما يفعله؟ اعترف بانعدام المعارضة باستثناء «بقايا ايديولوجيتهم التي تعيش في رؤوس بعض أعضاء الحزب»، وأنه علينا سحقهم. لكن ستالين نادراً ما كان يقاوم الايديولوجيات، بل يقطع رؤوس حامليها. أعلن أن البلاد تتجه نحو إنشاء «مجتمع اشتراكي غير طبقي»؛ ومن ثم استنتج أن تحقيق ذلك ممكن فقط «من خلال تعزيز أجهزة ديكتاتورية البروليتاريا، ومن خلال مفاقمة الصراع الطبقي»[٥٤].

من بين الـ ١٢٢٥ مندوباً للمؤتمر كان عدد من المعارضين السابقين الذين «تابوا» عن «خطاياهم» الصغيرة. في خطابات التوبة ما كانوا يهينون أنفسهم

فحسب، بل كانوا يبنون مجداً لشخص واحد. حتى كيروف قال إن هؤلاء المعارضين السابقين «يحاولون... أن يندمجوا في المهرجان العام وأن يدخلوا في الايقاع والجو العام ويؤيدوا نهوضنا هذا... لنأخذ بوخارين على سبيل المثال. اعتقد أنه كان يغني حسب «النوتة»، لكن صوته كان نشازاً رغم ذلك. ولن أتكلم عن الرفيق ريكوف والرفيق تومسكي»(٥٥).

دعونا نستعرض ما قاله بعض أولئك المعارضين:

بوخارين، «محبوب الحزب» السابق ومنظّره، والذي وصف ستالين بالطاغية الآسيوي وسماه بـ«جنكيز خان»، يقول الآن: «ستالين كان محقاً تماماً عندما استخدم الديالكتيك الماركسي - اللينيني لسحق مجموعة كاملة من بقايا الانحراف اليميني التي كنت أنا المؤسس الأساسي لها... إن من واجب كل عضو في الحزب... أن يلتف حول الرفيق ستالين المجسد لعقل وإرادة الحزب، حول قائد الحزب، حول زعيمه النظري والعملي»(٥٦).

ريكوف، أول رئيس لمجلس مفوضي الشعب بعد لينين: «أود أن أتحدث عن دور الرفيق ستالين في الفترة الأولى بعد وفاة فلاديمير إليتش... عن أنه، كقائد ومنظم انتصاراتنا، أثبتت جدارته بشكل قاطع منذ البداية. أريد أن أتحدث عن السمات التي جعلت الرفيق ستالين آنذاك، وفوراً، يبرز من بين كل القادة الآخرين»(٥٧).

تومسكي، قائد النقابات: «من واجبي أن أعلن أمام الحزب أنه فقط لأن الرفيق ستالين كان الأكثر التزاماً والأكثر لمعاناً بين تلامذة لينين، فقط لأن نظر الرفيق ستالين كان الأثقب والأبعد، لأنه الأكثر استقامة أثناء قيادة الحزب على الخط الصحيح، الخط اللينيني، لأنه عاقبنا بيده القوية، لأنه كان الأكثر تحصيناً نظرياً وعملياً في نضاله ضد المعارضة، ـ هذا ما يفسر التهجمات والافتراءات على الرفيق ستالين»(٥٨).

زينوفييف، الذي أعيد للحزب مهزوماً ومحطماً، الذي كان أول من ذكر مؤسسي الاشتراكية العلمية كما يلي: ماركس ـ انجلز ـ لينين ـ ستالين: «نحن جميعاً نعلم الآن أن النضال الذي قاده الرفيق ستالين بسمو مبدئي مطلق، بسمو مم... في هذا الصراع لم يكن هناك أي موقف شخصي...» اعتبر زينوفييف تقرير ستالين من الروائع، وسماه بـ«التقرير التحفة». وتكلم طويلاً بتأتأة ملحوظة «حول انتصار القيادة»، انتصار **الرجل** (التشديد للمؤلف) الذي يرأس تلك القيادة...». تابع زينوفييف أنه عندما أعيد للحزب أول مرة وجه له ستالين ملاحظة: «إنك مذنب في نظر الحزب ليس لاخطائك المبدئية بقدر ما هو لعدم استقامتك في علاقتك مع الحزب التي تأسست خلال سنوات عديدة» (وهنا هتف الكثيرون من القاعة: «صحيح! ملاحظة دقيقة!»). «نحن نرى الآن كيف تأتي طلائع الكولخوزيين إلى موسكو، إلى الكرملين، يريدون رؤية الرفيق ستالين، يريدون أن يتحسسوه بعيونهم، أو ربما بأيديهم أيضاً، يريدون أن يسمعوا من شفتيه إرشادات مباشرة يحملونها إلى الجماهير»(٥٩).

كامينيف، الذي طالما هزّأ ستالين في المؤتمرات السابقة، مجّد ستالين وهزّأ نفسه: «إن المرحلة التي نعيشها، التي ينعقد بها هذا المؤتمر، هي مرحلة جديدة... ستدخل التاريخ ـ وهذا مما لا شك فيه ـ كمرحلة ستالين، مثلما دخلت المرحلة السابقة التاريخ كمرحلة لينين... أريد أن أقول من على هذه المنصة أنني اعتبر أن ذلك الـ كامينيف الذي صارع الحزب وقيادته ١٩٢٥ ـ ١٩٣٣ جثة سياسية. وإنني أريد أن أتابع السير دون أن أجر خلفي ـ حسب تعبير الإنجيل (اعذروني على ذلك) ـ جلدي القديم... يعيش قائدنا وزعيمنا الرفيق ستالين!»(٦٠).

كان ستالين يستمع لهؤلاء، ولم يكن يعرف أنه بعد سنة سيحولهم إلى جثث حقيقية، ولكنه كان يعرف أن هذه آخر خطبة لكامينيف في اجتماع حزبي كهذا... كفى ليبرالية!

مؤتمر المنتصرين أم **مؤتمر المنتصر**؟! لو كان ستالين يعرف تاريخ روسيا لاسترجع الامبراطور الكسندر الأول. عندما هزم نابليون، اقترح مجلس الشيوخ تلقيب الامبراطور بـ «المبارك» لأنه أنقذ الوطن. رفض الكسندر الأول بأدب، ولكن بقطعية. أما ستالين، فكان ينتظر الألقاب والنعوت. ويبدو أن خيال الناس لم يكن عالياً، ولذلك لم يقترح أحد بتسمية المؤتمر بـ «مؤتمر المنتصر».

على كل الأحوال، حصلت أمور في هذا المؤتمر لأول مرة. خروتشوف وجدانوف أطلقا على ستالين لأول مرة لقب «القائد العبقري»؛ زينوفييف اعتبره من مؤسسي الاشتراكية العلمية؛ كيروف سماه «الاستراتيجي الأعظم لتحرير شغيلي بلدنا والعالم بأكمله»؛ فوروشيلوف قال إن ستالين «تلميذ وصديق لينين» و «حامل سلاحه».

الديمقراطية لا تحتاج لمن يجسدها؛ ربما فكر ستالين: أما ديكتاتورية البروليتاريا، فتحتاج. كل شيء يشهد أن ستالين كان يعتقد أن قائد أول دولة اشتراكية يجب أن يتمتع بصلاحيات غير محدودة.

ملَّ ستالين من ألقاب «الحكيم»، «العبقري»، «العظيم»، «ثاقب النظر»، «الحديدي». وأخذ يستمع باهتمام لمداخلات العسكريين. أدهشه خطاب توخاتشيفسكي البخيل بالألقاب. ها هو يحوم بخياله الواسع حول مشاريع تجديد الجيش. أنه عنيد... تذكر ستالين رسالة توخاتشيفسكي له في بداية الثلاثينات حول ذلك الموضوع. كتب قائد منطقة لينينغراد العسكرية: «في الاجتماع الموسع للمجلس العسكري الثوري للاتحاد السوفييتي قرأ فوروشيلوف رسالتكم حول ملاحظتي بخصوص تجديد الجيش الأحمر. إن تقرير رئاسة أركان الجيش الأحمر الذي اشتمل على ملاحظتي لكم كان دون علمي... الآن، وبعد أن اطلعت عليه، أفهم تماماً ذهولكم لخيالية «حساباتي». لكن يجب علي أن أعلن أنه لا علاقة لذلك التقرير بي أنا. فهو لا يعرض اقتراحاتي بشكل كاريكاتوري فحسب، بل ويعرضها كـ «ملاحظات مجنون»(٦٢).

منذ ذلك الحين وستالين يعلم أن توخاتشيفسكي، وهو يناقش فوروشيلوف، إنما يناقش ستالين نفسه. استاء من استقلاليته ومن تفوقه على مفوض الشعب في الاستشفاف والنظرة للإمام.

أعجبته كلمة فوروشيلوف. فقد اطلع عليها بالأمس. يقول فوروشيلوف: «بما أنه عندنا قائد مجرب حكيم وعظيم مثل ستالينا»، نحن لا نهاب «أي خنزير أو جردل أينما كان...»(٦٢). صدم ستالين لجلافة مفوض الشعب: «حكيم»، «قائد عظيم»، ومن ثم «جردل»...

استمع ستالين أيضاً لخطابات دولوريس ايباروري الاسبانية وغيرها من قادة الأحزاب الشيوعية الأجنبية الذين سموه «قائد البروليتاريا العالمية».

بدا كل شيء شكلياً: انتخاب لجنة مركزية جديدة، ولجنة مراقبة مركزية. وكان قد تقرر مسبقاً من سيكون عضواً في المكتب السياسي. لجنة الانتخابات في آخر أعمالها، تعد الأوراق الأخيرة. وهنا حدث أمر لم يكن متوقعاً أبداً. دخل القاعة كاغانوفيتش ومندوب لجنة الانتخابات زانونسكي بحالة توتر عالية (هذه المعلومات من مذكرات ميكويان). أبلغ كاغانوفيتش ستالين بنتائج الانتخابات: من الـ ١٢٢٥ عضوا صوت ضد كيروف ٣ أعضاء فقط، وأما ضد ستالين فقد صوت ٣٠٠ (!). يا لها من صدمة!

لا أحد يستطيع اليوم أن يؤكد بماذا أجاب ستالين، لكن المعروف أنه تقرر إبقاء ثلاث أوراق ضد ستالين، وأتلفت البقية. رغم أن هؤلاء الـ ٣٠٠ صوت ما كانوا ليؤثروا على دخول ستالين عضوية اللجنة المركزية واحتفاظه بمنصب الأمين العام، إلا أن انتشار خبر هذا العدد ضد ستالين سيقلل من هيبته. فالذين لا يجرؤون على الحديث علانية ضده يجرؤون على التصويت ضده على الأقل.

هكذا، «مؤتمر المنتصرين» عكس التغييرات الكبيرة في المجتمع لصالح البناء الاشتراكي وثبت مطامح «القائد» الدكتاتورية. وبالنسبة لـ «القائد»، باتت ديكتاتورية البروليتاريا ـ وهي أداة البلاشفة والاشتراكيين الثوريين اليساريين لاستلام السلطة في اكتوبر ١٩١٧ ـ الأداة الوحيدة للتفرد بالسلطة. بعد ذلك المؤتمر تغير موقف ستالين من كيروف. صار يعتبره خصماً واقعياً.

ستالين وكيروف

دعونا نعود إلى وقائع المؤتمر السابع عشر، إلى ما قاله ينوكيدزيه: «تمكن الرفيق ستالين من إحاطة نفسه بأفضل الناس في حزبنا؛ تمكن معهم من مناقشة وحل مسائل مختلفة؛ تمكن من أن يخلق من هذه المجموعة قوة جبارة لم يعرف مثلها تاريخ من الأحزاب الثورية...»(٦٣). فعلاً، في تلك السنوات كان لا يزال هناك أناس هامون حول ستالين، ومن ضمنهم كيروف. (رغم أن كلمة «حول» غير دقيقة فيما يخص كيروف الذي كان في ما وراء القفاز ومن ثم في لينينغراد). ولكن

للاسف، قلة من الذين كانو حول ستالين كانوا مثل كيروف.

ستالين لم يكن غبياً. لقد لف حوله الاصدقاء المخلصين، الزملاء الامينين، والأهم من ذلك ـ المنفذين الدقيقين الذين يفهمون ما يريده قبل أن يقوله. لكنه يحاول دائماً أن يقنع «الجمهور» أنه ضد العلاقات المبنية على أساس الإخلاص الشخصي. فعلى سبيل المثال، رد على رسالة عضو الحزب شاتونوفسكي كما يلي:

«إنكم تتحدثون عن «الإخلاص» لي. ربما كانت تلك زلة لسان. ربما... لكن إن لم تكن كذلك، فأنا أنصحكم بالتخلي عن «مبدأ» الإخلاص للأشخاص، لأنه ليس نهجاً بلشفياً. كونوا مخلصين للطبقة العاملة، لحزبها، لدولتها. هذا ضروري وجيد. لكن لا تخلطوا مع الإخلاص لأشخاص الذي هو اختراع تافه وغير ضروري من قبل المثقفين»(٦٤).

هذا كلام ستالين، أما عملياً، فقد أحاط نفسه بمساعدين مخلصين لشخصه لا يسببون له أية متاعب.

توفستوخا يفهمه «على الطائر». فقد كانت تربيته النظرية جيدة، وهو يجيد بلورة الأفكار وملاحظة الأخطاء المبدئية في أي نص. بقيت في أرشيف ستالين ملاحظته لزينوفييف وكامينيف وبوخارين التي يقول فيها: «توفستوخا لا يريد أن يأخذ إجازة. في الملف يوجد اقتراحي حول منحه إجازة فوراً. لكنه لم يقبل إجراء تصويت على ذلك...»(٦٥). وفي حديثه مع توفستوخا، لمح ستالين إلى أن مساعده (توفستوخا) اشتكى لكامينيف من قلة إجازاته. استفز توفستوخا وكتب رسالة رسمية:

«إلى ستالين.

نسخة إلى كامينيف.

أعلن أنني لم أقل أبداً، لا للرفيق كامينيف ولا لغيره، أنني أريد إجازة وأن الرفيق ستالين لا يسمح بذلك.

توفستوخا»

كتب كامينيف على الرسالة مازحاً «للاطلاع المحلي» وعلق:

«أؤكد أن توفستوخا لم يتحدث معي أبداً ولا في أي مكان ولا بأي شكل كان عن الإجازة. بل تحدث فقط عن أنه لو بدأ العمل في اللجنة المركزية أبكر لاستطاع أن يعمل أكثر على لينين (هكذا في النص ـ المؤلف). أرجو أن لا تتهمونني بموت توفستوخا.

كامينيف»(٦٦)

عمل باجانوف، وهو من عائلة مثقفة، فترة قصيرة لدى ستالين. وثق به ستالين واحترمه. لكن يبدو أن باجانوف كان يجيد إخفاء آرائه الحقيقية. تمكن عام

١٩٢٨ من الفرار إلى بلاد فارس ومن ثم إلى بريطانيا حيث اشتراك بالدعاية ضد ستالين ونظامه.

ميخليس الذي عمل في مناصب عدة، أبقاه ستالين مساعداً له لفترة طويلة. لكن أهمية ميخليس لا تكمن في مناصبه بقدر ما تكمن في موقف ستالين نفسه منه. كان واحداً من أولئك الذين يبلغون ستالين «بمعلومات موثوق بها» حول قادة الحزب الآخرين. كان ستالين يكلفه بالأمور الحساسة ويثق به أكثر من الآخرين. ميخليس كان يحسن إيجاد (أو اختراع) «أعداء»، حتى وإن كان من المضحك أن يشك الإنسان بوجودهم... في تموز (يوليو) عام ١٩٣٧، عندما كانت فرقة «الراية الحمراء» للغناء والرقص في الشرق استلم ستالين برقية مشفرة:

«أبلغكم: الوضع في فرقة «الراية الحمراء» للغناء صعب. استنتج: **في الفرقة تعمل مجموعة تجسسية إرهابية** (التشديد للمؤلف). طردت ١٢ شخصاً على عين المكان. أقوم بالتحقيق. تحتوي الفرقة على ضباط سابقين، أبناء كولاك، أناس مضادين للسوفييت. يساعدني في التحقيق مسؤول القسم الخاص. هل أسمح للفرقة بالدخول إلى الوحدات العسكرية؟

ميخليس»(٦٧)

اعتقد أن بوسكريبيشيف هو الذي حاز على أكبر قدر من ثقة «القائد» وتقربه له ومحاباته. يمتاز بقدرة مدهشة على العمل والتنفيذ. وكل المعلومات التي كانت تصل ستالين كان لا بد لها أن تمر من خلاله. لذلك، رغم أنه لم يكن رجلاً قاسياً بطبعه، إلا أن الجميع كانوا يخشونه ويتوددون له؛ فالكثير يعتمد على تعليقه ومتى وأين وكيف تُقدم الأمور لـ «القائد».

كان هؤلاء أناساً مقربين من ستالين، وكانوا من «حاشية البلاط». لكنهم لم يكونوا وحدهم يوافقونه على كل شيء؛ فزملاؤه المقربون ـ مالينكوف، كاغانوفيتش، فوروشيلوف ـ أيضاً كانوا يفعلون ذلك دائماً.

فوروشيلوف يؤيد «القائد» بكل صغيرة وكبيرة. عام ١٩٢٣ البعيد احتاجت عاملة في أحد المصحات، حيث نزل الأمين العام وفوروشيلوف، لشهادة تقدير بخط يد ستالين شخصياً:

«إلى علم المؤسسات السوفييتية والحزبية.

أشهد أن ماريا غيبيروفا، العاملة في مصحة في يسينتوكي، هي عاملة مخلصة للجمهورية السوفييتية وتستحق الثقة التامة.

١٩٢٣/١/١٥

ستالين»

وهنا أضيف: «أوافق تماماً.

فوروشيلوف»(٦٨)

وعندما ألقي القبض على ياكير، المسؤول العسكري البارز، وحكم عليه

بالإعدام، كتب رسالة لستالين يؤكد فيها براءته التامة مما نسب إليه من جرائم. فكان رد ستالين مختصراً: «سافل ومومس». وأضاف فوروشيلوف كالعادة:

«تعريف دقيق للغاية.

فوروشيلوف»(٦٩)

لكن كان من بين زملاء ستالين من استطاعوا المحافظة على سمعتهم الطيبة. وأحد هؤلاء ـ **سيرغي ميرونوفيتش كيروف**، البلشفي اللينيني المنكب بإخلاص على عمله، البسيط، المتعاطف مع الجميع. حيثما عمل كيروف كان الجميع يحب ذلك القائد المتواضع الاجتماعي. وعندما أرسل إلى أذربيجان بتنسيب من لينين، كان يوجد بملفّه: «مستقر من كل النواحي... عامل حيوي... أكثر من مصر في تنفيذ القرارات التي تتخذ. متوازن. ذو لباقة سياسية عالية... صحفي ممتاز... خطيب مفوه من الدرجة الأولى...»(٧٠).

خلال فترة عمله في ما وراء القفقاز ترك أثراً وذكرى ممتازة. بعد المؤتمر الرابع عشر، عندما حاولت «المعارضة الجديدة» أن تتكل على منظمة لينينغراد، أرسلته اللجنة المركزية إلى هناك حيث اختير سكرتير منظمة المدينة والمنطقة معاً. يشهد بومبييف، كاتب سيرة كيروف، إن أوردجينيكيدزيه، صديق كيروف الحميم، كتب لمنظمة منطقة لينينغراد رسالة تثير الاهتمام:

«الاصدقاء الأعزاء.

لقد دفعنا ثمن مشكلتكم غالياً: حُرمنا من الرفيق كيروف. هذه خسارة فادحة بالنسبة لنا، وبالمقابل استلمتم مدداً قوياً. أنا لا أشك أبداً أن مشكلتكم ستحل بعد شهرين فقط. كيروف رجل طيب لا مثيل له، لكنه لا يعرف أحداً سواكم. أنا متأكد أنكم ستحيطونه بثقة وصداقة. أتمنى لكم من القلب النجاح الكامل».

وعلى نفس الرسالة زيدت الملاحظة التالية:

«يا شباب! اهتموا بصديقنا كيروف كما يجب، وإلا سيبقى بلا سكن وبلا طعام...»(٧١).

ستالين يعرف كيروف منذ زمن طويل، منذ اكتوبر ١٩١٧. يصعب التأكيد كيف مال ستالين الجاف البارد إلى كيروف المبتسم دائماً والحيوي باستمرار. أكثر من مرة قضيا إجازتهما معاً، وبينهما صداقة عائلية رغم بعدهما المكاني. كتب ستالين في إحدى رسائله لـ أوردجونيكيدزية يستفسر عن صحة كيروف وسير علاجه (وهذا مدهش: ستالين لم يهتم أبداً بصحة الآخرين).

«عزيزي سيرغو:

...وكيروف ماذا يفعل هناك؟ أيعالج قرحته المعدية بماء «تارزان» (نوع من المياه المعدنية تزيد الحوامض في المعدة ـ المترجم)؟ هكذا قد يقتل نفسه. من الطبيب الشعبي الذي «يستغله»؟...

سلامي لزينة.
سلام من ناديا لكم جميعاً.

المخلص لك،
ستالين
سوتشي: ١٩٢٥/٦/٣٠»[٧٢]

على الأرجح لم يهتم ستالين أبداً بأي حزبي آخر ولم يحب ككيروف. لقد أعجبه ذلك الإنسان البسيط المنفتح. حيث كان يظهر كيروف كان يجتمع حوله الناس. بالمقارنة مع مولوتوف الحجري وكاغانوفيتش المتملق وفوروشيلوف المستعد دائماً لتنفيذ الأوامر، كان كيروف إنساناً ذا عواطف حقيقية وقيم أخلاقيه ثابتة.

كل ديكتاتور له نقاط ضعفه. ونقطة ضعف ستالين كانت في ثقته الحدسية بمجموعة قليلة من الناس: بوسكريبيشيف، ميخليس، مولوتوف، كيروف، وربما اثنين أو ثلاثة آخرين. يصعب علينا تفسير مودته لهم. ستالين كان يحب ابتسامة كيروف ووجهه الروسي المفتوح وعدم خبثه وتفانيه في العمل. سأله ذات مرة، وهو في زيارته في بيته الريفي في أحد الآحاد:

- ما أكثر شيء تحبه يا سيرغي؟
نظر إليه كيروف بدهشة، وأجاب ضاحكاً:
- على البلشفي أن يحب العمل أكثر من زوجته!
- أصر على سؤالي!
- الفكرة - على الأغلب...
- أجاب كيروف.

أشاح ستالين بيده ولم يصر على سؤاله. ما كان ستالين ليفهم كيف يمكن أن «يحب فكرة». هل من الممكن أن كيروف كان يتزلف؟ كلا! فهو يعرف أن كيروف لا يجيد ذلك. كما ويعرف أن كيروف يستطيع التأثير عليه كما لا يستطيع أحد غيره.

استرجع ستالين قضية ريوتين. كان ستالين يعرفه منذ كان جندياً في العشرينات. ثم ترقى وحصل على مناصب عالية، وكان مخلصاً. وبعدها «انتفض». ابلغوا ستالين أنه واحد من الذين هم وراء المنشور السري «إلى كل أعضاء الحزب» الذي يلقب ستالين بالديكتاتور «المعادي للينينية». أصرّ ستالين في المكتب السياسي، ليس فقط على طرد ريوتين من الحزب، بل وعلى إعدامه. كانت تلك أول مرة يحاول فيها ستالين أن يضع حكماً قبل المحكمة. صمت جميع أعضاء المكتب السياسي. وهنا قال كيروف:

- لا يجوز أن نفعل ذلك! ريوتين ليس رجلاً فُقد منه الرجاء، بل هو رجل تائه... ليأخذ الشيطان كل من له يد في تلك الرسالة... لن يفهمنا الناس...

ستالين، لسبب ما، وافق بسرعة. حكم على ريوتين بعشر سنوات، ولقي حتفه

عام ١٩٣٨. لكن ستالين لم ينس: كيروف يستطيع أن يعبر عن رأيه بشجاعة دون أن يأخذ بعين الاعتبار ـ عند الضرورة ـ رأيه هو.

لم يُهدِ ستالين كتبه (مع اهداءات) إلا لعدد قليل من المقربين. حظي كيروف بأفضل إهداء. كتب ستالين على الغلاف الداخلي لكتابه «حول لينين واللينينية» بخط واضح:

«لكيروف.
صديقي وأخي المحبوب ـ من الكاتب.

١٩٢٤/٥/٢٣
ستالين»

وعندما قدم بوستيشيف، رئيس المؤتمر السابع عشر، كيروف ليلقي كلمته، انفجرت القاعة بالتصفيق والهتاف. نهض الجميع. ونهض ستالين! استمر التصفيق طويلاً لـ «محبوب الحزب». على الأرجح إنه الوحيد الذي يحوز على مثل هذا التأييد باستثناء ستالين. كلمة كيروف كانت الألمع والأغنى بالمعلومات. لكنها، ككلمات الآخرين، كانت مليئة بالنعوت التبجيلية والتمجيدية لستالين، بل وربما تفوق على الآخرين في ذلك. وهذا مؤسف جداً. فرصة الضمير، رغم وجودها دائماً، إلا أن استخدامها يحتاج بطولة؛ ولم يقدم عليها أحد من أعضاء المؤتمر بمن فيهم كيروف.

كما نعرف، استاء ستالين من نتائج الانتخابات في المؤتمر. لكنه لم يظهر. بعد ذلك كل شيء سار كما كان مرسوماً له. في الاجتماع العام للجنة المركزية الذي انعقد بعد المؤتمر، اختير كيروف عضواً في المكتب السياسي والمكتب التنظيمي وسكرتيراً للجنة المركزية، مع احتفاظه بموقعه سكرتير منظمة لينينغراد. كان ستالين قد خطط ليكون كيروف بعد المؤتمر في موسكو، لكنه غيّر رأيه الآن.

ازدادت مهام كيروف ومسؤولياته. وازدادت زياراته لموسكو. ستالين، كما في السابق، يتصل به هاتفياً. يدعوه للقائه، يناقش معه بعض المسائل الراهنة. بدا وكأن شيئاً لم يتغير. يدعي البعض أن علاقة ستالين بكيروف فترت، لكننا لم نستطع التأكد من دقة هذا الرأي.

لذلك، فوجيء الجميع بخبر قتله في سمولني يوم ١٩٣٤/١٢/١: «أثبت التحقيق الأولي أن القاتل الشرير للرفيق كيروف هو نيكولايف (ليونيد فاسيليفيتش) المولود عام ١٩٠٤، الموظف السابق في جهاز أمن لينينغراد. التحقيق مستمر»[٧٣].

لم يمض سوى يومين على عودة كيروف ورفاقه من أعضاء اللجنة المركزية الآخرين إلى لينينغراد بعد الاجتماع العام في موسكو حيث اتخذ قرار هام ومفرح: إلغاء نظام البطاقات على الخبز ومأكولات أخرى. تقرر عقد اجتماع لنشطاء الحزب في لينينغراد في ١٩٣٤/١٢/١. حضر كيروف بمزاج مرتاح.

كتب كيروف تقريره، وفي الساعة الرابعة والنصف حضر إلى سمولني. مشى في الرواق، حيى الناس ورد التحيات، وعلق تعليقات عابرة وقصيرة مع البعض. دار

نحو اليسار باتجاه مكتبه. كان يقابله في الممر رجل عادي جداً لا يثير أي اهتمام. عند باب مكتبه أطلق عليه رصاصتين. هرع الناس ليجدوا كيروف ملقى على الأرض والقاتل في حالة هستيرية ولا يزال المسدس بيده...

بعد ساعتين من مقتل كيروف، استقل ستالين ومولوتوف وفوروشيلوف ويوجوف وآخرون قطاراً خاصاً إلى لينينغراد. شتم ستالين حين وصوله ميدفيد، مسؤول الأمن في لينينغراد، وصفعه. نقل ميدفيد ونائبه إلى الشرق الأقصى، وفي عام ١٩٣٧ أعدم. تشير بعض المعلومات إلى أن ستالين بنفسه أجرى أول تحقيق مع نيكولايف بحضور الذين حضروا معه من موسكو.

منذ البداية اكتنف الغموض مقتل كيروف. وقد تطرق خروتشوف في المؤتمر العشرين لذلك: «علينا أن نعلن أن ظروف مقتل كيروف بها غموض كبير، وتتطلب تحقيقاً عميقاً. هناك ما يدعو للشك بأن قاتل كيروف ـ نيكولايف، كان لديه مساعدون من بين من أنيطت بهم حراسة كيروف. قبل الجريمة بشهر ونصف ألقي القبض على نيكولايف نظراً لسلوكه الداعي للشك. لكنه أطلق سراحه حتى دون أن يفتش. ومما يدعو للشك كثيراً هو أن بوريسوف، رجل المخابرات الذي كان يرأس حراسات كيروف الشخصية، لقي حتفه في حادث سيارة في طريقه إلى التحقيق يوم ١٩٣٤/١٢/٢، ولم يتضرر أحد ممن كان معه في السيارة. بعد مقتل كيروف عوقب مسؤولو جهاز الأمن في لينينغراد، لكنهم أعدموا عام ١٩٣٧. يمكننا أن نتوقع أنهم أعدموا كي تمحى آثار منظمي اغتيال كيروف». ألم يحذّر بوريسوف كيروف من إمكانية اغتياله؟ ألم يلقِ القبض على نيكولايف مرتين؟ لكن «أحدهم» أجبره على إطلاق سراحه في المرتين، ومن ثم أزيح بوريسوف كلياً.

في الأرشيفات التي اطلعت عليها، لا يوجد معلومات دقيقة في تفاصيل «قضية كيروف». من الواضح فقط أنه لا علاقة لتروتسكي أو لزينوفييف أو لكامينيف بالموضوع، وذلك عكس ما أكد الإعلام الرسمي في حينه. ولكننا، ولمعرفتنا بخبث وحقد وقساوة ستالين، نستطيع أن نتصور أنه هو وراء اغتيال كيروف. فقد أزيلت ثلاث «شرائح» من الشهود، وذلك من الدلائل غير المباشرة، فتلك هي الطريقة الستالينية في حل القضايا.

في الخارج توجد أدبيات كثيرة تتحدث عن قضية كيروف الغامضة، لكنها بشكل عام لم تخرج عن التوقعات والتحليل، وكتاب نيكولايسكي، الذي أنهى حياته في الولايات المتحدة، ليس استثناءً[٧٤].

محاكمة نيكولايف كانت سريعة للغاية، لم يمض ٢٧ يوماً حتى كان قد أدين بعضويته في منظمة تروتسكية ـ زينوفييفية إرهابية. وكما كان متوقعاً، أعدم كل المتهمين بهذه القضية. لماذا «كما كان متوقعاً»؟ لأن اللجنة التنفيذية المركزية، وبمبادرة من ستالين (وبدون مناقشة الأمر في المكتب السياسي)، وفي نفس يوم مقتل كيروف، اتخذ قرار يغير القانون الجنائي. كان ستالين في عجلة من أمره لدرجة أنهم لم يتمكنوا من عرض القرار على كالينين، رئيس الدولة ورئيس اللجنة التنفيذية المركزية. لذلك وقع القرار ينوكيدزية، سكرتير اللجنة. جاء في القرار:

١ ـ يجب على أقسام التحقيق التعجيل في قضايا المتهمين بالتحضير أو بتنفيذ الأعمال الإرهابية.

٢ ـ يجب على الأجهزة القضائية أن لا تؤجل تنفيذ أحكام الإعدام المتعلقة بهذه الفئة أملاً بصدور عفو لصالحها. إن هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية تعتبر أن هكذا عفو غير مقبول.

٣ ـ يجب على أجهزة مفوضية الشعب للشؤون الداخلية أن ينفذوا أحكام الإعدام بهذه الفئة من المجرمين فوراً بعد صدور الأحكام.

لم ينقض شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٤ حتى كانت مجموعة كبيرة من «المتآمرين» وعلى رأسهم زينوفييف وكامينيف في قفص الاتهام. حكم على زينوفييف بعشر سنوات، وعلى كامينيف بخمس، وعلى الآخرين بأحكام مشابهة. اتُّفق على الأحكام مسبقاً مع ستالين. وعلى الأرجح، كانت هذه هي المرة الأولى التي اعتبُر، رسمياً وعلنياً، كل رأي مخالف للرأي الرسمي جريمة يعاقب عليها القانون الجنائي.

دقَّ مقتل كيروف ناقوس الخطر منذراً ببدء مرحلة رهيبة من الإرهاب. زاد تأثير أجهزة القمع، وزاد عددهم، وزادت صلاحياتهم. تدريجياً، وبقرار من ستالين، سيصبحون مساوين للأجهزة الحزبية، بل وسيتفوقون حيث لا رقابة عليهم. قبل مقتل كيروف عُين عدد من الأشخاص في مناصب هامة في مجال الصراع ضد «أعداء الشعب». كثرت تبليغات المركز عن اكتشاف خلايا لـ «أعداء الشعب»:

«إلى سكرتير اللجنة المركزية، الرفيق ستالين.

يوم ٩ آذار (مارس) من العام الحالي، نظرت الهيئة العسكرية في المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي في لينينغراد، في جلسة مغلقة، وبرئاستي، نظرت بقضية شركاء ليونيد نيكولايف: ميلدا دراوليه، أولغا دراوليه، رومان كولينير.

على سؤالي: لماذا حاولت أن تحصل على بطاقة دخول إلى اجتماع نشطاء الحزب في لينينغراد يوم ١/١٢/١٩٣٤، حيث كان الرفيق كيروف سيقدم تقريراً، أجابت ميلدا دراوليه أنها «كانت تريد مساعدة ليونيد نيكولايف». كيف؟ «كانت الظروف ستحدد ذلك». هكذا، فقد تأكدنا أن المتهمين كانوا يريدون مساعدة نيكولايف في عمله الإرهابي.

حكم على ثلاثتهم بأقصى العقوبة ـ الإعدام رمياً بالرصاص. نفذ الحكم في ليلة العاشر من آذار (مارس).

بانتظار تعليماتكم: هل نزوِّد الصحافة بذلك؟

١١/٣/١٩٣٥
أورليخ»(٧٥)

لسنة أو سنة ونصف قبل اغتيال كيروف، بدأ أحدهم بنشر إشاعات حول علاقة مشبوهة بين كيروف وميلدا دراوليه، زوجة نيكولايف السابقة. كل من يعرف



ستالين وكيروف:
صداقة حميمة منذ أيام الشباب.

كيروف دحض إمكانية هكذا علاقة. لصالح من تلك الإشاعات؟ لا يمكننا أن نستبعد أن أحداً كان يخطط ليجعل نيكولايف يكره كيروف. وعندما بدأ التحقيق أعلن نيكولايف أنه قتل كيروف بهدف الانتقام. لكن سرعان ما «اعترف» أنه قام بذلك بتكليف من مجموعة تروتسكية - زينوفييفية سرية. يبدو أن منظمي عملية الاغتيال استغلوا اسم ميلدا دراوليه ليحفزوا نيكولايف على القتل. وبعد ذلك أصبحت ميلدا وألغا دراوليه تشكلان خطراً، فأزيحتا.

دعم ستالين التوتر الناشىء في البلاد. في منتصف عام ١٩٣٥ نشرت مقابلته مع هيربيرت ويلز. على سؤال الأخير: «ألم تعد دعايتكم «موضة» قديمة لا تتماشى مع العصر، فهي تدعو لاعمال العنف؟» أجاب ستالين:

- الشيوعيون لا يعتبرون العنف وسيلة مثالية أبداً، لكنهم لا يريدون أن يؤخذوا على حين غرة. لا يستطيعون أن يراهنوا على أن النظام القديم سيزول تلقائياً؛ انهم يرون أن النظام القديم يدافع عن نفسه بالقوة. ولذلك يقول الشيوعيون للطبقة العاملة: استعدوا للرد على القوة بالقوة... من بحاجة لقائد جيش يقلل من عزيمة وحماس جيشه؟ لقائد جيش لا يفهم أن العدو لا يستسلم، فعليه أن يجهز عليه؟(٧٦).

رغم كل حب ستالين لكيروف (والحقائق تؤكد أنه كان يحبه فعلاً)، لم يتردد بإزاحة ذلك الرجل الشعبي، الخصم الكامن. وكان مقتل كيروف مبرراً جيداً لحملة

تطهير واسعة. فستالين لم ينس أن ربع أعضاء المؤتمر السابع عشر صوتوا ضده. فكم هم خصومه في جميع أنحاء البلاد؟ قلائل الذين كان يمكن أن يتوقعوا أنه من الـ ١٢٢٥ عضوا سيعتقل ١١٠٨، وأن الجزء الأكبر من هؤلاء سيلقون حتفهم في أقبية ومعتقلات مفوضية الشعب للشؤون الداخلية. من الـ ١٣٩ عضواً وعضواً مرشحاً للجنة المركزية سيعتقل ويعدم ٩٧ شخصاً. وكانت تلك حملة مقصودة لاستئصال «الحرس اللينيني» القديم. وليس صدفة أبداً أن ستالين، في منتصف ١٩٣٥، أيد اقتراح إلغاء لجنة البلاشفة القدامى ولجنة المنفيين والمعتقلين السياسيين (في زمن القيصرية).

كانت تلك فترة بروز بيريا. في منتصف ١٩٣٥ صدر «عمله» «حول تاريخ المنظمات البلشفية في ما وراء القفقاز». تضمن «عمله» ذاك وشاية سياسية مباشرة ببلشفيين بارزين ـ ينوكيدزيه وأوراخيلاشفيلي. حاول الأخير أن يحتج، فبعث لستالين برسالة تحتوي على رده الذي يود نشره في الـ «برافدا». دحض ستالين مقولات أوراخيلاشفيلي عملياً:

«الرفيق أوراخيلاشفيلي.

استلمت رسالتكم.

١ ـ اللجنة المركزية لا تفكر بطرح (ليس لها مبرر لطرح!) مسألة عملكم في «معهد ماركس ـ انجلز ـ لينين». أنتم احتددتم وقررتم، على ما يبدو، طرحها. لا داع لذلك أبداً. ابقوا هناك واعملوا كما في السابق.

٢ـ يفضّل أن تطبعوا «رسالتكم» إلى هيئة تحرير الـ «برافدا». ولكنه ـ حسب رأيي ـ إن نص «الرسالة» غير موفق. لو كنت مكانكم، لحذفت من «الرسالة» كل «الجماليات الجدلية»، كل «الاطناب» زائد (هكذا في النص ـ المترجم) «الاحتجاج الحازم»، ولعرضت كل شيء ببساطة، ولقلت إنه ارتكبت أخطاء (كذا وكذا) فعلاً، لكن تقويم بيريا لهذه الأخطاء مبالغ به وغير مبرر. أو أي شيء من هذا القبيل.

والسلام.

١٩٣٥/٨/٨

ستالين»(٧٧)

البلاد والحزب يقفان على حافة الهاوية. أصبح ذلك الرجل الذي يعبد العنف، ولا يرى في ديكتاتورية البروليتاريا غيره ـ ديكتاتوراً. ربما أطلقوا عليه ألقاباً رائعة: «القائد المحبوب»، «قائد الجيش العبقري»، «النحات الحكيم»، لكن أحداً لم يستطع تمويه جوهر ذلك الديكتاتور الطاغية. ديكتاتورية البروليتاريا، كأحد الأشكال المشوهة لديمقراطية الأغلبية، تحولت أكثر فأكثر إلى ديكتاتورية الديكتاتور وديكتاتورية البيروقراطية. بذور مأساة المستقبل بدأت تبزغ! آنذاك لم يكن أحد يدرك ذلك. ستمضي عقود قبل أن تزاح الغشاوة عن العيون. أما الآن، فعام ١٩٣٤ يوشك على الانتهاء. «مؤتمر المنتصر»... ومن ثم ناقوس بداية الارهاب. قطار المستقبل المأساوي يقترب ولا أحد يوقفه. ربما عام ١٩٣٧ قد بدأ فعلاً، ورغم كل الرزنامات وعلم الفلك، بدأ فعلاً يوم ١٩٣٤/١٢/١!!

المراجع

الفصل الرابع: ديكتاتور؟ أم ديكتاتورية

١ ـ عيد ميلاد ف.إ. أوليانوف ـ لينين الخمسين. موسكو، ١٩٢٠. ص، ١، ١٥، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣١.
٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٣١١٢.
٣ ـ قوانين وقرارات الحكومة العمالية ـ الفلاحية. موسكو، ١٩٢٥. ص، ٣١٣.
٤ ـ هيغل. مؤلفات. المجلد ٧. ص، ١٥٠.
٥ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٣٧٢.
٦ ـ المصدر السابق. ص، ٣٧٦.
٧ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٠. ص، ٣١١.
٨ ـ المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الروسي (بلشفيك). تقرير بالاختزال. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٨. ص، ٩٧٦.
٩ ـ المصدر السابق. ص، ١٠٥٧، ١٠٩١.
١٠ ـ المصدر السابق. ١٣٠٨.
١١ ـ الاقتصاد التخطيطي. ١٩٢٧. العدد ٧. ص، ١١.
١٢ ـ ي.ف. ستالين، مؤلفات. المجلد ١١. ص، ٢، ٤. ٦ ـ ٧.
١٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ١٦٦.
١٤ ـ و. تشرتشل. الحرب العالمية الثانية/ ترجمة من اللغة الانكليزية. موسكو، ١٩٥٥. المجلد ٤. ص، ٤٩٣.
١٥ ـ ي.ف. ستالين. مسائل اللينينية. ص، ٣٤٤.
١٦ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ١٤٩.
١٧ ـ الـ «بلشفيك». ١٩٤٠. العدد ١. ص، ٢.
١٨ ـ ي.ف. ستالين. مسائل اللينينية. ص، ١٩٥.
١٩ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ٣٩٢.
٢٠ ـ المصدر السابق. ص، ٢٤٥.
٢١ ـ تاريخ الاتحاد السوفييتي منذ العصر القديم وحتى يومنا هذا. موسكو، ١٩٦٦. المجلد ٩. الجزء ١. ص، ١٨٩ ـ ١٩٠.
٢٢ ـ Conguest R. The Harvest of Sorrow. London, 1986.
٢٣ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ١.
٢٤ ـ ن. بوخارين. الهجوم/ مجموعة مقالات. موسكو، ١٩٢٤. ص، ٩٨، ٩٩.
٢٥ ـ ن.إ. بوخارين. مؤلفات. ص، ١٣٣.
٢٦ ـ الـ «بلشفيك». ١٩٢٥. العدد ٨. ص، ٦، ١٤.
٢٧ ـ Cohen S. Opt. cit., p. 182.
٢٨ ـ بوخارين. مؤلفات. ص، ١٣٧.
٢٩ ـ بلوتارك. مقالات. ص، ٢٥٩.
٣٠ ـ Cohen S. Opt cit., p. 337.
٣١ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٢. ص، ٦٩.
٣٢ ـ المصدر السابق. ص، ٧٠، ٧٩.
٣٣ ـ المصدر السابق. ص، ١٣٣.
٣٤ ـ النشرة الاشتراكية. ١٩٣١. العدد ٨ (٢٤٥).
٣٥ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٩٨١. ل ٢٥ ـ ٣١.
٣٦ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص، ٤٤١.
٣٧ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
٣٨ ـ المصدر السابق. ص، ٢١٠.

٣٩ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٥. ص، ٦٣.
٤٠ ـ المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (بلشفيك). موسكو ـ لينينغراد، ١٩٣٠. ص، ٣٨.
٤١ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٠. ص، ١٢٨.
٤٢ ـ ف.إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٣٥. ص، ٢٧.
٤٣ ـ النشرة الاشتراكية. ١٩٣١. العدد ٨ (٢٤٥).
٤٤ ـ الأرشيف المركزي الحكومي لثورة اكتوبر. ف ٩٤٩٢. أوب ٢. د ٦.ل ٧٨ ـ ٨١.
٤٥ ـ الأرشيف المركزي الحكومي لثورة اكتوبر. ف ٧٥٢٣. أوب ٦٧. د ١. ل ٥.
٤٦ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ١٠٧، ١١١، ١١٤، ١١٩ ـ ١٢٠.
٤٧ ـ أرشيف المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي. ف ٧٥. أوب ٣٥. د ٣١٩. ل ٢٦.
٤٨ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٧٧٣. ل ١٠٢.
٤٩ ـ ك. راديك. نحات المجتمع الاشتراكي. موسكو، ١٩٣٤. ص، ٢٠.
٥٠ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٥٠٨٨.
٥١ ـ الـ «برافدا». ١٩٥٣/٨/٥.
٥٢ ـ المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (بلشفيك). تقرير بالاختزال. موسكو، ١٩٣٤. ص، ٢٥٥.
٥٣ ـ المصدر السابق. ص، ١٨.
٥٤ ـ المصدر السابق. ص، ٢٨.
٥٥ ـ المصدر السابق. ص، ٢٥٣.
٥٦ ـ المصدر السابق. ص، ١٢٥.
٥٧ ـ المصدر السابق. ص، ٢١١.
٥٨ ـ المصدر السابق. ص، ٢٥٠.
٥٩ ـ المصدر السابق. ص، ٤٩٣، ٤٩٦، ٤٩٧.
٦٠ ـ المصدر السابق. ص، ٥٢١.
٦١ ـ الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧/٩١٨. أوب ٣. د ١٥٥. ل ٨٨.
٦٢ ـ المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي (بلشفيك). ص، ٢٣٥.
٦٣ ـ المصدر السابق. ص، ١١٥.
٦٤ ـ ي.ف. ستالين. مؤلفات. المجلد ١٣. ص، ١٩.
٦٥ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٥٢٢٨. ل ١.
٦٦ ـ المصدر السابق. ل ٢.
٦٧ ـ أرشيف رئاسة الأركان. أوب ١٦. مكتبة ١٧. رف ٩.
٦٨ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٢٥٤٨.
٦٩ ـ المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي. تقرير بالاختزال. موسكو، ١٩٦٢. المجلد ٢. ص، ٤٠٣.
٧٠ ـ نقلاً عن: ي. بومبييف. أريد أن أحيا وأحيا. رواية وثائقية عن س.م. كيروف. موسكو، ١٩٨٧. ص، ٨.
٧١ ـ المصدر السابق. ص، ١٨.
٧٢ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٣٣٣٤.
٧٣ ـ الـ «برافدا». ١٩٣٤/١٢/٣.
٧٤ ـ النشرة الاشتراكية. ١٩٥٦. العدد ١٢.
٧٥ ـ أرشيف المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي. ف ٧٥. أوب ٣٥. د ٣١٩.
٧٦ ـ ي.ف. ستالين. مقابلة مع الكاتب الانكليزي غ. ويلز. موسكو، ١٩٣٥. ص، ١٣، ١٤، ١٦.
٧٧ ـ الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٥٨. أوب ١. د ٣١٧٩.

المحتويات



المؤلف

- ديمتري فولكوغونوف؛
- مستشار الرئيس الروسي بوريس يلتسين.
- عمل في وزارة الخارجية السوفييتية.
- زار البلاد العربية مرات عدة.
- ترجم كتابه هذا إلى الانكليزية والفرنسية والإيطالية.
- سيصدر له عما قريب كتابان، عن لينين، وتروتسكي.

الكتاب

(...) لقد أثبت التاريخ، مراراً، أن جميع محاولات الإنسان في بناء التماثيل وتخليد النفس ليست سوى وهم عقيم وسريع الزوال. فالتاريخ له الحق الكامل في اختيار لون ذكرى الشخصيات.

(...) إن تاريخ روسيا خلال عشرات السنين كان كالطريق المهجور بعد منتصف الليل. الكثير من الشخصيات والأحداث والوقائع التاريخية كأنما وقعت تحت تأثير «قانون إدانة الذاكرة» القديم. غير أن تكتماً كهذا، عاجلاً أم آجلاً، يلفت إلى نفسه الانتباه بصرخة عالية أو حتى غاضبة.

(...) تعيش روسيا في الآونة الأخيرة عملية صعبة تهدف، ليس فقط إلى تهديم النظام التوتاليتاري وبناء مجتمع ديمقراطي، بل وإلى إعادة بناء (ترميم) الماضي. ولعل شخصية ستالين أصبحت تجسّد تلك الفترة التاريخية التي ازداد اهتمام المجتمع بها. أما المديح والهجاء الذي كان من نصيب ستالين، فهو يكفي لفيلق كامل من الشخصيات التاريخية. كما أن عدد المدافعين عن ستالين يقل تدريجاً.

(...) إذا أنعمنا النظر في وجوه الماضي المبهمة لوجدنا أن ستالين واحد من أكثر الشخصيات دموية في التاريخ. وشخصيات كهذه، رغماً عن إرادتنا، تنتمي ليس فقط إلى الماضي، بل إلى الحاضر والمستقبل كذلك. فمصيرها طعم دائم للآراء والتفكير حول الكون والزمن والضمير. ومن دراسة أولية لستالين يمكن الاستنتاج أن حياة ذلك الرجل تسلط الأضواء على جوهر تلك الفترة، الديالكتيكي المعقد. فالتاريخ لا بد وأن يمرّ بطريق متعرّج. وبوصول شخص كستالين لقيادة الحزب، وبالتالي الشعب، تمّت عملية السير في خط التوتاليتارية البيروقراطية الذي اختطّه الحزب بعد انتصار الثورة.

من المقدمة

منشورات:

دار المشرق للطباعة والنشر والتوزيع
قبرص ـ نيقوسيا ـ جادة مكاريوس ـ ٩٢
هاتف: ٣٥٣٤٣٤ فاكس: ٣٥٤٣٤٣

ثمن النسخة ١٠ دولارات أميركية